

أغنية الكلمات المحطّمة
سقوط الرماد

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل :	أغنية الكلمات المَحَطَّمة - سقوط الرماد
اسم المؤلف:	باسل سليم البرعاوي
التدقيق اللغوي:	ريهام مصطفى
تصميم الغلاف:	محمد مجاهد
الإخراج الداخلي:	عمر أسامة
رقم الإيداع:	٢٠٢٤ / ٢٦٠٥٧
الترقيم الدولي:	٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٦٤-٨



شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر



01020439639



massar.pub1@gmail.com

مَسَار
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقياً أو إلكترونياً، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجاناً عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

أغنية الكلمات المحطمة

سقوط الرماد

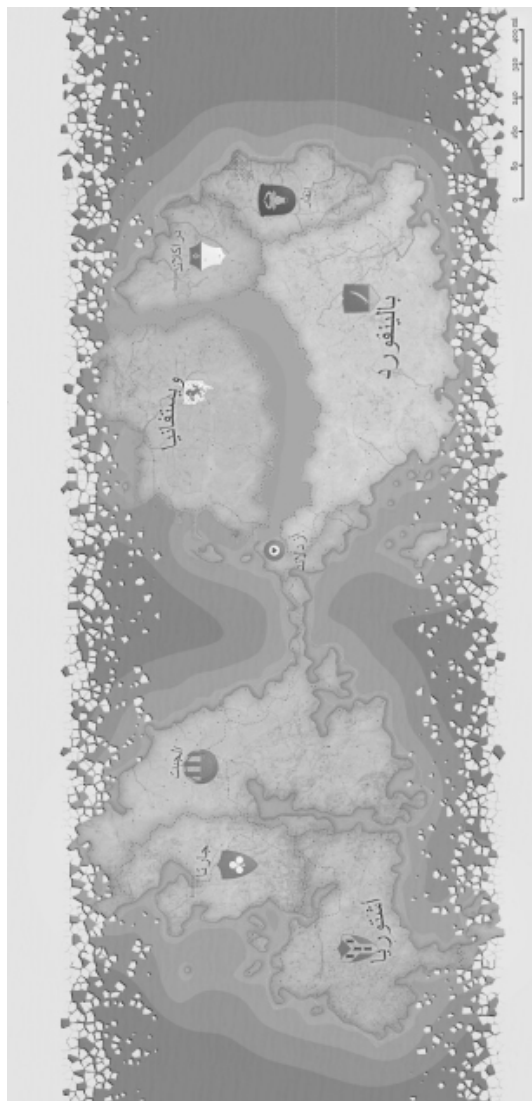
باسل سليم البرعاوي

مَنا
للنشر والتوزيع

إهداء

في كل مرة أحاول فيها كتابة الإهداء تتحطّم الكلمات وتسقطُ
حروف اللّغة.

لا بدّ وأنّك لن تحصلي على إهداءك هذه المرّة!
فمن عظمتك تسقط اللّغة وتتحطّم عند قدميك.
يا ترى، هل سأقن الكلمات المحطّمة وأكتبها هنا؟
أم هل سيحترق الورق عند خطّ اسمك على صفحاته؟
سأبحث عنه، أعدك، ولهذا كتبت هذه الرواية.



تنبيه

هذه الرواية لا تمتّ للواقع بصلة ولا تستند على أي حقائق علمية أو تاريخية. هذه الرواية من وحي الخيال وإن بدت للحظة ما واقعية، لذا وجب التنبيه.

كيف نجت هذه الحكاية من الاندثار

هذا هو أول ما يجب عليك معرفته، فإما أن تترك الكتاب من يدك بعد ذلك أو تستمر في القراءة. فقد قمتُ بسرقة هذا الكتاب! لا تعتقد أنني بشرٌ مثلك، فلو كنت بشراً لكنتُ الآن في طيِّ النسيان بعد أن تمزَّق جسدي لأشلاء لا تُعد ولا تُحصى. لست كائنًا أسطورياً، أنا فقط مختلف عنك.

فأنا هو راوي هذه الحكاية. لن تعرف من أكون الآن، فهذا سيفسد عليك الكثير. لستُ من أبطال الحكاية ولستُ ذلك الراوي الذي يزعم الكتابُ السُدج أنهم يستخدمونه. لقد خاطرت بشيء لا يقوى مخلوق على القيام به، وهو انتزاع هذه الحكاية من سجلات السماء!

غير معقول! معك حق، ذلك لأنك لم تكن موجوداً لتشهد ذلك اليوم، وإلا لسقطت فزعا وسلّمت الروح. لا تقلق أنا لست هنا لأرعبك.

لماذا سرقت هذه الحكاية؟ لأنه آن لها أن ترى للنور.

آن لهذه الحكاية أن تخرج للعلن، إنصافاً لأبطالها الذين عانو الأمرين من أجل بني جنسهم. آن للحكاية التي غفلت عنها سجلات الأرض أن تنزل عليهم من سجلات السماء.

قالب من الكريستال

في قلب مدينة نينورتا كانت تمطر بغزارة. تسلّط البرد القارس على المدينة مصحوباً بعاصفة هوجاء ألزمت الجميع على البقاء في المنزل.

إلا جوزفين. لم تكن جوزفين امرأة عادية في العَقد الرابع من العمر. فقد خرجت إلى الغابة برفقة صولجانها وطائر العندليب على كتفها. بدا وكأن العندليب جزء من جسدها. لم تُفزع الندبة التي امتدّت على وجنتها اليسرى وصولاً إلى رقبتها. لكنها أضافت لها هيبّة في عين من يراها.

واصلت جوزفين عبورها بين الأشجار والنباتات دون اهتمام لملابسها التي توغّل فيها الماء حتى النخاع. استمرت في المشي برفقة العندليب الصامت تبحث عن مبتغاها. لكنها وجدت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

من بعيد سمعت جوزفين صوتاً يُدوّي في السماء. لم يكن هزيم رعدٍ أو صرخة هوجاء لمخلوق أسطوري، مع أنها حصلت على كفايتها من الأساطير والخرافات منذ زمن مضى ولن يعود!

نظرت حولها فلم تجد شيئاً. تابعتُ تقدّمها مستعينة بصولجانها الذي صنعته من خشبٍ أسود! كانت جوزفين امرأة بقلب نقّي سيتحمل ما ستشهده بعد لحظات. لم تكن تمانع أبداً أن تخوض غمار المطر والتراب والوحل من أجل إطعام نفسها وطائرها. لكن لسبب لا تعرف مصدره، كانت تشعر بأنها ستكون الفريسة لا الصياد!

هزّ أركانها صوت اصطدام من خلفها. وكأن شيئاً ما سقط من السماء! شيء خطير ومرعب. فقدت جوزفين توازنها وسقطت وتقلّبت إلى أن عادت إلى حيث بدأت. أعانت نفسها على النهوض لتكتشف عندها أن العندليب قد اختفى.

لا بد وأنه طار عندما سقطت. هذا أفضل.

جهدت في مكانها عندما تذكرت سبب سقوطها. سمعتُ جوزفين صوتاً مدوّياً هزّ أركان

المكان. لم يكن الصوت الذي سمعته صوت سقوط شيء، بل أشبه بصوت هبوط أحد. وهذا الذي هبط خلفها لم يكن بشرياً.

انتبهت جوزفين لصوت خطوات ثقيلة فالتفتت ناحيتها. كان هناك ضوء ذهبي باهتٌ بدأ يتّضح لها. وكأن السماء استمعت لندائها، أثار البرق السماء لتنبئ ما حول جوزفين. استمرت الخطوات بالاقتراب بيننا انحنت النباتات والأشجار يمنة ويسرة لتفسح الطريق للزائر القادم. لقد كان يتوجّه نحوها هي!

ضرب البرق صفحة السماء مجدداً لينير لها المكان ويُرِيها ما أثار الفزع في جسدها وجعل عروقتها تنبض بسيمفونية الخوف والرعدة. انهارت ركبتها فجمت وهي تتأمل أغرب ما قد يواجهه بشر.

كان هناك ديناصور ذو أجنحة معدنية يحّدق بها بعينيه الذهبيتين. تأملها جيداً ولكنه لم يحصل على ما يريد. اقترب منها ليلقي نظرة فاحصة على المرأة الواقعة أمامه. أغلقت جوزفين عينيها بشدة وهي تدعو، عسى أن ينقذها أحدٌ مما هي فيه. قَرَّب الديناصور أنفه الكبير من جسدها ليشم رائحتها. شعرت بأنفاسه على جسدها وهي مغمضة العينين. لسبب ما لم تفكر فيه جوزفين وقتها كانت تنبعث من الديناصور رائحة أعشاب هدأت قلبها المرتاع.

سمعت صوتاً يناديها. "سيدتي... يا سيدتي!"

هدأ قلبها وانتظمت ضرباته.

أجل، لا بد وأني في حلم الآن. هناك من يناديني. عندما أفتح عيني سيكون كل شيء بخير. فتحت عينيها لتجد عين الديناصور العملاقة تحدّق بها عن قرب. ندّت عنها صرخة لإدراكها أن ما هي فيه ليس حلمًا. وهنا قرر أن يستريح قلبها قليلاً فسقطت مغشياً عليها.

أخذ الديناصور يناديها. "سيدتي... يا سيدتي." قام بشم رائحتها وحاول إيقاظها. "آه لا أرجوك. هيا استيقظي أرجوك، لدي الكثير من العمل لأقوم به." قام بوكزها بأنفه مما دفعها للاستيقاظ.

عاجلها الديناصور قبل أن تبدأ جوزفين بالصياح. "لا تخافي، أنا لست هنا لأؤذيك. أنا لا أكل البشر أصلاً، مفهوم؟"

كان الديناصور يتحدث بطلاقة وسلاسة وكأن ما يقوم به هو من باب العادة، دون أن يعير انتباهاً لحقيقة أن وجوده نفسه مما يثير العجب ويحير الألباب.

سألت جوزفين بنبرة ضعيفة. "ما الذي تريده مني؟"

ابتسم الديناصور أخيراً وهو يبعد رأسه الضخم عنها. "الآن ستحدث. هل يمكنني أن أتفحص عينيك؟"

اقتربت منه جوزفين بضع خطوات. هدأ قلبها واسترجع نبضه الطبيعي بعد أن تبادلت الحديث مع هذا الديناصور الغريب. قرّب الديناصور عينه من جوزفين ليتفحص عينها.

"ممم... ندبة على شكل الرعد، عيون رمادية... هل أنت أم؟"

"كلا". أجاب لسانها قبل أن يدرك عقلها ما يحدث.

"هل أنت حامل؟"

"لا".

"هل يمكنك الإنجاب في هذه السن؟"

أشاحت جوزفين بنظرها تفكّر في هذا. "أعتقد أنه لا يزال لدي فرصة في هذا."

عاجلها الديناصور وقد سمع ما يريد. "جيد. إذن أنت هي؟"

باغتتها نبرة صوته الفرحة. "أنا من؟"

أجابها بكل بساطة. "من ستحصل على الطفل."

توقف جسدها عن الحركة مانحاً عقلها الوقت والطاقة الكافية لتدبّر كلمات الديناصور. ألقت نظرة على جسدها ثم على الديناصور قبل أن تتسع عيناها فزعاً للفكرة التي عنت على بالها.

انتبه الديناصور إلى الفكرة التي خطرت على بالها.

هزّ الديناصور رأسه الضخم وسارع بالشرح.

"لا، الأمر ليس كما تظنين."

"إذن كيف؟"

"سأعطيك الطفل الآن."

"ماذا؟ هذا-"

لم تتمكن من إكمال جملتها وهي تشاهد الديناصور يفتح فمه على وسعه ويُخرج لها قالب كريستال. وضع قالب الكريستال أمامها. انفتح القالب كاشفاً عن طفل في الرابعة من عمره. اقتربت جوزفين من القالب والتقطت الطفل. استيقظت غريزة الأمومة فضمّت الطفل لصدرها وغطّته بلباسها لتقيه من المطر.

رأى الديناصور كيف احتضنته جوزفين. "جيد، الآن أستطيع أن أغادر."

همّ بالمغادرة عندما أوقفته.

"هاي، انتظر."

"ماذا؟"

"لماذا تتركه معي؟"

تصعّب التفكير قليلاً ثم أجابها. "لأنك بشرية؟"

كان هذا آخر جواب تتوقعه وأكثره إقناعاً في نفس الوقت. "ماذا؟"

"لأنك امرأة. أنت الوحيدة القادرة على الاعتناء بهذا الطفل."

تراجعت خطوتين للخلف وقد ضمّت الطفل إلى صدرها لا شعورياً. "لا أريد الاعتناء

بأحد."

"لا عليك، فهو طفل جيّد. علّمته كل ما أستطيع. ها قد حان دورك الآن."

أفقدتها المفاجأة القدرة على الكلام. "ماذا؟"

"بالمناسبة. لقد سرقت جزءاً من ذاكرته. قد يتذكر هذا الفتى بعض الأمور المبهمة عني. مهمّتك هي أن تقنعيه بأن كل هذا هو حلم لا أكثر وأنك أنت أمّه الحقيقية. أنت الوحيدة التي يمكنك أن تروّضي هذا البشريّ. خطأً موفّقاً."

ترك الطفل بين ذراعيها وتراجع للخلف. شاهدت جوزفين الديناصور وهو يفرد جناحيه المعدنيين ويرتفع إلى السماء. كان مظهره مهيباً وأوحى لها أنها ليست إلا إحدى محطاته في رحلة طويلة مجهولة الغاية.

نظرت إلى الطفل بين ذراعيها والذي حرّك مشاعرها. شعرت برابطة غريبة وحميمة بينها. أثار ضعفه غريزتها. حملته وركضت به مسرعة إلى منزلها. هناك حيث الدفء والأمان.

هادم الأساطير

عادت جوزفين إلى المنزل ووضعت الطفل في السرير بعد أن جرّده من ثيابه المبتلة. كان جسده بارداً فغطّته ببطانية أخرى وأشعلت النار في المدخنة.

وجدت بين ثيابه خريطة وقطعة من ورق تحتوي سطوراً من لغة غريبة. شهقت لمرآها ونظرت حولها في ترقّب وكأن هناك من يراقبها. طوت الورقة والخريطة ومشت إلى زاوية الغرفة. لفّت الورقة والخريطة في قطعة قماش ودفنتها في الأرض. كان عليها أن تفعل ذلك. وضعت علامة على المكان وتوجّهت نحو النار لتضع حطباً أكثر لتحافظ عليها.

كانت جوزفين تشعر بأنها ارتكبت خطيئة كبيرة، وسوف تُحاسب عليها!

لم تكن جوزفين خائفة مما قرأته في الورقة أو الخريطة، فهي لا تقرأ أصلاً!

أجل. جوزفين لا تجيد القراءة. لا أحد في نينورتا يجيد القراءة!

مضت بضعة أيام ولا يزال الفتى نائماً. أبقت جوزفين في السرير بعد أن ألبسته ملابسه بعد أن جففتها. كانت تتأمل أن توقظه رائحة الطهو في أي وقت، فهو لا بد أن يشعر بالجوع.

مضى أسبوع ولا يزال الطفل في سبات عميق. تابعت السماء إرسالها المطر بلا توقف. كانت وقتها جوزفين نائمة. فقد حلّ الليل ولا يوجد جدوى من بقائها مستيقظة ترابح فتى لم يتحرّك ولو مرة واحدة.

فتحت جوزفين عينيها في اليوم التالي ونظرت أمامها. كان المطر قد توقف وبانت أشعة الشمس من بين الغيوم.

رأت منظرًا جلب الطمأنينة إلى قلبها قبل أن تستوعب حقيقته كاملة. ثم اتسعت عيناها وهي تهبّ واقفة لاستيعابها ما رآته.

لقد كان الفتى واقفاً عند النافذة يتبادل النظر مع العندليب الذي كان يراقبه من الناحية

المقابلة. اقتربت جوزفين من الطفل وربتت على كتفه. أدار وجهه ونظر لها بابتسامة.

"استيقظت أخيراً. أتمنى ألا أكون قد أزعجتك." ثم عاد لينظر إلى العنديل.

راقبت جوزفين الفتى. لقد كان عادياً كأى فتى في عمره. فتحت النافذة ودعت العنديل إلى الدخول. طار العنديل إلى كتف جوزفين. انبهر الفتى بما فعلته.

سألها بدافع من فضوله. "هل يمكنكِ التحدث مع الطيور؟"

هزّت جوزفين كتفها. "لا أعرف. هناك فقط رابط بيني وبين هذا العنديل."

"رائع!"

أخرجت جوزفين بعض الطعام من السلّة. "هل أنت جائع؟"

هز الفتى رأسه.

سألها مشيراً إلى العنديل الذي بقي مستقراً على كتفها. "بالمناسبة، ما اسم الطائر؟"

"ما رأيك أن تعرّفه بنفسك؟" خطر لها أن تعرف اسمه بطريقة غير مباشرة، معرفتها اسمه ستعينها في إقناعه بما قاله لها الديناصور.

تقدّم الفتى من العنديل وانحنى له بأدب بالغ لا بد وأنه تعلّمه من الديناصور في وقت ما.

"مرحباً، أدعى جوهان. سعدت بمعرفتك."

انتظر جوهان رداً من العنديل. لم ينطق العنديل.

حاول جوهان أن يخاطبه لكنه لم يجد رداً من الطائر. استاء جوهان ونظر إلى جوزفين. "لماذا لا يرد عليّ؟"

وضعت جوزفين الطعام على الصينية الخشبية ودعته ليأكل. "لأنه لا يتكلم."

شعر بالخيانة لأنها خدعته. "لماذا خدعتني؟"

نظرت في عينيه. "أنا لم أأخدعك. العندليب لا يتحدث مثلنا. لديه لغته الخاصة."

تحولت نظرة اللوم إلى فضول. "كيف؟"

بدأ العندليب يغني لحنه المعروف استجابة لسؤال جوهان. سكت جوهان في البداية. عندما داعب اللحن العذب أذنيه انفرجت أساريره وابتسم بفرحة غامرة.

دعت جوزفين جوهان إلى تناول الطعام. أكلا وهما يستمعان إلى صوت العندليب وهو يغني. بعد انتهائه من الغناء وجدت جوزفين جوهان واقفاً. كان على وشك الخروج عندما استوقفته.

"إلى أين؟ الجو بارد."

التفت لها وقال بكل تلقائية. "لكن عليّ الخروج."

قالت بحزم حاولت إخفائه لكيلاً تخيف جوهان منها. "لا يمكنك أن تخرج."

التفت لها وفي عينيه نظرة تشي بأن ما تقوله غير معقول. "لكن هناك من ينتظرنني."

"من ينتظرك؟"

قال بكل صدق وعفوية. "أبيلارد."

"من هو أبيلارد؟"

لم يصدق أن هذه المرأة لا تعرف من هو أبيلارد. "أبيلارد هو أبي."

استهجنّت كلامه. "أبوك؟ كيف هذا؟"

"إنه الديناصور الذي ربّاني."

رأى في عين جوزفين نظرة تشي بأن ما يقوله ضرب من الجنون. أغمضت جوزفين عينيها في هدوء وزفرت.

"جوهان، لا يوجد ما يدعى بالديناصورات هنا."

نزلت عليه هذه الجملة كالصاعقة.

"ماذا؟ مستحيل. أبي لا يزال على قيد الحياة."

اقتربت منه لتواجهه. "الديناصور الذي تدعوه أيلارد لم يكن هنا من الأساس."

تراجع بدوره خطوات للخلف ونظرة شك تلوح في عينيه. "لماذا تقولين هذا؟ من أنت؟ أنت لا تعرفين أيلارد."

ابتسمت له بحزن. "أيلارد هذا هو اختراع من خيالك. لقد كنت تحلم."

اهتزّ كيّان جوهان لسماعه أن ما جرى معه كان محض حلم.

صرخ في وجهها. "أنا لا أصدّقك."

اشتدت نبرتها. "لا يجب أن تقول هذا لأُمّك."

"أُمّي؟" توالّت الضربات على قلبه الصغير.

"أجل. أنا هي أُمّك. لقد كنت في غيبوبة منذ ولادتك. لقد كنت تحلم. أنت التقيت بأيلارد خلال حلمك وصدّقت أنه موجود. لا يوجد ديناصور يُدعى أيلارد."

انتفض وصرخ فيها. "هذا كذب. أيلارد هو من ربّاني."

اقتربت منه جوزفين وعانقته، تواسيه من آثار خيانة لا يذكرها. "أعرف أن هذا صعب عليك. لكن والدك توفي وأنت في سن صغيرة. سقطتما معاً من على جرف عال، مات هو وضحي بنفسه لإنقاذك. من وقتها وأنت غائب عن الوعي. هذه هي الحقيقة. انتظرتك كل هذا الوقت لتستيقظ."

سالت دموعاً على خده. لقد كان أيلارد لطيفاً معه. لقد لعب معه وعلمه الكثير عن الحياة.

والآن كل هذا انتهى. أجل فترات حياتنا ليست إلا حلمًا كنا قد عشناه وتمنينا أن نبقي فيه، وقد أدرك جوهان هذا الكلام في سنّ مبكرة، مبكرة جداً...

مضى عامان على ذلك اليوم. عاش فيها جوهان مقتنعاً بأن جوزفين هي أمّه، وتعلّقت جوزفين بابنها الذي لم يلدّه رحمها، لكن قلبها لفظه إلى الحياة. كانت حياتها معاً متواضعة وبسيطة. اختلط جوهان بأبناء مدينة نينورتا وأصبح واحداً منهم.

في إحدى تلك الأيام أصرت جوزفين على البقاء في المنزل. كانت شوارع المدينة فارغة من الناس. كلُّ لزم منزله. استغرب جوهان من هذا الإجراء. ثوان وأتته الإجابة. بدأ المطر بالهطول. نظر جوهان إلى الخارج وعرف السبب.

كان المطر أخضر!

انشغلت عنه جوزفين وهي تنظف المنزل. بقي جوهان مطيعاً في البداية وأخذ يراقب المطر الأخضر وهو يتجمّع على الأرض ويجري في أنحاء المدينة. ثم راوده خاطر غريب. فتح النافذة في غفلة من جوزفين ومدّ يده إلى الخارج. تساقطت قطرات المطر على يده. لم يشعر بشيء!

أغلق جوهان النافذة وتوجّه ناحية الباب. من الداخل سمعت جوزفين الباب يُفتح ففزعت وركضت إلى جوهان لتتفقدّه. أفرعتها حقيقة أن ابنها جوهان خطى خارج المنزل. راقب الجيران من النوافذ الفتى المجنون الذي خرج يسير تحت المطر الأخضر!

صرخت جوزفين وركضت إلى ابنها الذي كانت على وشك أن تفقده. لم تُعر انتباهاً لنفسها أو ما يحدث لها. المهم هو جوهان، ابن قلبها.

احتضنته وغطّته بجسدها. تساقطت قطرات المطر الأخضر عليها. صرخ الناس في فزع يترقبون هلاك الطفل وأمّه...

ثم فتحت جوزفين عينيها. نظرت حولها ورأت أن شيئاً لم يحدث. أفلتها جوهان وراح يمشي ويلعب تحت المطر الأخضر. فتح ذراعيه إلى السماء وهو يضحك ويستمتع بإحساس المطر البارد على جسده. نظر الجميع بمن فيهم جوزفين إلى جوهان وهو يلعب ويضحك وكأنّ المطر لم يؤثر فيه.

ظنّ الجميع أنّ المطر الأخضر يسبّب الجنون لما رأوه من لعب جوهان وضحكه. لكن نظرهم

تغيّرت عندما رأوا جوزفين تقف على قدميها وهي تتأمل يديها. نظرت إلى جسدها ومن ثم إلى السماء. نظرت إلى جوهان الذي كان يركض ويتراقص حولها. أعادت نظرها إلى المراقبين من خلف نوافذهم. دعّتهم إلى الخروج. لم يصدّقوا ما كان يحدث إلى أن خرج رجل من منزله. تبعته عائلته بعدها ليتأكدوا من أن المطر الأخضر لم يؤثر فيهم.

تابع خروج الناس واحداً تلو الآخر تحت المطر الأخضر. وقف جوهان ينظر الى العيون المصوّبة نحوه. لم يعرف لماذا كانت هناك نظرة تبجيل وتقدير لهذا الطفل الذي حطّم لتوّه دون علمه أحد أساطير نينورتا!

لم بدر جوهان أن وصوله إلى نينورتا هو في حد ذاته معجزة. لم بدر حتى أنه كان على موعد مع مواجهة هي أعتى من أي مواجهة. وجوده في حد ذاته زلزل أركان نينورتا، فقد عرف شعبها أن المطر الأخضر ليس له التأثير المذكور... أين؟ أين تم ذكر أن المطر الأخضر له مضارّ وقد يؤدي إلى الموت؟ ما الذي بنى عليه أهل نينورتا هذا المعتقد؟ ومن الذي زرعه فيهم في المقام الأول؟!

كلّ هذا لم يكن يدور في عقل جوهان الذي عاد الى المنزل وبدّل ثيابه المتسخة. في ذلك اليوم وصل الخبر إلى من يحكم نينورتا. كان الحارس يسرد أمامه ما قام به أهل نينورتا، لكن لم تصله فكرة أن جوهان هو السبب، فما دفع الناس للخروج كان جوزفين. احتفظ الحاكم باسم جوزفين في عقله دون أن يُبدي أي رد فعل أمام الحارس. صرف الحارس ونزل إلى قبوه. هناك امتدّت رفوف لا نهاية لها من المخطوطات والكتب والخرائط والمواد التي لا يعرف كنهها إلا هو وحده. كانت عيناه محتقتتان بالدماء وقد اشتعل غضباً لكنه قرر ألا يفعل شيئاً في الوقت الحالي ويترك جوزفين لتوقع بنفسها أمام الملأ.

حينها سينال منها بتهمة الهرطقة!

مضى عام على واقعة المطر الأخضر. نسي فيها الناس ما فعله جوهان ونسوا أيضاً أنهم في يوم ما قد مشوا تحت المطر الأخضر. لقد توقّف المطر الأخضر عن الهطول بعد ذلك.

لم يكن جوهان يلاحظ حالة الاضطراب التي تعرّض لها ساكنوا نينورتا، فقد كان أصغر من أن يدرك ذلك. لم يهتم بالتفاصيل، حاله كحال أي طفل، لكن لا وعيه قرر تسجيل كل ذلك إلى

أن يجد له تفسيراً مقنعاً.

إلى أن تم هدم أسطورة أخرى من أساطير نينورتا، وكان هذا وقتها خطيئة لا تُغتفر.

كان جوهان في إحدى الأيام الخريفية، يمشي في الطريق. كان يحب مراقبة الرجال وهم يتبادلون الحديث في إحدى الحانات المعروفة في نينورتا. كان جوهان يتسلل بهدوء من خلف الحانة ويضع صناديق خشبية فوق بعضها ويصعد عليها ليرى ما يفعلون من النافذة.

لم يكن ما يجذبه ما يشربون، بل أحاديثهم. في تلك الليلة وهو في طريقه إلى الحانة وجد رجلاً عجوز يمشي في الطريق. كان من الواضح أن هذا العجوز غريب عن أرض نينورتا. كان طاعناً في السن ذو لحية خفيفة. انحناء ظهره وكثرة التجاعيد في وجهه وجسده أنبأت جوهان أن هذا الرجل ذو خبرة في الحياة. لسبب لا يعرفه قام جوهان باتباعه فأرأى العجوز يتجه إلى الحانة. كان يمسك بعكازه ليدله على الطريق لا ليستند عليه!

تابع جوهان المشي خلف هذا العجوز برهة من الزمن إلى أن اقتربا من الحانة. توقف العجوز في مكانه فأجفل جوهان.

"إلى متى ستبقى تتبعني أيها الغر؟"

أطبق جوهان يديه على فمه. كان يظن أنه نجح في تتبع العجوز دون أن ينتبه إليه.

التفت العجوز ناحية جوهان. "ما بك؟ أنت لا تحييني."

انتبه وقتها جوهان إلى العجوز ورأى نظرة غريبة في عينيه. لم يكن العجوز ينظر إلى جوهان!

"لا تخف أيها الفتى. أنا لست برجل سيء."

تشجع جوهان وسأله. "من أنت أيها العجوز؟"

ابتسم العجوز. "أنا؟ سؤال صعب."

انتاب جوهان الفضول. "لماذا؟"

"لأنني لست وحدي. أنا أكثر من واحد. إذا أردت معرفتي عليك التعرف عليهم جميعاً."
لم يفهم جوهان ما يقصده العجوز. لكنه انتبه إلى أن العجوز كان يحدّق أمامه في البعيد طيلة الوقت. عرف العجوز من خبرته أن من يتحدث إليه صبيّ صغير، وهكذا أدرك سبب سكوته. ابتسم له بدفء.

"لا تقلق يا فتى. ما تراه صحيح. فأنا لا أرى."

"وكيف رأيتني؟"

"أنا لم أراك."

"إذن كيف عرفت أنني أتبعك؟"

"شعرت بقلبك."

"ماذا؟"

"لديك قلب ينبض، وهذا ما لا أجده في هذه المدينة. لا قلب ينبض هنا. أما أنت فصوت قلبك واضح. نبضك لا يزال حياً."

وضع جوهان يده على قلبه وأحس بنبضه. لم يتألك نفسه. "ما اسمك؟"

قال العجوز بنبرة صادقة. "أنا لست سوى كاذب."

"كاذب!" استغرب جوهان كيف يطلق شخص على نفسه صفة الكذب بفخر!

تابع العجوز. "أجل. لا تستغرب."

لم يمنع جوهان نفسه من طرح السؤال. "لماذا أنت كاذب؟"

"سترى الآن إن بقيت تراقبني." ثم التفت العجوز ودخل إلى الحانة.

توجّه جوهان إلى مكانه المجهود ليراقب الحانة وبالأخصّ العجوز الذي ينعت نفسه بالكاذب.

جلس العجوز بين الرجال بعد أن دخل بكل عفوية وتلقائية. استقبله صاحب الحانة بلطف وأجلسه في مكان قريب منه. بدأ العجوز في التحدث. كان من الواضح على صاحب الحانة الاندماج مع العجوز. تسرّبت جملٌ متفرقة من كلام العجوز إلى مسامع الذين يحيطون به فشَدَّت انتباههم. توقّف الرجال عن الكلام تدريجياً ليسمعوا هذا العجوز الذي ينطق بالعجب. كان من حسن حظ جوهان أن الرجال صمتوا مترقّبين لكلام العجوز، فتمكّن هو من ساعه. رفع العجوز صوته بعد ذلك عن قصد ليصل إلى مسامع جوهان. فما سيقوله العجوز هو إحدى أكاذيبه كما يدّعي.

شرع العجوز في رواية حكايته والتي كانت كالتالي.

في إحدى الأيام خرج أحد الصيادين إلى الطبيعة ليفوز بغنيمة يقتات عليها لبضعة أيام. أغرق هذا الصياد في البحث بين الأشجار والأحراش. ثم بعد أن فقد الأمل قرر العودة إلى بيته. في الطريق عثر الصياد على غزال يجري. كان الصياد متحفزاً فأمسك بالقوس والسهم يريد إصابة الغزال. لكنه لاحظ أن الغزال يهرب من براثن ذئب جائع. لسبب لا يعرفه الصياد لم يقرر منافسة الذئب في طريدته، بل قرر اصطياد الذئب نفسه!

بحركة متمرسة خاطفة استطاع الصياد أن يطلق رمحه لينغرس في صدر الذئب. سقط الذئب لافطاً أنفاسه الأخيرة ليتوقف الغزال عن الجري. أخرج الصياد سهماً آخر ليصطاد الغزال لكنه وجد الغزال يتوجه نحوه. كان الغزال ينظر في عين الرجل بقوة. وكأن الرجل كان يتلقى خطاباً ما، أفلت السهم من يديه وأعاد القوس إلى مكانه.

استدار الغزال وبدأ يمشي ببطء. قام الصياد بالسير وراء الغزال والآخر يقوده إلى مكان ما. بقي يتبعه لفترة إلى أن وصل إلى مرتفع بعيد عن الغابة والأحراش. توقف الصياد من بعيد ينظر للغزال. ظهر وقتها رجل انعكست عليه أشعة شمس الأصيل فأخفت ملامحه. اقترب الرجل من الغزال وربت عليه.

ثم حدث ما انخلع قلب الصياد لرؤيته. رأى الصياد الغزال الذي أنقذه منذ قليل وهو يتحوّل تدريجياً إلى كائن ينتصب على قدمين! رحل الغزال وانتصبت مكانه امرأة. كانت امرأة قَدّة

القوام في أوج جماله. لم ير الصياد لسحرها مثيلاً. أشارت المرأة للصياد بالتقدم منها وهي تقف بجانب الرجل وتخبره بما قام به.

عرف الصياد بعدها أن هذا الرجل هو والدها. دعيا الصياد إلى الانضمام إليها. أحب الصياد المرأة وتزوجها. ومن نسلها أتى صنفٌ من البشر لديهم قلوب تنبض بالحب، وكانت لديهم مقدرة دفينية في أعماقهم لا تظهر إلا في قليل منهم كل ألفية. لكن ما نعرفه أن من صلبها نشأ شعب...

إلى هنا توقفت رواية العجوز، فقد اقتحم المكان جنود الملك ووقفوا أمامه. عرف أن النهاية قد حانت. سأله أحد الرجال عن اسمه وماذا يفعل في نينورتا، فلم يجبه العجوز. انقبض قلب جوهان لم رأى الرجال وهم يجرّون العجوز خارج الحانة بعد أن اتهموه بنشر الأكاذيب والهرطقة! كان جوهان يريد أن يجري خلفهم ويحرّر العجوز، فقط ليعرف ما هي تتمة هذه الكذبة. كانت هذه الكذبة عذبة ونقية أكثر من الحقيقة، فلماذا يعتقلونه إن كان كاذباً؟ خاصة أنه يعرف بأنه يكذب. فهل في كذبه ما يهدد أمن نينورتا؟

عاد جوهان بعدها إلى المنزل بعد عزوفه عن مواجهة الجنود الذين لن يتوانوا عن اعتقاله. تذكّر وقتها أمه جوزفين وعاد للمنزل لينام في أحضانها.

في اليوم التالي استيقظ أهل نينورتا على أصوات الطبول. كانت هذه المرة الأولى التي يسمع فيها جوهان صوت الطبول. سأل جوزفين عنها فأخبرته أن هناك حدثاً مهماً اليوم في المدينة.

من فترة لأخرى تُقرع الطبول. في منتصف النهار اجتمع الناس في الساحة العامة، هناك حيث انتصبت منصّة عليها عمود خشبي مغطى بغطاء قماشٍ. كانت جوزفين مع جوهان بين الحضور، يتربون الحدث المهم.

خرج لهم الملك وألقى خطبة يهدد فيها القاضي والداني من مخالفة قوانين نينورتا والتي شرعها بنفسه. كان لحضوره هيبّة بالرغم من انه كان يرتدي قناعاً ذهبي اللون ليخفي ملامح وجهه. عرف جوهان من جوزفين وقتها أن لا أحد قد رأى وجه الملك من قبل.

شهق الجميع حين التفت الملك وأزال الغطاء القماشي عن العمود ليكشف العجوز الموثوق

إلى العمود بلا حول ولا قوة. كان وجه العجوز يعبر عن الألم فقد أوثقوه بشدة دون أدنى مراعاة لسنه.

غلى الدم في عروق جوهان. شعر الملك بشيء لكنه أخفى شعوره هذا. كان القناع يحجب عن الناس التعبير الذي كسا وجهه للحظة قبل أن يتابع كلامه. مع كل كلمة تخرج من الملك يقذف فيها العجوز بأحقر التهم، تتابع غضب جوهان بالازدياد. انتبهت جوزفين إلى النظرة التي في عين ابنها تجاه الملك. انقبض قلبها فقامت بإغماض عينيه.

حاول جوهان أن يبعد يديها عنه عندما سمع الحكم الصادر عن الملك. فقد كان يأمره الحراس بالإسراع وإشعال النار في العجوز أمام الحاضرين ليكون عبرة لهم!

أبعد جوهان يدي جوزفين بالقوة ونظر إلى العجوز وقد أضرمت النار في القش المتجمّع حوله. بدأت النار تأكل في العجوز ببطء بادئة بقدميه لتنتقل إلى ساقيه وتشقّ طريقها إلى باقي جسده وهو يئن من الألم.

شاهد جوهان كرة النار تتصاعد وتتفاقم إلى أن ابتلعت العجوز. كان الحضور مذهولون من رهبة العقاب الذي لا يرحم. ثبت جوهان نظره إلى عين العجوز.

في تلك اللحظة من بين ألسنة اللهب تحركت عيناه. كاد جوهان يُقسم وقتها أن العجوز نظر إليه بعينين سليميتين! توقف الزمن في تلك اللحظة ليدع لها المجال لتبادل النظرات. كان واثقاً حينها أن العجوز ابتسم له، وقد أبقى هذا سراً بينهما.

بقي الجميع يراقب العجوز إلى أن تحوّلت عظامه رماداً. تابع بعدها الملك خطابه، لكن جوهان لم يأبه به. لم تنتبه جوزفين، والتي هالها المنظر، إلى انسحاب جوهان من جانبها. وحده الملك شاهد الفتى يسير مبتعداً غير آبه لما كان يحصل. توقف الملك عن الحديث ونظر لجوهان. صمت الجميع مما أثار انتباه جوهان. التفت جوهان ونظر في عيني الملك مباشرة.

كان الملك على وشك أن ينطق بشيء عندما شاهد جوزفين تركض ناحية جوهان وهي تبكي. عرفت جوزفين ما كان ينتظر جوهان من حركته هذه فقررت حمايته. احتضنته وهي فرحة أنها

عثرت عليه. انتشر كلام بين الحشد عن الأم التي فقدت ابنها ثم عثرت عليه. كان هول ما حدث كافياً لتذهل الأم عن ابنها للحظات.

عاد الملك إلى خطابه بعد أن شك بأن ما رآه كان مجرد صدفة. أشاح الجميع بوجوههم عن الأم وابنها وتوجهوا ناحية الملك. تابع الملك خطابه بينما انسَلَّت جوزفين مع جوهان إلى المنزل. هناك غلقت الأبواب وتوجهت له تحذره من أن يتحدث.

لم يتمكن جوهان من تمالك أعصابه، فاحتضن جوزفين وشرع في البكاء. ربتت على رأسه وضمته بقوة. من الأفضل أن يعبر عن دواخله بالبكاء في الوقت الراهن.

في اليوم التالي خاضت صراعاً مع جوهان عندما اعترض على ما حدث.

"كيف يعدمون عجزاً لا حول له ولا قوة فقط لأنه كان يخبر حكاية في حانة؟

لكن الرد الذي حصل عليه من جوزفين كان أقسى من الحقيقة.

"لا دخل لنا. انس ما حدث."

بقي ما جرى يسيطر على عقل جوهان لفترة من الزمن. مرّ عام على تلك الحادثة. جوهان في السابعة من عمره الآن. تلك كانت السن المناسبة ليقوم بهدم أسطورة أخرى. أسطورة أكثر رعباً.

مهما كان الوهم كبيراً فستظهر الحقيقة بطريقة أو بأخرى. مهما كنت حانوتياً بارعاً فستجد الحقيقة طريقها إلى السطح لتعبّ من الهواء وتفضح كل شيء.

وهكذا بدأت الحقيقة المدفونة في لا وعي جوهان تتغلب على الوهم الذي زرع فيه. وجد نفسه في يوم من الأيام يمسك بقطعة من الحطب المحترقة ويخطّ بها رسوماً على الحائط. ظهر اللون الأسود لرماد الحطب صارخاً على الجدران البيضاء. ثم بدأ خطّه يتحول تدريجياً إلى أشكال ورموز جوهان وحده عرفها. نظر له المارة بجانب منزله غير عابئين بما يصنع. لكن كانت هناك عينان عرفتا أن ما يفعله جوهان أمر خطير وإن لم تدرك ماهيته!

بعد أن أنهى جوهان الرسم على الحائط ابتعد وتأمّل صنيعه. وقتها عاد المراقب أدراجه ليُعلم

من أرسله بفعلته جوهان.

بدأ جوهان يستخرج من لا وعيه معاني لما رسمه. تأمل الرموز المصطفة بجانب بعضها. لقد كان لها تأثير يشبه السحر. بعد أن شعر بالرضى للإحساس الذي تثيره فيه هذه الرموز التي اصطفت بجانب بعضها لتشكل معنى لا يعرفه إلا جوهان، دخل الى المنزل ليرتاح، راضياً عن فعلته.

بعد قليل عادت جوزفين إلى المنزل حاملة سلّة من الفواكه. سقطت السلّة من يدها وتبعها شهقة ذعر لما رآته. اضطربت وركضت ناحية المنزل. تجاوزت جوهان الذي كان ينتظرها وأسرعت تُخرج دلوّاً من الماء وقطعة قماش. راقب جوهان جوزفين وهي تبذل جهدها لتمسح الرسات والرموز التي كتبها بكل جهد وب عقلية هستيرية، تنظر حولها خوفاً من أن يكون هناك من شاهد هذه الرموز على الحائط. لم ير جوهان أمه خائفة إلى هذا الحد. اضطرب لفرعها وبدأت الدموع تنهمر دون أن يدرك ما حدث. لم يدرك وقتها ان جوهان قد ارتكب أكبر خطيئة في مدينة نينورتا: الكتابة.

سقوط

القراءة والكتابة كانت خطيئة في نينورتا. لم تُكتب أو تُقرأ كلمة واحدة منذ زمن سحيق. كل من وُلد في نينورتا لم يسمع عن الكتابة والقراءة.

لا يوجد في نينورتا كتاب واحد!

نسي الناس معنى الكتب والقراءة والكتابة ولم تُذكر للأجيال التالية. لكن من أين حصل جوهان على معرفته باللغة؟ ومن أين تعلم الكتابة؟ لم يكن هذا السؤال هو ما يقض مضجع الملك، فلم يكن مهتماً بمن علّمه. سيقوم بالتخلص من كل من له علاقة بذلك الفتى الأرعن ليتحقق من أن كل من له صلة بالقراءة من قريب أو من بعيد قد تمّت إبادته، فهو لا يريد للهرطقة أن تجد طريقها إلى مدينته، ليبقى هو حاكمها!

سارعت جوزفين بمحو الكتابة التي خلّفها جوهان وحملت الدلو وألقته على الحائط قبل أن تعود إلى فركه ليعود ذلك البياض الناصع. لكن الألوان قد فات. جرّت جوزفين جوهان من يده إلى داخل الغرفة. كانت تَوْصَب أغراضها استعداداً للرحيل. لم يدرك جوهان حقيقة ما تسبّب به لنفسه ولأمّه. غادرت جوزفين مع جوهان المنزل، ليهربا إلى مكان ناءٍ.

أصدرت الأوامر. مع حلول الليل توجهت مجموعة من الحراس إلى منزل جوزفين. طرّقوا الباب فلم يلقوا جواباً. قاموا بخلع الباب والدخول إلى المنزل. صرخ أحدهم في الجميع أن يبدأوا البحث عنها. وقبل أن يخرج من البيت قام بإضرام النار فيه.

في اليوم التالي خرج المرسوم الملكي بالبحث عن جوزفين وابنها بتهمة الهرطقة وزعزعة أمن المدينة. انتشرت الشائعات عن كونها جاسوسان قادمان من مدينة أخرى لزعزعة أمن البلد. انتشرت شائعات أخرى اثبتت من وسط السكان الخائفين من أن تربطهم علاقة بجوزفين، فأصبحوا يؤلّفون قصصاً تحتاج لمجلدات لسردها، وعقول أصيبت بالجنون لتصديقها.

أمضى جوهان وجوزفين ثلاثة أيام هارين ينتقلان من مكان لمكان إلى أن عثرا على بيت يقع

وسط الأعراس في منطقة نائية. خرج منها رجل تراه جوزفين للمرة الأولى. نظر أمامه فلمح عيون جوزفين تنظر له من خلف الأشجار والنباتات. انتفض لمعرفة هذه العيون، فقد كان يبحث عنها لأيام نسي أن يحصيها.

عرفت جوزفين انه رأى عيونها فقررت الفرار لما رآته من خوف في عينيه. لم تدر جوزفين أن ما طغى على عيون الرجل ليس الخوف بل الدهشة. دهشة ستعرف هي سببها لاحقاً.

همّت جوزفين بالعدو لكن صوت الرجل استوقفها.

"جوزفين."

نظرت خلفها فكان الرجل يعدو نحوها مبتسماً. توقف على بعد مترين منها ودعاها إلى اتباعه. أخبرته أنها مطاردان لكنه لم يأبه لذلك. عرّف نفسه على أنه موريا. لقد سمع عن قصتها لكنه كان يكره الملك فقرر مساعدتها. آواها عنده لبضعة أيام تعرّف فيها على جوزفين وجوهان. لسبب لا يعرفه كان متأكداً من أن جوزفين مألوفة لديه. كان هناك رابط بينهما لا يعرفه. ومن المستحسن ألا يعرفه!

استمرّ موريا في الاعتناء بها لكنه كان أحد قاطني نينورتا ليس أكثر. فقد تمكنوا من الوصول إليه ومعرفة أنه يؤوي جوزفين وجوهان. وفي أحد الأيام خرج موريا من المنزل ولم يعد. حلّ الليل وجوزفين وجوهان ينتظرون عودته.

عندها عرفت جوزفين أن لا أمل في عودته، فقد قبضوا عليه بلا شك. فجأة لاح بذهنها صورة أيلارد. قرّرت وقتها الاعتراف لجوهان. خرجا من المنزل والتفتت له وقد استجمعت كلّ قواها.

كان جوهان ينتظر منها أن تقول شيئاً ما. أمسكته من كتفيه ونظرت له. "اسمعي جيداً يا جوهان. أنت لا تنتمي إلى هنا. أيلارد هو من جلبك. لقد كنت هدية قيمة لي. عليك أن تعتمي بنفسك جيداً."

وقف جوهان مصعوقاً يحاول فهم ما سمعه. كان أيلارد حقيقة وليس خيالاً. ما علّمه إياه

أبيلارد كان حقيقياً. لم يدر جوهن ما عليه أن يفعل. جرّته جوزفين خلفها وهو في حالة من انعدام الشعور. لم يعد يدري ما هو الحقيقي وما هو الخيال. كان ينظر للمرأة التي كانت أمه وهي تجري معه إلى بيتهم الذي استحال رماداً.

تمكنا من الوصول إلى المنزل دون أن يراها أحد. كان الليل ستاراً لهما من الناس ومن حراس القصر. وقفت جوزفين مكانها ذاهلة تنظر إلى المكان الذي كان في يوم من الأيام بيتاً. تأملت ثم تمالكت نفسها. تعرف أنها تستطيع تشييد بيت آخر. المهم هو حياة جوهان.

سارعت إلى كومة الرماد وبدأت تحفر فيها. بقي جوهان يراقبها وهي تحفر بيديها وأظفارها تبحث عن شيء ما.

دعته للانضمام إليها. سألهما عما تبحث عنه. أخبرته أنها دفنت قطعة قياس فيها ورقة وخريطة كانت معه عندما جلبه أبيلارد. ساعه لاسم أبيلارد كان حافظاً ليقفز بنفسه إلى كومة الرماد ويحفر بكل قوته.

استمر بحثهما إلى الفجر. حفرا في كل مكان ولا يزالان لم يعثرا على شيء. كان اهتمامهما منصّباً على العثور على الورقة والخريطة. بعد أن فقدوا الأمل، وجدت جوزفين. سحبت جوزفين قطعة القماش وفي جوفها الورقة والخريطة. توجهت إلى جوهان بابتهاج تحت ضوء الفجر. بدت له جوزفين وكأنها انبعثت من رماد. بدا له وكأن حياته كلها انبعثت من الرماد. حياته الحقيقية!

أعطته الورقة والخريطة وجعلته يدسّها بين ثيابه. ثم سمعت صوتاً قادماً من بعيد. عرفت أنه لا مجال للهروب. فجأة خطر على بالها ما لا يخطر على بال أحد في مكانها. مستجمعة كل قوتها، صوّت ضربة إلى جوهان أفقدته وعيه. جرّته إلى وسط الظلام وهي تبكيه. غطته بالرماد حتى دفنته فلم يظهر منه شيء. كانت تحرص ألا تكوّم الرماد على وجهه حتى يتنفّس.

بقي جوهان غائباً عن الوعي. لم يردموج جوزفين والتي شعرت أنها تدفن ابنها لتنقذه. لم ير الجنود وهم يقتحمون المكان ويجدونها تبكي وسط الرماد. لم يرههم وهم يجرون المسكينة بالقوة لأخذها إلى الملك. بقي مستلقٍ تحت الرماد إلى أن يحين موعد بعثه.

عندما حلّ الليل كان المكان مقفراً. ثم سُمعت خطوات تمشي على أكوام الرماد. اقترب أحدهم من الرماد ونظر من حوله. أصغى السمع برهة من الزمن ثم ابتسم. توجه إلى نقطة معينة وقام بالحفر. أزال الرماد عن جسد جوهان وحمله ومضى مبتعداً ببطء تحت رعاية القمر الذي ينير له الطريق.

لم يعرف وقتها جوهان أنه على ظهر رجل كان يدّعي الكذب في يوم من الأيام... في اليوم التالي فتح جوهان عينيه ليجد نفسه مستنداً إلى شجرة. نظر حوله فرأى العجوز يدخن الغليون ويراقب الشفق الأحمر. همّ جوهان بالنهوض ف شعر بألم في خصرته. للألم ذاكرة لا تمحى. ذكره الألم بما جرى معه فانتفض واقفاً والفرع يملأ قلبه.

قال العجوز دون أن ينظر ناحيته. "اهداً."

لم يتمكن من أن يتمالك نفسه. "لقد قبضوا عليها."

قال العجوز ببرود أعصاب من يعرف الحقيقة. "سوف تخرج."
"لماذا؟"

قال بهدوء. "لأنها لم تقترف ذنباً."

انزل جوهان نظره إلى الأرض. "لقد آوتني."

حينها دعاه العجوز إلى الاقتراب. كانت تعابير العجوز هادئة مما دفع جوهان إلى الاقتراب والجلوس بجانبه. ربّت العجوز على ظهر جوهان وهو يطالع الشفق.

"لا تقلق. أنت لست المشكلة. المشكلة تقبع في الرجل الذي يحكم هذا المكان."
"لكنه أخذها."

"سيطلق سراحها بعد فترة. ستحمل العذاب قليلاً."

قال بنبرة متألّمة. "ستألم بسببي."

"ستألم بسببك إن لم تتركها. أنت لست مستعداً لحمايتها."

سأل بحرقة. "لماذا؟"

"لأنك غير مستعد. أنت لا تعرف شيئاً عن هذا المكان. أنت لا زلت صغيراً."

قال بأمل. "سأكبر."

"لكن ليس هنا. أنت لا تنتمي لهذا المكان."

"من أنت؟"

هنا توقف العجوز عن الحديث. قلب جوهان نظره بين العجوز والشفق الأحمر.

"هذا ما أريده منك الآن. عليك أن تراقب الشفق معي وتنتظر."

قام جوهان من مجلسه في حلق. "أتريدني أن أنتظر وأمي تتعذب وتموت؟"

رد عليه العجوز بنبرة هادئة. "قلت لك لن تموت. إن ما يبحث عنه الملك هو أنت لا هي."

وهي تعرف ذلك.

سأل بعدما شعر بالذنب يأكل روحه. "لماذا فعلت ذلك؟"

أشار له العجوز بالجلوس. "لأنك عزيز عليها. لقد أصبحت تراك كابن لها."

كان الشعور بالذنب يأكل جوهان. "لقد آذيتها."

"يمكنك أن تخلصها."

انفجرت أساريره حينها. "كيف؟"

قال العجوز بكل بساطة. "غادر."

أنكر جوهان جوابه. "ماذا؟ يجب أن أراها."

أنزل العجوز الغليون من فمه وأمسك بيد جوهان. "سأدعك تراها عندما يُطلق سراحها إن

وعدتني بشيء."

قال جوهان بنبرة حماسية. "سأعدك بأي شيء."

أكمل العجوز. "أنك ستغادر بعدها. عليك أن تغادر لتعود عندما تكون قادراً على الإطاحة بالملك."

احتار جوهان فيما سيقوله. لم يكن يعرف أيها أصعب؛ أن يترك جوزفين ويغادر، أم أن يطيح بالملك؟ لكنّه في النهاية استجمع قواه ونظر بحزم إلى العجوز.
"أعدك."

ابتسم العجوز وعاد يصوّب نظره نحو الشفق. "جيد. الآن يمكنك الانتظار معي."
"ماذا عنها؟"

"لا تقلق. جوزفين امرأة قوية وستصمد. عندما يتم الإفراج عنها سنلتقي بها."
لسبب لا يعرفه كان كلام العجوز مطمئناً. تابع جوهان النظر إلى الشفق.
سأله العجوز. "أخبرني، ما الذي تراه؟"

"أرى الشفق الأحمر."

"ألا ترى السماء؟"

"أجل أراها."

"وماذا أيضاً؟"

"هناك بعض الطيور."

"وماذا أيضاً؟"

استمر جوهان بوصف ما يراه إلى العجوز إلى أن ملّ.

حنَّه العجوز. "ما بك؟ استمر."

قال جوهان بعد نفاذ صبر. "انتهيت."

"ماذا عن الدفء؟ ماذا عن الشعور الذي يبثه فيك هذا المشهد؟ أنت لم تندمج معه إلى الآن."

"ماذا تقصد؟"

"ألا تشعر بشيء؟"

هز جوهان رأسه. ثم تذكر أن العجوز لا يرى. "لا أشعر بشيء."

"لماذا تظن ذلك؟"

"لا أعرف."

"إذن هذه هي مهمتك. لا تعد إلى هنا إلى أن تعرف إجابة هذا السؤال."

أخذ جوهان يفكر بالسؤال إلى أن حلَّ الليل. وقتها خلد إلى النوم على أمل أن ير جوزفين.

في تلك الليلة في ناحية مظلمة من مكان سريّ داخل القصر. كانت جوزفين مقيدة بالأغلال والسلاسل.

تلقت جوزفين ألواناً من العذاب تحت نظر الملك. لا داعي لذكر التفاصيل، لأن آثار التعذيب واضحة على جسدها. تسبب لها التعذيب بعرج في ساقها وفقدان بصرها في عيناها اليسرى. لكنها مع ذلك لم تعترف. ملَّ الملك منها فقرر استخدام وسيلة أخرى علَّه يعرف ما تخفيه عنه.

أقرب منها ووضع يده على رأسها. فجأة تحولت عيناها للون الأبيض وغابت عن الوعي. لقد تمكن الملك بطريقة ما من الولوج إلى ذاكرتها. بحث عن كل ما يتعلق بالقراءة والكتابة في ذاكرتها. لم يعنه شيء آخر. كان غافلاً عن حقيقة أن جوهان هو من يقرأ ويكتب وليس جوزفين.

بعد أن لم يجد شيئاً مما كان يتوقعه، عرف أنها كانت محقة. لكنه ليس من السهل أن يدعها وشأنها.

مضى على تعذيب جوزفين ثلاثة أيام كان الهدف منها هو تغيير شخصيتها. لا بد وأن تخرج جوزفين أخرى غير التي دخلت القصر. وهذا ما جرى. بعد مضيّ اليوم الثالث تم إلقاء جوزفين في منطقة تُعتبر مستنقع نينورتا، مكان ناءٍ لا أحد فيه. يقومون بإلقاء جثث من يموتون خلال التعذيب أو من يتم إعدامهم. كانت جوزفين عاجزة عن الحركة.

كان بجانبها يرقد موريا. لقد انتهوا من تعذيبه ونقلوه إلى هذه المقبرة، إن صحَّ التعبير، بعدما تأكدوا من أنه لا يعرف شيئاً. لكن يده اليسرى كانت مقطوعة، فتركوه ينزف للموت. تحركت جوزفين إليه ووجدته لا يزال على قيد الحياة. كل حركة بالنسبة إليها تشكل ألماً لا يُطاق. أمسكت بموريا وحاولت جرّه ولكنها وقعت على الأرض. قوبلت بمحاولتها بأنين تشاركاه، فقد كان كل إنش من جسدهما يتألم بمرارة. بقيت على الأرض وهي تلهث. ثم شعرت بيد تمسك بها وتسحبها بعيداً. كان اليأس قد تمكن منها. أغلقت عينيها واستعدت لتقابل الموت.

فقدت جوزفين وعيها جرّاء العذاب الذي تسبب به الملك عندما احتلَّ عقلها وذكرياتها.

في اليوم التالي فتحت عينيها لتجد نفسها في كوخ موريا. كان موريا راقداً جنبها بذراع مضمدة. نظرت للجهة الأخرى فوجدت جوهان ينظر لها بلهفة. صرخت باسمه بكل فرح متناسية ألماً. اقترب منها واحتضنها برفق خوفاً عليها. احتضنته بكل مشاعرها. أفلتته وأخذت تتفحص جسده لترى إن أصابه مكروه أم لا.

طمأنها أنه بخير وأن عليها أن تترتاح لأنها هي من أصيبت وليس هو. جلس جوهان بجانبها يطعمها العصيدة التي أعدها بإشراف العجوز. حكى لها عما جرى معه ولكنه لم يُخبرها وعده للعجوز. كانت جوزفين مدركة للحقيقة التي يحاول هو تجنبها؛ أنه في يوم من الأيام سيغادر.

استيقظ موريا وقت الأصيل. كان يهذي ويحتاج إلى العناية. كان لدى العجوز أعشاب طبية استخدمتها جوزفين لتعالجه وتخفف من أعراض الهلوسة.

عندما تأكد العجوز من أن جوزفين تستطيع التحرك دون مساعدة أحد، اتخذ وقتها قراره.

"هيا. عليك أن تغادر." قالها بكل هدوء وكأنه أمر حتمي.

اسودّت الدنيا في وجه جوهان ولم يدر ماذا يقول. اقتربت منه جوزفين وهي تعرج. ربتت على كتف جوهان وأمسكت بذقنه لترفع وجهه إلى عينيها.

قالت بابتسامة. "لا تقلق عليّ، سأنتظرك. بقاؤك هنا خطر عليك."

بدأت الدموع بالتساقط من عينيها. دفعته للخروج من الكوخ. لحق جوهان بالعجوز. توقف العجوز أمام الكوخ ناظراً لجوهان. مع أنه كان كفيفاً إلا أن عينيها أخافتا جوهان، فقد بدا أن هذا العجوز يرى أكثر مما يُبدي.

التفت جوهان إلى جوزفين وحضنها. حضنته جوزفين بقوة. أغلق عينيها وتنفس رائحتها. ربت جوزفين على كتفه بحنان. ثم جمدت حركتها. شعر جوهان بجمودها فقد حصل له هذا بالضبط. تجمد الاثنان لشعورهما بالنصل البارد للخنجر الطويل الذي غرسه العجوز في ظهر جوهان ليخترق صدر جوزفين!

تسارعت نبضات قلب جوهان، بينما غفل عن الحقيقة المرة. لم يكن هناك قلب لجوزفين. أمسكت به جوزفين بحنان الأم بعد أن تبدلت نظرتها. نظرت في الأفق متجاوزة نظرة العجوز الذي بدأ يتلو تعويذة بسوط منخفض.

"لا تقلق يا عزيزي. مكانك ليس هنا."

"أمي. ستموتين."

"يجب أن ترحل. لا حلّ آخر."

"هل ستعيشين إن رحلت؟"

"أجل. سأنتظرك هنا. ستعود يوماً ما. أنا أعرف ذلك."

"لكن-"

قاطعته بحنان. كان بحاجة لسماع صوتها أكثر من أي شيء آخر.

"أنا أعرف. أعرف كل ما تريد قوله." تبدلت شخصية جوزفين ولا يزال العجوز يتلو

تعويذته. "سأكون بخير. عليك أن تمضي الآن. اتبع خريطتك إلى أن تصل إلى بالينفورد. عندما تصل، ابحث عن جوليارد. إنه أخي. يمكنه مساعدتك. عليك أن تعثر عليه. أخبره أنني أسامحه. أخبره أن لا ذنب له فيما حصل. أخبره أنني لا زلت أحبه."

"حاضر."

"أتعدني؟"

قالها من بين دموعه التي لا علاقة لها بالألم الذي أخذ يستشري في جسده. "أعدك."

قَبِلَتْ جوزفين جبينه قبل أن يظلم الكون من حوله. شعر جوهان بنفسه تسقط في هاوية سحيقة. تحولت روحه لكرة من النور. سقطت كرة النور من السماء إلى الأرض. واستقرت في صدر فتى لم يتجاوز السابعة من العمر. فتح الفتى عينيه واستيقظ. نظر من حوله فوجد نفسه في ارض تخلو من المارة. لم يكن هذا ما شدد انتباهه. نظر إلى الأعلى بتلقائية. كان المظهر مهيباً. رأى بوابة حجرية هائلة الحجم في كبد السماء! شاهد الفتى البوابة تُغلق ببطء. ومن ثم اختفت وكأنها لم توجد!

الماء والحليب

وقف جوهان بضع دقائق يتأمل السماء. ما شاهده الفتى كان أعقد مما يمكنه أن يستوعبه. سبق وأخبره أيلارد عن وجود ظواهر خارقة وغريبة، وكأن وجود أيلارد نفسه ليس أمراً خارقاً! وما قد شاهد جوهان بنفسه إحدى تلك الظواهر التي لا يجب عليه أن يتحدث عنها لأحد.

نظر جوهان حوله ورأى أنه في أرض لا ناس فيها. تذكر كلام جوزفين بغصة ألم خرجت من صدره ليحسها في عينيه. أخبرته أن عليه أن يصل إلى بالينفورد حيث سيجد أخاها جولارد. وجد جوهان الأمل في هذه الكلمات. لقد كان واثقاً، بسذاجة الأطفال، من أن جولارد سيساعد أخته لا محالة. كل ما كان على عاتق جوهان هو الوصول إلى جولارد وإخباره أن جوزفين تنتظره في نينورتا وأن عليه أن يساعدها في الخروج.

دسّ جوهان يده في جيبه وأخرج الورقة والخريطة. طوى الورقة، أعادها إلى ثيابه ومن ثم فتح الخريطة. كانت خريطة قديمة وتفصيلية تشير إلى البلاد بشكل مفصل. لقد كانت تحتوي على مواقع النجوم والاتجاهات ليستدل بها أي شخص على الاتجاهات. نظر جوهان حوله وبدأ يقارن المكان الذي يعرفه بالخريطة. لقد بدأ لا وعيه يستعيد بعضاً من المهارات التي أتقنها على يد أيلارد. عرف طبيعة المكان الذي كان فيه وقرّر السير. كان هدفه أن يصل إلى طريق معبّدة ليلتقي بأحدٍ يساعده. كان يشعر بطيف جوزفين يحميه ويعينه. كان يستعين بطيفها ليتنصر على المخاوف التي حاولت اقتحامه.

مشى جوهان طويلاً إلى أن ألمته قدماه. ليس معه إلا خريطة وورقة مكتوب عليه نصّ لم يُجد قراءته. لم يكن يشعر بالجوع والعطش وهو يمشي على الأرض الغير معبّدة. كان فقط يشعر بقدميه وهو يحثهما على المضي. تحوّل جسده كله إلى مجرّد قدمين تتابع المسير إلى أن يجد طريقاً معبّداً.

شارفت الشمس على الغروب. أصابه التعب ولكنه أبى إلا أن يستمر. من بعيد لمح ظلاً لجسد يقترب. اقترب الظل من مكانٍ قرب صخرةٍ واختبأ خلفها. بسذاجته الطفولية قرّر جوهان

أن يقترب من هذا الظل، فقد عرف أن هناك أحد غيره في الأرجاء.

اقترب من الصخرة ونادى على الظل.

"أعرف أنك هنا. هيا أخرج." قالها بفرح وقد عثر أخيراً عمن يخاطبه.

لا جواب.

سمع صوتاً خفيضاً فعرف أن هناك أحد على الطرف الآخر من الصخرة.

انتظر جوهان بعض الوقت. ثم أعاد المحاولة. لم يأتيه جواب. ظنّ في البداية أنه كان يتوهم، لكنّه أبى الاعتراف بذلك. بعد أن انتظر بعض الوقت، قرّر مواجهة الشخص الواقف وراء الصخرة. التفت حول الصخرة واقتحم عزلة الشخص الواقف خلفها. وجد جوهان نفسه أمام فتاة تهبّل التراب على شيء ما وترت عليه بقدمها. رفعت الفتاة عينيها عن كومة التراب بعد أن انتهت بنظرة راضية لتلتقي عينيها بعني جوهان. ابتسم لها جوهان فرحاً بعثوره عليها. انتفضت عندما رأيته وكأنه عفريت ظهر من العدم. صرخت في وجهه. ارتبك جوهان ولم يدر ما يفعل. هربت الفتاة لتختبئ خلف الصخرة. خاف أن يفقدها فتبعها.

فجأة رأى لكمة متجهة إلى وجهه. أظلمت الدنيا لثوان قبل أن يجد نفسه على الأرض وهي تقف فوقه. كانت توجه سبابتها إلى أنفه وتحذّثه بلغة لا يفهمها في تهديد واضح. تجاهل جوهان ألم أنفه وظهرت علامات الاستغراب على وجهه. لم يفهم جوهان حرفاً مما قالت الفتاة. انتهت الفتاة إلى نظراته فتوقفت عن الكلام. تراجعت بضع خطوات لتسمح له بالوقوف. تأملته فوجدت أنها لكمت فتى مسكين أشعث أغبر من أثر المسير لوحده. كان بالكاد يقف على قدميه.

شعرت بالندم لما فعلته. نظرة واحدة كانت كافية لتعرف أن الفتى الذي أمامها يصغرها بعشرة أعوام على الأقل. حاولت التحدث معه لكن بلا فائدة. سمعت صوتاً غير مفهوم المعالم يخرج من فمه فعرفت أنه لا يجيد الكلام، لكنه ليس بأبكم.

أطرت تفكّر لبرهة من الوقت وهي تتأمله. ثم لمعت عيناها وقد توصّلت إلى ما تريد. مدّت الفتاة يدها له فوقف جوهان حائراً لا يدري ماذا يفعل. أوماً بعدها وأمسك بيدها بعد أن قرر

أن يثق بها. قاده خلفها. تبعها بتسليم كما كان يتبع جوزفين. كانت النساء في نظره هن جوزفين وحدها والآباء هم فقط أبيلارد.

مضى معها إلى حيث أرادت بينما قررت الشمس أن تحجب أغلب نورها عن المنطقة.

على بعد كيلومتر من مكان لقاء جوهان بالفتاة كانت هناك قافلة قد حطت رحالها وقررت التخييم في هذه النقطة على الطريق إلى حين بزوغ الفجر. لم تكن قافلة كبيرة، كانوا عبارة عن ثلاثين شخصاً ما بين رجال ونساء وشيوخ وأطفال. كانوا يرتدون الملابس نفسها وكأنها الزي الذي يميزهم. الرجال يرتدون سراويل بنّية مع قميص أبيض وحذاء بنيّ. يزين رؤوسهم قبعات قش وعلى صدورهم أطواق من خشب. أما النساء فلباسهن الفساتين التي تتراوح ما بين الأبيض والبنيّ، وقد تركز الألوان الأخرى لأزياء الاستعراض التي يحتفظن بها مع الطعام والشراب في عربات خشبية تجرّها الخيول. كان للقافلة ست عربات، يجر كل عربة حصانان. كانت الأحصنة مربوطة إلى أشجار قرب الطريق.

جلس الرجال يتسامرون ويشربون حاجتهم من الماء حول النار. بينما تجلس النساء حول نار أخرى يُعددن طعام العشاء.

استفقدت فتاة في العشرين من عمرها عن ناردين. لاحظن وقتها أن ناردين قد غابت لوقت أطول من اللازم. ازداد قلق والده ناردين فتركت الأطباق الخشبية وتوجّهت إلى حلقة الرجال لتخبر زوجها أن ابنته لم تُعد بعد. قام الأب من مكانه وأخذ ينظر في الاتجاه الذي غابت فيه ابنته. طمأنها بأن ناردين فتاة عاقلة وقد تكون ابتعدت أكثر من اللازم، لكنها ستعود. همّت والدّة ناردين بالاعتراض لكن أحد الشباب استوقفها مشيراً إلى ناردين التي أخذت تقترب من بعيد.

مع اقتراب ناردين من القافلة أكثر، ظهر إلى يسارها ظلٌ فتى آخر. انتظر الجمع ناردين تقترب منهم بينما استمرّت الفتيات بتحضير الطعام. عندما اقتربت ناردين أكثر، صاح أحد الرجال أن هناك أحد آخر برفقة ناردين.

اتسعت عينا الرجل دهشة عندما رأى ابنته وقد عادت وفي يدها فتى مجهول الهوية.

مازحه أخوه وهو يربّت على كتفه. "ما هذا؟ هل ذهبت لتقضي حاجتها أم لتضع مولوداً؟"
أثارت مزحته ضحك بعض الشباب الجالسين. لكن والدها كان يشعر بشيء غريب. لوهلة
بدأ له وكأنّ جوهان يشبه شخصاً يعرفه!

اقتربت ناردين من القافلة وحيّت النساء، ثم انتقلت إلى الرجال وأقبلت على والدها. قبّلت
يديه وجبينه وهو ينظر لها في استغراب. سألتها عن الفتى الغريب فأخبرتهم أنه فتى تائه ولا مجال
لتركه في هذه الأرض. تأمل جون، والد ناردين، الفتى جوهان وهو بحالته تلك. صرف جون
ناردين بعد أن أثنت على فعلتها. فليست من عادات الغجر ترك التائهين بلا مساعدة.

ظلّ نظر جوهان معلقاً بناردين وكأنها أمله في الحياة. اقترب جون من جوهان وربت على
كتفه. انتفض جوهان ونظر إلى جون. لم ينتبه إلى اقتراب جون منه لأنه كان يتابع ناردين بأمل.
رقّ جون لحال جوهان وقد تأمل حالته المزرية. ابتسم ومسح على شعره بيده. أثارت هذه الحركة
مشاعر الاثنين. شعر جوهان بالأمان بوجود رجل قويّ كجون. جون كان قائد قافلة الغجر
تلك. كان رجلاً في منتصف العمر، جسده مليء بالعضلات المتناسقة وفي عينيه العسليتين نظرة
أعمق من أي شيء.

حاول جون التحدث مع جوهان. ظهرت على وجه جوهان علامة عدم الفهم. انتبه جون
أن جوهان لم يفهمه فقام بتغيير اللغة التي يتحدث بها. قام بتغيير أربع لغات وهو يتحدث مع
جوهان علّه يصل إلى لغة تواصل.

عندما لم يجد جون رداً من جوهان، التفت إلى رفيقه وسأل إن كان أحدهم يجيد لغة قد يفهمها
الفتى. اقترب منهم باتريك وهو أحد الغجر الذي انضم إليهم مؤخراً. كان شاباً في الربيع الثالث
من العمر. تحدّث مع جوهان ببضعة لغات إلى أن فهم جوهان ما قاله. بادره جوهان بالحديث
معرفاً بنفسه. فرح الشاب لمعرفة اللغة التي يتحدث بها جوهان والتفت إلى الرفاق ينبههم بالخبر
السار.

فقد عثروا على فتى يتحدث الباليينية وهي لغة أهل بالينفورد! اقتربوا منه وهم يتعجبون من
وجوده في هذا المكان، على بعد مئة وخمسة وسبعين ميلاً من بالينفورد!

تابع باتريك الحديث مع جوهان والترجمة لهم.

"ما اسمك؟"

"اسمي جوهان."

"إلى أين أنت ذاهب؟"

فكر جوهان بما سيقوله. عليه أن يقول الحقيقة، فقد يساعدونه.

"أنا أريد أن أذهب إلى بالينفورد."

اتسعت عينا باتريك من المفاجأة. ثم مال على جوهان الذي اضطرب لتعبير وجه باتريك.

"نحن ذاهبون إلى بالينفورد أيضاً."

عرض عليه براءة. "هل يمكنني أن آتي معكم؟"

تصنّع باتريك التفكير أمام جوهان. ثم ابتسم عندما لاحظ توتر الطفل. "سنأخذك معنا."

انفجرت أسارير جوهان.

عاجله باتريك بالسؤال. "هل تعرف من نحن؟"

هزّ جوهان رأسه وقد اعتراه شعور بالذنب.

ابتسم له باتريك مجدداً. "لا بأس. ستتعرف علينا الآن. نحن من ندعى بالغجر. نحن رحالة

ومؤدّو عروض. ستقضي وقتاً ممتعاً معنا. لكن هناك ما يجب أن تفعله في البداية."

"سأفعل أي شيء."

"يبدو أنك فتى طيّب القلب وتصدق الناس بسرعة. من الجيد أننا أول من عثر عليك.

انتظرنى هنا."

التفت باتريك وقد غيّر من لغته ليخاطبهم. عرّف عن جوهان وشرح لهم الأمر. نظر الجميع

إلى جوهان ببسمة رضا بثّت الدفء في قلب برّده الخوف.

اقترب جوهان من الرجال وانحنى لهم. كانت هذه إحدى العادات التي علّمه إياها أيلارد. استقام ليجد جون يقترب منه حاملاً كوين. قرب جون الكوين من جوهان وانتظره ليقرر.

نظر جوهان إلى الكوين. أحدهما يحتوي الماء والآخر يحتوي الحليب. لم يكن جوهان على علم بعادات العجبر. فقد جرت العادة على تقديم الحليب والماء للزائر الجديد ليعرفوا قراره. إن اختار الحليب، يبقى معهم ليصل إلى وجهته ثم يفارقهم، وإن اختار الماء، عرضو عليه الحليب والماء معاً. هكذا يُصبح له الخيار في البقاء معهم إلى الأبد كأخ لهم وينضم إلى العجبر، أو أن يفارقهم دون إكراه بعد فترة من الزمن.

اختار جوهان الماء. التقط كوب الماء وتجرعه مرة واحدة. عندما انتهى رأى جون وقد التفت إلى الجمع وحياهم وقد انتشر الفرح على وجوههم. لم يفهم جوهان كيف أثار شربه لكأس الماء كل هذه الفرحة؟ لكن قلبه اطمأن ليجد جون يقدم له كوب الحليب أيضاً. كان الجميع واثقاً بنتيجة الاختبار لأن جوهان لا يعرف شيئاً عن العجبر، عدا عن عدم معرفته بلغتهم من الأساس. مدّ جوهان يده وشرب كوب الحليب. عرف وقتها مذاقاً مألوفاً لديه. استغرب طعمه الدافئ ولكنه وجد فيه قوة عجيبة، وكأنه كان بحاجة للحليب أكثر من الماء نفسه!

عاد باتريك إلى جوهان وشرح له كل شيء باللغة البالينية. فهم جوهان حركتهم وانحنى لهم وعزّف بنفسه. كان باتريك فرحاً لكونه مترجماً. لكنه لن يبقى المترجم الوحيد.

انتحى جون بباتريك واتفق معه على شيء لم يعرف جوهان كنهه. لكنه بدا أمراً مهماً جداً.

أرعى الليل سدوله وتجمّع الرجال حول الطعام. سحب باتريك جوهان من يده وأسلمه إلى ناردين التي قادته لوسط النساء مع الفتية والفتيات من عمره، كانت تبدو على وجهها فرحة صافية وهي تنظر له بنظرات لم يرها إلا في عيني جوزفين!

ناولته ناردين طبق طعام خشبيّ وأجلسته بجانبها. بدأت تتناول الطعام فأصبح يقلدها. يأكل كما تأكل بالضبط. بعد أن انتهوا من الطعام، نهضت ناردين وساعدته على النهوض. قادته

إلى ناحية بعيدة خلف الأشجار وأشارت له بأن يبقى مكانه. كانت لغة الإشارة والابتسامة هي وسيلة التواصل الوحيدة بينهما، لكنها كانت كافية.

ابتعدت ناردن تاركة جوهان وحده في عتمة الليل. شعر بقلبه يغوص في أعماقه قلقاً كلما ابتعدت عنه. كان يجد فيها ريح جوزفين. لم يكن يدرك حقيقة شعوره، فلم تكن له خبرة كافية في الحياة ليعرف أن جميع الأهميات يشتركن في نفس المشاعر. فمشاعر الأمومة واحدة.

عادت له ناردن بعد دقائق وهي تحمل سطلاً من المياه الساخنة وملابس تناسب جوهان. عقدت حاجبها عندما وجدته واقفاً ينظر لها بعدم فهم. عرفت أن لا فائدة من شرح أي شيء له وعقدت العزم على المضيّ بفعلتها. شمّرت عن ساعديها واقتربت منه. انعقد لسان جوهان وتجمّد الدم في عروقه وهو يرى ناردن تنزع ملابسه عنه قطعة وراء أخرى وترميها بعيداً. أفلتت من بين ثيابه قطعة قماش تحتوي الخريطة وورقة البردي. التقطتها ووضعتها جانباً بعد أن تأملتها بعدم فهم. لم يجرؤ جوهان على الحركة في حضورها مع أنه كان يتوق لانتزاع القماش من يديها وإخفائها.

لكنه ارتاح عندما وضعتها جانباً بحرص عرف منهي أنها لن تلتفها. ثم عادت للمواجهة. أمسكت ناردن بطبق خشبي يحتوي عشبة معطرة وملأها بالمياه الساخنة واقتربت من جوهان. كانت مهمة شاقة عليها لأن جوهان لم يكن ذلك الطفل المطيع. لكنها تمكّنت من أن تحمّمه بعناية ليخرج من بين الغبار والأتربة فتى ناصع البياض ذو عينان رماديتان تلمعان تحت ضوء القمر. جفّفت جسده وساعدته على ارتداء ثيابه ثم أعادت له القطعة القماشية التي تحتوي الخريطة وورقة البردي. ساعدها على حمل سطل الماء الساخن إلى مكانه. وقفت بعدها أمامه تسرح شعره بأصابعها. كان شعره ناعماً ويصل إلى كتفيه. ربّبت ناردن شعره بأصابعها وسلّم جوهان نفسه ليدّها. بعد أن انتهت من تصفيف شعره أخذت وجهه بيديها ونظرت في عينيه بعمق.

قررت ناردن أن مهمتها في إعداد الفرد الجديد قد انتهت. ثم فعلت ما فاجأ جوهان مجدداً. رفعت يديه إلى شفتيها ولثمتها، ثم أمسكت يوجهه وقبلت جبينه. ثم تركته يقف مكانه وابتعدت لتتضم إلى نساء الغجر.

التفت جوهان ليرى باتريك في انتظاره. كان يتوق لشرح له أحدهم ما حصل قبل أن يُطلق العنان لمشاعره بأن تفيض!

فهم جوهان نصف ما شرحه له باتريك. وجد عزاءه عندما عرف أنه ليس الوحيد الذي مرّ بهذه التجربة. من وقتها اعتبر نفسه رفيقهم، بل وأحدهم إلى أن يشاء القدر.

وافق جوهان القافلة طوال الطريق الذي استغرق ثلاثة أشهر. لم يكن جوهان يدرك أن الطريق قد يستغرق كل هذا الوقت، لكنه كان ممتناً لقضائه أكبر وقت ممكن معهم، فصُحبة الغجر لم تكن مملة أبداً. قام باتريك بتعليم جوهان لغة الغجر وهي اللغة الكرداشية، نسبة للموطن الذي يُقال إنهم ينحدرون منه. سمع جوهان بعد أن أتقن اللغة الكرداشية أن العجري الأول كان من كرداش. حتى أنّ هناك أساطير تدور حول شخصية العجري الأول وأنّ لديه ألقاباً لا تُعدّ ولا تُحصى. لكن هذه الحكايات ما هي إلا أساطير عرفها الغجر وتغنّوا بها لأجل صنع رهبة لهم بين الشعوب، فالغجر هم قبائل لا تعرف المسكن، وتبقى متنقلة.

فاجأهم جوهان بتعلّمه للغة الكرداشية في غضون أسبوعين مما مكّنه من التواصل معهم. لقد أتقن حتّى المعاي البلاغية الموجودة في العبارات والمصطلحات وما يرافقها من غمزات وإشارات باليد والعين. فالكلمة الكرداشية إن امتزجت بنبرة صوت معينة متبوعة بحركة من العين أو من الأصابع قد تشتمل على عدة معاني.

تعلّم جوهان خلال رحلته معهم بعض المسرحيات وتمرّن على التمثيل وإلقاء الشعر بالكرداشية. بعد أن تأكّدت ناردين من إتقانه لغتهم، علّمته كيف يتحكم في تعابير وجهه. اعتبرت أن أي رجل عليه أن يحصل على هذا التدريب منذ صغره، وقد رأت أنها أحقّ من يعلمه في هذه القبيلة.

لكن جوهان فاجأها أكثر مما كانت تعتقد. لقد أتقن التمثيل والتحكّم في تعابير وجهه، ليس هذا فحسب، فقد أصبح جوهان حديث القبيلة لتمكّنه من إتقان لغتين أخريين غير الكرداشية والبالينية. تمكّن من التواصل مع أفراد من الغجر وتعلّم منهم اللغة الفارسية، وهي لغة أهل إنفار، واللغة الجارتية، وهي لغة أهل جارتا. من بعدها تعلم بعض المهارات القتالية من جون زعيم

القبيلة. كانت بنية جوهان الجسدية ضعيفة ولكنه يتمكن من حفظ الحركات وتقليدها ببراعة. انصب تركيزه في الشهر الأخير من بقاءه معهم على تمارين تقوية عضلات جسده. حصل خلالها على بنية قوية ومناسبة لسّته.

بعد أن أيقنت ناردين أن لقاءها بجوهان قد يصل إلى نهايته في غضون أسبوع كان الأوان قد فات. لقد تعلّقت به كثيراً كونه أول من تُدخله هذه القبيلة وتصبح مسؤولة عنه. فقررت أن تكشف له الحقيقة التي هي وحدها تستطيع أن تخبره بها.

كان ثبات جوهان الذهني وصفاء نظرتة التي أنبأها بُضْجه سبباً كافياً لدفعها لمصارحته. انزوت به في إحدى العربات التي تجرها الخيول بعد أن استقرت القافلة تحت أنظار البدر. استجمعت قواها وتحدثت معه بكل صراحة وأخبرته بالسّر الذي يعلمه الجميع إلا جوهان. ذكّرت بالطقس الذي يقدم فيه رجل القبيلة كوبيّ الحليب والماء إلى القادم الجديد ليعرف نيتته، ولكنها أخبرته أن هذا الطقس فيه سرّ هي وحدها من يمكنها أن تكشفه.

سألها عن السّر فلم تعرف من أين تبدأ. فقط وجدت نفسها تسترسل وهي تنظر للقمر. شرحت له عادات القبيلة ليعرف جوهان أن الأنثى في عيون الغجر هي كل شيء وهي المقدسة والأمرأة الناهية، وأن وجود الرجال هو من أجل حماية الأنثى. أراد أن يقطعها لكنها لم تمنحه الفرصة. كانت تستجمع شجاعته وهي تخاطبه دون أن تنظر إليه. لا تريد أن ترى أي تعابير على وجهه قد تردعها عما عقدت العزم على قوله. أخبرته أن الأنثى هي الوحيدة التي تستطيع أن تجلب فرداً جديداً إلى العائلة، سواء بالإنجاب أو بالطريقة التي جلبت هي جوهان فيها.

ثم انتقلت إلى النقطة المهمة. ذكرته بالكويين الذين امتلأ أحدهما بالحليب والآخر بالماء. شكرته على أنه اختار الماء، لأنه بذلك نجح في الاختبار. لم يفهم جوهان السبب في ذلك، لكنه عرف أن تقديم جون الحليب له كان فيه معاني كثيرة ومصائر تتعلق به. نزلت دمعة من عيني ناردين وهي تحبّره أن كأس الحليب الذي شربه قد ربطه بالغجر بشكل عام وبها بشكل خاص.

بدأ نبض قلب جوهان يزداد شيئاً فشيئاً. كان قد أدرك حقيقة الأمر لولا أن قلبه كان ينتظر أن تفاجئه ناردين بخطئه. لكنها أثبتت كلامها له.

فقد كان الحليب الذي شربه هو حليب ناردین نفسها!

لم يستوعب جوهان كلامها كاملاً. كان يراها مضيئة تحت ضوء القمر. دمعاتها الكريستالية كانت ثمينة جداً. لقد قامت ناردین بإدخاله إلى الغجر بناء على شعور اعتل في قلبها عندما رآته. وقد كانت محقة. ولكن أملها في أنها تريد الاحتفاظ به هو ما آله. قرّر أن يخفف عن قلبها المكلوم بحركة كان يفعلها مع جوزفين عندما تكون سارحة في أفكارها ويريد جذب انتباهها.

أحست ناردین باقترابه منها، ثم وجدت جوهان وقد استلقى بجانبها ووضع رأسه في حضنها. رقّ قلبها لحاله عندما فاجأها بردة فعله. أغمض جوهان عينيه وراح يستمتع بتمسيدها لخصلات شعره. تقبل الحقيقة. لم يمانع أن يكون له قلب آخر يدعوه بالألم، فلا ضير فكل الأمهات سواء. كانت عزائه وكان أملها. استمرت ناردین تروي له ما يعتمل في صدرها من مشاعر أمومة وهو يسرح معها في ليلة صافية قد لا تتكرر في حياته.

الحَيُّ المَيِّتُ

هل حلمت من قبل بأحد أحبائك وهو يموت؟ هل كان مجرد حلم عابر تنساه عندما تستيقظ أم تستيقظ وهو محفور في ثنايا عقلك؟ هل تصيبك كل تفاصيل هذا الحلم بالجنون وتستيقظ فزعاً لترى إن كان هذا الشخص ما زال على قيد الحياة وأن كل ما أنت فيه هو أضغاث أحلام ليس أكثر؟

في منتصف الليل، تلك اللحظة التي يحدث فيها كل شيء. اللحظة التي يغيب فيها الوعي في أعماق اللا وعي تاركاً عقلك البشري بلا حراسة أمام الأخطار التي تهدده. وقتها حدث ما حدث. لم يفارقه هذا الحلم منذ سنين. منذ تلك الحادثة!

وكانت تلك الليلة مثل باقي الليالي. لم تمرّ بسلام، بل فتكت بروحة بقسوة، مُقسمة ألا تتركه للحظة هانئ البال. لقد اعتاد هذا الرجل الأربعيني النوم من وقتها على أنوار الشموع. كانت الغرفة مظلمة إلا من شموع أربعة أوقدها لتؤنسه وهو نائم، أو تقضي عليه وتحيله رماداً قبل أن يُصبح!

رجل أربعيني طويل القامة، شعره أشعث وتمتد لحيته إلى صدره. استلقى باستسلام يشوبه الندم على ما اقترفت يده. يعرف أن هذا العذاب هو أقل ما يستحق، فتقبله بصدر رحب وصمت رجل ينتظر الموت! يخلد إلى السرير وهو يتمنى أن تكون هذه ليلته الأخيرة. لكن هيهات!

يبدأ بالتعرق والتقلب في السرير. لا تزال تلك الذكرى تعود إليه في حلم جميل ثم تمزق الذكرى أشلاءه عندما تتحول إلى كارثة دموية. تنتزع من نومه فزعاً وتبتلعه في نهم وشراسة. كادت عيناه أن تغادر محجريه من فظاعة المشهد. شحوب وجهه رافق ضربات قلبه العنيفة. وضع يده على صدره يستجدي قلبه الرحمة وهو يزيل الغطاء عن جسده ليسرع إلى الغرفة الأخرى حيث تمنى لو يجد ما يريد. كل ليلة يُمنّي نفسه بأن ما رآه مجرد أضغاث أحلام لا أكثر. لكن الحقيقة تصدمه عندما يفتح باب الغرفة ويراهَا خاوية!

لا أحد. من كان يرقد هنا لم يعد موجوداً.

أخذ برأسه بين يديه وضغط عليها بكل قوته يروم تفجيرها. يشتدّ الألم على رأسه فيخفّ ألم روحه. يجزّ قدميه بثقال وهدوء بعد أن استسلم للمرة ال... لا يعرف... لقد توقف عن العد منذ زمن طويل.

عاد إلى غرفته واستلقى على السرير وأغلق عينيه بصمت وهدوء. صمت من تعذبت روحه، وهدوء من ينتظر الموت.

حكاية من ذاكرة الزمان

شارفت القافلة على الوصول إلى بالينفورد. كانت ناردين في حالة انسجام مع نفسها وهي تنظّف ملابس جوهان بعد أن انضم إليهم. كانت تعرف أنه في يوم ما سيفترقان، لكن هذا بعد أن أصبحت أماً. لقد أتى لها هذا الفتى ليرفعها إلى أعلى رتبة بين نساء الغجر، رتبة الأم.

كان جوهان يترقب ساعة الوصول إلى بالينفورد ليجث عن جوليارد كما أمرته جوزفين أن يفعل. عليه أن يحصل على مساعدة جوليارد في استعادة جوزفين من برائن ملك نينورتا. لكن فراق ناردين كان صعباً عليه، فقد تعلق بها هو الآخر.

لاحظ جون أن جوهان يشتدّ عوده مع مضيّ الأيام، فقرّر تعليمه المبارزة. شرح له أن المبارزة ضرورية في الأداء المسرحي وكلما كانت مُتقّنة، كلما أعجب الناس بالعرض أكثر. تعلّم جوهان المبارزة بصعوبة ولكنها كانت ممتعة. شعر بضرورتها لشيء آخر، غير التمثيل.

في نهاية كل يوم يجلس جوهان مع العجوز ألفرد. كان ألفرد هو أكبر فرد في قافلة الغجر. منذ صغره كان يحبّ الحكايات والأساطير، فأصبح في جعبته الكثير منها. كان يجلس ويروي حكايات كثيرة وكان جوهان يستمتع بسماها. شعر جوهان بأنّ عليه تصديق الكلمات التي تخرج من جوف عجوز غطّت التجاعيد وجهه. جلس العجوز ذو اللحية الخفيفة على كرسيّه الخشبيّ ويده مسبحة طويلة وقد أراح جسده على ظهر الكرسي. أخرج تنهيدة وهو ينظر للغيوم الخفيفة في السماء قبل أن يعيد نظره الشاردة إلى النار. كان ألفرد يروي الحكايات والأساطير كل يوم.

لكن ألفريد لم يكن يروي هذه الحكايات للأطفال، بل لنفسه. كان يخشى من أن يأتي يوم وينساها، فقد أصبح وجوده متعلقاً بوجودها. إن اختفت الحكايات من هذا العالم، فسيفقد وجوده ويهوي إلى العدم.

في ذلك اليوم جلس جوهان يستمع لحكايات ألفرد، وكان من بينها حكاية شديدة الغرابة عن رجل لا يعرف أحد عنه إلا ألفرد. حتى ألفرد نفسه سمع هذه الحكايات منذ زمن بعيد وحرص على أن تبقى هذه الحكايات في الصدور حتى لو لم تصدقها القلوب.

"لقد كان يُدعى بالعجري. العجري باللغة القديمة يعني الغريب. لقد كان شجاعاً ومغواراً. لقد تحدى الأسياد وقام بما لم يقم به غيره من البشر. لقد اعتقد الجميع أن أساطير الكواسر السبعة ما هي إلا ضرب من الخيال، لكنه صدقها وحذا نحوها. كان شغوفاً بالعلم والفلك، لكن الاحتكاك مع علم ومعرفة الأسياد يؤدي إلى عواقب وخيمة. يُقال إن العجري يعرف بعض الكلمات التي تحدث بها الإنسان الأول قبل أن يقرّر الأسياد تحطيمها لأثرها البالغ وقدرة البشر على استخدامها. يُقال إن الأسياد لم تتوقع تطور البشر السريع واستخدامهم أحد أسلحة الأسياد بتلك البراعة. لكن العجري الأول كان يصدّق هذا الكلام ويتبعه. كان يريد أن يحصل على الدراكاشتا، وهي سبع صناديق تحتوي سبع أسرار خلفها الكواسر السبع بعد نجاتهم من حرب الدماء السوداء. لقد لقيت بحرب الدماء السوداء لأن دماء مخلوقات الحن التي قضى عليها البشر كانت سوداء. أجل، فكل عرق كان يختلف عن غيره بلون دمه، إلى أن أتى البشر بدماء حمراء، هي من دماء شجرة ماندا. اقترحت إيلانا أن يصنعوا بشراً من تراب الأرض، ولكنهم احتاجوا إلى دماء جديدة فاقتربت ماندا أن تمنحهم دماء شجرتها لتمييزهم عن غيرهم. خلقتهم إيلانا ومنحتهم ماندا الدماء. لكن إيلانا أرادت أن تصنع الإناث على شاكلتها فأرضعت الأنثى الأولى حليبها، لينمو صدرها وتورث هذه الخصلة للإناث. ومنح إنليل بعض من خصاله للرجل الأول ليتمكن من رعاية الأنثى. فالأنثى تحمل رحمة وعطف إيلانا التي في السماوات، والرجل يحمل قوة وعزة نفس إنليل، وكلاهما يحتوي دماء ماندا.

العجري آمن بهذه الحكاية وكان يبحث عن الدراكاشتا التي خلفها الكواسر بعد نجاتهم من حرب الدماء السوداء والتي جرت بعد أن ثار عليهم الحن. كانوا هم الناجون الوحيدون بعد أن

استلموا أسلحتهم من الأسياد. خبأوا هذه الأسلحة في صناديق الدراكاشتا وأخفوها في مكان ما على سطح الأرض، أو في جوفه. انصبَّ اهتمام الغجري على السلاح الأول للبشرية والذي قام الأسياد بسحبه منهم بعد ما تجاوز البشر حدود قوتهم الممكنة.

كان يبحث عن الكلمات المحطمة! أجل، فقد كان السلاح الأول هو الكلمات. منح انكي اللغة إلى البشر بعد إلحاح من إيلانا على منحهم جزءاً من قواه. منح إنكي البشر بضع كلمات من لغته، لكن البشر تمكّنوا من تشكيل بقية الكلمات اعتماداً على تفسير حروف وأصوات الكلمات. وقتها تدخل إنكي وحطّم الكلمات التي أرسلها للبشر وجعلهم يواجهون من تبقى من الحنّ وحدهم. تقلّص عدد البشر إلى أن بقي منهم سبعة، هم من لُقّبوا بالكواسر. وقتها اتفق الكواسر مع الأسياد بوساطة إيلانا على منحهم أسلحة أخرى تعينهم على قتال الحنّ دون الكلمات المحطمة والتي أصبحت بلا فائدة. وقتها عقدوا اتفاقاً على أن يستخدموا هذه الأسلحة في محاربة الحنّ ومن ثم التخلص منها وإخفاؤها. وافق الكواسر على ذلك وانتظروا الفرج من الأسياد. قام كل واحد من الأسياد بصناعة سلاح مدروس الأبعاد والآثار ومنحوه للكواسر. وقتها استخدم الكواسر الدراكاشتا ليتخلصوا من الحنّ. بعد أن انتهت حرب الدماء السوداء، تخلص الكواسر من الأسلحة وختموها في سبع صناديق خشبية وأودعوها أماكن متفرقة من الأرض. وإلى الآن لا يعرف أحد أين تقع هذه الدراكاشتا. لكن الغجري الأول صدّق هذه الأساطير وشرع يبحث عنها. إلى أن وجدها. كانت له مغامرات رأى فيها العديد من الناس كراماته، لكنّي أعرف أن هذه الكرامات ليست مجرّد سحر أو كرامات بشرية. إنها الدراكاشتا. إنها أسلحة لا يقدر أحد على تدميرها حتى الأسياد أنفسهم. يقال إنه قتل وحشاً عظيماً في السماء ثم هبط إلى الأرض وحطّ عليها كالمطر بلا أجنحة. انتشرت عنه إشاعات كثيرة وعُرف بأساء كثيرة. لكن ما نعرفه عنه هو أنه لم يعد موجوداً وما بقي منه هو سيرّه وأساطيره التي تختلف من بلد لبلد، ومن لغة للغة. لكن أنا الوحيد الذي يعرف ما حصل له.

الغجري لم يمت، إنه يسير بيننا متخفياً منذ ما يزيد على خمسمئة عام. أعرف ذلك لأنه هو الوحيد الذي رضع من حليب إيلانا وهرب منها!"

إلى هنا توقف العجوز عن كلامه. لكن جوهان لم يتوقف عن التفكير وتخيل ما روي له. بقي

جوهان والعجوز يحدقان إلى اللهب لفترة طويلة. ثم التفتا إلى بعضهما. انتفضا وكأن كلاهما تفاجأ بوجود الآخر. أشار العجوز بنظرة دعر إلى وجه جوهان.

"تلك العينين! لا يُعقل! إيلانا التي في السماوات اغمرينا بحنانك!"

اقتربت منهم ناردين ومعها جون واصطحبا العجوز الذي راح يتابع تلاوة صلواته على مسمع من جوهان والذي اتسعت عيناه غير مصدق لما رآه. ما الذي كان يقصده العجوز مما فعله؟ وما هي الحقيقة فيما رواه؟ تجاوز ما قاله العجوز أشدّ الحكايات التي رواها له أبيلارد غرابة. طوّقه عاصفة الشخصيات والحكايات التي اصطدم بها كجدائل من حيرة تلفها حوله إيلانا التي ظنّ أنها تنظر إليه من بين السحب التي ازدادت كثافة.

في تلك الليلة لم ينم جوهان. بقي مستلقٍ في مكانه ينظر من داخل العربة إلى السحب فوقه، يفكر بها رواه العجوز.

لم يدر أن ما قاله العجوز ما هو إلا بداية للعنة ستبقى تلازمه طيلة حياته.

بوابات الألم

بالينفورد... واحدة من أكبر المدن على وجه الأرض، بل والأكثر شهرة. دخلها الغجر واستقروا بقاflتهم في ساحة هنري وهي إحدى الساحات الرئيسية الثلاث. استقروا هناك بعد أن قام جوهان وباتريك بترجمة الاتفاق بين قائدهم جون وعمدة المقاطعة التي دخلوا منها، باول. كان دخول الغجر عنوان بهجة، فلم يدخلوها بصمت. كان الغجر يعزفون على آلاتهم الموسيقية، معلنين قدومهم إلى أن وصلوا

إلى ساحة هنري. انتشر خبر وصولهم كالنار في الهشيم. لا يوجد أحد في المدينة إلى وعرف بقدومهم واستعدّ لحضور عروضهم. أنبا الغجر الجميع بأن عروضهم ستبدأ في غضون ثلاثة أيام وأن اللغة التي سيستخدمونها هي الجارتية لعلم أهل بالينفورد بها.

بد أن استقروا بدأوا في تناول غذائهم. وقتها انتابت ناردين غصّة وهي تراقب جوهان وهو يأكل. كان يشعر بعيونها عليه كاللجام الذي يحذره مما ينوي، مع أن كلاهما يعرف وجهته. استمرّ جوهان في تناول الطعام دون النظر إلى ناردين.

انتهاوا من تجهيز عرباتهم وانشغل كل واحد فيهم بأمره، إلى أن قرر جوهان أن يتبع غايته أيضاً. استأذن جوهان من جون وخرج مسرعاً إلى وجهته. عليه أن يوفي بوعده إلى جوزفين. انتقل جوهان من مكان لآخر وهو يسأل الناس عن منزل رجل يدعى جوليارد. بعضهم رفض الإفصاح عن الإجابة، البعض الآخر تجاوزه وكأنه لم يستمع له. بينما رأى نظرات الاشمئزاز في عيون من أعرضوا عنه عند ذكره اسم جوليارد. أوصله بحثه إلى طريق مسدود. لا أحد يريد أن يخبره أين يسكن الرجل الذي يُدعى جوليارد. احتار في أمره فقد أمضى وقتاً طويلاً في البحث عنه.

ثم جافله صوت جرس ضخم يأتي من بعيد. تبعه بعد برهة أصوات لأجراس كثيرة، أحدها كان بالقرب منه. التفت جوهان إلى الصوت ليرى رجلاً طويلاً يعلوه جرس كبير يقف من أسفله

رجل أسمر البشرة قويّ البنية يقوم بشدّ الحبل ليهزّ الجرس. نظر جوهان حوله ورأى أنه الوحيد الذي أفرزه الصوت، بينما مضى الجميع في سبيلهم وكأنّ شيئاً لم يكن.

التفت إليه أحد الفتية وقد لاحظ علامات الاستغراب، فعرف أنه ليس من بالينفورد. كان فتى يصغر جوهان بستتين، يرتدي ملابس بيضاء نظيفة وقد سرح شعره للخلف بعد ربطه بهيئة ذيل فرس. اقترب الفتى من جوهان وسأله عن اسمه. أخبره جوهان باسمه وسأله عن الأجراس. شرع الفتى في الشرح بعد أن حصل على فرصته المنتظرة.

كانت هذه الأجراس تُنبئ بمضيّ الوقت. حيث يُقسم النهار إلى فترات متساوية، وهنّ اثنا عشرة فترة. يبدأ النهار مع طلوع الفجر ودقّة الجرس الأولى. مع بداية كل حقبة يرن الجرس الكبير ومن ثمّ تتبعه الأجراس البقية المنتشرة في بقاع مختلفة من مدينة بالينفورد الكبيرة. وجد أهل بالينفورد منفعة كبيرة في هذه الأجراس فأصبحوا يضبطون مواعيدهم على دقاتها. كالاتقاء عند الجرس الخامس أو إغلاق المحل عند الجرس الحادي عشر. لكن بحلول الجرس الثاني عشر على الجميع أن يلازموا المنزل، ليبدأ بعدها الحرس التجوال من أجل السلامة العامة.

سأله جوهان عن الجرس الذي ضُرب للتوّ فأخبره أنه الجرس السادس. عرف وقتها أن النهار لا يزال في منتصفه وأن لديه الكثير من الوقت للوصول إلى وجهته. شكره جوهان ومضى في سبيله بعد أن عقد العزم على الوصول إلى بيت جوليارد قبل الجرس العاشر.

مضى في سبيله وقرّر أن يسأل أول رجل كبير في السن يبدو عليه أنه يعرف الكثير من الناس ليقاه. مضى يتفحص وجوه الناس من حوله إلى أن عثر على مراده. كان هناك رجل قد خرج من إحدى المتاجر وفي يديه قطعّ من قماش كان قد اشتراه لأهل بيته. تقدم منه جوهان بكل ثقته وقد تسلّح بمهارته على التحكم في تعابير وجهه التي اكتسبها من تدريبات جون وناردين. وقف أمام الرجل الذي يبدو أنه ذو حال ميسور وانتظر إلى أن يسمح له الرجل بالحديث. تمكّن جوهان من أن يُخفي خوفه من نظرة الرجل الذي بدا وكأنه سبر أغوار الفتى الواقف أمامه. أمعن الرجل حسن الهيئة النظر بجوهان وتمعّن في عينيه. كان الرجل يُخفي تفاجأه بعينيّ جوهان، فلم ير عيوناً سوداء من قبل.

اختار الرجل الحديث عندما شعر بنفسه المسيطر على الفتى.

"ما حاجتك؟"

رد عليه جوهان بنبرة تُغالب ما فيها من توتر. "لست بذي حاجة؟"

سأله ببرود. "لم تقف أمامي إذن؟"

"عندي سؤال."

"ماذا تريد؟"

ابتلع ريقه قبل أن يسأل بنبرة تشوبها التوق إلى معرفة الإجابة. "أتعرف أين يسكن جوليارد؟"

خاتته عيناه للحظة لمفاجأته قبل أن يستعيد السيطرة عليها. فتى لا يتجاوز الثانية عشر من عمره ذو عيون سوداء يسأل عن جوليارد! انتبه الرجل إلى ملابس جوهان ومميزه كأحد فتيان الغجر.

"وماذا تريد منه؟"

انفجرت أسارير جوهان لرده. "هل تعرفه؟ أنا ابحث عنه؟"

"وماذا يريد فتى من الغجر منه؟"

سكت جوهان. شعر بأن عليه أن يفكر بجواب ملائم. لا يستطيع أن يكشف شيئاً مهماً لهذا الرجل قبل أن يعرفه. دراسته للمسرحيات مع رفقاءه من الغجر علّمته الكثير عن الحياة، لكن عليه أن يختبرها. تذكر وقتها مسرحية قلب من ورق ومأساة بوب التي تسبب فيها تسرّعه وثقته في الآخرين بدون حساب ولا احتراز.

"لدي رسالة له."

مدّ الرجل يده. "أعطني الرسالة."

هز جوهان رأسه علامة الرفض. اتسعت عنا الرجل من المفاجأة.

"لماذا لا تعطيني الرسالة؟"

"أنا لا أعرف من أنت. لا أستطيع أن أعطي الرسالة إلا لجوليارد نفسه."

"ولمَ تظن أني سأتركك تقابل جوليارد؟"

"الأمير مهم. عرضت أخذ الرسالة، بدلاً منها خذني إليه."

"لن يقابلك."

"الرسالة مهمة جداً."

"وما أدراني أنا؟"

توقف جوهان عن الكلام لمعرفة أنه سيقع بخطأ بوب دون قصد إذا استمر في الحوار. لاحظ الرجل أن جوهان لن يتحدث أكثر من ذلك، وكأنه ممثل أتقن أداء دوره ولا يعرف أكثر من ذلك. أخرج تنهيدة طويلة واستدار مولياً ظهره لجوهان. ذبلت نظرات جوهان وهو يشاهد الرجل يتعد عنه، لا يدرى ماذا يفعل. عندها التف الرجل إلى جوهان وناداه.

"أيها الفتى، اتبعني."

عاد الأمل إلى وجه جوهان وهو يركض خلف الرجل الذي قرّر مساعدته. عرف الرجل عن نفسه باسم أوليفر. عرف جوهان عن نفسه كأحد الغجر وتبع أوليفر بصمت.

بعد فترة قصيرة وقف أوليفر أمام بيت كبير الحجم ولكنه خال من الحياة. نظر جوهان باستغراب إلى البيت ومن ثم عاد بنظرته إلى أوليفر. أشار أوليفر إلى البيت قائلاً.

"هذا هو البيت الذي تبحث عنه."

نظر جوهان إلى البيت الرابض أمامه. كان يظن أن ما يفعله هو الصحيح وكان الفرح يتملكه لفكرة إيصال الرسالة إلى جوليارد، لكن البيت حدّره من مساوئ ما هو مقدم عليه. بقي الرجل يراقب جوهان وما سيفعله. نسي جوهان وجود الرجل وعيناه متسمّرتان على الباب أمامه. بيت قديم وباب غطّته الأتربة.

فضّل أوليفر الصمت على أن يشتّت جوهان. اقترب جوهان إلى البيت وتراجع الرجل إلى الخلف. بلغ أوليفر من اللباقة حداً يدعوّه إلى ألا يتطفل على هذا الفتى، حتى ولو كان له علاقة بأحد معارفه. بقي يراقب المشهد عن بعد.

طرق جوهان الباب.

انتظر فلم يأتَه الرد.

أعاد الطرق مرة أخرى.

لم يُفتح الباب.

طرق مرة أخرى بقوة وانتظر.

انتظر لفترة أطول ولم يُفتح الباب.

كان الرجل في الطرف الثاني من الباب يده على المقبض، لكنه متردّد حيال ما إذا يفتح الباب أو لا. فهذه أول مرة منذ سنوات يطرق فيها أحدهم بابه. كان من يجلب له طعامه يدخل دون أن يطرق الباب. لم يترك جوليارد باب بيته مغلقاً من قبل. ليس فقط لأنه لا يخشى شيئاً، بل لأنه كان ينتظر الموت. لم يدر جوليارد الواقف في الناحية المقابلة للباب أن الموت أرسل له برسالة تريجه من هذا العذاب. ويا ليتَه كان يعرف ما تُخفي الصدور.

بعد أن فقد جوهان الأمل في أن يُفتح الباب، أخفض نظره في إحباط واستدار ليعود خائب الرجا. أطلق الرجل الذي كان يراقبه زفرة حانقة، فقد كان يأمل في ذاته أن يفتح جوليارد الباب لهذا الزائر.

استدار جوهان ليعود لكنه لم يخطو خطوة إلا واستوقفه صوت صرير الباب وهو يُفتح ببطء.

لأول مرة منذ سنوات يواجه جوليارد ضوء الشمس. لأول مرة يفتح الباب لأحدهم، وها هو يفتحه لزائر لا يعلم عنه شيئاً

التفت جوهان نحو الباب وشاهد الرجل الذي ظهر من خلفه. رأى رجلاً ضخم الجثة

كثيف اللحية، في حالة مزرية وكأنه استيقظ من حالة سبات دامت لأعوام دون أن ينتبه أحدهم لوجوده. اقترب منه جوهان ونظر في عينيه.

تحفّزت نظرات أوليفر الذي كان يتابع المشهد.

ألجم حضور جوليارد لسان جوهان فلم يعرف كيف يبدأ الحوار.

ضاق جوليارد ذرعاً بالفتى فهَمَّ بأن يغلق الباب. شعر جوهان برعب ضياع الفرصة فلم يسمح لنفسه بأن يخرج مهزوماً. لو أغلق هذا الباب في وجهه فلن يُفتح مرة أخرى.
"لو سمحت."

توقف جوليارد عن إغلاق الباب وتوجه للفتى. "ماذا تريد؟" كانت نبرته ناهية أكثر منها مستفهمة.

"هل أنت جوليارد؟"

أغلق جوليارد عينيه وفتحها مرة أخرى. "أجل، أنا جوليارد."

تململ جوهان مكانه، لم يعرف كيف يصرّح بما يريد.

"ماذا تريد؟"

تشجّع جوهان ليُدلي بـدلوه. "أتيتك من بلاد بعيدة مبعوثاً من شخص يعرفك."

"لماذا؟"

"أخبرني بأنك الوحيد الذي سيساعدني. إنها تأمنك عليّ."

كل ما كان يجول في بال جوليارد هو مدى تفاهة وسخف ما يقوله هذا الفتى. ظنّ أنه أحد الفتية في الحيّ وقد جاء ليسخر منه. نظر لجوهان بنظرة غاضبة وصرخ به.

"انصرف!"

همّ بإغلاق الباب عندما سمع كلمة هزّت كيانه كهزيم الرعد.

"جوزفين."

توقف الزمن لثوان لم يسمع فيها كلاهما سوى نبض قلبيهما الذي لم يرحاهما طرْقاً على الضلوع، وكأنه طفل حبيس يريد الخروج من زنزانه.

عرف جوهان أثر وقع الاسم على جوليارد فردّه مرة أخرى. "جوزفين. أتعرفها؟"

استدار نحوه ونظر له بكل الغضب الذي يعتمل في صدره. إلّا مَ يروم هذا الفتى؟

"هي من أرسلتني."

اتسعت عينا جوليارد ذهولاً.

لم يتمكن أوليفر من سماع الحديث لكنه انتظر بصبر جبار.

"ما الذي قتلته؟"

لقى جوهان ما في نفسه مرة واحدة. "جوزفين هي من أرسلتني إليك من أرض بعيدة.

أبعدتني عن الخطر وأوصتني أن اعثر عليك لأنك الوحيد القادر على مساعدتي."

لأول مرة يخطو جوليارد خارج منزله منذ سنوات. خطوة واحدة فقط. اتسعت عينا أوليفر

لما رآه. ونَدّت صرخة أخرى لامرأة خرجت من مخبأها فزعة لما شاهدته. فقد خرج جوليارد من

بيته ليمسك بجوهان من رقبته وقد ملأ الغضب قلبه. نظر لجوهان وهو يكلمه بنبرة أثارت في

جوهان غريزة الهرب والنجاة من هذا الوحش الذي أفلت لجامه.

"من الذي أرسلك؟"

صارع جوهان بالكاد يلتقط أنفاسه. "جوزفين."

"كاذب."

"إنها تقول انها تسامحك. لا ذنب لك فيما حصل... هي لا تزال تحبك..."

اشتعلت نار الغضب في صدر جوليارد. وجد جوهان نفسه يطير في الهواء بعيداً عن جوليارد،

بعيداً عن بيته، وبعيداً عن جوزفين نفسها. لم يدرك أن ما حدث لم يستغرق أكثر من ثلاث ثوان. لكنه لم يحصل على الوقت الكافي ليتأمل الثواني الثلاث قبل أن ينتشر الألم في معدته إثر اللكمة التي سددها له جوليارد. قبل أن يرميه بعيداً. أغلق جوهان عينيه ببطء وهو يرى ظهر جوليارد وهو يدخل المنزل، صافقاً بابه خلفه.

سقط جوهان مرمياً على الأرض بلا حراك. بينما سارع أوليفر للإمساك به. توقف الرجل عن الحركة عندما تفاجأ بصوت ناردين وهي تجري نحو فلذة كبدها الملقى على الأرض وتحتضنه!

بقيت ناردين تراقب ما يحدث بصبر عجيب إلى أن فاض بها الكيل ورأت ما رآته. مالت عليه تتفحصه وترجوه أن يستفيق. عاجلها الرجل بجلوسه بجانبها لتفحص جوهان. لم تعرّف عليه فأمسكت بجوهان إلى صدرها خوفاً عليه.

قدّم الرجل نفسه لها على أنه أوليفر، أستاذ علم الأعشاب في أكاديمية بالينفورد. اطمأنت ناردين وسمحت له بفحص جوهان. تأكد من نبضه وحرارته. كان أوليفر يعرف ما فعله جوليارد بالضبط. اطمأن لما حدث وابتسم. طمأنها بأن جوهان فاقد للوعي وسيستيقظ خلال وقت قصير. لكن أوليفر كان يبتسم فرحاً بصديقه القديم، جوليارد. فقد تمكن جوليارد من السيطرة على انفعالاته ولم يؤذي الطفل. قام بحركات مدروسة أدّت إلى إفقاد الطفل وعيه بهدف إخافته لئلا يُكرّر فعلته. كان أوليفر واثقاً من جوليارد واطمأن لأن ثقته كانت في محلها.

في الداخل، كان جوليارد يلهث وكأنه خرج من إحدى المعارك الطاحنة. وقف مشدوهاً ينظر إلى كفيه ويتأملها وأنفاسه تتلاحق، في محاولة ليفهم ما كان يهذي به هذا الفتى.

فكلام جوهان تحوّل لشيء أعمق من مجرد كلمات ومفردات. كانت هذه الكلمات محملة بها لا تتحمّل القلوب. سمع صوت الجرس الثامن وتفاعلاً وكأنه يسمعه لأول مرة. حاول أن يستوعب ما جرى. ردّ فعله الأول كان الإنكار. توجه إلى غرفته ودخلها. استلقى على السرير وأغمض عينيه. ظن أن الأمر سيمضي بسلام ويعود لكواييسه. لكن لا وعيه كان أعمق من ذلك.

استيقظ جوليارد عند الجرس العاشر. نظر حوله ولم يدر ماذا يشعر. لقد نام! هكذا بهذه البساطة! شعر بالخيانة. وجد نفسه يقوم من سريره وهو مضطرب ومحتار. شعر بنفسه يخون

جوزفين مرة أخرى لأن الحلم لم يعد يراوده. ما الذي يحصل؟ من المفترض أن تمرقه الرؤى مرة أخرى ليستيقظ هرعاً إلى غرفتها يطمئن أن ما رآه ما هو إلا أضغاث أحلام. لكن هذه المرة مشى كالمثوم إلى غرفتها. فتح الباب ولم يجدها. تقدّم إلى سريرها واستلقى عليه. اتخذ وضعية الجنين وهو يفكر بها. أغمض عينيه للحظة وهو يفكر بجوزفين لتهاجمه كلمات ذلك الفتى بضراوة.

إنها تقول انها تسامحك. لا ذنب لك فيما حصل. هي لا تزال تحبك.

فتح عينيه وأطلق العيان لأنفاسه التي كان يحبسها.

كان لا بد لجوليارد من أن يفقد عقله. لم يعد هناك من يذكر ما جرى منذ سنوات إلا بضعة أشخاص لم يعد لهم فيه أي اهتمام. إذن من الذي يحاول القيام بكل هذا معه؟ ولم اختار هذا الفتى؟ لم يصدق جوليارد أن هناك من استخدم هذا الفتى ليربك عالمه، فلا يوجد داعٍ لنش قبر رجل ميت!

تقلب في السرير وكل شيء يذكرها بها وكلمات الفتى تعصف في هنة. قرّر وقتها أنه لو بقي على هذه الحال فسيصاب بالجنون. عليه أن يكتشف من الذي يقف وراء هذه الحركة وما الذي يريده منها. يريد أن يوقف هذا المتطفل عن العبث بأوراق الماضي. لكنه لم يجد سبباً واحداً لنش مأساة ما جرى ولا حتى من له مصلحة للقيام بذلك. اتخذ قراره مسرعاً إلى الحمام ليغتسل ويبدّل ملابسه. سيخرج لبحث عن الفتى منذ الجرس الأول.

بينما كان جوليارد يصارع أفكاره ويتعامل مع الحريق الذي أشعلته كلمات جوهان، كان جوهان نائماً على سرير في بيت أوليفر. كانت ناردين تجلس بجانبه. تقدّم منها أوليفر وناولها كوب من الشاي وأخذ يتحدث معها دون أن يعرف أنها لا تتقن لغته. كل ما تعرفه ناردين عنه هو أن اسمه أوليفر وأنها سمعت اسم أكاديمية. تمكنت من ملاحظة ملابسه التي تشي بأنه إنسان ذو مستوى محترم. شاهدت زوجته التي قدمت لها الشاي فاطمأنت لجو البيت.

استيقظ جوهان قرابة الجرس التاسع. تمكّن أوليفر من تهدئته وسأله عما جرى. رفض جوهان البوح بما حدث والدموع تسيل من عينيه في صمت. احترم أوليفر صلابة الفتى الذهنية ولم يشأ أن يعرضه لأي ضغوط. ناول أوليفر بعدها كوباً من شاي الأعشاب المهدئة التي أعدّه

خصيصاً له. بعد أن هدأ جوهان طلب من ناردين أن تصحبه إلى قافلة الغجر. غادر معها أوليفر ليتأكد من أنها سيصلان بخير، فكان يعرف طرق بالينفوردي جيداً.

أوصلهما وعاد أدراجه بعد أن اخذ عهداً على جوهان بالقدوم إلى منزله صباح الغد. فقد عرض مساعدته عليه بشكل جدي.

في الصباح التالي استيقظ جوهان من نومه باكراً وغافل ناردين وخرج عند الجرس الأول. خرج جوليارد من منزله عند الجرس الثاني بعد أن تذكر أن ملابس جوهان تشبه ما يعرفه عن ملابس الغجر. توجه إلى المكان تحت أنظار الجميع المتفاجئين بأن هناك من كان يعيش في ذلك المنزل المهجور.

مضى جوهان في طريقه إلى منزل أوليفر. طرق على الباب. ثوان وفتح أوليفر الباب وابتسامة على محياه. استقبله أحسن استقبال وتناول معه الإفطار. تناول جوهان الإفطار بصمتاً ممتناً لتأجيل الحديث في الموضوع الذي أتى من أجله.

بعد الانتهاء، بقي جوهان صامتاً ينظر إلى يديه وقد أراحها على ركبتيه. بدأ أوليفر في الحديث، فقد كان في نفسه شوق قوي لمعرفة ما كان يجري. لكنه قرر أن يبدأ بجملته تريخ جوهان وتجعله يطمئن ويثق فيه.

"أنا صديق جوليارد."

رفع جوهان عينيه ليرى الرجل بوضوح. كانت لمعة عيني جوهان كافية ليعرف أوليفر أنه على الطريق الصحيح.

"حقاً؟"

"أجل. أنا من أخذك إلى منزله، أليس كذلك؟"

"صحيح." أراد أن يقول شيئاً لكنه أحجم عن ذلك.

اقترب منه أوليفر وربّت على يده بابتسامة واثقة تعلو وجهه. "لا تقلق. أنا بجانبك. جوليارد

صديقي ويهمني أمره. أنا الوحيد الذي أستطيع مساعدتك."

قرّر جوهان أن يثق فيه ويخبره بما جرى، فقد كان أوليفر صادقاً معه.

"لقد أتيت إليه لأنه يقدر على مساعدتي."

"ما هي الرسالة التي أرسلتها له؟"

"لقد كانت رسالة من جوزفين."

جحظت عينا أوليفر من المفاجأة. انتفض ونهض على قدميه من هول ما سمع.

"ما الذي تقوله؟"

كانت نبرته قاسية. ارتبك جوهان ولم ينطق. اشتد غضب أوليفر.

"أكمل كلامك. هيا."

"أرجوك اهدأ."

انتبه أوليفر إلى هيئته وعاد إلى الجلوس وقد أخذ نفساً عميقاً ثم قال بهدوء. "أكمل. وإياك أن تكذب عليّ."

"لقد أرسلتني جوزفين إلى هنا لأعثر على جولبارد وأطلب مساعدته، لأنه الوحيد القادر على مساعدتي. أوصتني أن أخبره بأنها تسامحه وأن لا ذنب له فيها حصل."

سكت جوهان ينتظر رداً من أوليفر. جمد أوليفر وهو يسرح في كلمات جوهان. سيل جارف من الصور والذكريات اقتحم عقله. بعد ما استجمع أفكاره سأل جوهان الذي كان ينتظر حكم أوليفر فيما قاله.

"هل تعرف ماذا حصل؟"

"ماذا تقصد؟"

"عن أي ذنب تحدّثت جوزفين؟"

"لا أعرف. قالت لي أن أعثر عليه هنا وأخبره أنها تسامحه. لكنني لا أعرف على ماذا تسامحه. هي لا زالت تحبه."

أطرق أوليفر يفكر في كلام الفتى وهو مهموم. زفر أكثر من مرة وهو يمسح وجهه بكفيه علّه يستيقظ من هذا الواقع على حقيقة أن هذا الفتى مخادع. ثم التفت إلى الفتى لينهي هذا الحديث قبل أن يلتقي بجوليارد مرة أخرى.

"أنت ستأتي معي. هناك ما يجب أن تراه إن كنت تنوي أن تقابل جوليارد مرة أخرى."

سأله جوهان بترقب. "ما هو؟"

نهض أوليفر وأمره. "اتبعني."

قاده أوليفر خارج المنزل إلى طريق طويلة. عرف جوهان انها ذاهبان لمنطقة تخلو من السكان. كان سهلاً أخضر محاطاً بسياج خشبي في منتصفه بوابة خشبية يقبع عندها حارس. ألقى أوليفر التحية على الحارس وفتح الأخير لهم الباب ليدخلا. تبع جوهان أوليفر وهو يحيل بنظره في المكان. كان المكان ممتلاً بالوواح حجرية مزروعة في الأرض. اقترب أوليفر من إحداها ووقف أمامها. دعا جوهان إلى الوقوف بجانبه. لم يفهم جوهان ماذا يريد منه أوليفر. لكنه رأى نظرة حزن على وجه هذا الرجل أثارت الاضطراب في بدنه. أشار أوليفر إلى اللوح الحجري الذي كان مزروعاً أمامه. اقترب جوهان من اللوح الحجري ودقق النظر فيه. اتسعت عيناه ذهولاً وأعلن قلبه التمرّد بضربات علت على صوت الأجراس التي دقّت معاً معلنة بداية مرحلة أخرى أكثر تعقيداً وشائكة من كل ما جرى.

كان اللوح الحجري ناصع البياض عبارة عن شاهدة قبر. كُتب عليها التالي:

جوزفين رينهارت

من رحم المعاناة يولد الأمل

أول مواجهة لنا مع الموت هي أشدّها. تلك هي المصيبة الأولى. لكن هذا الموت ليس شيئاً عادياً. لم يكن خبر وفاة جوزفين خبراً هيناً بكل مقاييس جوهان. لم يتقبل الحقيقة أبداً. لم يعد يعرف ما هي الحقيقة. بقي جامداً في مكانه لا يصدّق ما يراه. لوهلة فقد القدرة على تمييز الحروف والأرقام. لم يكن ما يمر به حالة من الرفض أو العناد. بل كانت مرحلة من عدم الفهم. لم يعد جوهان يدري ماذا يحدث. هزّه خبر وفاة جوزفين كما تسقط صخرة في بركة ماء راكدة، فتقلب كيائها. لم يعد يعرف ما هي الحقيقة وما هو الوهم. لقد كان واثقاً بل ويُقسم بروح الأسياء أن جوزفين كانت على قيد الحياة وقامت بزيارته بعد أيلارد.

أيلارد!

هل كان هو الآخر وهماً، أم جوزفين لوحدها هي الوهم؟ لكن المشاعر التي مرّ بها هي الحقيقة المطلقة. هل تحدّد مشاعرنا ما هي الحقيقة، أم فقط ما هي إلا استجابة لغباتنا؟ لم يتمكن قلب جوهان من معرفة الصواب من الخطأ. دخل فجأة في حالة غريبة. اختفت الحياة من نظراته. النهاية. هذا ما شعر به. شعر بأنه في رحم المأساة، لكن هذه المأساة رفضت أن تلفظه خارجها. إنها تلفه من كل ناحية. لم يعد يصدّق شيئاً. نظر ليديه بعدم تصديق. لوهلة راودته فكرة أنه ليس على قيد الحياة. نظر حوله وكأنه يستخدم حواسه للمرة الأولى. شعر بالنسيم البارد يلفح وجهه، سمع صوت حفيف الأشجار. رأى أشعة الشمس على الأشياء من حوله. لكنه لم يعد يثق بها. لم يعد يثق في نفسه حتى. أظلمت نظرة جوهان أكثر وهو يقترب من شاهدة القبر. ركع أمامها وتلمّسها بأصابعه. لاح له وجه جوزفين من خلف الشاهدة وهي تبسم له، فانتفض قلبه لهفة تحوّلت إلى دموع بعدها.

هناك، عند شاخصة قبر جوزفين، اتخذ جوهان قراره. نظر إلى المكان من حوله في تهديد واضح. لمعت عيناه السوداء بتصميم رآه فيه أوليفر. قرّر وقتها أنه سيستقم. سيعرف كل شيء. عرف أن هناك حقيقة ما وأن ما جرى معه ليس محض صدفة. شعر بحضور أيلارد معه وصدى

كلماته يتردد في ذهنه.

هذا العالم يحتاجك. يجب أن تصرف. أنهي هذه الفوضى. أنا اخترتك لأنك الوحيد القادر على المضي في الطريق إلى نهايته، فلا تخف. سأكون عوناً لك. وسنلتقي مجدداً يوماً ما.

كانت هذه آخر كلمات سمعها جوهان من أبيلارد قبل أن يغمض عينيه ويفتحهما من جديد في منزل جوزفين. لا يعلم لمَ عادت إليه هذه الكلمات الآن، لكنه شعر بأنها كانت ضرورية له. اتخذ قراره بإصرار. سيعرف كل شيء عن هذا العالم، سيتقن لجوزفين ويلتقي بأبيلارد. سيكون أبيلارد فخوراً به يوماً ما.

تأمل أوليفر التغير الجذري الذي حصل لجوهان أمام عينيه. لم ينطق بحرف. شاهد الفتى وهو يمضي خارجاً من المقبرة. قام جوهان بمسح الدموع بكفيه ومضى. تبعه أوليفر ليطمئن من أنه سيصل بسلام، فقد كان يدرك الاضطراب الذي اعترى جوهان.

في الناحية الأخرى من بالينفورد استيقظت ناردين. نظرت حولها فلم تجد جوهان. انتابها قلق فخرجت من عربتها تبحث عنه. بحثت عنه بين جميع العجر. انتابها الملح وأصبحت تجري مذعورة تبحث عن جوهان. حاول جون تهدئتها. أخبرها أنه شاهد جوهان يبتعد في طريق بين بيوت بالينفورد. خطر على بالها أنه عاد إلى بيت ذلك الرجل الذي طرده. أسرعت الخطى لتخرج من الساحة لتجد جوليارد يدخلها ويسأل العجر عن جوهان. انتبه انهم لا يعرفون البالينية فغير بضع لغات إلى أن وصل إلى الكرداشية التي كانوا يتقنونها. أخبروه أنهم لم يروا جوهان منذ الصباح.

رأته ناردين من بعيد. تسارعت نبضات قلبها وهي تجري نحوه. خطر على بالها أنه قد أتى من أجل طفلها. أرادت أن توقفه عند حده وتحمي جوهان من بطشه. لم ير جوليارد ناردين وهي تُقبل عليه. أمسكت بتلابيبه وهي تصرخ بالكرداشية التي تتقنها ولا تتقن غيرها. أمسكها وثبتها بيديه القويتين. صرخ فيها بالكرداشية أن تهدأ وأنه ليس هنا لإيذاء جوهان. صمتت ناردين كما صمت العجر يراقبون ما يجري. تقدم منهم جون وعرف بنفسه لجوليارد. أفلت جوليارد ناردين من يده واعتذر لجون عما حصل. تفهم جون الموضوع وعمل على تهدئة ناردين. اصطحبهما إلى

عربته ليفهم ما يجري.

انتهى جوليارد وناردين من سرد ما يعرفانه لجون عند الجرس الثاني. وقتها وصل جوهان إلى ساحة هنري ودخل إلى عربة ناردين. لم يجدها هناك. لم يكن يفكر بها. كان عقله مشغولاً يريد أن يعرف ماذا ستكون خطوته التالية. استلقى على جنبه الأيمن وضم ركبتيه إلى صدره محيطاً بإيهاما بذراعيه.

سرح في أفكار تتحكم فيها مشاعر لا تؤدّي إلا إلى الهاوية!

دخل باتريك إلى عربة جون وأخبرهم أن جوهان قد عاد ومن خلفه رجل. ترك الجميع أماكنهم ليجدوا أوليفر يقف خارج عربة ناردين. التقى جوليارد بأوليفر وحيّاه. كان أوليفر الصديق الوحيد الذي بقي ملازماً لجوليارد، وهو الذي كان يجلب له طعامه. عرّف جوليارد أوليفر على جون وتبعوا ناردين التي مضت غير عابئة بأحد إلى عربتها، متلهفة لترى ابنها.

وجدته مستلقٍ على جنبه، شاردًا في لا شيء. أطلقت تنهيدة ارتياح ومالت عليه لترسم قبلة على وجنته. التفتت إلى الثلاثة خلفها وطمأنتهم أنه بخير.

كان جوليارد على وشك أن يتحدّث عندما أمسكه أوليفر. نظر إلى عينيّ صديقه فهز الآخر رأسه علامة النفي. قابله جوليارد بنظرة حنق. لن يترك جوليارد الفتى إلى أن يعرف كل شيء. اقترب منه أوليفر وهمس له بالبالينية التي كان واثقاً من أنها لا يعرفانها أنه سيخبره بكل شيء، فقد سبق وتحدّث مع الفتى.

هدأ جوليارد وتوجه إلى جون وناردين بالاعتذار. وعدهم بإعادة الزيارة في وقت لاحق وبطريقة مناسبة. حيّاه جون بصدر رحب، ممتناً أن كل شيء سار بسلام.

وجّه وقتها جون نظراته إلى جوهان الراقد في مكانه بلا حراك. راوده إحساس بأن هذا الفتى يحتوي الكثير من الأسرار. وعرف أن هذه الأسرار لن تتكشف بسهولة، وما خفي كان أعظم.

غادر جوليارد المكان إلى منزل أوليفر بعد أن همس له بأن لديه ما يخبره عن هذا الفتى. اكتفى جوليارد باتباع صديقه لأن عقله أصبح مشتتاً وقد استيقظت العديد من الأفكار والمشاعر دفعة

واحدة. لم يدرك جوليارد أن جوهان لم يفارق تفكيره منذ خرجا من عند الغجر. قلب جوهان كيان جوليارد كما لم يفعل أحد من قبل. وهذا ما كان أوليفر ممتثله وبشدة!

كان جوليارد على موعد لمواجهة عنيفة لمعتقداته ومسيرة حياته. ما سيقوله له أوليفر سيغير الكثير ويعيد التاريخ نفسه من جديد، لكن هل سيصل التاريخ إلى نفس النهاية، أم أن هناك منعطفاً قد يقلب الطاولة على الجميع؟ هذا هو السؤال الذي سيتحتّم عليه معرفته وما سيدفعه لخوض غمار مغامرة لا دليل فيها إلا حقيقة وجود طفل بلا أب أو أم يدّعي ما يدّعيه.

جلس جوليارد في منزل أوليفر ينتظر من أوليفر إخباره بما يعرفه. أخذ أوليفر نفساً عميقاً وهو يتوقع سيناريوهات محتملة لرد فعل جوليارد. عندما لاحظ أوليفر نفاذ صبر جوليارد وأن قدمه على وشك أن تحفر الأرض تحته من شدة الاهتزاز قرّر أن يدي بدله. أخبره بما يعرفه عن الفتى وعن الحوار الذي دار بينهما، استنتج أوليفر ما استنتجه جوليارد فوراً عن أن جوهان ليس من الغجر وأنه انضم إليهم مؤخراً. مما يجعل الغموض يكتنف مسقط رأس هذا الفتى.

فتى مجهول الأصل يأتي محملاً برسالة من أخته جوزفين التي توقّيت منذ وقت طويل! احتاج جوليارد لبضع لحظات ليدرك حجم المصيبة التي بدأ يفكر فيها.

قام من مكانه بكل هدوء وقد أثقله الهم. فلم يفكر بجديّة في موضوع منذ وقت طويل. احتوى ما أخبره به أوليفر على صفحة من الزمن طويت منذ أمد بعيد. أيقظ وصول هذا الفتى ملحمة لم تعد على المشاركين فيها سوى بالمأساة. أسند جوليارد يده على النافذة وهو يطالع الفتية يلعبون في الساحة.

كان جوليارد مدرّكاً لحقيقة موت جوزفين، لكن الطريقة الوحيدة لتصديقه هي بالاعتراف أن هناك عدة مراحل للموت على الإنسان أن يعبرها كلها ليموت، والكارثة هي أن يحدث خلل ما في هذه المراحل مما قد يؤدي إلى كوارث. لطالما كان الباحثون على قدر من العلم يمنعونهم من اللعب في الثوابت الكونية، ولطالما علمتهم الخيمياء ألا يقتربوا من منصة الموت، فالثمن الذي عليهم أن يدفعوه عظيم.

لكن وجود جوهان بينهم ينفي ما يحدث ويعيد الأساطير من جديد. هل تصل الخيمياء لحد

التدخل في سنن الكون وعمل الأسياد أم لا؟ وهل جوهان هو نتاج الخيمياء أم أن كل هذا هو مجرد وهم لا أكثر؟ هنا نعود لما يحرك الإنسان في المقام الأول؛ الأمل. هذا الدافع الذي يغري القلب على تحفيز العقل من أجل الوصول إلى الصورة المبهمة، متخذاً من العلم أدوات لإيضاحها. اتخذ جوليارد قراره. كان نفس القرار الذي اتخذ منذ زمن مضى، وهو القرار الذي اتفق مع جوهان.

وقع قرارهما تحت القاعدة الأولى والعظمى في الخيمياء: لا يمكن للبشر أن يحصلوا على شيء دون أن يقدموا أولاً شيئاً في المقابل. لتحصل على شيء عليك بتقديم شيء يساويه في القيمة. وهنا تكمن المشكلة. فالذي يسعى للحصول عليه هو ما يسعى الخيميائيون لتحقيقه ويمنعهم منه الأسياد. وما أسطورة الغجري إلا أمانى بُني عليها أحلام وأحلام. التفت جوليارد بعد أن اتخذ قراره إلى أوليفر. كان في عينه إصرار كان أوليفر في انتظاره. "أريدك أن تسدي لي خدمة."

ابتسم أوليفر لصديقه الذي بُعث من جديد...

استلقت ناردين بجانب جوهان لما رأت في عينيه من إصرار رهيب. كانت نظرة جوهان أكبر من عمره، وهذا ما لا تريده أي أم. لا تريد الأم لابنها أن ينضج، لأن دورها وقتها سينتهي. وكأن نضوج الطفل ينزع من الأم صفة الأمومة ويعيدها امرأة عادية. وهكذا كانت ناردين. ترى جوهان طفلاً وسيبقى طفلاً. لأن في وجوده تجد ناردين سبباً لبقائها.

استلقت بجانبه واحتضنته. تاهت في مشاعرها فلم تتمكن من تحديد ما يشعر به جوهان. هل هو بحاجة لحضنها أم أنه قطع رابطة الحب والحلب بينهما؟ وجدت نفسها متعلقة به وكأنها طفلته وليست أمه. لكن الأوان قد فات، فقد اتخذ قراره حينها.

لسبب لا يعرف كنهه، كانت الحكاية التي رواها له الغجري العجوز لا تفارق خياله. حكاية الغجري الأول.

تصارعت الأفكار في ذهن جوليارد وهو عائد إلى منزله. لم يكن من السهل قبول الأفكار التي كانت تُعتبر هرطقة منذ زمن. لكن إن كانت حقيقة لا تقبل النقاش فترك هذا الأمر والتعامل معه على أنه خرافة هو أحد أخطر الأخطاء التي قد يرتكبها خيميائيو وباحثو الأكاديمية. أيقن جوليارد مع اقترابه من باب منزله أن جوهان سيفتح باباً قد تم إيصاده منذ زمن. باب من الألم والمعاناة والحقيقة.

تفاجأ جوليارد بالباب يُفتح من تلقاء نفسه. أطلّ من خلف الباب زوجة أوليفر. ارتبك جوليارد قليلاً قبل أن يدرك خطط أوليفر منذ البداية. شكر ناتالي، زوجة أوليفر، على مجهودها في تحويل الخرابة التي يعيش بها إلى منزل حقيقي. فقد كان المنزل نظيفاً ومرتباً، تماماً كما كانت جوزفين تحافظ عليه. عتّت على باله جوزفين فاندفع بتهور نحو غرفتها، تاركةً ناتالي تنظر إليه مشدوّهة. فتح جوليارد باب غرفة جوزفين ووجدها على ما هي عليه.

التفت فوجد ناتالي وقد وضعت يديها على خصرها وقد ضيقت عينيها في نظرة تلومه. كيف تظن بي هذا؟ لن أقرب من غرفة هي أعزُّ عليك من حياتك التي تهدرها كل يوم؟ تنفس الصعداء ثم توجه ناحيتها بنظرة شكر.

ابتسمت ناتالي وهي تربّت على كتفه.

"جوزفين عزيزة عليّ كما هي عزيزة عليك. لكن عليك أن تفهم أن هذا الوضع لا يُرضي جوزفين. عليك أن تعود إلى سابق عهذك. لا أعرف ما الذي دفعك للخروج بعد كل هذه السنين، لكنني ممتنة لذلك من كل قلبي."

غادرت ناتالي البيت الذي انتهت من تنظيفه للتوّ، تاركة جوليارد وحده لينعم بسيل من الذكريات والمشاعر التي لا تنتهي. كانت هذه الذكريات طاقة لا تنضب، بقيت تملأ جوليارد من مخزونها الكثير والكثير، وتتلاعب بعقله أكثر وأكثر إلى أن اتخذ قراره. لاحت صورة جوزفين في خياله وهي تحتضن جوهان وتحبّه.

أن يوصل رسالتها لأخيها العزيز. أخوها الذي يحمل على أكتافه حملاً لو باء به جبلٌ خرّ

مُنهاراً في ثوان.

خرج من بعدها جوليارد إلى الطريق لا يلوي على شيء. لطالما استغرق في المشي عندما كان يستعصي عليه التفكير ويظن أنه وصل إلى جدار صلب.

لقد كان يُلقب بالجلمود. لكن هذا اللقب تواري عن الأنظار مع صاحبه. لم يكن جوليارد يدرك مدى تأثيره في الأكاديمية بعد أن غادرها. لطالما أُعجب كل من تعامل مع جوليارد بجانب من شخصيته. هدوءه، عدم تسرّعه، يتصرّف دائماً وكأنه يعلم كل شيء، مع أنه لم يُبدأ أبداً أنه يعلم كل شيء، لكن قدرته على التحكم في انفعالاته كانت السبب في انتشار هذه الصورة عنه. لقد كان مصدر الأمان في الأكاديمية.

لكن كل ذلك اختفى. يوم واحد كان كافياً. حدث الأمر برمته في لحظات سجلتها نبضات القلب. النبضات السبع الأخيرة.

استحالت الحياة من الأوج إلى الحضيض في سبع نبضات. سبع نبضات قلب احتوت حكاية اكتوى بها أحد أعلام الأكاديمية وجمودها الصامد، جوليارد.

كانت حكاية النبضات السبع تتكرر في قلبه كلما استيقظ وكلما مات. مأساة عليه أن يعانيتها بكل ما يملك من قوة قلب. لم ينفعه علمه ولا فلسفته. انهارت كل الثوابت والقواعد مرة واحدة... ولكن ليست إلى الأبد.

انطلق جوليارد إلى حيث يقبع جوهان عند الجرس الثامن. وقف لوقت طويل يتأمل الغجر من بعيد. عندما رأى ناردین، تذكر خطورة ما هو مقدم عليه. لقد كان يفكر في نفسه وجوهان طول الوقت. حلقة الوصل بينهما أعمق وأقوى من أي صلة بينه وبين العجربة. هذا ما كان في بال جوليارد. لكن ناردین كانت على شفى هاوية وهي تتعلّق بجبل نجاتها الوحيد؛ جوهان.

كانت ناردین على وشك أن تواجه فردین عنيدین ضرباً بمشاعرها عُرض الحائط لإدراكهما أن هناك ما هو أكبر من مجرد حياة عادية لأناس بالكاد يعرفون شيئاً عن الحياة.

كانت ناردین ترتّب الملابس حينما التفتت ورأت جوليارد ينظر إليها. انقبض قلبها وتركت

الملابس وأخذت تجري أمام نظر النساء المتفاجئات إلى حيث يرقد جوهان. احتضنته بقوة وقد علا صوت دقات قلبها على صوت الأجراس التي أخذت تصدح في المكان. تعلو وجهها نظرة رعب. لم تكن خائفة من جوليارد، كانت خائفة من جوهان! فقد كانت تعرف أن جوهان لا بد وأن يتركها. لا بد لها وأن تلفظه من رحمها وقلبها بهدوء وتسليم، لكن قلبها رفض بشدة. كانت تعرف أن جوهان في انتظار جوليارد. عرفت أنه وصل إلى ما كان يريد، نهاية الطريق، نهاية بقاءه مع الغجر، ونهاية بقاءه معها. كان أماً لا مناص منه، لكنها كانت تريد من القدر أن يمنحها مزيداً من الوقت، لا أن يهاجمها بغتة ويتنزعها منها.

اقترب باتريك من جوليارد يسأله عن حاجته. أخبره أنه جاء ليتكلم مع جوهان في أمر مهم. حاول باتريك تأجيل لقاءه بجوهان لما رآه من تعبير الفزع في عيني نارين وهي تركض ناحية جوهان. لكنه فشل في ذلك، فقد كان جوهان يقف خلفه، ومن خلفه وقفت نارين وهي تحيطه بذراعيها خشية أن يختطفه جوليارد ويمضي به دون عودة.

لكن حدسها كان مصيباً. فقد جاء جوليارد لأخذ جوهان. اقترب جوليارد من جوهان ناظراً إلى عينيه.

سارعت نارين بسؤاله بنبرة حادة. "ماذا تريد؟"

لم يكن جوليارد بحاجة لأن يجيب نارين، فقد كان يحدّق إلى الإجابة. كان جوهان يبادلّه نفس النظرات. لقد عرف جوليارد أن جوهان كان ينتظره، بينما تيقّن جوهان بأن جوليارد لم يتخلّى عنه. كان كل منهما يبتّ الأمل في قلب الآخر. اقترب جوليارد من جوهان بينما أقلت جوهان نفسه من بين يدي نارين. شعرت نارين وقتها بخواء غريب صاحبه شعور بالخيانة كسكين باردة تقطع لحمها. لم تكن تعرف أنّ القرار قد تم اتخاذه، وأن تبعات هذا القرار مصيرية. توجه جوهان إلى داخل الحجرة مبتعداً عنهما. همّ جوليارد باللاحق به، لكن نارين سدّت الطريق أمامه. كانت شرسة، على استعداد لتفتعل شجاراً في التوّ واللحظة. قرر أن من الأفضل أن يغادر دون أن يثير أيّ مشاكل، فما حصل إلى الآن يكفي.

خرج من عند الغجر بعد أن اعتذر لهم عن قدومه دون سابق إنذار. توجهت نارين نحو

فناها وقد اطمأنت أنها منعت جوليارد من الاقتراب منه. لكنها وجدت جوهان ساهماً. كان ينظر إلى الفراغ أمامه وعقله يملأ في مكان آخر. على شفثيه ارتسمت ابتسامة أسقطت قلب ناردين.

في الخارج، مشى جوليارد بشاقل. لم يكن محبطاً، بل لم ينتبه إلى الطريق من أمامه. سار على غير هدى، يفكر في النظرة التي رآها في عيني جوهان. في تلك اللحظة القصيرة تبادل أفكارهما. كلاهما مقبل على ما هو خطير. أحد المحرمات التي لا يجوز لأحد التفكير بها وإلا أصبح مهرطقاً يحارب الأسياد. ارتسمت ابتسامة على شفثي جوليارد. ما رآه في عيني الفتى كان كافياً ليعلن له تمسكه بجوزفين، وهذا هو المطلوب.

جوزفين أرسلت له بالفتاح؛ جوهان.

في تلك الليلة بقي جوهان بجانب ناردين. لم يقل شيئاً ولم تجرؤ هي على السؤال. لكنها عرفت بقلبها ما خشي لسانها عن النطق به. عرفت أنه راحل. بقيت طوال الليل تُقنع نفسها بالتخلي عنه. لكنها بكته بصمت طيلة الوقت. عرفت أنها يجب أن تلفظه من روحها قبل أن يلفظها من كيانه. جوهان لم يكن لها ولن يكون لها أبداً، لكن مع حلول الفجر كانت تقنع نفسها أنها لن تنساه وأنه لن ينساها.

عندما استيقظ جوهان، وجدها قد أعدت طعام الإفطار. تناوله في صمت. كان ينظر في عينيها اللتان لم تفارقا وجهه أبداً. كان يأكل وكانت تراقبه وكأنها تأكله هو لا الطعام!

بعد أن انتهى من طعامه بدّل ثيابه وودّعها. حضنته لوقت يُحسب بنبضات القلب. عشرة، عشرين...مئة...لا تعرف كم من النبضات تبادل قلبها مع فؤاده. أمسك بها بقوة. تلك القوة العجيبة للعناق الذي يقول كل شيء، ويبثّ الدفء والقوة والحب. ثم أفلتها. استدار مغادراً بعد أن ألقى التحية على أفراد القبيلة واستأذن من جون.

غادر جوهان، لكن لم يكن أحد يعرف أن صيته لم ولن يغادر وسط الغجر لأزمنة سحيقة. كان جوليارد يرتب هندامه أمام المرأة المتصدّعة. عاد إلى غرفة جوزفين يتأملها. لفت انتباهه مجموعة من الكتب مبعثرة على مكتبها. اقترب من المكتب وجلس يتصفح الكتب. كانت معظمها

عن اللغة والتاريخ. سرعان ما وجد نفسه محفوفاً بذكرياتها وملاحظاتها المدونة على الكتب. شرع في التهام الكتب من جديد. عاد إليه ذلك الشغف الذي اكتشف أنه لا يزال يحتفظ بآثاره مع ذكرى أخته الفقيدة.

دون أن يتنبه جولبارد كان هناك فتى قد دخل إلى المنزل. نظر الفتى من حوله ووجد غرفة جوزفين. كان الباب مفتوحاً وفي الداخل رأى جولبارد يقرأ ويتصفح الكتب والأوراق المصفرة.

اقرب الفتى من جولبارد وأمسك كتاباً بدوره وشرع في قراءته. اندمج كلاهما في بحر من الذكريات والعواطف، مصحوبة بجولة من الأساطير واللغات التي كانت محط اهتمام جوزفين يوماً ما. حاول كلاهما اكتشاف جوزفين. جوزفين الأخت. جوزفين الأم. جوزفين المرأة. وجوزفين الخيميائية. بقيت ملاحظاتها على هامش الكتب الدليل الأقوى والأكثر شاعرية على أنها في يوم من الأيام وجدت وتركت أثرها في هذه الحياة في قلبين كانا مخلصين لها. لقد لفظتهما من روحها وقلبها إلى هذه الحياة ليجتمعا معاً على أمل أن يكملا ما بدأته.

عندما رن الجرس الثالث، رفع جوهان وجولبارد عينيها عن الكتب ولاحظا وجود بعضهما. تبادلا ابتسامة بتبادلان فيها ضحكة عن حالتهما المزرية وقلة حيلتهما، ثم تابعا القراءة والتبحر. أرادا أن يقتربا أكثر من جوزفين في الوقت الحالي. كان عليها أن تبقى حاضرة في قلبيهما إلى أن ينتهي النفس وتَجفَّ العروق.

عادا إلى التبحر في قلب من وهبتها الحياة بموتها.

اختبار

كان على جولبارد أن يُعَدَّ جوهان لما هو مُقدِّم عليه. ما يعتمل في صدر جوهان أمرٌ يفوق الحدود العادية للعلم الذي وصل إليه العلماء، وطُرق تحصيله مخفوفة بالمخاطر إلى الحدِّ الذي دفع بالقائمين عليه إلى إخفائه عن الملاء ووضع العقبة تلو الأخرى في طريقه. لقد كان جولبارد بعيداً عن عالم أكاديمية بالينفورده للعديد من السنوات، لكن لا يمكنه أن ينسى القوانين الصارمة التي تحيط بذلك العلم المحرَّم والذي تم تحويله إلى حكايات خرافية وأساطير عن غجر وكواسر وأسياد يدَّعي أغلب الناس أنَّ لا أساس لها من الصحة.

كان جوهان طالباً قويَّ الملاحظة ونبيهاً. لاحظ جولبارد قدرته على الحفظ، وميَّز براعته في اللغات. تمكَّن جوهان من القراءة بأربعة لغات مما دفع جولبارد إلى الشكِّ بأنَّ الطفل الجالس أمامه قد يكون فعلاً على صلة بجوزفين؛ فقد كان يرى جوزفين في عينيَّ جوهان.

بعد مضيِّ بضعة أيام على رحيل جوهان، كانت ناردِين تجلس وحدها في حجرتها. رفضت المشاركة في تأدية الدور المنوط بها في المسرحية مما جعل جون يعيِّن جاكِلين بدلاً منها للقيام بهذا الدور، متفهمًا مصابها الجلل.

في ذلك اليوم حطَّ على شباك حجرتها طائر العنديل. ميَّزته ناردِين من صوته. التفتت له ورأته يغني وقد ملأ صوته حجرتها. اقتربت منه واستمعت إلى غناؤه. كان هناك شيء غريب فيه يذكرها بجوهان. كان يملأ عليها عزلتها. اقتربت من الطائر وداعبت منقاره بإصبعها. توقَّف الطائر عن الغناء وأغلق عينيه ليستمتع بمداعبتها له. مسَّدت على ريشه وقد تلقى اتصالها الجسدي بلطف.

من وقتها أصبح العنديل طائراً مألوفاً لها. أصبح نديمها في ليلها ونهارها. كانت تُطلقه إلى حياته في الخارج ليعود ويحطُّ على كتفها الذي صار مأواه. في يوم كتبت ناردِين رسالة على ورقة وربطتها بقائمتها قبل أن ترسله إلى هدفه. كانت فكرة مبنية على السراب. لم تكن تعرف إن كان العنديل سيوصل رسالتها أم لا، لكنها لم تتوقع أن النتائج قد تكون مبهرة. لقد أرسلت

العندليب قبل انتهاء بقائها في بالينفورد بيومين. أصابها الإحباط عندما لم يعد لها العندليب مع ظهور فجر اليوم التالي. جمعت أغراضها وحضرت نفسها للمغادرة وقد استفاقت من وهماها. ثم نظرت إلى نافذة حجرتها فوجدته واقفاً هناك، ينتظرها. ركضت إليه ونبض قلبها يتسارع. فكّت الرسالة المربوطة بشريطة زرقاء إلى قائمته. فتحتها وقرأتها. لقد كان الرد الذي انتظرته. بكت فرحةً لنجاح مسعاها وزيّنت رأس الطائر بقبلة حانية.

هكذا قد غادرت ناردين بالينفورد مطمئنة البال.

وهذا ما فعله العندليب.

طار العندليب مسافة طويلة في خط مستقيم وكأنه يعرف وجهته. ثم حطَّ على نافذة الغرفة التي كان جوهان يجلس فيها. انتظر العندليب برهة من الوقت قبل أن يعلن اعتراضه على تجاهل جوهان لوجوده، فأخذ يصدق بالغناء. انتبه له جوهان وراقبه وهو يغني. انتبه جوهان إلى الورقة المربوطة في ساقه، فسارع إلى أخذها. بقي العندليب يراقب جوهان وكأنه يستعجله في الإجابة لينقلها ويعود إلى بيته.

قرأ جوهان الرسالة واقطع ورقة وكتب عليها الرد، ثم ربطها بشريطة زرقاء وأعاد إطلاق العندليب، الذي بدوره طار عائداً إلى ناردين، حاملاً لها أملها على ورقة.

تمكّن جوهان من التفرّغ لما يريده ونفسه مطمئنة بأنه لم يؤذِ أحداً، فناردين نفسها لا تستحق الأذية.

استمر جوهان في التعلّم على يد جوليارد والذي بدوره اتخذها فرصة ليسترجع معلوماته بما أنه مخطّط للعودة إلى أكاديمية بالينفورد. تلك الأكاديمية التي يقصدها الجميع من أصقاع الأرض لينهلوا من علمها.

لكن الأمر كان مختلفاً مع جوهان، فهناك تحديات كثيرة في انتظاره. تحديات حتى جوليارد نفسه ليس مخولاً لأن يساعده فيها.

هكذا كان الأمر دائماً مع الأكاديمية، فهم يختارون من يصلح لتلقي العلم من الناحية الفكرية

والأكاديمية، ولا يوجد من ضمن المعلمين هناك من يجرؤ على مساعدة أحدهم في الدخول إلى الأكاديمية لأي سبب كان.

تعلم جوهان ما تمكن من تحصيله خلال السنة المنصرمة التي قضاها في بيت جوليارد. لقد أصبح هنالك اتفاق ضممني على العيش معاً، فيما يجمعهما أكبر مما يفرقهما.

بعد مضيّ عام جلس جوليارد مع جوهان بعيداً عن الكتب. كانت النظرة في عينيه جادة ومهنيّة.

"جوهان!"

تحفز جوهان لما سيقوله جوليارد. "نعم!"

"لقد أصبحت جاهزاً الآن لخوض اختبار الانضمام للأكاديمية."

لم يتوقع جوهان هذا. "ما هو هذا الاختبار؟"

تابع جوليارد. "اختبار في كل شيء وأي شيء."

تجاهل صعوبة الجملة التي نطق بها جوليارد. "فهمت."

"استمع جيداً. هذا الاختبار مهم لأنّه فرصة واحدة لا غير. سواء نجحت أو رسبت فهذا يعني شيئاً واحداً؛ إما أنك ستدخل الأكاديمية أو لن تطأها قدمك في حياتك."

"لماذا؟"

"ليس هناك فرصة أخرى. إما أن تقنعهم من المحاولة الأولى وإمّا فلا."

اضطربت نبضات جوهان لما أدرك حقيقة الأمر. أصبح مدرّكاً لخطورة ما قد تصبح عليه الأمور. لم يقطع كل تلك المسافة حاملاً معه آمال جوزفين وأبيلاارد ليفشل قبل أن يحصل على فرصة للمحاولة. عليه أن يكتشف كيف يدور هذا العالم وينفذ مهمته في إنقاذ جوزفين مهما كلّفه الثمن.

رَبَّتْ جوليارد على كتفه مطمئناً. "لا تقلق. ابذل مجهودك، عسى أن نلتقي في الأكاديمية، عندها سيبدأ العمل الحقيقي."

لم يكن مسموحاً لجوليارد أن يُخبر جوهان بأكثر من هذا. غادر جوهان المنزل عند الجرس الثاني ليتوجّه إلى الأكاديمية أعزلاً من كل شيء إلا عقله وسرعة بديته.

كان الطريق إلى الأكاديمية معروفاً فقد كانت تقع في وسط بالينفورد. لقد وُجدت الجامعة قبل المدينة بكثير وأصبحت الحجر الأساس لبالينفورد فيما بعد. سرعان ما احتوت مكتبة الجامعة على أكبر كمّ من الكتب النادرة والمتنوعة في مختلف العلوم. لم يتمّ رفض كتاب أو إتلاف كتاب منذ نشوء الجامعة. كل عام يسافر فيه أحد المعلمين يعود إلى الأكاديمية ومعه بحث أو كتاب قد ألفه أو نسخة من كتاب نادر قد حصل عليه حتى وإن لم يكن قادراً على ترجمته، فهناك قسم للكتب التي تنتظر من يترجمها. مجالات العلوم التي تُعنى بها الأكاديمية متبّعة ومتنوعة.

كان جوهان متجهاً إلى تلك الأكاديمية لينهل من علمها ويجد إجابة لأسئلته، مثله مثل بقية الباحثين والعاملين من قبل. لكن أسئلته تلك كانت عصيّة على البوح. لطالما حذّره جوليارد خلال الوقت الذي قضياه معاً من أن يكشف عمّا يعتمد في صدره لأحد، مخفياً عنه السبب الحقيقي الذي يدفعه لذلك. لم يكشف جوليارد حتى ماهية الأسئلة أو طبيعتها لجوهان، مع العلم بأن جوليارد كان حريصاً أكثر من جوهان على نجاحه.

وصل جوهان إلى الأكاديمية. وجدها عبارة عن عدة مبان واسعة وضخمة. كل مبنى مكون من طابق واحد ذو ارتفاع شاهق تعلوه قبة. خمس مبان تعلوها خمس قباب. كل قبة تحمل نقوشاً من لغة معيّنة تمكّن جوهان من تمييز ثلاثة منها، وهو ليس بالرقم اليسير. فنادراً ما يدرك أي طالب يدخل إلى أكاديمية بالينفورد أكثر من لغتين أحدهما هي الباليينية بنفسها.

تقدم جوهان من البوابة ليوقفه الحارس. أخبره بنيتّه في الخضوع لاختبارات الانضمام إلى الجامعة. طالعه الحارس بنظرة غريبة وسلّمه ورقة مطوية وهو يداري نظرة الأسى على الفتى وأحلامه الواهية. فجوهان كان فتى في الرابعة عشر من العمر، بينما أصغر طالب في الأكاديمية لا يقل عمره عن سبعة عشر سنة.

فتح جوهان الورقة ووجد فيها: المتقدم رقم خمسة وسبعون. قبة ثلاثة: كلام، تاريخ، فلسفة، منطق.

أدرك أن هذا هو عنوان قاعة الاختبار. توجه إلى أحد المباني ووجد مكتب الاستقبال. استعلم من الموظفة هناك ودلته على موقع ومواصفات القبة الثالثة.

غادر جوهان نحو مقابله المصيرية، مأخوذاً بالمناظر من حوله. كانت الأكاديمية صرحاً كبيراً بثّ الهيبة في نفس جوهان مما أشعل الحماسة في صدره. أراد أن يجتاز الاختبار أكثر من أي شيء آخر.

توجه جوهان إلى القاعة خلف الطلاب. انتبه إلى أنهم يحملون قصاصات ورقية تشبه التي كان يمسك بها. تبعهم ورآهم يدخلون إلى القاعة الكبيرة.

دخل وسأل أحد المساعدين والذي كان طالباً في السنة الثانية، نحيل، أسمر البشرة، يتحدث بالينية بلسان ثقيل غير معتاد على هذه اللغة. تمكن جوهان من معرفة أن البالينية ليست لغته الأم، لكنه عجز عن تمييز إن كانت الفارسية أو الجارتية هي لغته الأم. كان الفتى بشوشاً على الرغم من عدم قدرته على إخفاء استهزاء بجوهان. امتنع جوهان من ذلك فتوجه له بالسؤال.

"ماذا هنالك؟"

تفاجأ الشاب "ماذا تقول؟"

"لماذا تنظر إليّ هذه النظرة؟"

لم يجد الشاب مانعاً من الإفصاح. "لقد وقعت في الفخ، يا لك من مسكين!"

عقد جوهان حاجبيه وانتظر تفسيراً، وهذا ما لم يخل به الشاب.

"لقد تم إعطاؤك هذه الورقة لكيلا تنتسب إلى الأكاديمية."

"لماذا؟"

"لقد تم الاستخفاف بك. أيها الأحمق، فمن أعطاك هذه الورقة ليس حارساً."

"ماذا تقصد؟"

نظر الشاب حوله ليتأكد من أن لا أحد يتابع حديثه، ثم التفت إلى جوهان وأسرّ له. "الذي أعطاك هذه الورقة هو أحد مؤسسي هذه الأكاديمية. همّ بنفسيهم من يستقبلون الطلاب الجدد ويوزعون عليهم أوراق جلوسهم في الاختبار. معنى أنه أرسلك إلى هنا يعني أنه لا يريد أمثالك في الأكاديمية."

"لماذا؟"

"لأنك لم تصل إلى المستوى المطلوب. هناك سنّ معينة يمكنك عندها التقدم لاختبارات القبول في الأكاديمية. كم عمرك؟"

"عمري أربعة عشر سنة."

تراجع الشاب في ذهول. "لا تقل لي!"

"ماذا؟"

"تبدو أكبر من سنك. ظننت أنك في السادسة عشر على الأقل."

"لا. أنا في الرابعة عشر."

"لهذا أعطيت ورقة التقدم لاختبار اللغة."

"ماذا تقصد؟"

"اختبار اللغة يُعدّ الأصعب في الأكاديمية. أصعب من اختبار الأعشاب أو الرياضيات أو الكيمياء، لأنه يهتم بالعديد من النواحي في النظام التعليمي. فاللغة والفلسفة والمنطق هما ما يجمعان بين العلم وقيّمته. إن لم يكن لديك العلم الكافي، فكيف ستُشكّل رأياً بما ستُسأل فيه، وكيف ستتمكن من التعبير عنه إن كان الاختبار يحتوي إحدى اللغات التي لا تعرفها؟ لقد أعطاك المسؤول هذا الاختبار لأن وجودك في حد ذاته استهزاء بالأكاديمية، فهي ليست للأطفال. ولهذا رغب البروفيسور أن يوجّه لك ولأهلك صفقة لن تنساها ما حييت. ستعود

خالى الوفاض من الاختبار. ثم اختبار الفلسفة هنا ليس كما تعرف."

"ماذا تقصد؟"

"سترى بنفسك. إنه مزيج من التاريخ وعلم الفلك والقرارات العلمية البحتة، لكنه يكشف ما أصبحت أنت عليه."

"لماذا إذن يكون هذا موضوع اختبار للدخول؟"

"العبة نفسية. هذه القبة يجتمع تحتها كل من ليس مرغوباً في انضمامهم إلى الأكاديمية، بمعنى آخر، أنت رسبت منذ اللحظة التي سلّمك الأستاذ هذه الورقة. فلا أحد ينجح في اختبار تحت هذه القبة بالذات."

قال بتعجب لما يسمع. "لكنهم أعطوها للكثير من الطلاب."

تابع الشاب وكأنه كان يتوقع إجابة جوهان. "أجل، أعرف. أكاديمية بالينفورد تجتذب العديد من الطلاب من مختلف المدن في بقاع العالم. لذلك يرفضون أغلبهم. وهذه هي طريقتهم." التمتعت عينا جوهان بالأمل. كان من المفترض أن تثير كلمات هذا الشاب خوف جوهان وتبدّب فيه اليأس، لكنه كان يثق بجوليارد، وهو تتلمذ على يد جوليارد وكُتِبَ جوزفين. لقد راوده إحساس بأن جوزفين تعرف المكان الذي أرسلته إليه، وقد سلّحته بكتبها لأنها تثق به، ولن يخون جوهان هذه الثقة.

قد يبدو للكثير من الناس أن هذا تفكيرٌ أخرقٌ صادرٌ من فتى أرعن. لكن لجوليارد وجوزفين رأيٌ آخر. تعلّقت الآمال على هذا الفتى، ولا يوجد حلّ آخر إلى عن طريق خوض هذا الاختبار. شكره جوهان على إخباره بهذه المعلومات القيّمة والتفت ليتجه إلى مقعد رقم خمسة وسبعين. ارتبك الشاب من ردّة فعل جوهان مما دفعه إلى سؤاله. "هاي، أيها الفتى!"

التفت له جوهان. "ماذا تريد؟"

"ما اسمك؟"

"اسمي جوهان."

"وأنا أدعى أرمانوس."

قال جوهان بعفوية. "سررت بمعرفتك أرمانوس. سنلتقي بعد الاختبار."

ابتسم له مشفقاً. "بالتأكيد، سنلتقي."

أُعجب أرمانوس بشخصية جوهان، لكنه كان يأسف على حاله. لم يكن يريد أرمانوس أن يكن مراقباً في هذه القاعة، فبعد قليل ستعالى أصوات النحيب من أسفل القبة التي اشتهرت بين طلبة الأكاديمية بلقب قبة الجحيم!

جلس جوهان مكانه وانتظر مع البقية أن تُوزع أوراق الاختبار. تقدم أحد الأساتذة وحياهم. كان من خلفه مجموعة من عشرة طلاب كل منهم يحمل رزمة مهولة من الأوراق. بعد إلقاء التعليمات، أخبر الأستاذ المراقب تلامذته بتوزيع أوراق الاختبار. استلم جوهان أوراق الاختبار خاصته ليتفاجأ أن الاختبار يتكون من عشرين صفحة!

مع صوت الجرس الرابع بدأ الاختبار. قلب جوهان الورق وكتب اسمه على رأس الورقة الأولى. معه حتى حلول الجرس السادس لينهي الاختبار المتكون من أسئلة تحريرية عن الكلام والمنطق والفلسفة والتاريخ.

لم يكن الاختبار سهلاً، وفق أي من المعايير، فلم يكن يتبع الاختبار أي من المعايير أساساً. لم تكن الأسئلة مرتبة حسب الموضوع أو اللغة. كانت الصفحات مرقمة، كل صفحة تتحدث عن موضوع مختلف وقد كتبت بلغة مختلفة. على المُمتحن أن يفكر باستخدام عدة لغات في الوقت نفسه ويغيّر مجال تفكيره في كل صفحة. تكوّن الاختبار من عشرين صفحة، كل صفحة تشمل سؤالاً واحداً بلغة تختلف عن لغة السؤال السابق أو اللاحق، وموضوع مختلف.

مع انتهاء جوهان من إجابة السؤال الأول، بدأت سمفونية النحيب تملأ أرجاء القاعة. بدأ الطلاب في القراءة وعرفوا أنهم غير قادرين على الإجابة على السؤال الأول. ثم انتقلوا إلى الثاني فالثالث، ومن هنا بدأت المأساة. عرف الطلاب أنهم لن يتمكنوا من الإجابة على أي سؤال في

الاختبار. ازداد توترهم بعد أن حاولوا التفكير في إجابة ممكنة. كانوا يريدون أي إجابة حتى لو اختلقوها! لكن الواقع صدمهم لمعرفة أنهم غير قادرين على تأليف أي إجابات. لكن طبيعة الأسئلة كانت على نحو غير متوقع.

في الناحية الأخرى، كان جوهان يعزل نفسه عن هذا العالم بتمرين تنفس علمه إياه جولبارد. توقع جولبارد أي اضطرابات قد تحدث لجوهان داخل قاعة الاختبار فكان منه أن علمه تمرين تنفس بسيط يستعيد فيه رباطة جأشه كلما شعر بحاجته إليه. ركز جوهان تنفسه بعمق وببطء قبل أن يغلق أذنيه عن الأصوات من حوله وبدأ في قراءة الأسئلة.

ليس من المسموح أن يعرف أحد عن ماهية هذه الأسئلة، لذلك يتم حرق الأوراق بعد الانتهاء من التصحيح، لئيم أخذ الرماد إلى المعامل من أجل إعادة استخدامها في صناعة مواد جديدة.

كان أول سؤال قرأه جوهان غريباً وفريداً من نوعه. كان على رأس الورقة تصنيف السؤال: تاريخ. وأسفل العنوان أطل عليه السؤال بكل بساطة: ما هي أول حالة صرع في التاريخ؟

توقف جوهان أمام هذا السؤال بضع لحظات. ليس لأنه لا يعرف الإجابة، بل لأنه لا يعرف أي من الإجابات كان مناسباً للسؤال! فكان مرض الصرع موجوداً منذ الأزل! لكن كان هناك اختلاف ما إن كان السؤال يريد أول حالة صرع معترف بها أم أول حالة صرع تم اكتشافها لاحقاً بأنها حالة صرع؟ هل يذكر الأساطير التي تتعلق بهذا المرض أم لا؟ وهل يذكر المرض حسب التشخيص المورود لدى أهل بالينفوردي أم حسب أهل إنفار؟

كان هناك نزاع قديم حول أول مريض صرع، لأن الطبيب شتاين من إنفار ادعى أنه وجد مرض الصرع وشخصه لدى والدته. فكانت والدته هي أول مصابة بالصرع قد تم تشخيصها.

لكن لدى بالينفوردي طبيب يدعى غوثر شخص المرض لدى إحدى الفتيات في الدير الذي كان يعالج فيه المصابين دون مقابل، وقد كان اكتشافه معاصراً لاكتشاف شتاين لكن بتشخيص مختلف.

انتفض جوهان فجأة وهو يفكر في السؤال. أعاد قراءة السؤال والتصنيف مرة أخرى. كان السؤال مفهوماً ويتبع تصنيف التاريخ. كان السؤال يطلب منه حالة الصرع الأولى وليس التشخيص، لكن ليس هذا ما لفت انتباهه. كان السؤال مكتوباً بلغة أخرى غير الباليانية والفارسية! كان مكتوباً باللغة الجارتية. لغة أهل جارتا. الآن عرف الإجابة. فلغة أهل جارتا لا تحمل مصطلح الصرع. لذلك لم ينتبه جوهان للأمر في البداية. فكلمة صرع في الجارتية مأخوذة من الباليانية، لذلك تُكتب بالباليانية وسط الجملة. التلاعب باللغة أدى إلى تضليل القارئ الذي راح يفكر في أول حالات الصرع المعروفة لديهم، لكن اللغة تخبرهم بصريح العبارة أن السؤال يحتوي إجابة واحدة وهي التي يعرفها شعب جارتا. ولذلك لم يكن الجواب في وجود صرع أم لا، فأهل جارتا لم يعرفوا هذا المرض من قبل، لذلك لا توجد كلمة في اللغة الجارتية لتُعبّر عن هذا المرض. يُضاف إلى ذلك أن أهل جارتا لم يكونوا مهتمين في الجوانب الطبية بينما اهتموا في الزراعة والأساطير! فلفترة طويلة ارتبط المرض لدى أهل جارتا باللجنة المرتبطة بالأسياء، فمن يُصاب بالمرض فهذا لأنه لم يُرض الأسياء ولذلك عاقبه على فعل مشين قد أغضبهم. أي أنه لا يوجد لديهم مسمى لمرض الصرع لكن لديهم تشخيصه. لديهم حكاية تروي بالضبط الأعراض التي يُصاب بها مريض الصرع، وهي الرواية التي اعتمد عليها شتاين وغوثر خلال بحثهما عن المرض وعلاجه.

كان الجواب مكتوباً في حكاية خرافية قرأها جوهان في إحدى كتب جوزفين القديمة التي احتوت ملاحظاتها، حكاية تبدو من الوهلة الأولى مجرد أسطورة من عالم الأسياء، لكنها تُخفي في ثناياها معانٍ كثيرة، منها الدليل على الاكتشاف الطبي المتعلق بمرض الصرع، فقد استنتج الأطباء وعلى رأسهم شتاين وغوثر أن موقع هذا المرض هو الرأس وليس القلب، مما أدى إلى التعامل مع الأعصاب خلال التشريح للمرة الأولى منذ قرون.

كانت الحكاية عن جيتان صديقتان منذ الطفولة. كبرتتا معا وعاشتا رفقتين منذ فتحتا عينيهما في عالم الأسياء. تيفاني وويندي. كانت ويندي محبوبة من قبل الجميع ومعروفة بجهاها. لذلك انجذب لها الملاك سانتوس. حاولت تيفاني أن تحوز على إعجاب سانتوس، لكن دون جدوى. فازت ويندي بقلب سانتوس مما أضرّم النار في قلب تيفاني، والتي أخذت على عاتقها مهمة أن

تُحِل حياتها جميعاً حقيقياً. تتخلّص تيفاني من ويندي بزرع زهرة القانوس، وهي زهرة نادرة تسبب الهلوسة إن اشمّت أحد روائحها لمدة ثلاث أسابيع متتالية، وإهدائها إلى ويندي. مرّت الأسابيع الثلاثة وبدأت ويندي في الهلوسة. تسببت هلوستها في مشاكل لا حصر لها مما أدى بانتوس إلى تركها. لكن ويندي كانت ذات حساسية عالية مما أدى إلى ازدياد تأثير النبتة عليها وبالتالي أدى ذلك إلى سقوطها من على جزر القمر، وهي المكان الذي يعيش فيه الأسباد، إلى الأرض التي يعيش عليها البشر. وغرقت ويندي في البحر وسط هلوساتها إلى أن ودّعت آخر نفس فيها.

شعر بعدها سانتوس بتأنيب الضمير لتركه ويندي وهي في حالتها تلك. بحث عنها مطوّلاً ولم يجدها. عاد إلى المنزل ليجد تيفاني في انتظاره. كان ضعيفاً وبحاجة إلى حضن يؤويه، وكانت تيفاني ذلك الحضن.

بعد مرور عدة أشهر يستيقظ سانتوس من نومه إثر كابوس يتعلّق بويندي. نظر حوله فوجد تيفاني نائمة بجانبه وهي تحلم. كانت تعترف خلال حلمها ألا علاقة لها بوفاة ويندي. صُغق لمعرفة أن ويندي قد ماتت ولم تهرب كما أخبرته تيفاني تلك الليلة التي بكى في حضنها. اشتعل غضباً وقرر أن يستنطقها بطريقة يستخدم فيها دهائه، فهو يعرف أن تيفاني لن تخبره عن حقيقة ما حصل لويندي ولو بشقّ الأنفس.

ذهب وقتها إلى والدته وسرد لها ما حصل. أخبرته أن يحصل على نبتة الدرّ القرمزي، فكان معروفاً عنها أنها نبتة الحقيقة. في اليوم التالي وصل سانتوس إلى بيته وأعد الشاي الذي أضاف إليه نبتة الدرّ القرمزي. لم يكن يمانع من أن يتناول الشاي معها فتأثير النبتة لا يتعدى إجبار من يتناولها على قول الحقيقة.

تناولا الشاي ومن ثم التفت إليها سانتوس وفاجأها بسؤاله عما جرى لويندي. وجدت تيفاني نفسها مدفوعة إلى الإجابة وسط دموعها التي سقطت بغزارة على وجنتيها. أصيب سانتوس بالدعر وتركها ورحل. نزل من جزر القمر إلى الأرض لبحث عن ويندي. غاص في أعماق البحر ثلاثة أيام إلى أن عثر على جثة ويندي تحرسها الدلافين! اقترب منها ورفعها وعاد

بها وصوت نشيجه يملأ السماء. كانت دموعه هي البداية لما يُعرف بالمطر، فقد استجلب بكأؤه ونحيبه عاطفة كل من لديه قلب من الملائكة والجنيات، فبكوها وبكوه بحرقة. تشكلت دمعاتهم مطراً تسقي هذه الحياة من جديد. في كل مرة تمطر، يسترجع أهل جارتا هذه الحكاية ويعرفون أن الملائكة تبكي فيقولون في البيت ليتركوا الأرض تستقبل النحيب وحدها.

لكن ليس هذا هو الجانب الذي أراده جوهان. فلتلك القصة تكملة لا يعرفها الجميع، وكانت جوزفين على دراية بها.

عندما عاد سانتوس إلى المنزل لم يتمالك أعصابه وفقد السيطرة على قلبه وأصيب بالجنون. هذه هي الجزئية التي اعتمد عليها الأطباء في بداية البحث عن مصدر الصرع والجنون ليعتقدوا أنه القلب. لكن التفصيل الأهم كان في عقاب تيفاني. فقد قامت والدته تيفاني بالانتقام منها أشد انتقام. فالأسطورة تقول إن والدته سانتوس قد أكلت جزءاً من دماغ تيفاني مما أدى لأن تفقد تيفاني السيطرة على نفسها وانفعالاتها. تمكنت والدته سانتوس من أن تُسبب لتيفاني نوبات من الشنَج وتصلب العضلات والصراخ والتعب والإعياء، بما بدا لها هذا مسلياً. منذ ذلك اليوم بقيت تيفاني على قيد الحياة وهي تصارع تلك الحالات التي تغافل عنها أهل جارتا وبقيت مُتجاهلة لوقت طويل حتى وصلت الحكاية الى اللغة البالينية والفارسية ووصلت بدورها إلى الطبيب شتاين وغوثر.

يبقى السؤال هنا: ما الذي كتبه جوهان؟ هل يكتب اعتقاد أهل جارتا بآلا وجود لهذا المرض، كونه لا يوجد في قاموس اللغة الجارتيّة، أم يعتمد على السؤال نفسه الذي يسأل عن المرض باعتبار أمر وجوده حقيقة لا تقبل النقاش؟ وهل يتحدث السؤال عن الأسطورة أم ما دونه التاريخ بين غوثر وشتاين؟

فكر جوهان لوضع ثوان بعد أن أخذ نفساً عميقاً وشرع في كتابة إجابته.

كانت الأسئلة في الاختبار عديدة ومتنوعة وتحمل في طياتها ألف معنى ومعنى. منها ما هو متعلق باللغة والفلسفة ومنها ما هو متعلق بأمور أخرى لا تبدو واضحة للقارئ منذ القراءة الأولى. ومنها ذلك النص الذي اضطرّ جوهان إلى قراءته ثلاث مرّات حتى استوعب حقيقة

النص.

كان السؤال واضحاً بالفارسية: جد الرسالة الحقيقية في هذه الرسالة.

كانت الفقرة مكتوبة بالكردانية القديمة قبل أن تتطور وتصبح ثرية بالاستعارات. انتشرت هذه اللغة مع انتشار الغجر بعد مرور مئة عام على حكاية الغجري الأول، أي ما يقرب من أربعمئة عام من تاريخ جلوس جوهان على كرسي الاختبار. ليس هذا ما أقلقته فقد تعلم جوهان أن اللغة الكردانية انطلقت من منطقة كانت تغلب على سكانها النساء. كان عصراً معروفاً باضطهاد المرأة ومنعها من القراءة والكتابة، لذلك لم تكن هذه اللغة ثرية، لغياب المرأة عنها. كانت اللغة تقتصر على الحياة إلى أن تدخلت الأنثى وأحيته، وهذه إحدى الأسباب التي من أجلها يقدّر الكردانيون الحديثون اللغة. وهنا لا نشير إلى الكردانيين الذين عاشوا في تلك الفترة. بل الكردانيون الذين نجوا من عمليات الإبادة والتشريد والتي تحافظ السلطات في شتى المدن على الاعتراف بعدم حصولها، حيث أنهم عزوا اندثار الكردانية القديمة إلى طاعون انتشر قبل ثلاثمئة عام.

لكن ما حصل كان غير ذلك. فقد تمت مهاجمة كرداش قديماً وتم تشريد من بقي منها بعد هروبهم من المذبحة التي حصلت لسبب لا يزال طيّ الكتمان. هذه كانت إحدى الحكايات التي لا يزال العجوز يرددها على مسامع جوهان من فترة لأخرى، فكان العجوز الغجري إحدى القلائل الذين عرفوا عن هذه الحكاية ولذلك ربطها بالغجري الأول.

كان هناك سرٌّ يتعلّق بالغجري الأول وما كان قادراً على القيام به، مما أدى إلى اعتبار شعب الغجر نسلًا يجب التخلص منه وتجريده مما هو فيه وطمس هويتهم وتغييرها خوفاً من أن يخرج من صلبهم من يكون ذاد صاف من نسل الغجري الأول. تشتت الغجر وقتها وضاع نسلهم فلم تعد ترى غجرياً أصيلاً من أب وأم غجريين من أحفاد من قُتلوا في تلك المذبحة السريّة. لكنهم لم يكونوا على علم بأن ما فعله الكردانيين قد أفاد اللغة حيث استخدم بعض من الغجريين قدراتهم ومعرفتهم اللغوية في تطوير اللغة الكردانية والاستعانة بمعرفتهم باللغات الأخرى لابتكار أساليب لغوية مثل الإطناب والتورية وأساليب بلاغية لا يُقنعها إلا الغجر، ويستخدمونها في

أحاديثهم التي لا يمكن لأحد فهمها حتى وإن كان من يسمعها يتقن لغة العجر.

قام جون بتعليم جوهان بعض الخدع والأساليب اللغوية والتي نشأ عن طريقها ترميز معروف لديهم. كان هذا الترميز غريباً على مسامع جوهان لأن السؤال كان يبحث عن رسالة خاطئة. تلك الرسالة الخاطئة كانت عبارة عن جملة ما، لكنه عجز عن إيجادها. ثم عنّ على باله هذا الخاطر عندما تذكر تلك الخدعة اللغوية البسيطة.

نظر جوهان إلى السطر الأول. إن تمكّن من إيجاد الرمز المطلوب، فكل ما عليه أن يحلّل السطر الأول، عن طريق معرفة اتجاه القراءة!

إن وجد أول حرف من الجملة وقد كُتب من اليسار إلى اليمين، فهذا يعني أن الرسالة مكتوبة من قبل امرأة، لأن النساء كنّ يرمزن كتابتهن بهذه الطريقة، فعندما يكون الحرف الأول من الجملة من اليسار إلى اليمين، فهذا معناه أنها ترسل رسالة لامرأة أخرى. عليها أن تقرأ الجملة من اليمين لليسا، ثم من اليسار إلى اليمين.

عند قراءة الجملة في المرة الأولى تحمل معنى، وعند قراءتها من اليسار إلى اليمين، تحمل وقتها معنى آخر. لذلك يكون النص عبارة عن رسالة مُدججة. تلتقط المرأة الأخرى ورقة وتدوّن عليها النص مرتين، مرة عندما تقرأها من اليسار إلى اليمين ومرة عندما تقرأها من اليمين إلى اليسار.

عند وضع الرسالتين بجانب بعضهما البعض، يمكنها وقتها أن تعرف الرسالة الحقيقية التي أرادت المرأة الأخرى أن ترسلها.

لقد كانت ناردين تلعب مع جوهان بتلك الطريقة؛ حيث تكتب له لغزاً وعليه أن يحلّه بنفسه خلال اليوم ليعود لها بالجواب في آخر النهار. وهذا ما ساعده على المضي في حل اللغز الرابض أمامه.

بعد أن انتهى، قام جوهان بكتابة الرسالة التي حصل عليها والتي هي رسالة تخبر متقدم الاختبار بالتالي: أنت لن تنجح في هذا الاختبار ما حييت! تابعت الرسالة سرد الأسباب المهيئة للمتقدم وإخباره أن الاختبار الذي بين يديه قد كُتب لسبب واحد؛ وهو أن يُريح الأكاديمية من

انتساب أمثالهم إليها.

كتب جوهان الرسالة في حنقٍ وطوى الصفحة.

تقدّم نحو السؤال التالي بعد أن قام بتمرين تنفّس بطيء يعيد إليه هدوء أعصابه.

كان السؤال يتربّص به، واضعاً أمامه جملة بسيطة، والعديد من الرموز.

السؤال كان كالتالي: كم هو المقدار الملائم من كل من العناصر التالية للقيام بعملية التحويل البشرية؟

كان السؤال مكتوباً باللغات كلها؛ الجارتية والكرداشية والبالينية والفارسية. صيغة السؤال هي ما جعلت الضربات في صدر جوهان تزداد عنفاً!

التحويل البشري. إحدى المحرمات التي لا يعرف الكثير عنها. لا يمكن لأحد أن يعرف عنها. ظلّ جوهان أن هناك خطأ ما. فقد كان السؤال يجمع بين اللغات جميعها وبين العلوم التي قرأها كلها. لكنه لم يدرك ماهية عملية التحويل البشرية، فلم يدرس عن هذا الأمر من قبل. فكر جوهان بالسؤال بروية. كان يعرف أن هذا الموضوع مخصّص لمن هم في مستوى عالٍ من المعرفة والعلم والفلسفة.

تابع جوهان قراءة الرموز التي أمامه. هنا وجد ما حيره. رموز مختلفة لحيوانات مرسومة بدقة داخل دوائر بترتيب معين على شكل دائرة. بدءاً برمز الأسد، ثم الثعلب، فالخنزير، فالماعز، فالدب، فالأفعى، ويتوسط الدائرة رمز التنين.

أدرك وقتها جوهان أن ما يريده السؤال هو فكرة فلسفية لا أكثر، مما جعل الأمر أكثر صعوبة. هنا لا يتعامل جوهان مع التاريخ أو الرموز أو العلم، هنا هو يتعامل مع فلسفة قد تتعلّق بالفلسفة الخاصة أو العامة. فلسفة تتعلّق بجميع العلماء، فلسفة تتعلّق بالفرد المنضمّ إلى تلك الجماعة. أي أن ما يميّزك حتى الآن هي فلسفة، ومن سبّب قيام الحروب وارتكاب الخطايا هي الفلسفة بعينها. فهي الناتج الأخير لاجتماع كل هذا فيك.

مهلاً، خطايا؟

انتبه جوهان لهذه الملاحظة. فكرة عبرت خاطره كالبرق لكنها تركت أثراً عميقاً.

لم يكن جوهان ينتبه للعيون التي كانت تراقبه، فلم يكن يدرك كم كانت هيئته تشد البروفيسور الذي أخذ بمراقبه الفتى الذي لم يفقد تركيزه ولا لحظة واحدة، وسط العويل والصراخ. بقي البروفيسور يدرس حالة جوهان ويراقب أصابعه وهي تخطّ الأسطر وتطرح إجابات كان يتوق لمعرفة.

لكن جوهان كان في عالم آخر. نظر إلى الرموز وبدأ في الاستنباط. تذكر شيئاً قرأه عن الخطايا السبع المميتة. أدرك وقتها أنّ عليه أن يحلّ لغز الرموز ويستنبط الخطايا. ولم يكن الأمر صعباً عليه، فالكل يعرف بأمر الخطايا السبع المميتة. لكن ما يطلبه السؤال أمر خطير ومربك. فقد يكون سبب قبول جوهان في الأكاديمية أو رفضه منها!

السؤال يطلب منه أن يتعامل مع الخطايا السبع المميتة على أنها موادّ يتم استخدامها في عملية التحويل البشري، أي أنك تمتلك جثة وتحاول أن تملأها بالخطايا السبع المميتة بنسب متفاوتة لتصنع الإنسان الذي أنت عليه.

الغضب، الحسد، الطمع، الكسل، الشهوة، الشراهة، الكبرياء.

تمكّن جوهان من أن يفهم أن عليه أن يتعامل معها كمواد لصنع شخصية الإنسان. الشخصية التي ستمثل نفس وسلوك وتصرفات هذا الإنسان. أي أنّ عليه أن يصنع إنساناً. فهذه الخطايا هي ما تشكّل الإنسان.

كيف على فتى أن يجيب عن هذا السؤال؟ وأي فلسفة تنجم عن هذا؟ هل يُقسّم وزن الإنسان الطبيعي ويوزّع هذا الوزن على الخطايا بالتساوي؟ وهل تتساوى الخطايا في كل إنسان؟ وهل تصنع هذه الخطايا الإنسان المكتمل؟ لم يطرح السؤال هذه الإمكانيات، لكن السؤال كان واضحاً فهو يريد إنساناً. ما الذي يحصل؟ إنسان مكتمل أم ناقص؟ وهل تصنع الخطايا الكمال أم تجعلنا نعرف أننا لسنا مكتملين؟ هل يصنع إنساناً ليس له وجود أم يصنعه إنسانا كثير الخطأ؟ وما هو تعريف الإنسان في هذه الحالة؟ هل يحق لجوهان أن يتلاعب بنسبة الخطايا كما يريد؟

من الذي يحدد نسبة الخطايا في الجسد البشري؟ هل هم الأسياذ؟ فكر جوهان بالأسياذ وفي سبب وجود الخطايا. لقد أوجدت الأسياذ البشر على هيتهم مكتملين. لم يكن من الممكن أن يكون البشر على مستوى الأسياذ، لذا جاء إنكي بفكرته، وهو أن يضع كل من الأسياذ خطيئة داخل جسد البشري الأول. لهذا وُلد البشري وفيه كل الخطايا، لكن كانت هناك نسب متفاوتة لهذه الخطايا في جسده. كانت هذه الخطايا نقطة الضعف التي يمكن لأي من الأسياذ استغلالها في السيطرة على هذا البشري، في حالة قرّر أن يتحدّى الأسياذ في يوم من الأيام!

لهذا توجد هذه الخطايا كالأغلال في أعناق البشر. فكيف لفتى لم يدرك بعد أبعاد ما سيكتبه من إجابة هذا السؤال وأن يضع الأغلال التي ستقضي على هذا الإنسان؟ أي هذه الخطايا أخطر عليه وأيّها يمكنه التعامل معها؟ ما طبيعة هذا الإنسان الذي سيصنعه؟ وعلى ماذا يبني جوهان افتراضاته.

وزن الإنسان العادي يتراوح ما بين الستين والثمانين كيلوغرام. لذا على فرض أنه سيتم تقسيمها كالتالي. عشرة كيلوغرام حسد، سبعة كيلوغرام طمع، ثلاثة عشر كيلوغرام شهوة، عشرين كيلوغرام كبرياء، أحد عشر كيلوغرام كسل، تسعة عشر كيلوغرام غضب.

هل الأمر بهذه البساطة؟

هذا ما أثار حيرة جوهان، وأثار حيرة الخيميائيين أيضا. فقد زعم بعضهم أن هناك نسباً محسوبة في كل إنسان، بينما زعم آخرون أن هذه النسب تختلف حسب الإنسان وأنها ليست ثابتة، فقد يسيطر الحسد على أحدهم بينما يسيطر الغضب على شخص آخر، ويكون الثالث منغمساً في الشهوة.

وزعم آخرون أن الكمال البشري لا يتحقق إلا عندما يتخلص الإنسان من الخطايا السبع بشكل كامل، مما يجعله يسمى لأصبح أحد الأسياذ، بل ليتفوّق عليهم أيضاً!

حمل جوهان قلمه والعرق يتقاطر من جبينه وبدأ في تدوين فلسفته، والتي لا تقل تعقيداً عن السؤال نفسه!

انتهى جوهان من كتابة الإجابة عندما صرخ أحد الطلاب وهو يمسك برأسه وكأنه سينفجر. أسرع المساعدون لينقلوه خارج القاعة. كان الوضع مزرياً حول جوهان، لكن جوهان حاول بكل عزمه أن يحافظ على صلابة أعصابه.

تحول الاختبار إلى جحيم للمتقدمين. منهم من لم يتوقف عن البكاء، ومنهم من فقد وعيه خلال الاختبار. تساعد المراقبون على إخراج الطلاب واحداً تلو الآخر من قاعة الاختبار عندما يتقنوا أنهم فقدوا أعصابهم. استمرَّ أرمانوس في مراقبة جوهان وسط حالة من العجب. الحالة اللا منطقية التي تسيطر على المكان لم تكن ذات تأثير على جوهان. في أقل من منتصف المدة بدأ أرمانوس يسمع همسات من بقية المراقبين عن هذا الفتى الذي لا يزال صامداً على الرغم من كونه أصغر المتقدمين للاختبار. لكن ما أثار حيرة أرمانوس هو أنَّ جوهان كان لا يزال يكتب! لم ير أرمانوس قلماً يُجر على صفحة الورق داخل هذه القاعة منذ زمن!

بقي ربع الوقت على هذا الاختبار. خلت القاعة إلّا من ست طلاب كان جوهان أحدهم. تابع جوهان كتابة الإجابات لأسئلة تبدو لمن تبخر في العلم ألا إجابة لها.

في الناحية الأخرى كان هناك اختبار آخر. كان اختباراً عاطفياً أكثر منه علمياً. فقد كان اختباراً لجوليارد نفسه. دخل جوليارد وسط الطلاب إلى الأكاديمية. توقف ليتطلع إلى القِيب التي أمامه وقد غشيته موجة من الحنين إلى الماضي. حنين إلى هذه الأكاديمية وكل من فيها. تسائل إن بقي فيها أحد غير أوليفر يذكره!

تقدم جوليارد بعد أن استغرق بعض الوقت في تأمل المكان وكل ما جرى معه. فقد كانت البداية والنهاية هنا. مع أنَّ هذا المكان كان النعيم والجحيم في حياة جوليارد في آن واحد، إلّا أن جوهان كان الحافز الذي دفعه إلى مواجهة كل ذلك مرة واحدة، فهو من ريح جوزفين.

لم يكد جوليارد يضع قدمه في المكان ويتنفس رائحة العلم حتى سمع صوت الطلاب سيكون. كان المراقبون يُخرجون المتقدمين الفاشلين خارج المبنى كلياً. نظر إليهم بتمعن ولم ير جوهان. ابتسم في داخله والتمعت عيناه بنار الفخر بجوهان، فلا يزال صامداً. كان جوليارد يتوقع أن يدخل جوهان قبة الجحيم، لكن جوهان دخل الجحيم وعاد منها زحفاً، فما سيراه ما هو إلّا

تفسيرات للجحيم الذي عاد منه، وها قد دخله بقدميه مرة أخرى، وقد عقد جوليارد العزم على الولوج معه.

التفت جوليارد بعدها لصوت يناديه. ميّز جوليارد الصوت قبل أن يرى المرأة الواقفة على مبعدة منه. امرأة ترتدي روب البروفيسور الأخضر ذو الإطار الأحمر. كانت تحمل عدة كتب تحت ذراعها اليسرى وكوباً من الشاي بيدها اليمنى. تعبير الذهول في عينيها اللوزيتين لم يكن شيئاً غريباً على جوليارد، فقد كان يعرف مدى التأثير الذي يُوجده حضوره بين الناس.

كانت المرأة الواقفة أمامه تتأمله في ذهول وعقلها القادر على حساب أعدد الرموز في الكتب التي تحملها غير قادر على تحليل سبب وجود هذا الرجل أمامها حسن الهندام!

تأملها جوليارد بابتسامة عفوية. امرأة في العقد الثالث من عمرها، ذات شعر أسود طويل يصل إلى أسفل ظهرها. لم تهتم هذه المرأة أبداً بربط شعرها وهي في الأكاديمية مدّعية أن العمليات الحسابية لا تلتف الشعر! بشرتها الحنطية تتأوج مع أشعة الشمس الساقطة عليها. لم يمنع جوليارد نفسه من ملاحظة عدم وجود خاتم في يدها!

اقتربت منه بهدوء داعية في نفسها ألا يكون من يقف أمامها هو جوليارد نفسه.

قالت والشك يملأها. "كيف حالك؟"

"بخير."

كلمة واحدة. كلمة واحدة نطقها بعفوية هزّت أركانها وأثبتت لها ما انتظرت أن ينفيه، وتمنّت في قرارة نفسها أن يُثبت. أصبحت معلقة بين مقصّلتين! لا تدري تحت أيها تقف.

حرّرها ثمّ هي فيه بكلمة واحدة. "ليديا!" لاحظ شرودها عندما انتفضت لسامع اسمها.

"ماذا تريد؟" أخيراً قد يطلب منها القيام بشيء، وستفعله بكل سرور.

"هل يمكنك أن تأخذيني إلى بروفييسور جابرييل؟"

ابتسمت بعفوية تداري ما اشتعل بداخلها. "حسن، اتبعني. سيكون بروفييسور جابرييل

سعيداً لرؤيتك."

التفتت وحّت الخطى إلى مكتب بروفيسور جابريل، رئيس الأكاديمية. كانت تلتفت بين الحين والآخر لتتأكد من أنه لا يزال يتبعها. بالأحرى كانت تتأكد إن ما كان وجوده حقيقة تستطيع تقبلها بكل اطمئنان!

وصلا إلى مكتب البروفيسور بروفيسور جابريل. طرقت ليديا الباب وسمعت صوت العجوز يدعوهم إلى الدخول. فتحت ليديا الباب وأعلنت عن إحضارها زائراً معها. ثم أفسحت الطريق للمشهد الذي اتسعت له عينا البروفيسور بروفيسور جابريل وقام من مجلسه من أجله.

اتسعت عينا جولبارد عندما رأى بروفيسور جابريل. لقد شاب شعر البروفيسور بشكل كبير، مع أن له شعراً كثيفاً يغطي كتفيه. كان بروفيسور جابريل رئيس الأكاديمية لمدة ثلاثين عاماً. كبر في السن لكن علمه وروحه لم يشيخا. بقي العالم بالأمر والأقدر على إدارة الأكاديمية بكفاءة جعلت كل من حوله يطمئن لوجوده. طويل القامة حادّ النظرة، تحتوي عيونه العسلية على نظرة ثاقبة وكأنه يرى ما في نفس الإنسان ولا يكتفي بما يظهره الجسد. كان يسير ويده عكازة ذات مقبض على شكل كرة بلورية. اعتاد على حملها معه على الرغم من عدم حاجته إليها.

تقدّم بروفيسور جابريل من جولبارد وصافحه بحرارة.

"صديقي العزيز جولبارد، لقد كنت في انتظارك."

ابتسم له جولبارد. "لقد عدت أخيراً."

ربت بروفيسور جابريل على ذراع جولبارد برفق وهزّ رأسه وكأنه يخبره بتفهّمه لما حصل وأنه لا داعي ليقدم أي شرح. هكذا كان بروفيسور جابريل دائماً. لا يحتاج لشرح لفهم أي شيء! دعا بروفيسور جابريل جولبارد إلى الجلوس ليتسامرا، والتفت إلى ليديا ليخبرها بأن تجمع المعلمين في مكتبه بعد انتهاء ساعات العمل.

غادرت ليديا بعد أن اطمأنت على أنها ليست الوحيدة التي ترى جولبارد بعينها.

تحدّث جوليارد والبروفيسور لمدة قبل أن يدخل عليه المعلّمون واحداً تلو الآخر. كلهم تفاجأوا بعودة جوليارد إلى الأكاديمية بعد غياب طويل. تمكّن جوليارد من استنباط أن بروفيسور جابريل تمكّن من خداع الجميع - بطريقة لا يعلمها إلا البروفيسور نفسه - بأن جوليارد كان في مهمة صعبة خارج البلاد وبأنّه قد عاد أخيراً بعد غياب طال لسنوات عديدة.

لم يُتعب جوليارد نفسه بفهم قدرة البروفيسور الاستثنائية على الإقناع لكنه تماها مع الحكاية، فقد أراحه من عبء أن يقوم هو نفسه بتأليف حكاية لن يكون هو نفسه مقتنعاً بها. لقد كانت هذه الحكاية أفضل ألف مرة من مواجهة حقيقة اختفاء عن الساحة لكل ذلك الوقت.

تمكّن بروفيسور جابريل بكذبة بسيطة ألقاها بأسلوب مقنع من أن يحافظ على هبة جوليارد، أحد المعلمين الخيميائيين الذين لا يُقدّرون بقيمة، وتمكّن من أن يجنّب كمّاً هائلاً من الأسئلة التي تتعلّق بأخته الراحلة جوزفين، كون أنه قلّة من الناس يعرفون عن هذه الحكاية، وقد أراها الجميع أن تبقى طي النسيان.

تحفّظ جوليارد على سرّيّة المهمة أمام زملائه إلى أن يناقش الأمر مع بروفيسور جابريل ويحيك له الآخر مهمّة من المهام التي أدّاها منذ زمن ولا يعلم عنها أحد.

قاطع جلستهم دخول أحد المعلّمين إلى مكتب بروفيسور جابريل بعنفوان وقوة واندفع مباشرة إلى البروفيسور بكل سرعة ورئتيه تكاد تتمزق من شدّة أنفاسه وتسارعها. كان الرجل حادّ الملامح ولا يبتسم أبداً. ظلّ الجميع أن هناك مشكلة كبرى قد حلّت في الأكاديمية، ولكنّ بروفيسور جابريل حافظ على هدوء أعصابه لمعرفته المسبقة بطريقة تصرّف دان وأسلوبه الفظّ.

قال دان معلناً للجميع. "إنها كارثة، بكل المقاييس!"

قام بروفيسور جابريل من مجلسه وسار تجاه دان بهدوء. "أنتظر منك أن تشرح ما تعنيه بهذا الكلام."

لوح دان بالأوراق أمام بروفيسور جابريل وقال له. "هذه هي الكارثة."

أمسك بروفيسور جابريل بالأوراق وتصفحها على عجل. اتسعت عيناه دهشة لم يتمكن من

إخفائها لثوان كانت كافية ليلاحظها المعلمون. سارعوا بسؤاله عما حصل، فأجابهم دان دون أن ينتظر إذن بروفيسور جابريل.

"لقد نجح، هناك طالب واحد نجح في الاختبار."

تسائل بقية الأكاديميين عما يشكله نجاح طالب من مشاكل، فعاجلهم دان بالرد ونظرة محتقنه تكسو عينيه.

"لقد نجح في اختبار قبة الجحيم!"

ساد الصمت في مكتب البروفيسور. صمت ينبئ بنتائج لا تُحمد عقبائها، فنجاح طالب في الاختبار يعني أن أسرار الأكاديمية قد تم تسريبها، أو على الأقل هناك من تمكّن من الوصول إليها بشكل أو بآخر، وكان لزاماً على بروفيسور جابريل أن يتدخل.

التفت البروفيسور إلى جميع المعلمين وأخبرهم بأن يتصرفوا بطريقة طبيعية وألا يظهر شيء على تعابيرهم أو سلوكهم، ثم أمر دان أن ينتظره عند الباب ريثما ينتهي من تفحص الأوراق.

غادر الجميع تاركين البروفيسور وحده في مكتبه. في الخارج سأل جولبارد عن اسم الطالب الناجح فأخبره دان باسمه.

في داخل المكتب، جلس بروفيسور جابريل أمام منضدته وشرع بقراءة أوراق اختبار جوهان بتمعن.

مصل الحقيقة

جلس بروفيسور جابريل إلى مكتبه وأخذ يتصفح أوراق الاختبار. لم ينجح أحد في اختبار الأكاديمية تحت قبة الجحيم من قبل، فقد حرص أشد علماء وخيميائيو الأكاديمية على ألا ينجح أحد في الاختبار كوسيلة لتخليص أنفسهم من عبء طالب يرون فيه المتاعب. لكن ما قرأه بروفيسور جابريل تجاوز حدود تفكيره. لم يكن الطالب الذي قدّم الاختبار بالفتى الذي قد يُرفض من الأكاديمية، بل بشخص يجب محوه وجوده ومباشرة.

لو علم أحدهم عن هذا الفتى وما يعرفه فلن يتردد في التخلص منه فوراً ودون أخذ أوامر من أحد! أجل، فحقيقة أن فتى في الثالثة عشر أو الرابعة عشر على أكبر تقدير يعرف هذه المعلومات، بل ويعرف هذه اللغات أمر لا شك فيه غريب، وهناك مخطط ما خلف ذلك!

هذا الفتى مدسوس من قبل أحد قد يكون داخل الأكاديمية أو خارجها ويهدف إلى إيصال عدة رسائل؛ الأول هو تسريب العلم الذي لطالما حافظت أكاديمية بالينفورد على ألا يصل إلى أيادي من لا يستحقون أو من لا يُقدّرون مخاطر هذا العلم، وهو الخيمياء!

قد يكون هناك أحد من داخل الأكاديمية ويريد إحداث تغيير في سياسة الأكاديمية ولا يريد للعلم أن يكون حكراً على أحد، كما يدّعون، لكنه يسعى إلى نشر الفساد عن طريق وضعه بين يدي من قد يعيث به وبأسراره.

ظنّ بروفيسور جابريل أن ما يفكر فيه يتجاوز الحدود ولكن إجابات جوهان أفتنته أن هناك أمراً لا بد وأن يحقق بشأنه لمعرفة على الأقل مصدر معلومات هذا الفتى. وقد قرر أن يقابل جوهان. كان بفطنته وذكائه قادراً على لعب الحرب الباردة إلى أن يتوصّل إلى خيوط اللعبة ويكتشف الهدف الرئيسي من دسّ هذا الطفل بين جموع المتقدمين. أهذه مهزلة يتم التخطيط لها من قبل جهة معينة أم أن هذا الفتى قد تمّت تربيته على يد أحد أشهر الخيميائيين الذي لم ييخل بأن يُقدّم لهذا الفتى إجابات على تساؤلات لا يحقّ لفتى أن يفكر بها من الأساس؟

تبقى فكرة المؤامرة كبيرة، خصوصاً بعد عودة جوليارد إلى الأكاديمية.

لحظة؟ جوليارد؟ لماذا ظهر جوليارد مع جوهان في نفس اليوم؟ هل كان جوليارد مختفياً في صومعته يخطط لتربية هذا الفتى طيلة الوقت؟ لكن هناك أمر غريب؟ الأحداث ليست متناسقة! وفاة جوزفين لا يتوافق مع اختفاء جوليارد في بيته طيلة هذا الوقت، فقد ماتت منذ ما يقارب العشر سنوات، لكن جوهان يبدو في الرابعة عشر من عمره، هل يُعقل أن يكون جوهان هو ابن جوزفين؟ هل يُعقل أن المؤامرة يتم حياكتها من قبل جوليارد؟ لكن لماذا؟ هل لا يزال جوليارد يحقد على الأكاديمية؟ هل لا يزال يُحمّل الأكاديمية مسؤولية ما حصل مع جوزفين؟ وما علاقة هذا الفتى بجوزفين وجوليارد من الأساس؟

كانت هذه الاحتمالات التي قدمت نفسها أمام بروفيسور جابرييل.. لم تفتته حقيقة أن جوزفين لم تتزوج أو تُتجنب، وأن أوليفر، صديق جوليارد، كان يتردد عليه من حين لآخر. لو كان جوهان في ذلك المنزل لكان أوليفر أول من يعرف بوجوده بحكم صداقته القديمة مع جوزفين. كان الأمر أعقد من أن يجلس البروفيسور ويفكر فيه وحده دون أدلة، عليه أن يبدأ بجمع المعلومات ليعرف ما يخطط كل من جوهان وجوليارد للوصول إليه.

ذلك اليوم تم استدعاء جوهان إلى مكتب بروفيسور جابرييل. فتح له البروفيسور باب المكتب بنفسه ودعاه إلى الجلوس. كان البروفيسور قد حضر شرباً خاصاً لجوهان ولنفسه.

شعر جوهان بنظرات البروفيسور الثاقبة على جسده. تلافي جوهان النظر في عيني البروفيسور، وهو ما قد فعله أعنى الرجال، فما بالك بفتى في الرابعة عشر من العمر!

ابتسم بروفيسور جابرييل في وجه جوهان ثم حيّاه بحرارة. كان بروفيسور جابرييل يعرف من خبرته الطويلة أن جوهان لا تناسبه معاملة الفتية، فأظهر له احترامه وعامله كشاب ناضج، علّه يصل إلى نتيجة.

جلس جوهان أمام بروفيسور جابرييل الذي قدّم له كوباً من الشراب الخاص ذا اللون الأخضر. كان شرباً لا يعرف تركيبته إلا خمسة في الأكاديمية، وكان البروفيسور أحدهم. ليطمئن

جوهان من ناحية بروفيسور جابرييل، قام الأخير بارتشاف الشراب أمامه ليؤكد له على حسن نيته. تناول جوهان الشراب برفقة البروفيسور. بقي البروفيسور صامتاً، يرتشف الشراب الدافئ بهدوء، مما دفع جوهان أن يحذو حذوه. بعد أن انتهيا من الشراب عرض البروفيسور أن يُعدّ كأساً آخر من أجل جوهان فرفض جوهان بأدب. بقي بروفيسور جابرييل ينتظر بهدوء وهو ينظر حوله يتأمل مكتبه الخاص وكأنه يراه للمرة الأولى. بقي جوهان يحرق في يديه بتوتر، فكان تأثير حضور بروفيسور جابرييل طاعياً على المكان. عاد البروفيسور إلى تأمل جوهان بدقة. لون شعره ولون عينيه كانتا الدليل على أن جوهان ليس عادياً فصفاة لا توجد في بالينفور!

عرف بروفيسور جابرييل أنه على موعد مع مواجهة حامية الوطيس مع هذا الفتى، وأنه اتخذ القرار الصحيح في جعله يتجرّع الشراب الذي أعدّه دون أن يشكّل ذلك أي تهديد واضح، فلم يكن جوهان مدركاً لحقيقة الشراب الذي تجرّعه بنفسه، ومن هنا ابتدأ بروفيسور جابرييل.

باغته بالسؤال. "ما اسمك؟"

انتفض جوهان إلى النبرة الهادئة للسؤال المفاجئ. "جوهان؟"

بقيت نظراته هادئة. "كم عمرك؟"

"أربعة عشر."

"ما اسم والدك؟"

"أبيلارد." أجاب جوهان دون أن يلاحظ حقيقة أنه نطق باسم لا يجب عليه النطق به.

انتعد حاجبا بروفيسور جابرييل، فلم يسمع اسماً كهذا منه قبل. حاول أن يعرف لأي لغة ينتمي هذا الاسم، فلأساء قيمة أكبر مما يمكن أ، يتخيل الإنسان.

"من أين أنت؟"

"لا أعرف."

"ماذا تقصد؟"

"عندما فتحت عيوني وجدت نفسي ملقى على الأرض، وجددتني بعدها ناردين وجلبتني هنا."

أثار هذا اهتمام بروفييسور جابرييل. "من ناردين؟"
"أمي."

"إذن أنت تعرف أمك ولكنك لا تعرف أباك؟"
"اعرف أبي."

"من هو؟"

"أبيلارد؟"

"من أي بلد أتى والدك؟"

"لا أعرف."

"أين هو الآن؟"

"لا أعرف."

"هل تبحث عنه؟"

"لا."

"لماذا؟"

"لأنه لم يطلب مني أن أجده."

لم يكن أي منها يسيطر على كلامه أو حتى على مشاعره، فقد انفكّ القيد بسبب الشراب الذي أعدّه بروفييسور جابرييل لهما. لم يكن جوهان أو غابرييل يستغربان أو حتى يشعران بأي شيء يُقال في هذا الحديث، فهذه إحدى لعنات هذا الشراب!

الشراب الذي أعدّه بروفيسور جابريل لديه العديد من الآثار ومنها غياب المنطق والحكم. أي أن الشخص لا يشعر بشيء تجاه أي فكرة أو أي معلومة إلى أن ينتهي مفعول الشراب. طريقة خطيرة في الاعتراف بكل شيء دون الحصول على رد فعل من قبل الطرف الآخر، لأنه وقتها لا يدرك حتماً مقدار خطورة ما قيل أو حتى إن كان حقيقة أم لا. غاب المنطق مع الحكم فلا يمكن لمن يشربون الشراب من إدراك ما تعنيه المعلومات التي تُلقى عليهم، وهذا ما دفع البروفيسور أن يتابع كلام جوهان وكأن جوهان لم يقل شيئاً خارجاً عن المؤلف.

سأله وكأنه لم يسمع شيئاً غريباً. "وما سبب قدومك إلى هذا المكان؟"

أجاب جوهان بتلقائية أفلت لجمها. "لدي أسئلة أريد أن أعرف إجاباتها."

"عن ماذا؟"

"عن جوزفين."

"تقصد أخت جوليارد؟"

"أجل."

"ما علاقتك بها؟"

"لقد ربّيتني."

"متى؟"

"منذ بضع سنوات."

"كم أمضيت من الوقت معها؟"

"بضع أعوام."

"لكنك تعرف أن جوزفين ميتة."

"أجل أعرف. لذلك أنا هنا."

"ما الذي تقصده؟"

"جوزفين ليست ميتة، أنا أعرف ذلك."

"لماذا أنت متأكد؟"

"لقد رأيتها. إنها في مكان ما في هذا العالم، لكنني لا أعرف أين."

"هل تعتقد أن الأكاديمية سترشدك إلى معلومات عن جوزفين؟"

"قد أصل إلى معلومة تفسر لي أين هي جوزفين الآن."

"لماذا كل هذا؟"

"لأنها أُمي التي ربّنتي ولا أستطيع تركها هناك."

"وماذا عن جوليارد، كيف وصلت إليه؟"

"هي من أرسلتني إليه."

"كيف؟"

"لا أعرف. لقد أخبرتني أين أجد أختها وحملت معي رسالة إليه."

"ما هي هذه الرسالة؟"

"أن لا ذنب له فيما حصل وأنها تسامحه."

"هل تعتقد أنها سامحته؟"

"أجل."

"أتعرف على ماذا سامحته؟"

"لا."

"ألم يخبرك جوليارد عن هذا حتى الآن؟"

"لا."

"كم من الوقت بقيت مع جوليارد؟"

"عام كامل."

"إذن درست في بيت جوليارد؟"

"أجل. قرأت الكتب التي في منزل جوليارد وتعلمت ما تمكنت منه."

"ماذا تعلمت أيضاً؟"

"قرأت كتب جوزفين كلها. كانت ملاحظاتها مفيدة جداً."

صمت بروفيسور جابريل ظاناً منه أنه حصل على ما يريد. كان يعرف أن الشراب الذي تناوله من الإحساس أو إصدار أي أحكام على ما نطق به جوهان، لذلك كان عليه أن يمنح نفسه الوقت الكافي ليتجاوز آثار الشراب، وهي ثلاثة أيام بلياليها.

رفع بروفيسور جابريل كوبه وتناول كوب جوهان. "لا أعتقد أنه يمكننا تناول المزيد من هذا الشراب."

سألت جوهان بنظرة بريئة، فهو لا يزال لا يدرك خطورة ما تفوه به إلى البروفيسور. "لماذا؟"

صبّ بروفيسور جابريل محتويات هذا الشراب في مزهرية تحتوي وروداً زرقاء اللون. التفت بعدها إلى جوهان ودعاه إلى الاقتراب. نهض جوهان واقترب من البروفيسور. "انظر هنا."

رأى جوهان الورد وهي تتحول من اللون الأزرق إلى البنفسجي. اقترب منها يريد لمسها لكن يد البروفيسور أوقفته. نظر جوهان في عيني الرجل الذي أوقفه. "سموت إن لمستها!"

استقبل الطرفان تلك الكلمات بهدوء غير بشري. يبدو أن أثر الشراب كان قوياً، خصوصاً أن تأثير الشراب على جوهان كان أقوى من تأثيره على البروفيسور.

اصطحب بروفيسور جابريل جوهان إلى مقعده وطلب منه الجلوس. استدعى البروفيسور

أحد المساعدين ليستدعي له جوليارد. كان جوليارد قريباً فدخل عند سماعه اسمه فوراً.
"هل استدعيتني؟"

أوماً له بروفيسور جابرييل. "نعم. يمكنك اصطحابه الآن."
انصدم جوليارد لنبرة صوت بروفيسور جابرييل الهادئة. كان يتوق ليعرف ما الذي تحدثا
بشأنه، لكن المعلومة التالية كانت صادمة.
أخبره بروفيسور جابرييل بكل هدوء. "لقد تناولنا شراب الحقيقة."

اتسعت عينا جوليارد في ذهول! لقد وصلت الرسالة. اعتذر جوليارد من بروفيسور جابرييل
واستأذن للانصراف. أمسك بذراع جوهان وأسرع به خارج المكتب. لم يتوقف جوليارد عن
السير بسرعة إلى أن أصبحا خارج الأكاديمية. توقف عن السير والتفت إلى جوهان.

لم يكن جوهان قد أدرك بعد شيئاً مما حصل. وقف ينتظر أن يقول جوليارد شيئاً ما. لم يكن
ينتظر تفسيراً، فلم يدرك جوهان أن هناك شيئاً يحتاج إلى تفسير.

أطلق جوليارد زفرة قوية وتنهد، ممسكاً رأسه بيديه. مسح على وجهه يحاول أن يعيد ترتيب
أفكاره. فتح عينيه ليجد جوهان يسير وحده هائماً بلا غاية. أسرع تجاهه وأمسك به.

التفت إليه جوهان وتعاير الوداعة على وجهه.

ما هذه الورطة؟ إلانا التي في السماوات، ساعدينا!

"ماذا هناك؟"

تمالك جوليارد أعصابه. "الآن، علينا أن نعود إلى المنزل، وبأقصى سرعة."

لا يجب على أحد أن يلتقي بجوهان لثلاثة أيام. ما هذه الورطة التي تسببت بها يا بروفيسور
جابرييل؟

وصل جوليارد إلى المنزل دون أن يمنح جوهان أي فرصة ليفكر بأي شيء، فأفكاره الآن

جائحة ولا يمكن السيطرة عليها، ولا تخضع لأي معيار.

كان جوليارد مدرّكاً لحقيقة ما قام به بروفيسور جابرييل. لكن ما

أرعبه هو ما يمكن أن يكون بروفيسور جابرييل قد حصل عليه من جوهان. لذا لديه ثلاثة أيام ليتمكن من معرفة ما جرى بينها ليتدارك الأمر، قبل أن يُشكّل عقل بروفيسور جابرييل الوعي الكافي لاستيعاب حقيقة ما قاله له جوهان.

أخذ جوليارد جوهان إلى غرفته وأجلسه على السرير. لم يكن جوهان مستغرباً من علامات التوتر البادية على وجه جوليارد، ولا حتى سيره في الغرفة جيئةً وذهاباً ليحثّ عقله على التفكير بجديّة ما يحدث وكيفية التعامل معه.

لكن الضيف القادم لم يخطر على بال جوليارد في هذا الوقت.

سمع جوليارد طرّقاً على الباب أوقف أفكاره عن صراعتها. توجه إلى جوهان وأمره بألا يتحرك أبداً من مكانه. توجه إلى الباب ليفتحه ووجد ليديا برفقة أوليفر. انفرجت أساريره لرؤية أوليفر بغض النظر عن وجود ليديا معه.

"تفضلاً بالدخول."

تبعاه إلى غرفة جوهان.

"سأله أوليفر بقلق واضح. "ما الذي حدث معك؟"

أجابه جوليارد بكل صراحة. "ليس معي، بل معه هو." فتح جوليارد الباب ودخل ليجد جوهان ينظر حوله ويكي بصمت.

ارتبكت ليديا لمراى جوهان. لا تعرف لم شعرت بغصّة في قلبها وألم لا علاقة له بالجسد، بل بالروح.

قاطع أفكارها سؤال أوليفر. "ما الذي حصل له؟"

أجابه جوليارد. "لقد تناول شراب الحقيقة مع بروفيسور جابرييل."

كان الصمت الذي ران على المكان رداً كافياً. فلم يحتج أي منها إلى شرحٍ لحقيقة هذا الشراب، فقد سبق لهم جميعاً تناوله في يوم من الأيام رفقة بروفيسور جابريل.

جلس أوليفر بالقرب من جوهان وراح يرتّب على كتفه برفق.

لكن ما صدر عن ليديا كان غير متوقّعا. "ذلك العجوز المتهور! لا أصدق أنه فعل ذلك مع طفل في سنه!"

لم ينتبه جوليارد إلى انفعالها لانشغاله بحالة جوهان. "لا أعرف ما كان يخطر بباله."

تقدّم منهم أوليفر بعد أن غمكّن من تهدئة جوهان.

"لا تقلقا، حالته مستقرة الآن."

تابعت ليديا. "ألا يمكن له أن يحصل على ما يريد بطريقة أخرى؟"

أجابها جوليارد. "لا أعتقد أنه يرى نفسه على خطأ. فهناك سبب مقنع لما قام به."

كان جواب جوليارد محيراً. انعقد حاجبي ليديا لكلامه وكأنها تطالبه بمزيد من الشرح.

كان شرحه عبارة عن جملة واحدة فقط. "جوهان هو الطالب الذي نجح في اختبار قبة الجحيم."

عاد الصمت ضيقاً ثقیلاً ظلّ هذه المرة.

تابعت ليديا تأملها لجوهان بهدوء وألف فكرة وخاطر يعبر عقلها قبل الاستقرار في قلبها

بقسوة. شحذت قوتها وطرحت السؤال. "هل هو ابنك؟"

تفاجأ أوليفر وجوليارد بهذا السؤال. نظر جوليارد إلى أوليفر يعاتبه على إحضاره لليديا في المقام الأول. ثم التفت إلى ليديا.

"لا هو ليس ابني."

تابعت استجوابها وكأن لها الأحقية في السؤال. "من أين أتى إذن؟"

"لا أظن أن هذا هو الوقت المناسب لتلك الأسئلة. دعينا نهتم بالفتى أولاً."

ما تعرفه ليديا هو أن جوليارد قد غادر البلاد بعد وفاة أخته في مهام كثيرة كان بروفيسور جابريل يكلفه بها، لكن أن يعود لها بفتى يرثيه فهذا ما لم تُطقه. احتملت ابتعاده عنها كل تلك السنوات لتجده في النهاية يعتني بفتى يزعم أنه ليس من صلبه!

وهل تظنني بهذا الغباء يا جوليارد؟ تمت لو تنطق بهذه الكلمات في وجهه وهي تعاتبه. ولكن ها هي تقف أمامه حائرة لا تدري ماذا تفعل.

راقبت أوليفر وجوليارد وهما يعتنيان بجوهان. طرحا عليه بعض الأسئلة فعرفا أن المنطق لديه لا يعمل. فهو لا يدرك درجة خطورة ما يقول أو ما يسمع. فقد توجه جوهان إلى ليديا ونطق بها هزّ كيانه.

"من أنت؟"

"أنا ليديا." لا تعرف لماذا يراودها إحساس غريب عند النظر إلى جوهان.

فتح جوهان ذراعيه أمامه. "هل يمكن أن تضمّيني؟"

فاجأ سؤاله ثلاثتهم.

اتسعت عينا ليديا ذهولاً. "لماذا؟"

قال جوهان ببساطة. "لأنك تشبهين جوزفين. أنت تذكريني بجوزفين."

حبس الثلاثة أنفاسهم في انتظار ما قد يتفوه به جوهان مجدداً.

لم تجد ليديا بداً من السؤال. "من تكون جوزفين بالنسبة لك؟"

كان الجواب فورياً دون التفكير بآثاره على من يسمعون. "أمي."

صُغت ليديا من الجواب. إذن فهو ابن جوزفين! مهلاً، هذا غير معقول! ما الذي يحدث هنا بحق الأسياد؟ الطففي بنا يا إيلانا!

كان جوليارد على وشك التدخل عندما تابع جوهان كلامه.

"فأنا لذيّ أمان. جوزفين وناردين."

وجّه أوليفر ضربة خفية وسريعة إلى عنق جوهان أفقدته وعيه لفترة قصيرة. على الرغم من أن جوليارد لم يُظهر ذلك على تعابير وجهه، لكنه كان ممتناً جداً لأوليفر. على جوهان أن يقلل كلامه خلال هذه الفترة.

قام جوليارد وأمسك بيد ليديا. فاجأها حركته التلقائية. قبل أن تُبدي ردة فعل قام جوليارد بسحبها خلفه خارج الغرفة تاركاً جوهان مع أوليفر.

تأكد أوليفر من أن جوهان نائم بهدوء، قبل أن يُدثره ويتركه يحلم بهناء. حتى أحلام جوهان ستكون أكثر جموحاً من الوضع الطبيعي.

في الخارج كان جوليارد يسحب ليديا خلفه.

حاولت ليديا سحب يدها من يده بقوة. "دعني." أفلت يدها عندما لاحظ انزعاجها. أمسكت بمعصمها وأخذت تدلكه.

"ما الذي جلبكِ إلى هنا؟"

رفعت عينيها لتلاقي نظراته الهجومية. "أوليفر طلب مساعدتي."

قال بعناد. "لستُ بحاجة لك."

عاندته أيضاً. "لماذا رأى أوليفر عكس ذلك؟"

"هذا شأنه هو."

"من هذا الفتى؟ لا يُعقل أن يكون ابن جوزفين."

"ليس من شأنك." كانت نبرته الصارمة هي ما دفعها للسكوت. حتى مساعدتها له أمر غير مُرحَّب به. بدا الشحوب على وجهها واسرعت بمغادرة المكان. تمّت لو يوقفها جوليارد ويعتذر

عن سلوكه الأرعن معها، لكنه لم يكثر، ما زاد انكسارها.

كانت دموع ليديا تنزل على وجنتيها حارة. لم تكن تبكي من أجل جوليارد أو من أجل جوهان، ولا حتى من أجل جوزفين. كانت تبكي من أجل نفسها، فهي لا تستحق ما يحصل لها. حاول أوليفر أن يعاتب جوليارد على طريقة معاملته لليديا، لكن جوليارد لم يمنحه تلك الفرصة، متحججاً بوضع جوهان الراهن.

جلسا وقتها يفكران بكل الاحتمالات المتبقية أمامهم، وما يمكن أن يكون بروفيسور جابريل قد عرفه من جوهان.

وقد حصل ما كان يتوقعونه. اختفى بروفيسور جابريل من الأكاديمية لمدة ثلاثة أيام متتالية. لا يدري أحد أين هو، لم يكن حتى في بيته. فقد كانت هذه هي عادته. استخدم بروفيسور جابريل أسلوب شراب الحقيقة مع العديد من الناس، حتى أساتذة الأكاديمية أنفسهم لم يسلموا من هذه الحيلة، وقد اعتاد على الاختفاء لثلاثة أيام لئلا يتعامل مع أحد ما دام تأثير الشراب لا يزال سارياً عليه.

كان يعرف الكثير والكثير بحكم خبرته الطويلة وتقدمه في العمر، فقد كان بروفيسور جابريل أبرع من في الأكاديمية لعقود، وفي جوفه الكثير والكثير من الأسرار، ولم يخاطر باحتيالية الشرثرة أمام أحد بأي أسرار تعتبرها الأكاديمية محرمة على العوام، وحتى على الخواص!

ولكن ما اكتشفه جوليارد وأوليفر عما جرى مع جوهان في لقاءه مع بروفيسور جابريل قد أفقدهما النوم من كثرة الاحتمالات التي فكّرا بها.

حاولا التفكير فيما قد يستنتجه بروفيسور جابريل ممّا قاله جوهان له من أن جوزفين لا تزال على قيد الحياة وأن هناك مكان آخر لا تزال تحيا فيه على الرغم من أنها ماتت منذ سنوات. لم تكن المعلومات التي أدلى بها جوهان هي ما يضعه في خطر، بل التحليلات التي سببها بروفيسور جابريل بناء على الأسرار والمعلومات التي يعرفها البروفيسور عن الخيمياء وأسرار الحياة هي ما يشكّل خطراً. فلو كان بروفيسور جابريل يعلم شيئاً - وهو في الحقيقة يعلم الكثير - عما يتحدث

عنه جوهان وقرر أن ما يعرفه جوهان قد تجاوز حدود ما قد يُسمح لأيّ أحد بالحصول عليه،
فستكون الكارثة قد بدأت.

أمّا ما قد خطر ببال بروفيسور جابرييل عندما عاد له وعيه ومنطقه بعد مضيّ ثلاثة أيام ضربَ
كلّ ما كان الجميع يفكر فيه عُرض الحائط. فقد فتح له جوهان باباً قد ظنّ بروفيسور جابرييل أنه
قد أغلق مع وفاة العجبريّ الأول!

البحث عن الحقيقة

غرفة مظلمة إلا من بعض الفوانيس التي تعمل على الخيمياء والتي تمدّها بالطاقة من الجلو لتحيلها لطاقة نارية، كان هناك رجلٌ مقيدٌ إلى كرسي. تم تقييد يديه خلف جسده وتوثيق كل من ساقيه إلى ساق الكرسي. كان هذا الرجل معصوب العينين. لا يقوم بشيء سوى بالتنفس، فقد كان هذا أقصى ما يُسمح له به!

لم يكن مسموحاً لهذا الرجل الملتحي الذي تقدّم في الزمن دون أن ينسى أن ينهل من منافعه وخبراته الشيء الكثير، فأصبح يقارع الزمن في معرفته أحوال البلاد والعباد. لكنّ ما الذي قد يجعل رجلاً بلغ من العمر مبلّغه ومن الحكمة مقصدها ومن العلم أسرارها أن يكون مقيداً في مكان كهذا؟ وهل يقدر أحدهم على تقييده والامساك به بكل سهولة؟ فلا يبدو على هذا الرجل علامات المقاومة أو الصراخ. لا يوجد كدمات أو ملابس ممزّقة. فقط رجل جالس وقد تم توثيقه بكرسي بحبال غليظة لا تسمح له بالحركة.

قد يظن الناظر إليه أن هذا الرجل قد قرّر أن يوثق نفسه بنفسه ويسلم أمره لسجانه بإرادته! وهل يُعقل هذا؟ أجل. فعندما تعرفون أن الرجل الجالس على الكرسي بكل هدوء واستسلام هو بروفيسور جابرييل، فستفهمون مقصده من هذه الحركة.

لا يهم من السجّان هنا، ففي هذه الحالة يكون السجّان أشدّ رعباً من السجين. فهذا السجين يُعدّ أخطر رجل على وجه الأرض وهو في حالته تلك. أجل. فهذا السجين ما هو إلا خيميائي. والخيميائي أخطر على البشرية من أيّ شيء.

لكن ما الذي دفع بروفيسور جابرييل إلى فعل هذا؟

هذا التفسير يعود لشيء واحد فقط، شراب الحقيقة الذي احتساه مع جوهان. أجل، فشراب الحقيقة يُلغي المنطق ولا يجعل الرجل يشعر بخطورة نتائج أفعاله وتجاربه. وروفيسور جابرييل لديه العديد من التجارب المحرّمة والتي لا يعرفها العديد من الخيميائيين، ناهيك عن كون

الخيمياء علم محرم إلا على القليلين من ذوي الخبرة والمعرفة الفذة، والتي بدورها لا تُكتسب بطرق شرعية. لو عرف العالم ما فعله الخيميائيون ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من علم ومعرفة أدت إلى فائدة البشرية، لقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وتركوا معلقين على عواميد خشبية تأكل الطير من رؤوسهم.

وهذا ما كان الجميع مرعوباً منه. فقد كان هذا الخيميائي الذي يدعى بروفيسور جابريل تحت سيطرة ضميره وصلابة ذهنه طيلة الوقت، مما منعه من القيام بتجارب كارثية لا تُحمد عقبائها، والآن في غياب هذه العقلية والمنطق الذي يتوافق مع ضميره، هذا إن كان حاضراً وهو في تلك الحالة، فلا مانع من القيام بما هو أخطر ما يمكن أن يقوم به خيميائي يحب التجارب ويريد استكشاف المجهول.

ولا يمكن لأحد أن يعرف مدى خطورة بروفيسور جابريل وهو في هذه الحالة إلا غابريل نفسه، لذلك أتى بهذه الوسيلة وهي الوسيلة الوحيدة لإيقافه. كان على السجان أن يمنع بروفيسور جابريل من استخدام أي من حواسه لئلا يدرك أي شيء من حوله مهما كان بسيطاً فهناك أثر لما يقوم به الخيميائي يتجاوز أثر الفراشة، فلا تستهن بالخيميائي، هذا إن كنت تعيس الحظ إلى درجة أن تقابل أحدهم.

هنا يأتي دور السجان. عُصابة على العينين لئلا يرى شيئاً لثلاثة أيام سوى بصيص من نور يمر عبر العصابة لئلا يُصاب بالعمى عندما تُزال عصابته عن عينيه. كان على السجان أن يربط يدي بروفيسور جابريل وحتى أصابعه لئلا يتمكن من استخدامها بأي طريقة. لذلك كان السجان يُطعم بروفيسور جابريل كل وجبه بنفسه، وكان يقوم بذلك دون أن ينس ببنت شفة، ليمنع أي نوع من التواصل مع بروفيسور جابريل.

كان عقل بروفيسور جابريل مدركاً لكل هذه المخاطر لكن دون أن يشعر بها، لذلك لم يُبد أي مقاومة، خصوصاً أنه لا يزال يذكر أنه هو من وضع هذا النظام في معاملته اثناء حبسه، فهو من أتى بهذه الفكرة للتعامل معه شخصياً في كل مرة يتناول فيها شراب الحقيقة. هذا صحيح، والأغرب من هذا أن السجان لم يكن أحد سوى زوجته! فقد قامت زوجته بتقييده حسب تعليماته

بهذه الطريقة، وهي من تُطعمه وترعاه وتدلّك له يديه وقدميه لألا يتأذى، على الرغم من أنّها لا تعرف لماذا لا ينطق بروفيسور جابرييل بحرف واحد وهي تُطعمه. كان بإمكانه استغلال تلك الدقائق التي تزبل فيها الوثائق عن فمه لكي يتحدث.

لم يوجه إليها أي كلمة طيلة فترة حبسه، لكنها لم تكن تعرف أن الخرقَة المربوطة حول فمه قد صنعها بروفيسور جابرييل من جلد الماعز المشبع بسائل مستخلص من نبتة البيلادونا. هذه النبتة تساعد على التخدير فيبقى لسانه مخدراً طيلة الوقت. لذلك لا يستطيع التحدث أثناء تناوله الطعام، عدا عن عدم قدرته على تذوق الطعام في المقام الأول، لأن شعيرات التذوق تبقى مخدّره لبرهة من الزمن حتى بعد إزالة الخرقَة. هذا ليمنع نفسه من التذوق وإرسال رسائل إلى العقل ليقوم بتحليلها واستنتاج مكونات وتحليلات بناءً عليها مما قد يؤدي إلى نشوء أفكار قد تبقى في ذهنه لفترة وقد يشرع بتنفيذها حتى لو كانت ستؤذيه هو شخصياً، فقد قرر أن يقطع على نفسه الطريق بهذه الوسيلة لألا يُطلق العنان للعقل ليرتكب فظاعاته.

فالإنسان يركب أشنع الأفعال وضميره يقط، فما بالك لو غاب هذا الضمير، مع بعض المعلومات المحرّمة!

وهكذا إلى أن انتهت المهمة. مضت الأيام بسهولة وحن وقت الكفاح لإخراجه. قامت زوجة بروفيسور جابرييل بفك وثاقه وعصبة عينه وتركته. فتحت طرف الباب قليلاً لتترك بعضاً من نور فترة الأصيل يخترق الغرفة. سيستطيع وقتها بروفيسور جابرييل أن يمضي بقية النهار في التدرب على فتح عينيه وتعريضهما للنور ببطء لألا يُصاب بالعمى!

لقد عاد له عقله ووعيه بالكامل، ومعه المنطق والضمير. لكن جانباً مجنوناً من بروفيسور جابرييل اليقظ قد اتخذ قراراً بحذر. كان يجاهد بصبر ليتجاوز مرحلته المظلمة ليتمكن من الوصول إلى هدفه، فها هو العالم يُثبت له مرة أخرى أنه لم ير كل شيء وأن هناك دلائل على حقائق تحوّلت مع الزمن إلى أساطير ومن ثم إلى حكايات خرافية يسمعها القاضي والداني ولا يعرف الألغاز المخبأة فيها. وحده الخيميائي من يعرف حقيقة هذه الأساطير.

في الناحية الثانية، نعود في الزمن إلى الجرس السادس، كان جوهان يبدي علامات استيقاظه

من أثر الشراب. لم يكن جوليارد ليتركه وحيداً طيلة فترة وقوعه تحت تأثير الشراب. لم يكن ما تناوله عقاراً سهلاً ولا يُعدّ تناوله إلا ضرباً من الجنون.

"ما الذي جرى لي؟" لم يعد جوهان يُصدق ما حدث.

أجابه جوليارد بكل صدق. "لقد استيقظت من تأثير الشراب الذي تناولته مع بروفيسور جابرييل. هل تذكر ما تحدثتا بشأنه؟"

بالطبع يذكر. لم يكن الهدف من سؤال جوهان هو جعله يتذكر، بل اختبار حقيقة أنه استيقظ من تأثير الشراب عليه.

وقد بدا عليه الاستيقاظ. عرقٌ باردٌ يُصاحبه اتساعٌ في فتحة العين مع احتقان دموع حارة ناجمة عن الشعور بأنه أفسد كل شيء. إحساسٌ بخيانة جوزفين، وبأنه لن يراها بعد الآن!

اقترب منه جوليارد وربّت على كتفه. كانت نظرتة حزينة، فلم يكن لديه من شيء ليقوله لجوهان، فهو نفسه قد عرف أنّ الطريق قد تمّ إغلاقه قبل أن يُسمح لهما بالولوج.

"لا بد وأن نجد حلاً لما جرى. لا نزال في أول الطريق."

قال جوهان وهو يغالب رغبة عارمة في البكاء. "لقد أخبرته بكل شيء."

"أعتقد أنه عرف كل شيء عندما قرأ أوراق اختبارك."

استغرب جوهان من كلامه. "ماذا تقصد؟"

أفلمته جوليارد وأخذ يمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً وعينا جوهان تتابعه. "لقد نجحت في الاختبار. أنت الوحيد الذي نجى من اختبار قبة الجحيم."

"وماذا في ذلك؟"

"لا يمكن لأحد تقدّم للاختبار تحت قبة الجحيم أن ينجو؟"

"هذا ما قاله أرمانوس."

"من أرمانوس؟"

"أحد المراقبين. التقيت به عند البوابة. أخبرني أنه لم ينبُج أحد من قبة الجحيم من قبل. لكن كيف نجوت أنا؟"

"من الواضح أنك نجوت بسبب كتب جوزفين، فأختي لم تترك مجالاً إلا وحصلت على أنفُسٍ وأندَرِ الكتب التي تتحدث عنه حتى ولو كانت لا تُصدّق. نصف الكتب التي تمتلكها تعود لمؤلفين إما أصابوا بالجنون أو تم اتهامهم بالجنون والكذب لاحقاً."

"لماذا؟"

"لأنها ليست معلومات يجب على أحد معرفتها. لكنك استخدمتها بشكل تلقائي. لقد كشفك ذكاؤك يا فتى."

لم يتمكن جوهان من استيعاب حقيقة أن يكون ذكاؤه نقطة ضعفه التي كشفتها!

"ما العمل الآن؟"

"عليّ أن اعود إلى الأكاديمية غداً لأصل إلى الجواب. سيظهر بروفيسور جابريل غداً، فقد زالت آثار ذلك المصل السريّ."

وما إن أنهى كلامه حتى سمع طرقاتاً على الباب. انتاب جوليارد احساس غريب وهو يتّجه ليفتح الباب. لكنه لم يكن يتوقع أنه لم يعد في حاجة إلى أن يذهب إلى الأكاديمية، فقد كان الجواب ينتظره على عتبة بابه.

فتح جوليارد الباب ليجد بروفيسور جابريل أمامه. حيّاه بروفيسور جابريل ودعا نفسه للدخول دون أن ينتظر إذناً من جوليارد.

"مرحباً جوليارد، عمت مساءً." أخذ بروفيسور جابريل يحيل نظره في البيت. "لا يزال هذا البيت كما أذكره."

أجابه جوليارد بسؤال. "وكيف تذكر هذا المنزل؟"

"كما رأيته آخر مرة."

"منذ متى؟"

"منذ توسطتُ لأختك لترضى عنك. كانت حكيمة."

"وما الذي جلبك إلى هنا الآن؟"

التفت له بروفيسور جابرييل وتعبير هادئ يسيطر على وجهه. "أنت تعرف سبب مجيئي."

قال جوليارد باستسلام. "جوهان."

"بالضبط." تغيرت تعابير وجه بروفيسور جابرييل إلى الألفة وسأل مبتسماً. "ألا يوجد عندكم

شيء لأشربه؟"

انتبه جوليارد إلى أن الرجل الواقف أمامه هو مدير أكاديمية بالينفورد. صمّام الأمان في المدينة يحطُّ رحاله في بيته ولا يجد كرم الضيافة.

"طبعاً، سأحضر لك الشاي."

"أرجو أن ترسل الفتى إليّ فأنا عجوز بحاجة إلى من يستمع إلى تخاريفي."

لم يفهم جوليارد معنى كلام بروفيسور جابرييل، لكن ما باليد حيلة، فوجود بروفيسور جابرييل هنا لا يعني إلا أحد أمرين أحلاهما مرّ.

استدعى جوليارد جوهان وأرسله إلى بروفيسور جابرييل. كان بروفيسور جابرييل قد اتخذ مجلسه في وسط الصالة. اقترب جوهان بخطوات مرتبكة من بروفيسور جابرييل. ابتسم البروفيسور لمرآه ودعاه إلى الجلوس أمامه.

"أنت جوهان إذن!"

"أوماً له جوهان برأسه." "التقينا من قبل."

"أها. إذن أنت تذكر ما تحدثنا بشأنه."

ارتبك جوهان. "أجل."

"لا تقلق. أنا أهنتك على ما قمت به."

لم يفهم جوهان إشارة بروفيسور جابرييل. "ماذا تقصد؟"

"نجاحك في الاختبار. أنت الطالب الوحيد الذي نجح في اختبار قبة الجحيم، كما يسميها..."
تردد بروفيسور جابرييل للحظة ليجد الكلمات المناسبة، ثم أكمل. "جميع من في الأكاديمية عداي."

"لكن ليس من المفروض أن ينجح أحد."

"ولكنه اختبار وأنت نجحت فيه."

"كيف؟"

"أنا من يجب أن يسألك هذا السؤال." ونظر بروفيسور جابرييل حوله. "لكن أعتقد أنني أعرف نصف الإجابة بالفعل."

سأل جوهان بتلقائية. "ماذا ستفعل بي؟"

سؤال معقد. كان على بروفيسور جابرييل أن يزيل الخوف من صدر هذا الفتى إن كان هناك أمل بأن يعود على بالينفورد بالنفع في يوم ما. وهكذا قرر بروفيسور جابرييل أن يتحدث.

"لا تقلق. أنت نجحت في الاختبار، من حقك أن تنتسب إلى أكاديمية بالينفورد."

"ماذا؟" كان هذا صوت جوليارد القادم من المطبخ حاملاً صينية خشبية عليها أقذاح الشاي الساخن.

التفت بروفيسور جابرييل إلى جوليارد. "كما سمعت. سيلتحق جوهان بأكاديمية بالينفورد كأبي طالب. لكن عليه أن يدفع الرسوم."

"لماذا؟" سأله جوليارد مصدوماً.

"أليس هذا ما تريده؟ لقد أرسلت هذا الفتى بكل هذا العلم إلى أكاديمية بالينفورد وأنت

تعرف أن احتمال موته كبير.

"لكنه لم يخطئ بعد.

"وأنا لن أنتظره إلى أن يُخطئ."

كان جوهان يتابع هذا الحديث دون أن يعرف إن كان في خطرٍ محققٍ أم أن هناك شيء لا يفهمه إلا الكبار الذين يتناقشون مسألة حياته أو موته بحضوره.

"إنه نابغة يا سيدي."

"وأنت تعرف أن النابغة والموهوب هنا من يشكلان الهم الأكبر. أنت نفسك تعرف نتائج عدم التحكم في هذه القدرات."

"وماذا بعد؟"

"سبقيه تحت أعيننا. هذا الفتى يعرف أموراً لا يمكن لأحد حتى أنت أن تعرف إن كانت موجودة أو لا. لكنه يتعامل معها على أنها مسلّمات وليست فرضيات تجريبية أو مجرد علم نظري لم يكن خاضعاً للتجريب."

"إذن سبقيه تحت عينيك طيلة الوقت."

"وهل هناك من حل آخر؟"

"لماذا تريدني أن أقوم بهذا؟"

تنهّد بروفيسور جابرييل. "جوليارد، هل يعني لك جوهان شيئاً؟"

كان هذا السؤال المنتظر.

"أجل."

"ماذا؟"

"الكثير."

تُحَنِّ بروفيسور جابريل. "طريقة لإعادة جوزفين؟!"
 أُلْجَم لسان جوليارد، فقد أصاب بروفيسور جابريل عين الحقيقة. أخفض عينيه إلى الأرض.
 نهض بروفيسور جابريل واقترب من جوليارد يربّت على كتفه.

قال بروفيسور جابريل بنبرة صادقة. "لا تقلق. لا بد وأن نصل إلى الحقيقة. لكن وظيفتي
 كمدير للأكاديمية هو أن أحافظ على سلامتها، ووظيفتي ككيميائي هي حماية الجميع من
 جوهان."

"يمكنك أن تقوده."

"لكني لست موجوداً طول الوقت."

"إذن؟"

"عليه أن يلتحق بالأكاديمية في الوقت الحالي. سأعقد اجتماعاً مع المدرسين. سيبقى جوهان
 تحت الملاحظة طيلة الوقت. عليه أن يُثبت حسن نيّته وأن يكشف كل شيء يعرفه."
 "إنه يعرف ما تعرفه جوزفين وأنا."

"أيها الأحمق. هذا الفتى رأى نصف ما تعرفه جوزفين وأنت رأي العين. إنه يعرف أكثر ممّا
 يجب، بل وأكثر منك أيضاً." ثم وجه نظره إلى جوهان، "يجب علينا أن نعرف عمق المعلومات
 التي يعرفها بأسرع وقت."

سارع جوهان بالقول. "سأخبرك بكل شيء."

فاجأ كلامه بروفيسور جابريل وجوليارد معاً.

سأل بروفيسور جابريل. "ماذا تقصد؟"

"سأخبرك بكل شيء إن تعاونت معي."

"على ماذا؟"

"على أن أعيد جوزفين إلى هنا."

"أين جوزفين؟"

"لا أعرف."

نظر بروفييسور جابريل إلى جوهان نظرة دبّت الرعب في نفس جوليارد. اقترب بروفييسور جابريل من جوهان ونظر في عينيه بكل جدية.

"اقسم لك بشر في أنك لو عرفت مكان جوزفين فلن أتوانى لحظة واحدة عن مساعدتك لإعادتها."

قال بجملة هذه وودّعها وغادر المكان. بقي جوليارد يفكر بكلام بروفييسور جابريل وهو يراقبه يتبعد عن المنزل، ثم أعاد ناظره إلى جوهان الذي دبّت الحميّة والجدية في عينيه منذ تلقيه الوعد من بروفييسور جابريل.

لم يمنع جوليارد نفسه من التفكير فيما قد يعرفه بروفييسور جابريل عن جوهان. فقد بدا أن بروفييسور جابريل يعرف عن جوهان أكثر مما يعرفه جوهان عن نفسه!

في اليوم التالي ذهب جوهان برفقة جوليارد إلى الأكاديمية بعد أن أعدّه بروفييسور جابريل للمواجهة. كان على جوهان أن يواجه الأساتذة كونه الطالب الوحيد الذي نجح في اختبار قبة الجحيم.

دخل جوليارد الأكاديمية قبل أن يدخلها جوهان. كانت الخطوة أن يدخلها متفرقين، لم يكن يريد جوليارد أن ينظر الطلاب لجوهان نظرة مغايرة فقط لأنه من طرف أحد أساتذة أكاديمية بالينفورد. سيُظهر ذلك عداوات أو أفكار متحيزة تجاه أو ضدّ جوهان من قبل حتى أن يُعطوه فرصة ليُظهر لهم حقيقته.

أما في مكتب بروفييسور جابريل، كان هناك ثلاثة كان قد كلّفهم البروفيسور بمهمة قبل أن يختفي بعد تناوله شراب الحقيقة. كان أمامه ثلاثة دسّاسين! دسّاسون كل هدفهم هو نقل الأخبار ومعرفة المعلومات التي تحتاجها الأكاديمية لحماية مدينة بالينفورد، ولتابعة تطوّرات الخيمياء

والدراسات العلمية في بقية المدن.

كان الأمر واضحاً. لم يجدوا جوهان أو أي فتى في عمره ومواصفاته شبيهاً في إحدى المدن المجاورة، وبخاصة المعادية منهم. كان فكرة أن يكون جوهان مدسوساً من إحدى المدن المجاورة واردة وكان عليهم التحقق منها. لم يجدوا أيضاً أي ذكر للفتى في إحدى القرى البعيدة أو حتى الأماكن المهجورة.

انفعل أحد الدسّاسين بدافع من الحنق لأنّ بحثه لم يوصل للنتيجة التي كان يرجوها، وهي كَشَف هذا الدخيل على بالينفورد، فالدسّاسون يتوقعون الأسوأ دائماً، وإن لم يكن هذا هو الحال في الحقيقة. كانت نتيجة انفعاله جملة واحدة أثارت أفكار بروفيسور جابريل.

"وكان هذا الفتى سقط من السماء!"

تدبّر بروفيسور جابريل هذه الجملة. إن كان سقط من السماء، فلا بد وأن هناك من تلقّفه. هذا ما خطر ببال بروفيسور جابريل. لم يكن يريد أن يعتمد رواية جوهان عما حصل له من أنّه أتى مع الغجر، لكن يبدو أنّ الغجر هم أول منه التقوا به. لذلك كان عليه أن يحصل على الجواب الذي يريد.

أمر بروفيسور جابريل الدسّاسين أن يصلوا إلى قافلة الغجر التي كانت تؤوي جوهان ويجلبوا له كل المعلومات التي يمكنهم أن يحصلوا عليها من هذه القافلة التي عثرت على جوهان.

انصرف ثلاثتهم في مهمتهم. لم يتساءل أحدهم عن السبب الرئيسي لهذا البحث، فهذا ما لم يعتادوا عليه. كان التكتّم والسريّة سلاحهم في مهماتهم، وقلة المعلومات لديهم هو سلاحهم الأول للدفاع عن المهمة! أجل، فهم لا يسألون إلا عما طُلب منهم. الدسّاس لا يعرف الصورة كاملة لأنّه لا يُكشف شيء في حال تم القبض عليه في أثناء مهمته.

غادر بعدها بروفيسور جابريل إلى عمله في الأكاديمية ليستقبل الطلاب والمعلّمين ويُدلي بخطابه بينهم. توجّه إلى القبة الرئيسية والتي تحتوي جميع الطلاب الجدد ومعلميهم. صعد على الكرسي المخصص للمدير في مقدمة القاعة بينما يجلس الطلاب في مقاعدهم بالقرب من طاولات

امتدت على طول القاعة. كان هناك حفل بسيط احتفالاً بالطلاب الذين نجحوا في اختبارات القبول لدى الجامعة.

بدأ بروفيسور جابريل خطابه المعتاد. "أيها الطلاب الأعزاء، نيابة عني ونيابة عن الكادر التعليمي في أكاديمية بالينفورد، نبارك لكم اجتيازكم اختبارات الالتحاق بأكاديمية بالينفورد، المنارة الأولى في البلاد." موجة من التصفيق. تابع خطابه، "لدينا هنا طلاب من بلاد مختلفة، وهذا ما يُضفي التنوع على الأكاديمية، فيها من كل البلدان واللغات والحضارات، لذا أمل أن تكون هذه الأكاديمية مكان التنافس الشريف والسعي لتحقيق الأفضل، ليعود كل منكم إلى بلده جالباً لها علماً يُنتفع به. ستدرسون معاً، تعملون وتدرّبون معاً، لذا أرجو أن تُثبتوا لأنفسكم ولعلميكم كم أنتم حريصون على العلم وكم أنتم جادّون في مسعاكم لما أنتم مقبلون عليه..." واستمرت الخطبة مدّة ليست بالطويلة ولكن بالمملة. ذلك النوع من الخطب الذي لا يهتم به إلا طلاب السنة الأولى في الأكاديمية. انتهى خطاب بروفيسور جابريل من بعدها بدعوة الطلاب لتناول طعام الإفطار رفقة أساتذتهم.

كانت هذه حركة ليتعرف الطلاب على المعلمين، ويتفحص المعلمون طلابهم. ومن بين المعلمين، كانت هناك من تصوّب عينها على جوهان، وقد اختارته هدفاً لاهتمامها.

لم تتمكن ليديا من أن تنسى جوهان منذ اللحظة الأولى التي وقعت عينها عليه. كان جوليارد يشغل تفكيرها لكن السرّ كان عند جوهان. دارت العديد من الأسئلة في عقلها عن هذا الفتى ودوره في حالة جوليارد وعلاقته بجوزفين، ولم تكن لديها أيّ نيّة في العدول عن القيام بما في بالها. فدافعها لم يكن عقلياً أبداً. دافع لا يمكن لمعلمة في الأكاديمية أن تفكر به.

دافع لا يمكن لأحد فهمه سوى ليديا نفسها.

مضى اليوم بسلاسة. تعرّف فيها جوهان على صفوف المواد التي سيلتحق بها. تعرّف على بعض الطلاب والأساتذة، واستلم كُتبه وغادر مع نهاية اليوم إلى المنزل دون رفقة جوليارد كما اتفقا سابقاً.

قضى جوهان أيامه كأَيّ طالب في أكاديمية بالينفورد: حصص، تدريب عملي، الكثير من

الكتب التي عليه أن يقرأها، ومن ثم العودة إلى المنزل. كان هذا النمط من الحياة غريباً على جوهان. غريب على فتى لم يعرف الاستقرار. لكنه لم يعرف أن هذا الهدوء وهذه الحياة الاعتيادية كانت الهدف الأساسي لخطة تم تدبيرها من قبل بروفيسور جابريل.

فما حصل عليه بروفيسور جابريل بعد زيارة جوهان ببضعة أيام أشعل فتيل الحاساة في أوصاله. عاد إليه الدسّاس الذي أرسله بتقرير عن جوهان بعد أن عاد من عند الغجر.

كان التقرير مفاده هو أن إحدى العجريات، تُدعى ناردين، قد عثرت على جوهان وضمّته إلى الغجر. لم تكن تعرف ناردين من أين أتى جوهان ولا ما هي لغته الأم. في القبيلة كان هناك من يتحدث لغة جوهان وتمكّن من فهم اللغة الباليينية بشكل متقن، وهذا ما أثار رغبة بروفيسور جابريل.

كان بروفيسور جابريل يعرف أن اللغة الباليينية هي إعادة إحياء للغة قديمة توفّى آخر من يتحدث بها من مئة وسبعين عاماً كما قال المؤرخون المعروفون في بالينفورد. لكن الاحتياج إلى لغة ثرية بالمعاني والعبارات جعلت الباحثين في أكاديمية بالينفورد يبحثون في اللغة القديمة ليُحاوّلوا فك رموزها. ومنها تمكنوا من وضع قاموس تم توزيعه على جميع مكاتب بالينفورد يحتوي تعابير مُبسّطة وسهلة، تحتوي كلمات وحروف من اللغة القديمة مع قواعد للنطق تناسب اللغة الباليينية الحديثة، وخلال خمسين عاماً تطورت إلى الباليينية المنتشرة الآن، حيث يتم تحديث المعاجم كل عام لتتضمن أهم الكلمات التي ظهرت. لكن كيف لفتى ليس من بالينفورد أن يتمكن من إتقان اللغة؟ لا يمكن لعمره أن يكون أكثر من مئة وخمسين عاماً!

كان جوهان أيضاً يتقن عدّة لغات، وتمكّن من إتقان اللغة الكرداشية بسهولة وخلال وقت قصير. لم يكن غريب الأطوار ولكنه كان يريد القدوم إلى بالينفورد للقاء جوليارد. وهذا الغز آخر، لأنه لا أحد يعرف لماذا كان جوهان يريد لقاء جوليارد سواهما.

كل هذا أنار فكرة واحدة في بال بروفيسور جابريل. هذا الفتى هو غجري حقيقي!

طبعاً لم يكن بروفيسور جابريل يتحدث عن كون هذا الفتى قد انضم إلى الغجر لأنه يشاركهم نفس المصير أو لأن طقوسهم ناسبته. كان يقصدها بالمعنى الحرفي للكلمة. معرفة

بروفيسور جابرييل لمعنى كلمة غجري مع المعلومات التاريخية التي يعرفها جعلته يُدرك أن جوهان هو الغجريّ الوحيد الذي قد يكون على وجه الأرض الآن! وهذا الغجري قد وطئت قدمه أرض بالينفورد.

في نظر بروفيسور جابرييل يُعد جوهان غجرياً أصيلاً أكثر من قوافل الغجر أنفسهم. لهذا قرّر بروفيسور جابرييل أن يتمّ التعامل مع جوهان بكل حيادية ومراقبته من قبل المعلمين كلّهم عن كثب. ثم كُلف ليديا بمعرفة ما يمكنها معرفته عن جوهان بطريقتها الخاصة، وها قد أتتها الفرصة على طبق من ذهب، فلم تُرد أن تُفوّت الفرصة.

مضت الأيام وجوهان يتعلم. لكنه لم يكن يتعلم الكثير. بدأ روتين الذهاب إلى الأكاديمية يُثقل عليه. لم يكن يجد في الأكاديمية ما يشفي غليله في العثور على المعلومات التي يريدّها. لم يكن جوهان يريد معلومات عن الكيمياء والرياضيات، أو حتى اللغة التي برع فيها. كان يبحث عن إجابات للأسئلة التي حيرته والتي من أجلها قصد بالينفورد، لكن الأكاديمية رفضت أن تمنحه ما يريد.

ومضى الزمن متجاهلاً حاجة جوهان إليه. لم يكن لديه الوقت الكافي لدراسة معلومات لا تُسمن ولا تُغني من جوع. كانت الصفوف التي يدرسها تشكل عائقاً في سبيل حصوله على ما يريد. تمكّن من تشكيل صداقات مع أرمانوس والذي بدوره عرفه على جوانا وميلتون. ولهما حكاية أخرى سنجدّها في الصفحات القادمة.

تمكّن جوهان من تحمّل كل هذا لعام دراسي واحد. وما حدث بعدها لم يكن يمكن تلافيه. فوقيتها بدأت ذكريات ليل لا ينتهي.

مأزق

يمكن للإنسان عند نقطة معينة أن يفعل كل شيء لتحقيق مبتغاه. هل يبتكر المبرّر تلو المبرّر لما يفعله. نبرّر لأنفسنا نحن فقط دوناً عن العالم، لاعتقادنا بأننا مختلفون وكأننا من جنس آخر! ولكل فرد مبرّره لما هو مقدم عليه.

يظن البشر أنهم يمتلكون الحق ليحكم أحدهم على الآخر، متناسين أنهم لا يعرفون الحقيقة كاملة بل الفتات منها.

تعرف جوهان عن طريق أرمانوس إلى ميلتون في مكتبة الأكاديمية حيث كان ميلتون يبحث عن كتاب يخصّ الفراشات علّه يجد ضالته فيه. كان ميلتون يبحث عن الفراشة الملكية عندما سمع من أحد اساتذته أنها تتغذى على نبتة الصقلاب السامة دون أن تموت. فقد كانت نبتة الصقلاب هي النبتة التي تم ذكرها في البحث المتعلق بإحدى الأمصال الطبية التي تم صنعها لمعالجة سمّ الأفاعي. ما جذب به إلى تلك النحلة هي مقدرتها على تحمل النبتة السامة ممّا دفعه إلى دراستها، علّ جسدها يحتوي مادة يمكن أن يضيفها إلى المصل فتزداد شدّته، أو أن يستبدل تلك المادة التي تستخدمها الفراشة الملكية لحماية نفسها من سمّ الصقلاب كإداة بديلة لنبتة الصقلاب والتي لديها آثار خطيرة قد تفوق خطر سمّ الأفعى نفسه ما لم يتم التعامل معها بحذر. باختصار، كان ميلتون يبحث عن بديل لنبتة الصقلاب قد يكون أقلّ خطراً على من يتناول المصل.

كان شغف ميلتون ببحثه هو ما دفع جوهان إلى التعرف عليه. كان أرمانوس يصغر ميلتون بعام واحد، مما جعل مهمته في تعريفه على جوهان أسهل. ساعد أرمانوس وجوهان في العثور على الكتاب لأجل ميلتون، وقد عثر عليه جوهان بعد ساعة من البحث. لقد كان جوهان فرحاً بحقيقة أن هناك امراً لا يعرفه وقد شغل نفسه في البحث عنه.

ما جذب به إلى ميلتون هي حقيقة أن ميلتون بنفسه لم يكن مطلوباً منه أن يبحث في أمر الفراشة الملكية ولا قدرتها على مقاومة نبتة الصقلاب، فقد قام ميلتون بكل هذا فقط لأنه ملّ من المعلومات الشحيحة التي يحصلون عليها. اجتمع ثلاثتهم معاً في بيت ميلتون من بعدها ليجدوا

أن لديه اهتمامات لألعاب كثيرة تستلزم إعمال العقل بشكل فريد من نوعه، كتقسيم عقلك إلى قسمين، كل قسم مسؤول عن لعبة معينة، وكان على جوهان أن يقوم بها ليلعب ضد أرماتوس وميلتون في لعبتين مختلفتين في نفس الوقت، وكلا اللعبتين تحتاجان التخطيط.

كان هذا النشاط يتطلب صلابة ذهنية كبيرة، فاتفقوا على أن يتبادلوا الأدوار كلما يصل أحدهم إلى حده، لئلا يقع الضغط على أحدهم. عندما يأتي دورك في تقسيم عقلك ومشاركة اللعب مع الاثنين الآخرين بأن تلعب لعبتين مختلفتين، لعبة ورق ولعبة حسابات. إجراء عملية حسابية في شق من رأسك بينما تتابع لعبة الورق في الشق الثاني أمر أخذ جوهان على عاتقه إتقانه لأطول فترة ممكنة. فقد أراد ما يشغل باله عن الملل الذي يتلقاه في الأكاديمية، وكان ميلتون هو سبيله إلى ذلك.

إلى أن التقى بجوانا، التي كانت على وشك أن تقتله!

كانت جوانا تدرس مع جوهان إحدى صفوف العلاج الطبيعي، حيث يتدربون على بضع حركات تستهدف مناطق الطاقة في الجسد، فعبّرهما يمكنهم أن يُحفّزوا الجسد على إخراج مقدار أكبر من الطاقة لأجل أن يُعالج نفسه. كانت الحركات المتبعة في هذا الدرس دقيقة ويجب أن تُنفذ في حذر. انقسم الطلبة إلى قسمين وكان من نصيب جوهان أن يكون من نصيب دمي التجارب. وكان دمية التجارب الخاصة بجوانا.

استلقى جوهان على الأرض أمام جوانا وسلّم نفسه وعينيّه مغلقة ليديّ جوانا تُجرّب عليه التقنيات التي أخذ أستاذ هايدن بتعليمهم إياها. كان من المفترض لهذه الحركات أن تزيد من سعة القصبات الهوائية مما يسمح للفرد بأن يتنفس بعمق أكثر ويستخدم جزء جيداً من رتبته. كانت هذه التقنية هي إحدى التقنيات المتبعة لعلاج مرضى ضيق التنفس. هذه التقنية، كما غيرها من التقنيات، لا يُمكن أن تُستخدم إلا في الحالات الحرجة لغاية إبقاء المريض على قيد الحياة إلى أن يصلوا به إلى أقرب عيادة. قرر أستاذ هايدن أن يبدأ هذا الدرس مع الطلاب لأنه يُعتبر غير مؤد بشكل عام ولأن الأعراض الناتجة عنه ليست بهذه الخطورة، ولكن حالة جوهان كانت مختلفة.

قامت جوانا بالضغط على إحدى نقاط الطاقة لتُحرّر طاقة أكبر من جسد جوهان جعلت

رثتيه يعملان بشكل كبير، أكبر حتى من الشكل الطبيعي، مما جعله يظن أنه يشفط هواء الغرفة بأكملها إلى رثتيه. بدأ جسده يتنفض وبدأت علامات الاحتناق تظهر عليه، ارتعاش في كامل أعضاء الجسد، مصحوباً بتعرق وبروز في العينين، عدا عن انتفاخ في صدره جرّاء كمية الهواء التي ملأت رثتيه حد الانفجار.

صرخت جوانا وابتعدت في رعب عن جسد جوهان، مما دفع المعلم هايدن إلى الإسراع للحاق بجوهان. تمكن من معرفة ما حدث بخبرته في هذا المجال وعرف أن جوهان سينفجر في أي لحظة إذا ما تصرّف وأنهى الموضوع.

كل ما أدركه جوهان هو أن مسيرته كانت على وشك أن تنتهي، وآخر ما رآه ذلك اليوم كان وجه الأستاذ هايدن يقف فوقه وهو يستعد لمهاجمته!

استيقظ جوهان بعده بثلاثة أيام ليجد نفسه في عيادة الأكاديمية محاطاً بأرمانوس وميلتون وجوانا وبروفيسور جابرييل وجوليارد. احتاج الأمر بضع لحظات ليستعيد سماعه بوضوح. لاحظ أن نفسه قد عاد لطبيعته. نظر حوله للعيون المترقبة. وجد جوانا بينهم تبكي وهي خائفة. لم يكن يشعر تجاهها بالخوف أو الكره، بل بالامتنان!

اقترب منه الأستاذ هايدن وشرع يسأله عما يشعر. أجابه جوهان ببضع جمل مختصرة تحتوي الإجابة. اطمأنوا عليه وتركوه ليستريح.

"جوانا!" نادى بصوته الضعيف جرّاء ما حصل معه.

التفتت جوانا ناحيته وقد انقبض صدرها. ظنّت أنه تهيأ لها أنه ناداها ولكن النظرة التي في عينيه أثبتت لها أنه كان يقصدها هي لا غيرها. اقتربت منه جوانا على استحياء.

"أتريد شيئاً؟"

"أجل."

"ماذا تريد؟"

"أن اشكرك."

فاجأها كلامه. كانت تتوقع أن تعرض إلى نوبة من التأنيب والصراخ والشتائم، لكن ما حصلت عليه كان الشكر.

"على ماذا؟"

"على ما فعلته."

"لكني كدت اقتلك."

"وهذا ما قصدته. لقد جعلتني أرى شيئاً مختلفاً عما كنت أراه كل يوم. أخرجتني من هذا الملل القاتل. أكره القدوم إلى الأكاديمية لأكرر ما فعلته في البارحة، وكأني لا أزال أعيش في تاريخ يكرّر نفسه ويأبى

أن يتقدم وكأنه يلتهم ذيله."

امتعض وجهها. "تعرف كم أكره هذه الحكاية!"

"قد تكون الحكايات التي نسمعها تصيب عين الحقيقة."

"وقد تكون تضليلاً لنا عن الحقيقة بعينها."

"ماذا تقصدين؟"

"أقصد أن الحكايات القديمة تناولتها الألسن ولا نعرف عنها الكثير عن طريق الكتب. بل عن طريق البشر، وما نُقل باللسان لا يبقى على شاكلته عبر الأزمان."

"لهذا هدفة. لا يمكن أن تصلنا حكاية دون أن يضع فيها الناقل بصمته."

قالت بنبرة استهزاء. "ويا لها من بصمة! أي مصداقية تقع على عاتق هذا الذي نقل الحكاية ليضع فيها بصمة قد تشوّه المعنى؟"

"هذا صحيح، لكن للترجمة دور كبير في هذا. ألا تشكّين في وجود بعض أخطاء الترجمة في

هذا الأمر؟"

"لا أحد يهتم بهذا لأنها تبقى حكايات خيالية يسمعونها الأطفال. لو كانت مصادر علمية، لوجدت العديد من الكتب تحاول أن تثبت أنها تروى الحقيقة، وترفق دلائل لا تدري من أين حصلوا عليها."

"يبقى عنصر الغموض في هذه الحكايات هو ما يدفعها إلى أن تكون مشهورة."

"إنها مشهورة لأنها ترضي خيال الجاهل. هناك حبّ لما وراء الطبيعة في النفس البشرية، وهذا مما لا يمكننا تجاهله، وبالأخص عندما تكون نقطة الضعف الأقوى فيما يخص هذه الحكايات."

"ولم لا تكون رسائل مخفية بين طيّات هذا الحكايات؟"

"هذا ما يسعى أهل العلم ممن يبحثون عن المشاكل في إثباته، أو ما يحلمون بالعثور عليه."

"يبقى الأمر قيد النقاش."

ثم انتبهت جوانا على نفسها وهي تحدث مريضاً طريح الفراش، وبسببها. قامت من مجلسها وأنت الحوار بلطف. "لا يجوز لي أن أستمّر في هذا الحوار مع شخص طريح الفراش."

"أعرف هذا. لكن هذه الجلسة هي الشيء الوحيد المسليّ الذي حدث لي منذ أشهر في هذه الأكاديمية."

بدا عليها أنها أرادت أن تتابع الحوار مع جوهان، فقد رأى أثر كلماته عليها. لكنها قررت التراجع لوقت لاحق.

بقي جوهان لازماً للفراش فترة لا تتجاوز الأيام الثلاثة، إلى أن اطمأن الأطباء إلى أن نفسه عاد منتظماً. بقيت جوانا تزوره لتتحدث معه خلال هذه الأيام الثلاثة، ليس بدافع الشفقة أو الإحساس بالذنب، بل لأن هناك من هو مستعد لمناقشتها وتحمل منطقها دون أن يملّ من الحديث لفناة. بعد خروجه من العيادة استمرّ جوهان بالالتقاء بجوانا مع أرماتوس وميلتون. شكّل اربعتهم صداقة قوية مصدرها هو الرغبة في إخراج ما في جعبتهم أكثر من رغبتهم في تعلّم

المزيد.

كانت الأمور تسير مع جوهان على ما يرام إلى أن اقتربت السنة من نهايتها. عندها لم يتمالك نفسه. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي مكتبة الأكاديمية. قيل عن مكتبة أكاديمية بالينفورد أنها المكتبة الأغنى في التاريخ. احتوت المكتبة على مئات الآلاف من الكتب. لكن ما أثار غيظ جوهان هو محاولته أن يعثر على أي كتاب يتحدث عن الغجر، علّه يجد أي دليل على وجود الغجريّ الأول وعلاقته بالأساطير التي سمع عنها من الجدّ عندما كان مع القافلة.

لكن بحثه أفضى إلى كتب وحكايات عن الغجر تكون من تأليف أناس لا يعلمون إلا حكايات مزيفة وملفقة عن الغجر، بل وأغان يرددوها أطفال عن الغجر وألعابهم وقصصهم. كانت القصص غريبة ومنها ما هو مرعب، لكن لا يوجد كتاب ذكر أي قصة عن الغجري الأول.

ما تمكّن جوهان من إيجاده في النهاية هو كتاب بلا عنوان ولا مؤلف في قسم من المكتبة لم ينته الموظفون من تنظيمه. كان هناك كتاب مكتوب بالفارسية عن الغجر، لكن ما جذبته في هذا الكتاب بعد ساعات من المطالعة أن هذا الكتاب لا يتحدث عن الحقيقة، بل يذكر الأمر على أنه مجموعة من حكايات خرافية عن الغجر. تابع جوهان القراءة بالرغم من الازدراء الذي يبديه الكاتب تجاه الغجر. لكن ما استوقفه في هذا الكتاب كان صفحة غير مكتملة. كان الكتاب مكتوباً بخط اليد. قلب جوهان في الصفحات التالية فوجد فيها نصوصاً وفقرات متفرقة عن الغجر، فوجئ أنها كانت مكتوبة بعدة لغات. وصل جوهان خلال بحثه إلى قصيدة غير مكتملة.

كانت هذه القصيدة ما حرق آخر ورقة في صبره. كانت قصيدة تتحدث عن الإنسان الأول وقصة الخلق... كانت تتحدث عن الأسياد والحرب العظمى والكواسر... ولكنها ليست مكتملة... تابع جوهان بحثه كالمحموم عن بقية القصيدة ولم يجدها. لم تكن المعلومات التي قرأها في القصيدة جديدة عليه، فقد كانت تروي نفس الحكاية التي سمعها من العجوز عندما كان مع قافلة الغجر.

وهذا هو بيت القصيد. هذه القصيدة تُثبت أن ما كان جوهان يفكر فيه هو حقيقي. أثبتت لجوهان أن ما هو ماضٍ فيه ليس وهماً. لقد أذكت هذه القصيدة جذوة الرغبة في المضي في الطريق

إلى آخره، وجعلته يرى أنه اقترب خطوة أخرى من استعادة جوزفين.

نهض جوهان من مكانه وأبقى الكتاب على الصفحة التي تحتوي على القصيدة الغير مكتملة. نظر حوله وتأكد من عدم وجود أحد من عاملي المكتبة ليراه.

انتزع جوهان تلك الصفحة ودسها تحت ثيابه ومضى. غادر جوهان المكتبة دون أن يلاحظ أنه كان تحت المراقبة. ولسوء حظه أو حسنه، لم تكن هذه الرقابة أحدًا سوى ليديا!

بقيت ليديا تتابعه عن بعد. لم تكن تريد أن تكشف نفسها له. كان من الأفضل أن تواجهه فوراً لئلا تدع له فرصة إنكار أو إخفاء ما كان يحمله. لكنها أرادت أن ترى ماذا يريد أن يفعل بتلك الورقة التي انتزعها من الكتاب. لاحظت ليديا بعدها أن جوهان أمضى يومه دون أي نشاط خفي. انتابها فضول لمعرفة الكتاب الذي انتزع منه جوهان الصفحة. عادت ذلك المساء إلى المكتبة وبحث في الركن حيث كان جوهان جالساً. لم يستغرقها الأمر كثير بحث لتجد الكتاب.

من النظرة الأولى جذبها الكتاب بجلده الغريب وعدم وجود عنوان أو اسم كاتب عليه. شرعت في قراءة الكتاب. دقائق ونسيت أمر جوهان وانغمست في الكتاب. أصابها نفس الإحباط الذي أصاب جوهان عندما وصلت إلى الصفحات الفارغة. أغلقت الكتاب وأعادته بعد أن تأكدت من مكان الصفحة التي انتزعها جوهان من الكتاب.

في اليوم التالي كان جوهان ذاهباً إلى أكاديمية بالينفورد عندما شعر بأحد يراقبه. لم يكن هذا الشعور غريباً عليه، فقد اعتاد أن يسير جوليارد بعيداً عنه قليلاً لكي يتجنب ملاحظة الناس أنهما يأتیان ويعودان معاً. لم يكن جوليارد يرى أنه الوقت المناسب ليعرف الجميع أنهما يعيشان معاً، فهو بنفسه لا يملك تفسيراً منطقياً لهذا الموضوع ليقدمه لزملائه أو طلابه.

لم تكن الطريق التي يتخذها جوهان إلى الأكاديمية طويلة لكنها اشتملت على طريق فرعية. وهناك ثبتت شكوك جوهان. ففي لحظة واحدة تحوّل الطريق الفرعي إلى ظلام تامّ قبل أن يفقد جوهان وعيه.

عند الجرس الرابع كان بروفيسور جابرييل يجلس في مكتبه يقرأ الورقة التي اقتطعها جوهان

من الكتاب. بجانب هذه الورقة كان على مكتبه خارطة وقصاصة أخرى.

أجل، كانت هذه هي الخريطة التي كان جوهان يحملها معه أينما ارتحل. وأمّا القصاصة الأخرى فلم يقربها بروفيسور جابرييل أبداً.

استيقظ جوهان ليجد نفسه في مكتب بروفيسور جابرييل، محاطاً بثلاثة معلمين هم جوليارد، ليديا، وأوليفر. لم يوجّه له أحدهم أي سؤال. استغرق منه الأمر بضع لحظات ليُدرك ما حصل معه. ما أخافه هو حقيقة أن الجالسين أمامه هم من نفّذوا العملية. هم من اختطفوه!

كان بروفيسور جابرييل هو أول من كسر الصمت المحيط به.

"أرى أن دسّاسنا الصغير قد استفاق."

صمتٌ تام.

حاول جوهان أن يتجنّب النظر إلى جوليارد. حتى جوليارد لم ينظر إليه. كان مهتماً بما سيقوله بروفيسور جابرييل. فقد كانت لجوليارد وجهة نظر فيما يحدث. إن كان هذا الفتى مدّعياً، فقد نجا من عقوبة قد تكون الموت، أما إن كان الفتى المستلقي أرضاً بريء، فقد توثّق من الأمر ومضى فيه إلى نهايته. كان جوليارد مدرّكاً لحقيقة أنه وثق في الفتى في البداية بدافع من قلبه لا عقله. لكن إن أثبت الفتى براءته أمام عقل بروفيسور جابرييل، فسيمضي كل شيء على ما يرام.

سأل جوهان بصوت واثق. "ماذا تريد مني؟"

رفع بروفيسور جابرييل عينيه عن الورقة. "ما الذي تريده أنت من بالينفورد؟"

قرّر جوهان أن يقول الحقيقة، ففي كلا الحالتين لا يهم النتيجة. "أريد معلومات."

"عن ماذا؟"

"عن الورقة التي بين يديك."

"أنت تعرف أن هذه الورقة ما هي إلا حكايات خرافية."

"إنها حقيقة."

لم يُدرك جوهان وقع كلماته على بروفييسور جابريل، لكنها كانت واضحة في عيون المعلمين، خاصة ليديا.

"لماذا تعتقد ذلك؟" كانت من عادة بروفييسور جابريل أن يسير على خطا محدّثه إلى النهاية، فسيكشف المتحدث نفسه عاجلاً أم آجلاً.

"لأنّ هذه هي الحقيقة."

"إذن ماذا عن بقية أوراقك؟ الخريطة والقصاصة. من أي كتاب انتزعتهم؟ لقد شوهدت تنتزع ورقة واحدة."

لا يمكن لجوهان أن يُخبر أحداً عن أبيلارد. أبيلارد بحد ذاته سرّ لو كُشف للعالم، فلن ينجو جوهان يوماً واحداً في الأكاديمية، سيحرقون جثته وممتلكاته وسيستحيل كل شيء إلى رماد، رماً حتى أعتى الخيميائيين يرهّبونه! لهذا وجد نفسه يخلط الحقيقة بالكذب علّها تُفيده.

"إنها معي منذ وُلدت."

"لماذا؟ من أين لفتي يعرف ما يعرف وذو أصل مجهول أن يضع يده على خريطة لم نر مثلاً في بالينفوردها؟ والأدهى من ذلك، لديك نص لا يجيد أحد منا قراءته! هل تعتقد أننا سندعك وشأنك بعد كل هذا؟ أنت دسّاس ولا شك في ذلك."

"لقد حصلت عليها من عائلتي قبل أن يُقتلوا. هلكت عائلتي في إحدى الحروب القديمة وغادرت أُمّي البلد وهي صغيرة. قيل لي أنها آخر من تبقى من عائلتي، سلّموني حاجياتها بعد أن توفّت. لقد ماتت بعد ولادتي بوقت قصير، لذا لا أعرف شيئاً عنها."

"ما الذي تقوله؟"

"هذا صحيح. من عرفوها لم يعرفوا اسمها الحقيقي. لم تُخبر أحداً عن اسمها أو من أين أتت."

أشفقوا عليها لأنها كانت فتاة صغيرة عندما ارتحلت وحدها.

"وكيف عرفت عنها كل هذا؟" كان سؤال بروفيسور جابرييل منطقياً.

"قامت بكتابة رسالة لي خلال فترة حملها. قبل أن تضعني ببضعة أسابيع. لقد أمرتني أن أحرق الرسالة بعد قراءتها."

وهكذا لا يمكن التحقق من الرسالة أو من صحة كلامه. جوهان هو المصدر الوحيد.

"لكنك أخبرتني أن أمك هي جوزفين؟"

رنّ اسم جوزفين في المكان لتسوّد وجوه الحاضرين. الكل يذكر تلك الليلة. الكل يذكر ما كانت تعنيه لهم جوزفين.

"أجل. جوزفين هي من ربّتي. وقد أرسلتني برسالة إلى جوليارد لتخبره فيها أنها تسامحه."

"ثم اكتشفت أنها ميتة؟"

وقتها تلفظ جوهان بأسوأ جملة قد يقولها في حياته. "جوزفين لا تزال على قيد الحياة."

اتسعت عينا بروفيسور جابرييل لما سمعه. ألا يزال الفتى متمسكاً بمعتقداته بعد كل ما رآه في الأكاديمية! هنا عرف بروفيسور جابرييل مع من يتعامل. ألجمتُ السُّنُ الحاضرين لما سمعوه. لم يكن لأي أحد منهم فكرة عمّا يعتمل ببال جوهان أو حتى جوليارد. كل ما شعروا به هو مشاعر مختلطة تجاه جوزفين وجوهان.

أكمل بروفيسور جابرييل كلامه. "إذن أشرح لي هذه الخريطة؟"

هز جوهان رأسه علامة الإنكار، فهو لا يزال لا يعرف ما تحتويه هذه الخريطة. لم يقم بدراستها منذ أن أعطاه إياها أبيلارد. فقد كانت هذه إحدى الألباز التي أودعها أبيلارد لدى جوهان.

"إذن أنقرأ لي هذه الصفحة؟"

وقف جوهان قريباً من الصفحة. لم يتمكن من قراءتها.

"غير معقول. ألا تجيد قراءة هذه اللغة؟"

هزّ جوهان رأسه مرة أخرى.

لم يتغير القرار الذي اتخذهُ بروفيسور جابريل. كان عليه أن يعرف ما تحتويه الورقة قبل أن يُقرّر ما عليه أن يفعله مع جوهان.

توجّه بروفيسور جابريل إلى بقية المعلمين. "حسن، يمكنكم المغادرة. سيبقى جوهان تحت رقابتي أنا وليديا إلى أن نعرف حقيقة ما تحتويه الورقة. سيذهب جوهان إلى صفوفه كالمعتاد لأتّى نجذب التساؤلات. سنخبركم بقرارنا بعد إجراء عدة اختبارات لنصل إلى ما نريد معرفته."

انصرف بقية المعلمين وبقيت ليديا في المكان.

سألت ليديا بدافع من فضولها. "ما الذي سنفعله؟"

توجّه لها بروفيسور جابريل بنظرة العارف بالأمر، والتي تُخفي تحتها نظرة متشوّقة لعالم لا يعرف معنى للحدود.

"سنقوم بآخر شيء قد يقوم به أي خيميائي عاقل!"

وهذا ما كان. لا يجزّؤ أحد من مرتادي الأكاديمية أو حتى أساتذتها على ما كان بروفيسور جابريل مُقدماً عليه، والسبب كان واضحاً، لأنه ينافي كل ما تلقّوه من تعليم في الأكاديمية.

خرج بروفيسور جابريل مصطحباً ليديا وجوهان إلى وجهته التي لا يجب على أحد معرفتها. حتى ليديا وجوهان لم يعرفا إلى أين كان هذا العجوز يقودهما. مَصِّيا خلفه، عيّن جوهان على بروفيسور جابريل وعيّن ليديا على جوهان.

تبعاً بروفيسور جابريل في حارات ضيّقة تقودهم إلى بيوت تقع في ناحية بعيدة عن الأكاديمية، لكن المكان كان يثير رغبة ليديا لغرابته. فقد احتوى محلات من أنواع مختلفة كسوق شعبية للغجر أقرب منها للأسواق المعروفة في بالينفورد. كانت واثقة أنها لم تطأ هذه الجهة من بالينفورد في حياتها، وشكّت حتى أن أهل المنطقة يتحدثون بالينية.

فجأة توقّف بروفيسور جابريل أمام إحدى البيوت التي لا يوحى منظرها الخارجي بالخير. فقد انتشرت رسّات لرموز غريبة وحيوانات ترتدي أزياء البشر وتقف على قدمين وترقص فرحة بامرأة تحمل بلّورة في يدها. لم تُصدّق ليديا أن بروفيسور جابريل قد جلبها إلى هذا المكان الذي تُحذّر منه كلّ تعاليم أكاديمية بالينفورد.

كان جوهان في حيرة من أمره. لم يدر بعد إلى أين كان بروفيسور جابريل يقتاده، لكن من المؤكّد أن هذا المكان قد يقوده إلى معرفة حقيقة ما عن نفسه أو عما يجري من حوله. سلّم نفسه للفضول الذي طغى على رهبة المكان وانساق خلف بروفيسور جابريل الذي دخل المكان وكأنه عارف بكلّ تفاصيله. حتى ليديا شكّت أن بروفيسور جابريل قد أتى إلى هنا من قبل، لكن ما الذي يدفع رجلاً بمثل مكانته أن يأتي إلى مكان لا يحتوي إلّا شلّة مشعوذين؟

دخل بروفيسور جابريل المكان وتابع سيره بين الجمع الذين أخذوا يُفسّحون لهم الطريق. كان يُدرّك وجهته بالتحديد. وقف بروفيسور جابريل أمام إحدى العُرف التي يجرسها خادم عريض المنكبين ويزيد طوله عن طول بروفيسور جابريل بكثير. تبادل معه بروفيسور جابريل بضع جُمْل قبل أن يُفسّح الخادم الطريق لبروفيسور جابريل بالدخول. توجّه بروفيسور جابريل إلى الداخل والتفت إلى جوهان وليديا.

"ياكما أن تنطقا بأيّ كلمة. دعا الحديث لي."

دخلا خلفه، امسكت ليديا بجوهان وكأنها أمّ تُخاف على طفلها وليست معلّمة تحرس تلميذاً. في الداخل كانت الغرفة مليئة بالتناثيل واللوحات التي تصف مخلوقات لا يرد ذكرها إلى في كتب الأساطير التي تُروى للعامة لإثارة الرعب في قلوبهم ولصنع هيبة للجماعات التي ترونها. لكن ما لفت انتباه جوهان هو توجّه بروفيسور جابريل إلى امرأة عجوز كانت تجلس في آخر الغرفة على عرش كبير وتضع أمامها حاملاً له مخالب تنوسطه بلّورة كبيرة الحجم.

توجّه بروفيسور جابريل للجلوس أمام البلّورة ودعا كل من ليديا وجوهان للجلوس بجانبه. جلس جوهان بجانبه دون أن يضبط أنظاره التي راحت تجوب في المكان وتنفّص كل تفصيلة فيه كونه يراها للمرة الأولى.

لم ينطق بروفيسور جابريل بأي كلمة. كانت امرأة الجالسة أمامه على عرشها لا تتحدث. لم يكن يعرف جوهان حتى إن كانت الجالسة أمامه امرأة أم لا، لأن وجهها كان مغطى بقلنسوة رداؤها الأزرق. ثبتت ليديا أنظارها على المرأة الجالسة أمامها بينما انتابها إحساس غريب. قرّرت أن تلوم بروفيسور جابريل على كل هذا بعد أن تمضي الزيارة على خير ما يرام.

بقي ثلاثتهم جالسين إلى أن رفعت المرأة القلنسوة التي كانت تحجب عينيها. كانت عيناها بيضاوان تتوسطهما نقطتين زرقاوان اقلّ اتساعاً من بؤبؤ العين بقليل. كانت حواجبها كثيفة وذات بشرة ناصعة البياض. لا يخفى عن الناظر إليها أنها كانت فائقة الجمال في صغرها لأنها لا تزال تحتفظ بطيف من هذا الجمال.

قاطعت المرأة سبيل أفكار ليديا وجوهان وبدأت في التحدث.

"يبدو أنك لا تنفكّ تعود إليّ يا جابريل؟"

تفاجأت ليديا من أن هناك من يجرؤ على مناداة بروفيسور جابريل باسمه دون ألقاب! إما أن تكون هذه المرأة من الجرأة لكي تتحداه أو أنها على معرفة وطيدة بروفيسور جابريل، فكان يبدو من نبرة صوتها أن العمر لم يكثرث لها كما لم يكثرث لبروفيسور جابريل، فليس على الزمان حاكم.

"ولا أزال أعود إلى هنا، يا إزمير الدا."

ارتسمت بسمّة على شفتيها. "لم اسمع اسمي منذ زمن طويل."

"هذا صحيح. لا أعتقد أن هناك من يعرف اسمك غيري."

"ليس المهم أن يعرف اسمي، فكثيرون هم من يعرفونه. إنها هي المقدرة على النطق به. أنت من نطق اسمي ولهذا أنت هنا."

لاحظ بروفيسور جابريل تغيراً طفيفاً في الحضور من حوله، وكأنّ هناك كيان آخر يقف معهم في الغرفة المغلقة.

قال بروفيسور جابريل معلّقاً. "يبدو أنك لا تزالين تبحثين عن اسمي!"

"بالطبع. أنا أعشقك لهذه الدرجة."

"لا يهم. إن تمكنت من العثور على اسمي، يمكنك محاولة نقطة."

"وقتها ستصبح لي وحدي."

"وأنا موافق."

"أنت توافق على التحدي بسهولة. يبدو هذا لأنك تعلم أن الحصول على اسمك ليس بالأمر السهل."

"أنت خير من يعرف هذا."

تغيّرت تعابير وجهها من الترحاب إلى الصرامة. "ماذا تريد؟"

"طلبي بسيط، أعرف أنك تريد من معرفة الكثير عن هذا العالم، وقد أتيت لك بلغز لكي نكتشف سرّه سوياً."

"وهل تثق بي لهذا الحد؟"

ارتفاع حاجبها الأيسر علامة استغراب جعلت بروفيسور جابرييل يُدرك أنه حقق ما أتى إليه؛ إثارة فضولها.

"ما رأيك بأن نجرب؟"

فتحت يديها على اتساعهما وقالت. "هيت لك."

أخرج بروفيسور جابرييل من جيبه الخريطة التي كانت بحوزة جوهان. تناولتها منه إزميرالدا وقد انعقد حاجبها لبرهة قبل أن يفتّر ثغرها عن ابتسامة باهتة. لم تحاول أن تخفيها. تأملت الخريطة بين يديها. ملّست بأصابعها على الخريطة وشرعت تصفها.

"خامة مصنوعة من شعر الأنثى. خريطة مُغرقة في القدم. إني أرى معالم لهذا العالم في هذه الخريطة، ومعالم أخرى فيها ليست موجودة في هذا العالم."

سألها بروفيسور جابريل هدهو وتحفّز. "هل أنتِ متأكدة من أنها مصنوعة من شعر الأنثى؟"
التفتت إزميرالدا ناحيته. "أجل. لا أعرف من يكون صانعها ولكن هذه الخريطة مصنوعة
من شعر أنثى، شعر من نوعية خاصة، لكنني استشعر روح أنثى بين طيّات هذه الخريط".
"لكن لم يمرّ عليّ أن أحداً من الحضارات قامت بصنع خرائط مستخدمة شعر النساء!"

"أنا لم أقل إنها مصنوعة من شعر النساء. قلت انها مصنوعة من شعر أنثى. شعر أنثى واحدة."
كان لكلامها الأثر القويّ على بروفيسور جابريل وليديا. لكن جوهان لم يُعر حقيقة أن
الخريطة صُنعت من شعر الأنثى أيّ اهتمام.

تابع بروفيسور جابريل الحوار. "إذن أنت تعتقدين أن هناك كائن آخر صنع هذه الخريطة،
قوم لهم علم غيرنا صنعوها؟"

"شيء ما فيها يصيبني بالحنين. من صنع هذه المخطوطة وُجد في هذا العالم يوماً ما. لكن الآن
هذه المخطوطة ما هي إلا إحدى هذه المخلفات. هذا كنز نادر يُخبرنا عن مدى معرفة صانع هذه
الخريطة بمعالم الأرض. من صنعها يرى الأرض من منظور مختلف عنا. هناك أماكن هنا لم أرها
على خريطة من قبل."

"وماذا عن اللغة التي كتبت بها أسماء أماكن هذه الخريطة؟"

"إنها رموز. هنا تقف مهمتي. أنتم أعلم برموز اللغات وطريقة ترميزها بين الدساسين. هذه
مهمتك."

سلّمت إزميرالدا الخريطة لبروفيسور جابريل. تناوّلها البروفيسور بكل هدهو وثقة.

سألته إزميرالدا. "أهذا ما جئت لي به؟"

أجابها دون أن يفقد صوته هدهو. فقد انقسم عقله لنصفين، نصف يُخاطب إزميرالدا
ونصف يعالج المعلومات التي سمعها للتوّ.

"هناك ما أريد منك أن تراه أيضاً."

هنا أخرج بروفيسور جابريل القصاصة التي وجدها مع جوهان. ليست التي انتزعا من الكتاب، بل التي كانت ترافق الخريطة على الدوام.

أمسكت إزمير الدا بالقصاصة. للحظة ترآء لها أنها رأت شيئاً ما. بدأت أصابعها تحرقها ونذت منها صرخة ألم قبل أن تترك الورقة من يدها وتراجع للخلف ممسكة بكفها من شدة الألم.

سكت الكون من حول إزمير الدا. لم تعد تسمع أو تعي شيئاً مما كان بروفيسور جابريل يقوله لها. كانت تنظر إلى اللا شيء. كانت إزمير الدا تسترجع صورة مرعبة اقتحمت خيالها لبرهة. شعرت للمرّة الأولى في حياتها المديدة بمدى ضعفها. نظرة واحدة. كانت نظرة واحدة من ذلك الكائن كافية لإثارة الفزع في جسدها.

ما هذا الذي أمسكت به. لم أر مثل هذا في حياتي. هذا خطر. خطر أكبر من قدرتي على التحمل.

كانت إزمير الدا غارقة في تفكيرها فيها حصل معها لبرهة. لحظة واحدة كانت كافية لتعرف ما أرادته.

بعد أن استقر قلبها على نبضه المعتاد، عادت عيناها تحدّق في بروفيسور جابريل. اتساع عينيها كان كفيلاً بأن يثير الرعب في قلب بروفيسور جابريل. سكن البروفيسور عن الكلام والحركة في انتظار ما قد تقوله إزمير الدا.

خففت إزمير الدا نظرها ناحية القصاصة وأدركت أنّ ما شعرت به لم يكن وهمًا. ما رآته ليس صورة من الماضي أو رؤيا عن المستقبل. كانت تنبيهاً من الحاضر.

سألها بروفيسور جابريل بعد أن ضاق ذرعاً بالصبر. "ما الذي رأيته؟"

التفتت إلى بروفيسور جابريل دون أن تحتفي علامات المفاجأة عن عينيها.

"هل رأيت أو شعرت بها شعرت به؟"

انعقد حاجبا غابرييل. "لا".

"إذن، ما كان شعورك عندما لمست هذه الورقة؟"

مسّد بروفيسور جابرييل لحيته قليلاً قبل أن يتابع كلامه. "لقد أحسست بانقباض في صدري. هناك إحساس قوي بأن هنالك من يسحب شيئاً مني. لا أعرف ما هو لكنّي لا أشعر بأن هناك ما قد يكون على ما يرام."

"بالضبط. هذه القصاصة جزء من كتاب يسحب الأمل من حياة من يلمسه. هذا إن كان من البشر العاديين ذوي الطاقات الروحية العادية. كانت لديك الحكمة التي قاومت هذه الطاقة. هذه القصاصة مأخوذة من كتاب قديم متّصل بمخلوق قد تجاوز شرّه أي شرّ قد يكون أحدنا شهده في حياته."

تعجب البروفيسور من وصفها. "ألهذه الدرجة؟"

"وأكثر. ما لمحتّه كان على وشك أن يفتك بي. لقد حصلت على الفرصة الأولى في الرحمة، ولكنه لن يعيدها ثانية. من يُمسك بهذه القصاصة أو أي جزء من هذا الكتاب لا يمكن أن يعيش ليخبرك بما حصل."

"وماذا تعتقدين أن يكون الحلّ؟"

"الحلّ الوحيد هو أن تُتلف الورقة بأسرع وأفتك وسيلة تعرفها. لا خير من العبث في شيء أقلّ ما يُقال عنه أنه مُهلك."

أطلق بروفيسور جابرييل تنهيدة حارّة قبل أن يُذعن للكلام الذي قيل له. ودّع بروفيسور جابرييل إزمير الدا وغادر المكان.

بقي جوهان في حيرة من أمره تجاه ما سمعه. بقي ممسكاً بيد ليديا والتي كانت في حالة أسوأ من حالته، فما سمعته تجاوز المدوّنات التي كانت تعمل على ترجمتها وتحليلها. لكنها انسأقت خلف بروفيسور جابرييل لثقتها بأنه يعلم الكثير، وبالفعل كان بروفيسور جابرييل يعلم الكثير، ومع كل خطوة يخطوها، كانت تتأكد أمامه تفاصيل وافتراضات عمّا كان يُسمى في الماضي أساطير.

يبدو أو الخرافات كانت تحتوي على الحقيقة بشكل أو بآخر.

بعد أن انصرف بروفيسور جابريل من بيت إزمير الدا، تمكّنت إزمير الدا من الوقوف على قدميها. شعرت إزمير الدا بأن قدميها ستخونانها عاجلاً فاستندت على عكّاز. مشّت بضع خطوات إلى أن وصلت إلى المرأة. وقفت أمام مرآتها في شموخ. لاحظت الهزال على جسدها. امتدت يدها وانتزعت القلنسوة التي غطّت رأسها وانكشف المستور.

تحوّل شعرها كلّهُ إلى اللون الأبيض!

كان هذا الأثر الجسدي لبقايا المرأة التي أبت إلا أن تقف في شموخ. كانت تعرف أنها لم تنجو. ارتعاشه يدها اليسرى كانت خير دليل على ما حصل لها. فقدت إزمير الدا النظر في عينيها اليسرى تدريجياً. صارت الألم إلى أن وصلت إلى سريرها واستلقت عليه متهالكة وغطّت في نوم عميق. فما كانت قادرة على مواجهة الباقي وهي في وعيها.

في الطريق دعا بروفيسور جابريل ليديا إلى أن تعود إلى بيتها وتستريح، وأنها ستحصل على تفسير لكل ما رآته وسمعته.

سألته وهي تشد على يد جوهان. "وماذا عن جوهان؟"

نظر بروفيسور جابريل إلى جوهان بتمعّن. "جوهان سيمضي الليلة معي."

كان جوهان هو من توقع الإجابة. لن يتركه بروفيسور جابريل قبل أن يعرف كل شيء. أفلت جوهان يده من يد ليديا واقترب من بروفيسور جابريل.

سأله بروفيسور جابريل. "هل أنت جاهز؟"

أوماً له جوهان بالقبول ثم التفت إلى ليديا. "يمكنك إخبار جوليارد أيّ مع بروفيسور جابريل. لا أريده أن يقلق."

تعجّبت ليديا من جوهان. هذا الفتى كان يفكّر في جوليارد حتى مع كل الذي مر به إلى الآن!

ودّعته ليديا ومضت تهوّل إلى بيت جوليارد. بينما تابع بروفيسور جابريل مسيره إلى بيته برفقة جوهان. ظنّ جوهان في بادئ الأمر أن بروفيسور جابريل سيأخذه إلى المكتب، لكنه لم يكن

على دراية بما سيقوم به بروفيسور جابريل.

استقبلتهما زوجة بروفيسور جابريل بوجبة دافئة وسرير مريح. فهم جوهان من بروفيسور جابريل أن اجتماعهما سيكون بعد منتصف الليل، أي بعد أن يطمئنا على أن زوجة بروفيسور جابريل قد خلدت إلى النوم، فترجع كلاهما إلى غرفة نومه للراحة استعداداً للمواجهة.

في الناحية الأخرى فزع جولارد لصوت الطرق المحموم على الباب. كان القلق ينهشه وهو يروح ويحيي في الغرفة بينما تتضارب الأفكار في رأسه عما يجري. فتح الباب فدلقت ليديا إلى الداخل دافعة جولارد جانباً وشرعت تتحدث وتصف كل شيء شاهدته وكأنها تخاف أن تنسى أي تفصيلة أو تُخطئ في وصفها. تركها جولارد تقول كل ما في نفسها فعطشه لساعها يتعدى رغبتها في البوح له.

بعد أن انتهت من حديثها وقفت تنتظر ردّة فعل من جولارد. وقف جولارد ساهماً يفكر بما يجري. لم يكن من المحتمل أن يردّها جواباً أو يجد لها تفسيراً لما كان بروفيسور جابريل بنفسه يبحث له عن جواب.

لم يكن في جعبته ما يُخبرها به. كان عليه أن يرى جوهان أولاً. إن تمكن جوهان من النجاة هذه المرة، فقد قطع نصف الطريق.

أمضيا الليل يفكران في السيناريوهات المحتملة الحدوث بناء على معرفتهما بروفيسور جابريل. لكنهما يعرفان أن كل ما يفكران به لن يحصل، لعدم قدرة أحد على توقّع ما يمكن لغابريل أن يقوم به.

وفي اليوم التالي كان الحكم قد صدر...

قطرة من دم

دخولك لأي عالم لا يكون بالأمر الهين. وجودك بحدّ ذاته سيققلب موازين معيّنّة، سواء أكانت ذات أثر بسيط أم كبير. وهناك بالطبع ثمن لا بد وأن يتمّ دفعه مقابل كل ذلك.

لنعد في الزمن ليلة واحدة، لنعرف ما جرى.

في بيت جوليارد، كانت ليديا غارقة في دوامة من الحيرة أنستها للحظات مع من كانت وأين كانت. فقد كانت مع جوليارد، والذي يمثّل لها ثاني أكبر لغز في حياتها! هذا الرجل الذي هجر الجميع وخرج في مهمة سرّيّة لا يعرف عنها حتى زملاؤه من معلمي الأكاديمية. وعندما يظهر، يجلب معه فتى في الرابعة عشر من العمر.

وقف جوليارد يفكّر بما حصل مع جوهان ويتوقّع ما يمكن لجوليارد أن يفعله. لكن حيرته وسيل أفكاره الجارف أوقفه حضور المرأة التي أبث أن يتم إهمالها بكل هذا البرود.

"جوليارد!"

انتبه جوليارد من سرحانه إلى المرأة الواقفة أمامه. كانت ليديا تكلمه. كان يسمع كلامها ولكنه لم بأبه له. كان يستمع للغة جسدها. نفس التعابير. نفس الرّجفات، ونفس لغة الجسد. ما تكتمه لغة هذه المرأة يفصحها جسدها بشكل صارخ!

اقترب منها جوليارد ونظرة حانية على وجهه. استغربت ليديا نظرتة تلك. تلك النظرة التي حرّمها منها لأعوام مضت عليها أقسى من كل شيء. ربّت جوليارد على كتف ليديا ومن ثم على رأسها.

"لا بد وأنك رأيت الكثير. لا ذنب لك فيما يجري ومع ذلك فأنت تعيشين كل شيء بقلبك."

كان في كلامه ملمحٌ من الحقيقة التي أرادت أن تُخفيها تحت غطاء من الانفعال. أرادت أن تُبعد يده عن رأسها ولكنها ألقت نفسها تمسك بيده. لسبب لا تعرفه فاجأها خشونة أصابعه.

أخذت راحته بين يديها وهي تشرب ملمس يده الخشن.

ثم نظرت إلى عينيه. "وما الذي احتملته أنا في مقابل ما احتملته أنت؟"

سحب جوليارد كفه من يدها ونظر إلى يديه. تلك اليد التي اقترفت أفظع الجرائم. كانت جريمته كافية لتسحق كل ما آمن به في حياته. كان على وشك أن يخبرها. وجد في عينها اللهفة التي لطالما انتظرها مع علمه أنه لا يستحقها. لكنه تراجع لإحساسه الدائم بأنه لا يستحق هذه المواساة.

"لا تهتمي. علينا أن نعرف أولاً ما الذي سيفعله بروفيسور جابريل مع جوهان."

عاد انفعالها مرة أخرى. "لماذا تهتم بحال هذا الفتى وأنت لم تهتم بأحد منذ أعوام؟"

كان سؤال لا يمكنه الإجابة عنه، فليس لديه دليل على صحة كلامه. كيف لخيميائي مثله أن يُقنع خيميائية مثل ليديا بها جاء به فتى للتو بلغ السادسة عشر من العمر دون دليل واضح وصريح. وما تملّيه قوانين الخيمياء يُحتم خطورة ما سيتفوه به.

"أجبنني. من هذا الفتى جوهان؟ لماذا يملك قصاصة ورق من كتاب قديم لا يمكن لأحد أن يلمسه؟ لماذا يمتلك خريطة مصنوعة من شعر أنثى؟ من أين حصل عليها؟ كيف أتى لحياتك؟ من أين جلبته؟ وكيف يقول إن جوزفين هي أمه؟ ما علاقة جوزفين بما يحصل؟"

كان جوابه هو آخر ما كانت تريد سماعه. "لا أستطع أن أخبرك بشيء."

قالتها بكل صرامة. "لماذا؟"

"على جوهان أن يسعى للوصول إلى ما يريد، إن نجح فستعرفين كل شيء."

"وهل سأنتظر إلى أن ينجح فتى في السادسة عشر من العمر في مسعاه لأعرف منك ما يجري؟ هل أنا تافهة إلى هذا الحد؟"

"لا."

"إذن ماذا؟"

"من الصعب شرح الأمر."

"لماذا؟"

"لا أعرف."

انطفأ الوهج في عينيها بغتة. لقد ابتكر عقلها الجواب وخدعها بأنها عثرت عليه.

"هذا صحيح. من أكون أنا لأعرف أي شيء. من أنا بالنسبة إليك لتثق بي وتودعني أسرارك. غبت كل هذا الوقت دون أن تُخبرني بشيء أو حتى أن أخطر على بالك."

التفتت تحبس دموعها في عينيها بقوة وحدها الأنثى قادرة على ذلك. أمسك جولبارد بذراعها لإيقافها.

"انتظري."

حاولت أن تُفلت ذراعها من يده. "اتركني."

"لم أكن في مهمّة."

جمدت في مكانها. "ماذا؟"

"أنا لم أكن في مهمّة. لم أغادر منزلي طيلة هذه الأعوام. خروجي في مهمّة ما هي إلا إشاعة استغلّها بروفيسور جابرييل وأكد عليها ليُخفي عنكم الحقيقة."

استقبلت هذه الحقيقة كصفعة مدوّية. نظرت له وكأنها تراه للمرة الأولى.

"ما الذي تقوله؟"

"أنا لم أغادر المنزل. لم أر أحداً سوى أوليفر طيلة هذا الوقت."

"إذن من أين أتى جوهان؟ كيف عثر عليك؟"

"لقد أتى إليّ حاملاً رسالة لي من شخص أعرفه. لهذا أدخلته بيتي."

"وعلمته وجعلته يتقدم لامتحان الأكاديمية وينجح! ما هذا الهراء؟"

"هذا ما حصل."

أدخلها كلامه في دوامة من الأسئلة التي حيرتها فعلاً. كمية الأسئلة التي اعتملت في عقلها أثارت دواراً في رأسها. اسندها جوليارد إلى كرسي مجاور وأحضر لها الماء. بعد أن هدأت واستعادت توازنها طالبتة بأن يخبرها بكل شيء عن جوهان. أمضى جوليارد الليلة يُخبر ليديا عما حصل بينه وبين جوهان، وبذل طاقة كبيرة في إخفاء نصف الحقيقة واستبدالها بأخرى من ارتجاله.

أمّا في منزل بروفيوسور جابرييل، فما حصل كان غير مُتوقع. اطمأن بروفيوسور جابرييل إلى أن زوجته خلدت إلى النوم قبل أن يغادر غرفته ويتّجه إلى غرفة جوهان. لم يستغرب بروفيوسور جابرييل عندما وجد جوهان وقد استيقظ للتوّ. لا بد وأن جسده فقد السيطرة وقرر الاسترخاء لبعض الوقت بسبب الطعام الدافئ. دعاه بروفيوسور جابرييل إلى مكتبه.

كانت لدى بروفيوسور جابرييل مكتبة كبيرة. كانت مليئة بشتى أنواع الكتب والأدوات. جلس بروفيوسور جابرييل بالقرب من مكتبه حيث استقرت القصاصة والخريطة.

أمسك بروفيوسور جابرييل بالخريطة وأخذ يتأملها. تابعه جوهان بنظرات يقظة بسبب الراحة التي حصل عليها. كان يتأمل الخريطة أمامه بنفس الانبهار. خريطة مصنوعة من شعر أنثى!

فاجأه بروفيوسور جابرييل بسؤالٍ حالماً وضع الخريطة جانباً.

"أخبرني يا جوهان. هل تؤمن بوجود مخلوقات غير البشر؟"

أجاب جوهان بكل بساطة. "نعم."

هنا سكت بروفيوسور جابرييل. فكّر لثوانٍ مُمسداً لحيته، ثم سأله مجدداً. "هل فهمت سؤالاً؟"

أجاب جوهان بكل ثقة. كان يريد أن يُظهر الجدّيّة التي ظنّ أنها التصرف الأمثل في هذه الحالة. "أجل."

"وماذا فهمت منه؟" نظرة بروفيوسور جابرييل اخترقت دواخل جوهان.

"فهمت كل شيء. جوابي لن يكون حيوانات، بل كائنات أخرى."

"مثل من؟"

"لا أعرف."

"وكيف تؤمن بشيء لا تعرفه؟"

"لا أعرفه لكن أرى أثره." وهنا أشار جوهان إلى الخريطة.

نظر بروفيسور جابرييل إلى الخريطة ومن ثم إلى جوهان. "لا بد وأن لديك نصيباً من ذكاء جوزفين."

"صحيح."

"ولكنك لست ابنها."

"أعرف ذلك."

"ها أنت تعترف." اتسعت عينا بروفيسور جابرييل ترقباً.

قال جوهان بكل صدق. "لكني لم أعرف أمّاً غيرها."

"ما الذي تقصده؟"

"أفصد أنها الأم الوحيدة التي عرفتها منذ فتحت عيني."

"لماذا تظن أنك رأيتها؟"

"لأنّي رأيتها. لا تفسير آخر."

"دعني أخبرك بشيء. لم تكن جوزفين امرأة عادية."

لم يحتج جوهان لأحد ليُخبره عن جوزفين. "أعرف."

تابع بروفيسور جابرييل وكأنه لم يسمع جوابه. "لا. أنت لا تعرفها. لقد كانت أمهر الباحثين

في اللغات القديمة. كانت مبدعة. تمكّنت من فكّ رموز كثيرة ساعدتنا فيها وصلنا إليه، ولذلك ذاع صيتها.

"إذن؟"

نظر بروفيسور جابريل في عينيّ جوهان وقد اختلفت شخصيته بالكامل. أخرج الشخصية التي كان يُخفيها. "إنه لمن الطبيعي أن يظهر من يدّعي معرفته لجوزفين ليحصل على ما كانت تحتفظ به."

"أنا لا أعرف ما كانت تحتفظ به."

"لكنك نجحت في الاختبار!"

انعقد حاجبا جوهان. "ما الذي تقصده؟"

"المعلومات التي قرأتها في ورقتك كانت دليلاً دامغاً على معرفتك بها. فهذه معلومات ساعدتْ جوزفين في اكتشافها."

"لكنها معلومات قديمة."

"النص هو القديم. جوزفين فارقت الحياة وهي في الرابعة والأربعين من عمرها."

اتّسعت عينا جوهان. أوماً له بروفيسور جابريل.

"هذا صحيح. جوزفين هي الأخت الكبرى لجوليارد."

"إذن؟"

"لقد عاش جوليارد عمراً أطول من جوزفين. لهذا أنت تظنّ أن جوليارد هو الأكبر. لطالما عاش جوليارد في ظلّ أخته. لم يكن يكره الأمر، فقد حصل على رعايتها بعد فقدان الوالدين."

لم يمنع جوهان نفسه من المقاطعة. "لم تُخبرني بهذا؟"

"لأنّ عليّ أن أعرف كيف عرفت بأمر جوزفين. ومن الذي أعطاك هذه الخريطة؟ ومن أين

انتزعت هذه القصاصة؟"

"أنا أعرفها لأنني قضيت معها بضعة أعوام."

"لا أصدق. فعمرك لا يسمح بذلك."

"لا زلت أبحث عن تفسير لهذا بنفسِي."

لم يكن جوهان متحرّجاً من الحديث عن كل هذا مع بروفيسور جابرييل، فنبذة صوت بروفيسور جابرييل توقف من يتحدث معه عن التفكير.

"من الذي أعطاك خريطة قد يعود زمنها لمئات السنين؟"

"أعطانيها أبيلارد."

"من هو أبيلارد؟"

"أبي."

"ومن هي أمك الحقيقية؟"

"لا أعرف."

سمع جوهان صوت نبض قلبه عشر مرات قبل أن يسأله جابرييل آخر سؤال.

"من هو أبيلارد؟"

"أخبرتكَ من يكون."

"لا تتحاذق معي. أنا أعرف جيّداً أن أبيلارد شيء خطير."

أخذ جوهان نفساً عميقاً ثم أعطاه الإجابة.

"لست متأكداً من ماهية أبيلارد الحقيقية. لكن ما أعرفه أنّه لم يعد موجوداً في هذا العالم."

"أتقصد أنّه لم يعد على قيد الحياة؟"

"لا. لم يعد موجوداً في هذا العالم. هذا كل ما أعرفه. لذلك أنا هنا."

"أنت هنا لماذا؟"

"لأعثر على إجابات لأسئلتني."

"ما هي؟"

"أين هو أبيلارد؟ لماذا يقولون إن جوزفين ميتة بينما هي على قيد الحياة؟ ومن المسؤول عن كل هذا؟"

"وماذا ستفعل عندما تعرف الإجابة؟"

"وقتها سأعيد الأمور إلى نصابها الصحيح."

"أتعتقد أن ما تقوله منطقيّ ويدعم العلم الذي درسته؟"

"ما درسته ما هو إلا علم للعامة. أبحث عما يفسر لي ما عشته."

"وما الذي عشته أيها الفتى؟"

"عشت في عالم لا تدرسه نظرياتكم الطبيعية."

"أتقصد عالم ما وراء الطبيعة؟"

"أفصد عالماً تحكمه قوانين غير القوانين التي نعرفها."

"ليس بالأمر السهل."

"أعرف."

"ماذا تعرف عن الخيمياء؟"

"القليل."

"وعن الخرافات؟"

"العجري الأول."

هنا اتسعت عيننا بروفيوسور جابريل. إذن يريد جوهان أن يجد إجابات عن أساطير وخرافات بين دفتي كتاب العلم، وليس أي علم. إنها الخيمياء.

"هل تصدق ما حكي لك عن العجري الأول؟"

"أجل. أريد فقط إثباتاً. عليّ أن أعرف ما الذي حصل، والإجابات كلها متشابكة."

مال بروفيوسور جابريل ناحيته مباشرة. "وما الذي تريد إثباته بالضبط؟"

"الدراكاشتا التي خلفوها الكواسر. أعتقد أن هناك من عثر عليها."

كانت هذه الجملة كافية لتقلب الموازين رأساً على عقب. لم يُدرك جوهان مقدار التأثير الذي خلّفته هذه الكلمات في بروفيوسور جابريل. لكن بروفيوسور جابريل كان يغلي. كان عليه أن يعتزل بنفسه الآن بين كتبه وجنونه إلى أن يطلع الفجر.

"حسن. يمكنك العودة إلى غرفتك. عندما تستيقظ سأخبرك بقراري."

عاد جوهان إلى غرفته واستلقى على سريره. ظهرت صورة جوزفين في خياله. اشتاق لها بعنف ترك أثره في ضربات قلبه، وعلى إثرها تذكر نارددين. نهض من سريره وكتب لها رسالة عزم على أن يُرسلها وجه الفجر. غطّ في نوم عميق إلى أن استيقظ على صوت نقر طائر العنديل. لم يسعى جوهان أبداً إلى فهم طريقة تصرّف هذا العنديل، فالبشر لا يبحثون في حقيقة الأشياء التي اعتادوا وجودها.

أخذ العنديل الرسالة وتوجه إلى صاحبته، تاركاً جوهان في مواجهة مع بروفيوسور جابريل.

أخذه بروفيوسور جابريل وغادرا دون تناول وجبة الإفطار. مضيا إلى الأكاديمية دون أن يتبادلا الحديث. هناك ألقي بروفيوسور جابريل ما يريد قوله على مسامع جوهان، وجوهان يستمع لما يقوله وقد اتسعت عيناه من فرط الدهول والإثارة والألم.

عند دَقَّة الجرس الثانية دبَّت الحياة في الأكاديمية وقد استيقظ الجميع على خبر طرد جوهان منها! تمَّ إلصاق الخبر على لوحة الإعلانات. كان الإعلان الوحيد والذي احتلَّ اللوحة كاملة. قرأه جوليارد وليديا تقف بجانبه، ثم تبادلَا نظرة تعبَّر عن عدم الفهم. فقد كان هذا آخر حلٍّ قد يلجأ إليه بروفيسور جابرييل.

قرار طرد جوهان لم يكن غير مبرَّر، فقد رافقته دلائل عديدة واتهامات بكونه لص ومزور. لكن لم يتمكن جوليارد أو ليديا من إثبات أو نفي صحة ما يجري. تمكَّن جوليارد من إقناع ليديا بأن تتكتم على ما تعرفه إلى أن يلتقي بجوهان ويفهم منه ما يجري. توجَّهت ليديا إلى محاضراتها، عازمةً على أن ترى بروفيسور جابرييل لتحصل منه على تفسير لما يحدث.

عندما عاد جوليارد في ذلك اليوم إلى المنزل، وجد جوهان في انتظاره. نسي أن يخلع حذاءه عند عتبة الباب وأسرع إلى الداخل. أمسك بكتفي جوهان وأخذ يهزّه.

"ما الذي جرى لك؟ ما الذي قلته لبروفيسور جابرييل؟"

أفلت جوهان من بين يدي جوليارد ونظر في عينيه. "لقد قرَّر بروفيسور جابرييل أن يطردني من الأكاديمية."

"لماذا؟"

"لأنني سرقت تلك القصاصة. لقد اعترفت له بجرم السرقة."

"السرقة وحدها لا تكفي لكي يرمي بك خارج الأكاديمية. هذه ليست من شيم بروفيسور جابرييل."

"لقد عرف بروفيسور جابرييل كل شيء عني."

هنا سكت جوليارد. لم يدر ماذا يقول.

تابع جوهان. "لقد تمكَّن من معرفة كل شيء من العرَّافة التي أخذني عندها. عرف من أين

أتيت وأخبرني بما عليّ أن افعله. أنا سأغادر هذه المدينة في أسرع وقت ممكن."

أُجِلم لسان جوليارد بحق. كان مصعوقاً لما سمعه. سقط على الكرسي الأقرب منه. شعر وقتها بأن أمله في استرداد أخته جوزفين قد تمّ نسفه وتناثر رماده مع الريح العاصفة لأجل غير معلوم.

بقي جوهان يراقب جوليارد وقد كسى الشحوب وجهه. رفع جوليارد عينيه من بعدها لجوهان. "ما الذي ستفعله؟"

"لا شيء، هنا على الأقل."

انعقد حاجبا جوليارد. "ماذا تقصد؟"

"أقصد أن هذه المدينة لم تعد تنفعني. سأبحث عن مبتغاي في مكان آخر." قالها وكأنه مقتنع بها.

ظنّ جوليارد أن بروفيسور جابرييل لا بد وأن أقنع جوهان بالمغادرة على أمل أن يجد ضالته في مكان آخر. ثم خطرت فكرة على باله.

"جوهان! هل ستؤدي دور الدّساس في مدينة أخرى؟"

صُدم جوهان من هذه الاحتمالية، فلم يخطر على باله في أشد حالات تفكيره جموحاً أن يكون قد اتّفق مع بروفيسور جابرييل على أمر كهذا.

"لا."

انطفأت الشعلة البادية في عينيه. أعاد النظر إلى الأرض وهو يفكر في مصير مسعاه مع جوهان للوصول إلى ما حصل لجوزفين.

"ما العمل الآن؟"

"سأغادر المدينة في أسرع وقت ممكن وسأخبرك بكل شيء خلال رحلتي. سأذهب لمدينة أخرى حيث يمكنني أن أتعلّم المزيد."

لم يكن جوليارد مقتنعاً. كان يعرف أنه إن وقع جوهان في يد أحدٍ من مسؤولي المُدُن الأخرى، فسيتم إعدامه فوراً باعتباره أحد الدسائسين. أخذ يفرك رأسه بكلتا يديه يحثّه على التفكير. تركه جوهان وحده وعاد إلى غرفته.

هنا عاد الليل ليُخَيِّم على حياة جوليارد. ليل طويلٌ ومؤلم.

في اليوم التالي استيقظ جوليارد ليجد جوهان قد غادر المنزل. عاد المنزل خاوياً إلاّ منه. فقد جوليارد عزيمته وقد عاد منزله خاوياً من الروح والطاقة... وجوزفين.

بقي جوليارد مكانه سابحاً في خياله لا يعرف ما يجري من حوله. حتى أنّه لم يدرك أن ليديا كانت تقف بجانبه!

دخلت ليديا المنزل ووجدته هائماً في أفكار قررت حتماً أنها ليست أفكاراً خيرة. بقيت تنظر إليه وقد اكتسحتها مشاعر مختلطة. لم يكن هذا هو جوليارد الذي تعرفه؟ ما هذه الحالة التي هو فيها؟ هذه النظرة في عينيه والتي لم ترها من قبل كانت نظرة أرعبتها بحق. فقد كانت هذه هي نظرة رجل ينتظر الموت!

لهذا لم تر ليديا جوليارد منذ مقتل جوزفين. لم تكن لتتحمل أن تراه وهو على هذه الحالة. كان هجرانه لها أخف وطأة عليها من أن تراه ثانية واحدة على هذه الحالة. عرفت وقتها لماذا أخفى بروفيسور جابرييل جوليارد كل هذا الوقت. كان يريد على الأقل أن يُحافظ على صورة جوليارد أمام الجميع. كان يأمل أن يعود جوليارد إلى حالته الطبيعية يوماً ما ليتمكن من إعادته مرة أخرى إلى الأكاديمية وسط الجميع دون اعتراضات. لكن كل هذا انتهى.

فقد عاد جوليارد إلى ما كان عليه.

عند هذه اللحظة، اشتعل قلبها بالغضب.

جوهان!

جوهان هو السبب. هو من قام بإحياء جوليارد عن طريق الأمل الزائف. ما فعله جوهان بجوليارد أسوأ مما فعلته وفاة جوزفين من قبل. منحه الأمل لكي يُحطّمه دون رجعة.

اقسمت ليديا في نفسها على أن تقتل جوهان بيدها عندما تراه.

لكنها في الوقت الحاليّ عليها مواساة هذا الرجل الواقف أمامها قبل أن يستحيل جثّة متحركة بلا قلب أو روح.
عانقته...

احتاج الأمر لبعض الوقت لكي يستوعب جولارد أن هناك من يعانقه. جفل منها ونظر إلى عينيها. بقيت ليديا تحيطه بذراعيها بحنان وحدها من تُحب قادرة على إظهاره. لم يُقاومها. ولمفاجأتها، احتضنها. بقيا واقفين في مكانها وقد التفت ذراعهما حول بعضهما البعض كتميمة سرمدية.

شرعت بعدها في الحديث. قالت الكثير والكثير. وبثت فيه ريح من أمل. أرادت منه أن يقابل بروفيسور جابرييل ليعرفا منه ما كان ينوي عليه. لا بدّ وأن بروفيسور جابرييل أراد أن يستخدم الفتى في شيء ما. استخدمت ليديا ما عرفته عن جوهان خلال تلك المواجهة وأقنعت جولارد بأن بروفيسور جابرييل لا يمكنه أن يستغني عن جوهان بهذه البساطة. لا بد وأن هناك خيطاً من أمل يمكنها أن يسيرا وراءه.

هكذا أقنعت أنه يذهب للأكاديمية ليرى بروفيسور جابرييل. لكن بروفيسور جابرييل لم يكن في الأكاديمية. اختفى بروفيسور جابرييل من الأكاديمية لسبب مجهول. وضع نائباً في مكانه لمدة أسبوع، وهي المدة الكافية لتظهر نتائج الاختبارات النهائية خلالها.

لكن ما الأمر الذي دفع بروفيسور جابرييل للمغادرة في وقت مهمّ كهذا؟

بقيت ليديا ترافق جولارد إلى الأكاديمية لأسبوع كامل على أمل أن يعرفا أي شيء عن جوهان أو بروفيسور جابرييل. لكن عبث.

لا مناص. لا يوجد خيار آخر. رحل جوهان ولا بدّ من أن بروفيسور جابرييل تأكد من أنه لن يعود بعد الآن.

عاد جولارد إلى المنزل برفقة ليديا ليجدا أوليفر في انتظارهما.

"ماذا تريد؟" سألته ليديا.

قال بكل حزم. "هناك طلاب جدد قد أحضرهم جابريل لينضموا إلينا. أنا هنا لاصطحابكم بناء على تعليمات بروفييسور جابريل."

حدث غير متوقع. أن يقوم بروفييسور جابريل بنفسه بضمّ طلاب إليهم في الأكاديمية لأمر لم يقم بفعله منذ سنوات!

لم يكن لديها أي خيار آخر. عليها أن يستقbla الطلاب الذين سينضمون إلى الأكاديمية لدراسة الخيمياء. وهذا ممّا يطول شرّحه، فلا بد من رؤيته.

دراسة الخيمياء في هذه الأكاديمية هو أحد أخطر أسرارها، فما سيشهدانه الآن هو انضمام طلاب مؤهلين لمشاركة هذا السر.

حقيقة أن هناك من هو مؤهل ليصبح الخيميائي التالي أمر يثير الحماسة والتوتر في نفس الوقت، في نفوس المعلمين الذين سيستقبلون التلاميذ الجدد، أو الخيميائيين الجدد.

وافق جوليارد وليديا زميلها أوليفر إلى الأكاديمية. استغرق الأمر منهم فترة أطول، فكان عليهم الالتفاف بطريقة معيّنة للولوج إلى الأكاديمية من الخلف، أي من الجهة التي تحيط بها الغابة. من الناحية الخلفية لأكاديمية بالينفورد وقفت بوابة صخرية بشموخ. أخفت تلك البوابة الصخرية من خلفها الجزء الأكبر من أكاديمية بالينفورد، وهو الجزء الذي لا يعرفه إلا من كان مؤهلاً لأن يصبح خيميائي يؤتمن على أسرار بالينفورد ومن قبلها أسرار العلم.

كانت بوابة أكاديمية بالينفورد كبيرة. امتدت على طولها نقوش لا يعرف معناها سوى الخيميائيون. كان لهذه الرموز معانٍ كثيرة مضللة ومنها ما ارتبط بأساطير حتى العوام لا يعرفون منها سوى القليل.

كلمة واحدة كانت تتوسط البوابة: فيريتاس.

كانت هذه الكلمة الوحيدة التي عبّرت عن المعنى الحقيقي للأكاديمية. وهو هدفها في ذات الوقت.

اقترب منها جوليارد وأمسك بمقبض البوابة ودفعها بكل قوته إلى أن انشقت ببطء عن مشهد ساحة خضراء تتوسطها نافورة مياه. كان بقيّة المعلمين في انتظارهم.

كانوا خمسة معلمين. هم المعلمون الوحيدون المرخصون لتعليم الخيمياء! أجل، فتعليم الخيمياء أخطر من تعلّمه، ومن يُتقن الخيمياء ما هو إلا كنزٌ قوميّ يجب على كل مدينة الاحتفاظ به. وهؤلاء المعلمين كانوا الوحيديين القادرين على تعليم الخيمياء وتجربتها.

انضمّ كل من ليديا وجوليارد وأوليفر إلى بقيّة المعلمين ينتظرون ظهور بروفيسور جابريل مع الطلاب الجدد. وما هي إلا ثوان وبدأت البوابة بالتحرك للكشف عن مجموعة من الظلال الذي يتوسطها ظلّ طويل مميّز الجميع على أنه بروفيسور جابريل.

تقدّم بروفيسور جابريل إلى الساحة ومن خلفه ثلاثة طلاب. كان هذا أكبر عدد من الطلاب الذين ينتسبون دفعة واحدة إلى أكاديمية بالينفوردي الحقيقية منذ عقود!

اقترب بروفيسور جابريل مع الطلاب من المعلمين وهنا كانت الصدمة.

احتقنت عينا جوليارد بالدموع وظهرت عروق حمراء في عينيه. تبعها ارتجاج في يديه حيث كوّر قبضته ليضبط بها غضبه العارم. لم يعرف جوليارد إن كان غاضباً بحق أم لا. ما الذي كان عليه أن يشعر به.

لكن ليديا كانت تعرف شعورها. كادت عيناها أن تخرج من محجريها. غطّت فمها بكلتا يديها لئلا تنطق بأي حرف. كل ما كان يخطر في بالها هي جملة واحدة.

علام بنوي بروفيسور جابريل هذا بحق ماندا الخليفة!

كان من حقّها أن تفزع. فقد خرج من خلف بروفيسور جابريل ثلاثة طلاب: جوانا وميلتون

و....

جوهان!

أجل. فما أثار رعب الحاضرين أن جوهان كان أحد الطلاب الذين قرّر بروفيسور جابريل

بنفسه أن يضمّمهم إلى صفوف دارسي الخيمياء.

أمسكت ليديا بيد جوليارد. تبادلا النظرات التي كانت كافية لكي تترجّاه بأن يضبط أعصابه ويسمع كل شيء من بروفيسور جابريل وجوهان لاحقاً. هدأت نبضات قلب جوليارد وقرّر ألا يفكر أبداً. على عقله أن يكون شاهداً فقط. وهذا ما فضّل عقله أن يقوم به.

لم يكن لديه الوقت ليفكر. لم يكن لدى أحد الوقت لإبداء أي ردّ فعل، لا من قبل الطلبة ولا من المعلمين. كان عليهم أن يُشاهدوا الطقس الذي لا بد وأن يحصل مع كل طالب ينضمّ لأكاديمية بالينفورد الحقيقية حيث يتعلمون الخيمياء.

"أفسحوا الطريق." خرج من بين المعلمين رجل ممتلئ الجسد يرتدي معطفاً أحمر وتعلو رأسه قبة فولاذية تتدلّى منها عدستان تغطّيان عينيه وتُضفيان عليه لمحة من الغموض. كان هذا هو البروفيسور موريسون. تقدم بروفيسور موريسون من الطلاب متجاوزاً بروفيسور جابريل.

تقدم بروفيسور موريسون من جوانا. "هيا عزيزتي، عليّ أن آخذ جرعة من دمك."

استغربت جوانا ما يحدث، لكن نظرات بروفيسور جابريل الماددة طمأنتها أن كل شيء سيسير على ما يرام. ناولت ذراعها لبروفيسور موريسون والذي قام بخفّة حركة لا توصف بسحب عيّنة من دمها باستخدام محقن اعتاد على استخدامه منذ عقود.

اقرب بروفيسور موريسون من البقية وأخذ منها جرعات من الدماء. لم تكن الجرعة التي أخذها بالشئ الكبير، ولكنها كانت حركة بمنتهى الخطورة.

تراجع بروفيسور موريسون للخلف وألقى نظرة على الطلاب الثلاثة وهم يضغطون على أذرعهم مكان الحقنة بابتسامة أقلّ ما يُقال عنها غادرة. ابتسامة يعلو معها نصف الشفة الأيمن قليلاً دون أن يتحرك النصف الأيسر بتاتاً، وكأنّ نصفه الأيسر يتبع لرجل آخر غير بروفيسور موريسون.

"والآن يا أصدقائي، أي إخلال بالعقد الذي وقّعتموه مع بروفيسور جابريل، سيودي بحياتكم. فأنا هنا أحمل حياتكم بين يدي. أستطيع قتل أي منكم الثلاثة في أي وقت باستخدام

الخيمياء."

استدار بروفيسور موريسون وغادر إلى معمله بكل هدوء، تاركاً الطلاب يستوعبون ما جرى لهم منذ لحظات. تأكد وقتها جوهان من أمر واحد: ما هو مُقدم عليه لا يحتمل الخطأ. زلّة واحدة تؤدّي إلى فقدان كل شيء.

التفت ميلتون إلى بروفيسور جابرييل وقد انعقد حاجباه.

بادره بروفيسور جابرييل بالإجابة على السؤال الذي يعتمل في ذهن الجميع.

"لا تقلقوا، فهذه إجراءات السلامة. عادة، ما يستخدم بروفيسور موريسون كلمات خطيرة للتعبير عن غاية الأكاديمية بخصوص هذا الموضوع."

سارع جوهان بالسؤال. "ما الذي تقصده؟"

أجابه بروفيسور جابرييل بكل هدوء. "ما أنتم مقدّمون عليه يُعتبر أسرار دولة. لا يمكننا أن نسمح لكم بأن تُفشوا هذه الأسرار تحت أيّ ظرف، حتماً وإن كان قهراً. سوف تتعلمون في هذا الفصل الكثير من الأشياء، منها أهمية الدم في علوم الخيمياء. ما حدث قبل قليل هو نفسه ما يحدث مع كل طالب يحصل على فرصة لدراسة الخيمياء، العلم الحقيقي الذي انبثقت منه باقي علوم الحياة."

قبضت جوانا على مكان الحفنة بقوة وهي تسأل. "لكننا أبناء هذه البلد ولن نخونها."

أكمل بروفيسور جابرييل. "هذا صحيح. لكن ماذا لو تغيرتم؟ ستتعلمون الكثير من الأمور وستخطون الكثير من الخطوط الحمراء التي لا يعرف الكثيرون عن وجودها. هناك خطوط حمراء جديدة في عالم الخيمياء لا يجب عليكم الاقتراب منها. هذا اجراء تحذيري، يجب علينا كأكاديمية بالينفورد أن نضع للخيميائيين حداً ما. نقطة تسمى بنقطة العودة. ستصبح هذه النقطة مرجعكم لتنتهاكم عن أي شيء من محرّمات الخيمياء. هذه هي إحدى الوسائل التي نستطيع أن نستعملها لمنعكم من إيذاء الآخرين أو إيذاء أنفسكم حتى."

لكان كلامه مقنعاً لهم لو كانوا يعرفون الخيمياء حق المعرفة. لكن نظراتهم عكست شعوراً

عميقاً بالخيانة.

قام كل بروفيسور بتقديم نفسه للثلاثة. حتى ليديا وجوليارد كان عليها أن يقدمها نفسها للطلاب، ليعرفوا وظيفتها الحقيقية. هناك في الأكاديمية ثمانية معلمون. فقط ثمانية معلمون في مدينة بالينفورد بأكملها يستطيعون أن يدرّسوا الخيمياء. انتقل بعدها كل طالب إلى مخدعه، حيث سيرتاح من أثر المسير ومما فعل بهم.

وقتها حانت الفرصة لجوليارد وليديا لاستيعاب ما جرى. كان كل هذا من إجراءات الحرص والحذر التي قام بها بروفيسور جابريل. لقد كان بروفيسور جابريل مصمماً على الحصول على جوهان منذ الوهلة الأولى. منذ اللحظة التي قرأ بها إجابات جوهان على أسئلة الاختبار، قرّر بروفيسور جابريل أن يتبنى جوهان كخيميائي. وهذا مما يُخفي وراءه ما هو أعظم. فهذا معناه أن كل ما جاء به جوهان ما هو إلا عين الحقيقة. لكنها حقيقة ستقلب موازين القوى للأبد.

كم الأسرار والتجارب التي يرغب جابريل أن يخوض بها تُرعب أي خيميائي على وجه الأرض.

جلس جوهان في غرفته وقد أدرك ما فعل به. لقد سلب منه بروفيسور جابريل دمه. هذه حقيقة مؤلمة. مجرد عدم معرفه ما قد يفعله به معلمو الأكاديمية فقط باعتمادهم على قطرة من دمه هو أمر مدمر للأعصاب. سيعيش في خطر دائم. عليه ألا يثير حنق الأكاديمية أو يسيء التصرف لكيلا يؤذوه. هذه هي الحقيقة. هذا يعني أن لديهم عينة دم من كل شخص يقف على أرض أكاديمية بالينفورد ويتعلّم الخيمياء.

الخيمياء هي علم فهم وتفكيك وإعادة تشكيل المادة، لكنها ليست فنّاً قوياً. من الصعب إنتاج شيء من لا شيء. إن رغب المرء في الحصول على شيء ما، فيجب دفع قيمة مساوية لقيمة هذا الشيء. المبادلة المتكافئة هي أساس الخيمياء.

وها هم حصلوا على الشيء المساوي لقيمة فرصة تعلّم الخيمياء. لكن هل الخيمياء بهذه

العظمة ليقوموا بمثل هذه الإجراءات؟ هذا ما سيكتشفه جوهان.

كان جوهان مستعداً. كان يعرف أن الاتفاق الذي أبرمه مع بروفيسور جابريل هو أول خطوة. وستكون الخطوات التالية دامية بحق!

بقيت جوانا تفكر فيما حصل. أصابها التوتر والقلق من مجرد تخيل ما قد يُفعل بها باستخدام قطرة من دمها. كانت على وشك البكاء عندما سمعت طرقات على باب حجرتها. فتحت الباب ووجدت بروفيسور راندال. كان بروفيسور راندال قصير القامة ذو نظرة حنونة، يبدو وكأنه يهتم ويتعاطف ما كل ما يُقال له. وللحقيقة، كانت هذه هي مهمته. فقد كان هو الخبير النفسي في الأكاديمية. مهمته هي أن يُجري جلسات ليطمئن بها على الحالة النفسية للخيمائيين وولائهم. يستطيع بروفيسور راندال بقامته متوسطة الطول وشعره الأسود وعيونه العسليّة بأن يُعطي انطباعاً مألوفاً وكأنه ليس مميزاً عن أحد، بل إنسان قد يكون مقرباً من الجميع ولا أحد على حد سواء. كان بروفيسور راندال يدرك ما هو مُقدم عليه.

اقترب راندال من جوانا وحيّاهما رافعاً قبعته عن رأسه وانحنى وهو ممسك بقبعته بكلتا يديه. كانت هذه الحركة تُصنّف بعضاً من الاحترام والقيمة على الذي يتلقّى التحية فيطمئن قلبه. تراجعت جوانا بعد أن حيّت بروفيسور راندال وجلست على سريرها بينما جلس بروفيسور راندال على الكرسي المقابل للسرير. سقطت عليه اشعة شمس الأصيل من النافذة لتضيء وجهه، لتُعطي المفعول الذي كان يريده. أراد أن يبدو محاطاً بالنور أمامها لينير ظلمة ما فعله بروفيسور موريسون.

لم يستغرق الحوار الكثير من الوقت. كان عليه أن يهدئ من روع جوانا ويثبت فيها الطمأنينة عندما تعرف أنها قاعدة لا تستثنى أحداً. استمرّ في حوارهِ معها لبعض الوقت إلى أن استقرّت نفسيّتها واستعدّت لما هو قادم.

انتقل بروفيسور راندال إلى الهدف التالي، ميلتون. كانت خطته مع ميلتون بسيطة. ما يسري عليه يسري على الجميع، فسر له بروفيسور راندال ما حصل معه عندما دخل إلى الأكاديمية كأحد متعلّمي الخيمياء. استغلّ نقطة أن الإنسان لا يحبُّ أن يكون وحيداً في شيء، حتى وإن كان

التعرض للخطر، فشعر ميلتون بأنه ليس متورطاً لوحده، فهذا من روعه وهو يستمع للحكاية التراجيدية التي رواها له بروفيسور راندال. لم ينس بروفيسور راندال أن يشتّم بروفيسور موريسون لينتزع ابتسامة ميلتون ويطمئن بأنه تحت السيطرة.

لم ير جوهان بروفيسور راندال تلك الليلة!

ليل لا ينتهي

هناك نقطة في حياة كل منا تقف عندها الحياة. تصبح هذه النقطة مهمة علينا بشكل كبير، وكأنّ الزمن اختزل نفسه فيها فأخذت تتمدد وتتفخ لتبتلع كل شيء. تسيطر على الانسان بشكل كامل وتمنعه من الخروج من بوتقتها، ويكسو وجودها على العالم من حوله، فتتحول المشاعر والذكريات لطابع واحد، ولون واحد.

كان جوهان على أعتاب أن يكتشف تلك اللحظة والتي احتبست في داخلها من المشاعر والذكريات والمصائر الشيء الكثير. لكن مُصابه عظيم، فهو على وشك أن يكشف الكثير من اللحظات التي استحالت سرمدية لا يمكنه الفكك منها، بل تجرّه إليها كما فعلت مع من قبله. في ذلك اليوم وصل أحد الدّسّاسين محمّلاً بأخبار لم تكن بالحسبان. توجه فوراً نحو مكتب بروفييسور جابرييل دون أن يستشير أحداً.

أصغى بروفييسور جابرييل إلى رواية الدّسّاس لما جرى مع إزميرالدا بعد آخر لقاء معها عندما فحصت القصاصة والخريطة اللتان وُجدا مع جوهان. لم يُظهر بروفييسور جابرييل تأثره بما سمعه، لكن في داخله كان هناك بركان يغلي وكاد أن يفور لولا خيرة بروفييسور جابرييل الطويلة في الحفاظ على مشاعره قيد السيطرة لئلا تخرج على وجهه. كانت هذه من أشدّ السمات قساوة والتي كان عليه أن يتعلّمها وحده في معترك الحياة.

انتهى الدّسّاس من إخباره بالتبأ وغادر. استغرق بروفييسور جابرييل في التفكير بصحبة الصمت. ما يحدث يؤكد له أنه كان على صواب، وهذا في حدّ ذاته ما يدعوه للخوف. فقد قاربت أسرار هذا الكون على التّكشّف ولن يستطيع العلم استيعاب ما يجري. ما هي الخيمياء إذن إن كان ما يحصل هو ما ينفاهما؟ هل وضع الأسياد قوانين أخرى علينا اكتشافها، أم أن هناك ما لم يعرفه البشر بعد من عوالم غيبية؟

لا بد وأن الخيمياء كانت الوسيط بين هذا العالم وما يحيط به. تلك القوى والتي تتحقق بشكل

مناف لطبيعة اتخذت من الخيمياء طريقة لاستحضارها. سيختبر بروفيسور جابريل ما اختبره أبناء تلك الحضارة!

لماذا خطرت على بالي هذه الحضارة؟ هذه أسطورة حتى بين الأساطير. وجود تلك الحضارة لا يعني إلا دمار كل ما نعرفه عن الخيمياء. إن كل ما نعرفه عن الخيمياء هو الحقيقة، فلا بد من أن الحقيقة تختبئ تحت ستار الخيمياء، ويبدو أن العلم والخيمياء ليسا إلا ستاراً واهياً لا يخفي من الحقيقة الشيء الكثير.

تداخلت الكثير من الأفكار التي تصارعت في عقل بروفيسور جابريل، لدرجة أنه تمنى لو امتلك حرّية عدم التفكير لبعض الوقت، حتى يتسنى له الاستعداد لما هو قادم. لكن الانسان ليس لديه هذه الخاصية. الخيميائي يجب أن يكون يقطعاً طوال الوقت.

خطر على باله جوهان. إن كان جوهان هو الغجري الحقيقي، أو الغجري التالي، إذن من أين أتى؟ يا لها من حقيقة تدمر أعمدة الحضارة والعلم وتلقي به في مهب الريح. سيُمحى التاريخ ويُكتب من جديد على يد أناس من حقبة لم توجد في التاريخ من قبل.

هل ستتحقق أشدّ أحلام البشريّة جنوناً؟

استمرّ في التفكير والتحليل ولم ينتبه إلى أن الحدث الجلل التالي لم يكن ليحدث تحت مرآه، ولو كان الأمر بيده لكان أوقفه عن الحدث، أو على الأقل تدخّل بطريقة معيّنة.

كان هذا الحدث لا يزال يعتمل في قلب أدوته حرقه وألم الواقع. كان ما جرى كثيراً عليها ولا تستطيع أن تتحمله. أن يحدث لها أمر عاديّ لكن أن يحدث لجوليارد، فهذا مما لا يحتمله قلبها.

لم تكن ليديا تتحمل مشاهدة ما يجري مع جوليارد. لم تكن ليديا ترى جوهان سوى خطر محتمل يُحْدِق بجوليارد وكان عليها أن تتخلّص منه بنفسها. كان عليها أن تكشف كل أوراق جوهان أمام جوليارد، لذلك كان عليها أن ترمي بأوراقها أولاً. تلك كانت الطريقة الوحيدة التي رأت أن عليها أن تقوم بها وتُضحي من أجل جوليارد. لم تكن تريد من جوليارد أن ينجر وراء فتى يدّعي أن جوزفين هي أمه وأنها لا تزال على قيد الحياة في مكان ما وأن عليه أن ينقذها. لقد

استغلّ جوهان حقيقة أن جوليارد كان في أضعف حالاته.

أخذت على عاتقها أن تستقبل كل هذا الكره والحقّد من طرف جوليارد في سبيل أن تضعه على الطريق الصحيح. كانت تتخيل نظرة الامتنان في عينيه بعد أن يدرك أن ما فعلته يصبّ في مصلحته.

كان وقع ما عزمت على فعله كبيراً لكن آثاره لم تكن في الحسبان... لليديا على الأقل.

شهد ذلك اليوم الدرس الأول في الخيمياء على يد بروفيسور موريسون.

وكان درساً أصعب مما كانوا يتوقعون.

تفاجأ الجميع بدخول بروفيسور موريسون القاعة وفي يده قارورة من الدم. كان بروفيسور موريسون مبتسماً وهو يضع القارورة على الطاولة أمامه. تمكّن الجميع من رؤية القارورة والتي بدورها أوقعت الأثر المطلوب في نفوسهم؛ فقد ذكّرتهم القارورة المملوءة بالدم بما حصل معهم.

بدأ بروفيسور موريسون بالحديث بعد أن جال بصره في المكان.

"حسن...ها أنتم طلاب السنة الأولى هنا. ها هي أوّل محاضرة والتي من خلالها ستعرفون كل ما يمكن أن يُفعل بكم، وكل ما يمكن أن تفعلوه لأحد إن حصلتم على قطرة من دماءه."

صمت قليلاً ليرى وقع كلامه على الطلاب.

كان بروفيسور موريسون هو المرحلة الأولى في تعليم الخيميائيين. لا يمكن لخيميائي أن يتعلم أي شيء عن الخيمياء قبل أن يعرف أهمية الدم وخطورته.

تابع بروفيسور موريسون كلامه، رافعاً عيّنة الدم أمامهم.

"انظروا إلى هذا الدم. في هذا الدم يكمن سر الحياة. الروح، الوجود، الشخصية، نفسك، أفكارك، مشاعرك، وكل ما يقود إليه هذا محبوس هنا. سائل يمكنك معرفة مكوناته من خلال إجراء الكثير من الأبحاث، لكن لا يمكنك معرفة سرّه إلى الآن. حتى السبب يبقى غير معروف لدى الكثير من الناس."

تدخل ميلتون بسؤال. "إن كنتم لا تعرفون سرّ الدم، لماذا تدرسونه؟"

"أها، سؤال ذكي." أجال بروفيسور موريسون عينيه في القاعة. "هذا ما سنتحدث عنه. إن ما يمكنك فعله بالدم يفوق قدرة أي أحد. وفي أغلب الحالات لا يمكن مُقاومته. وهنا يأتي دور الخيميائي. ما سأقوله لكم لن تُصدقوه إلى أن تدرسوا كيفية حدوثه، ولكن ليس على يدي. يشكّل الدم سر الحياة، لذلك إن حصلت على قطرة من دم أي إنسان، فأنت تمتلك سرّ حياته، أي باختصار يمكنك أن تتحكم به.

يمكن للخيميائي أن يشكّل رابطاً بين شيئين. هناك رموز نستخدمها بلغة معيّنة يمكن نقشها أو رسماً على الأشياء من أجل تكوين رابطة بينها. على سبيل المثال. يمكنني أن أنشئ رابطة بين ورقتين برسمي لذكلك الرمز القديم على كلاهما، بشرط أن تحتوي الورقتان على الرسمة نفسها. حينها ما يحصل للورقة الأولى يؤثر بدوره على الورقة الأخرى."

سأله جوهان. "كيف؟"

تنهد بروفيسور موريسون. "سأقربها لك. هل رأيت في عمرك توأماً؟"

أجابته جوهان. "نعم."

"هذا جيد. هناك ترابط بين التوأم من خلال الدم، فقد وُلدا من رحم واحد. لكن هذا الترابط قد يكون إيجاباً أو سلباً، من خلال فرضية واحدة. يمكن لأحدهما أن يشعر بما يحصل مع الآخر، أو على الأقل إن حصل مكروه لأحدهما، على الآخر أن يشعر به.

من ناحية أخرى، فالترابط الذي تصنعه الخيميائ يُشكل رابطة بين الأشياء قد تكون أقرب إلى مبدأ رابطة التوأم..."

قاطعته جوهان. "لكن هذا ليس بخطر. قد يشعر التوأم بما يحدث مع أخيه لكنه لا يتلقى نفس الضرر."

هنا اقترب بروفيسور موريسون ومال أمام جوهان. التقت عينيها بنظرة حادة وهادئة. "وهنا تكمن خطورة الخيميائ. فقد تشكّل الرابطة الخيميائية علاقة بين الأشياء هي أقوى من العلاقة

التي تربط الأخوين. علاقة قد تصل في قوتها إلى أن يقع الضرر على الطرفين معاً في ذات الوقت." سألت جوانا. "ماذا تقصد؟"

"أقصد أن هناك درجات من الرابطة الخيميائية، وهي تعتمد على مدى قوة الرابطة. تعتمد قوة الرابطة الخيميائية على ثلاثة عناصر، الأولى هي مدى قوة الرمز الخيميائي الذي تجري عن طريقه عملية الربط الخيميائية، أي أن هناك رموزاً أقوى من رموز.

والثاني هو مدى تشابه الطرفين المرتبطين، أي أنك تستطيع أن تُنشئ رابطة بين ورقة الشجر والقط، لكن ما يحدث لورقة الشجر ليس بالضرورة أن يتأثر به القط، لاختلاف الشبه بينهما. لكن إن حدث الترابط بين طرفين من نفس النوع وبالدّات من نفس الشكل، فهذا حتّى لديه تأثير قوي.

وهنا نأتي للتأثير الثالث، وهو الصلابة الذهنية للخيميائي. على الخيميائي أن يتمتع بالصلابة الذهنية لضبط نفسه وأفكاره وللسيطرة على الرابطة الخيميائية. على الرغم من بساطة التجربة، فهي تتطلب قدراً كبيراً من المعرفة والتركيز، وإلا هلك الخيميائي. هناك رموز تُستخدم في علم الخيمياء لا يمكن لخيميائي مبتدئ أن يتعامل معها. قد يؤدي استخدام هذه الرموز من قبل الخيميائي الغرّ إلى كوارث ابسطها قد يؤدي إلى إصابة الخيميائي بالجنون أو الموت. وفي هذه الحالة يُفضّل أن يموت الخيميائي."

سأله ميلتون. "لماذا؟"

"لا يُسمح لخيميائي مجنون بالبقاء على قيد الحياة. لقد تم اختياركم بناء على صفات معيّنة موجودة لديكم تخبرنا أن بإمكانكم اكتساب صفات أخرى تعينكم على النجاح كخيميائيين، وأولى هذه الصفات هي الصلابة الذهنية. لقد هلك العديد من الخيميائيين لأنهم استخدموا رموزاً هم ليسوا بمستواها وتسبّبوا بكوارث من بعدهم. هناك الكثير من الألغاز في هذا العالم ومن هذه التجارب الفاشلة تنوّل نحن إلى معرفة ما يمكن أن يحدث عند استخدام رموز معيّنة. فهناك رموز محرّمة على الخيميائيين لثبات عدم جدوى المحاولة معها. حتى أعتى الخيميائيين لم يتمكنوا من احتمال ما جرى لهم جرّاء استخدامهم تلك الرموز. فلا يمكن لكم استخدام هذه

الرموز سواء لإنشاء رابطة كيميائية أو من أجل أي عملية كيميائية أخرى."

ساد الصمت المكان. انتظر بروفيسور موريسون أن يُدلي أحدهم بتعليق، لكن بلا فائدة. كاد بروفيسور موريسون أن يفقد الأمل عندما أّجج جوهان الموضوع مرة أخرى بسؤاله. "وما فائدة الدم في هذه الحالة؟"

اشتعلت عينا بروفيسور موريسون حماساً لسؤاله. تحرك برشاقة من خلف المنضدة أمام الطلاب وأمسك بعينة الدم ورفعها.

"هذه العينة من الدم كافية لتجاوز قاعدتين من قواعد الرابطة الكيميائية، وهي قاعدة التشابه والرمز. يمكنك باستخدام أي رمز تواصل أن تنشئ رابطة بين أي شيئين إن كان لديك نقطة من دم أحدهما. وقوة هذه الرابطة ستتجاوز حتى ما يستطيع عقولكم أن تتخيلوه."

تابع جوهان. "يعني أن ما يحدث لأحد الطرفين سيحدث للآخر بفعل الرابطة القوية."

أوماً بروفيسور موريسون لجوهان، لكنه رأى عدم الاقتناع يكسو نظرة جوهان وميلتون. هنا لجأ موريسون إلى آخر عنصر في محاضرتة، وهي التجربة.

وضع بروفيسور موريسون عينة الدم من يده والتقط ورقتان. رسم رمزاً على كلا الورقتين ورفعها أمام أعينهم.

"انظروا هنا. هاتان الورقتان المشابهتان تحتويان على رمز ترابط. ها قد أنشأت رابطة كيميائية بينهما. ما يحدث للأولى سيحدث للأخرى. انظروا بتمعّن."

وضع بروفيسور موريسون الورقة الأولى على المنضدة وحمل الورقة التالية بيده وابتعد عن المنضدة. تحت أنظار الطلاب اخرج من جيبه عود ثقاب وأشعل الورقة الأولى. بدأت الورقة بالاشتعال كما يُفترض بأي ورقة أن تشتعل. انطلق بعدها صوت ميلتون وهو ينيهم.

"انظروا." اتجهت أعين الجميع إلى المكان الذي أشار إليه ميلتون.

تسعت العيون واحتبست الأنفاس في الصدور. كانت الورقة التي تركها بروفيسور

موريسون على الطاولة تحترق هي الأخرى!

راقب الجميع احتراق الورقتين وكأنه حدث لن يتكرر مرتين في حياتهما. لم يتمكن أحدهم من إقناع نفسه بوجود خدعة في الأمر بعد ما أخبرهم به بروفيسور موريسون. كانوا يشاهدون ما يجري بذهول.

عندما تحوّلت الورقة إلى رماد اقترب بروفيسور موريسون منها ونفخ على الرماد ليتطاير. ثمّ متّع نظره بوجوه الحاضرين. ثمّ أصدر أوامره بكل هدوء وببسملة لم يعرفوا إن كانت تنبع من حكمة أو من جنون.

"يمكنكم التنفس. لن يحدث لكم أي مكروه."

أطلق الحاضرون زفرة قوية. كان السكون قوياً لدرجة أمكنتهم من سماع أنفاسهم وكأنها صرخات استغاثة من نجا من الغرق. هنا تمكن بروفيسور موريسون من أن يتقدّم بمعلومته الصادمة.

"هناك قانون رابع للرابطة الخيمائية."

صاح ميلتون. "قلت إن هناك ثلاث قوانين."

قال بروفيسور ميلتون بكل بساطة. "نسيت أن أخبركم عنها."

سأله جوهان بنظرة تحدي. "ما هي؟" لم يكن جوهان يريد أن يُظهر أي تعبير ضعف أمام هذا الرجل بالذات.

"القانون الرابع وهو مصدر الطاقة. هذه الرابطة تستلزم طاقة في حال تمّ استخدامها في شيء معين. أنتم تعرفون أن لكي يقع الحدث، فهو يستلزم طاقة. وما قمت به من عملية إحراق للورقتين استلزم طاقة ولو كانت بسيطة."

"إذن؟" تابع جوهان نظرتَه بتحدٍ واضح.

استقبل بروفيسور موريسون كلامه بصلاية وحزم. "هناك قانون في الخيمياء عليّ أن أعيده

على مسامعكم مرة أخرى. القاعدة الأولى والعظمى في الخيمياء: لا يمكن للبشر أن يحصلوا على شيء دون أن يقدموا أولاً شيئاً في المقابل. لتحصل على شيء عليك بتقديم شيء يساويه في القيمة.

من هنا تأتي خطورة الخيمياء. ما هو الشيء الذي عليك أن تمنحه في المقابل يساوي مقدار الخدمة التي ستحصل عليها من الخيمياء؟ الخيمياء خادم مطيع ولكنه سيد فظيع. لكي أضرم النار في الورقة عن طريق الرابطة الخيميائية كان عليّ أن أقدم مصدر للطاقة وكان على الرابطة الخيميائية أن تستنزف هذه الطاقة إلى أن تنتهي. الطاقة لا تفنى ولكنها تنتقل من مكان لآخر. وهذا ما فعلته الرابطة. أشعلتُ عود الثقاب لأشعل الورقة، فقامت الرابطة الخيميائية بسحب تلك الطاقة واستخدمتها لتوقع نفس التأثير على الورقة الثانية، وهنا تم استخدام الطاقة من مصدرها، لذلك اختفى عود الثقاب وتحوّل إلى رماد. أي مصدر للطاقة يتم استخدامه في الرابطة الخيميائية لإحداث ضرر ما سيفقد طاقته ويمنحها للرابطة الخيميائية وبذلك سيتحول إلى رماد.

"مستحيل!" كانت هذه جملة جوانا والتي أهملها بروفيسور موريسون لمعرفة أنها تحاول تكذيب نفسها لا البروفيسور.

أخرج بروفيسور موريسون من جيب معطفه دمية خشبية. نظر إلى عيونهم التي أخذت تتفحص الدمية والتي كانت تشبه في تكوينها الإنسان!

هنا عرف الجميع ما كان بروفيسور موريسون مشرف على قوله.

"هذا صحيح يا أصدقائي. أستطيع أن أشكّل رابطة بين أي منكم هنا وهذه الدمية، وما سأفعله بهذه الدمية سيجري عليكم. لا تقلقوا فأنا لن أتمكن من تطبيق ذلك وإلا سيتم منعي من ممارسة الخيمياء للأبد. هذال هو القانون. لكن هنا يأتي دور النقطة الأهم. الدماء. إن استخدمت قطرة من دم أحدكم هنا فسأتمكن من صنع رابطة قوية تتجاوز ما يمكن لأي رابطة أن تحققه. وهو أن هذه الدمية ستكون جزءاً منك. ستتشكّل رابطة هي أقوى أنواع الروابط، وهي رابطة الدم.

يستلزم تحقيقها أن يكون الخيميائي على درجة من الخبرة والمعرفة التي تتجاوز حتى معرفة الخيميائيين المحترفين، فعدم القدرة على التحكم بهذه الرابطة سيؤدي إلى وفاة جميع الأطراف المعنية في هذه الرابطة. وهنا تكمن خطورة الدماء. الكثير من الطاقة والقليل من الصلابة الذهنية

تؤدي إلى نتائج كارثية يستحيل السيطرة عليها دون صلابة ذهنية حادة. لكنها الطريقة الأنجح في القضاء على أي شخص في أي مكان في العالم. وهو أمر يمكن لبروفيسور جابريل وحده أن يقوم به، لذا لا تُجربوا ذلك أبداً."

طرح جوهان سؤاله عند هذه النقطة. "كيف يمكنني أن أحمي نفسي منها؟"

مال بروفيسور موريسون تجاهه. "هل تعتقد أنني سأخبرك؟"

اشتعلت عينا بروفيسور موريسون حماسة للنظرة القويّة في عيني جوهان. كان على جوهان أن يعرف الجواب بنفسه، مهما كلفه الأمر.

انتشر الطلاب بعد أن انتهت المحاضرة. كانت عقولهم أثقل على أجسادهم من قبل، وكان من حسن حظهم أن المحاضرة التالية كانت بعد جرسين. اقترح ميلتون أن يذهبوا لتناول الطعام لكن جوهان اعتذر منه. لم يكن من الممكن أن يتناول الطعام قبل أن يصل إلى حلّ معضلة الرابطة الخيميائية. لم يكن الأمر بالهين عليه. حال دخوله إلى المكتبة شرع في البحث عن الكتب المتعلقة بهذا الموضوع.

تلك المكتبة المخفية. مكتبة في القبو. أجل، فمكانها تحت الأرض. مكتبة الخيميائيين الحقيقية، وهي الجزء المغلق من المكتبة الأصلية والتي يحجبها عن المكتبة العامة لأكاديمية بالينفورد بوابة واحدة. خلف تلك البوابة يقع ممرٌ يُفضي للأسفل. يدخل الخيميائيون هذه المكتبة من بوابة أخرى في الفرع المخفي من الأكاديمية. تحتوي تلك المكتبة على كتب قيمة ومعلومات تُعتبر في نظر العامة خرافة لا قبل لهم بها. حتى الدارسون في أكاديمية بالينفورد لا يعرفون عن وجود هذه الكتب.

سجّل جوهان اسم الموضوع الذي يريد البحث عنه في اجندة المكتبة، ثم قاده أحد الموظفين هناك إلى القسم المطلوب. شرع في البحث بين الأكوام من الكتب التي قد تستغرقه سنوات وسنوات من عمره لكي ينهيها، فقط تحوم حول هذا الموضوع.

جمع جوهان قائمة من عشرة كتب تتحدّث عن الرابطة الخيميائية وكل ما يتعلق بها. ما إن وضعهم على المنضدة أمامه حتى انضمت إليه جوانا.

استقبلتُ جوانا نظرة المفاجأة دون أي رد فعل. تناولت كتاباً وفتحته. همست بصوت خفيض دون أن تنظر إلى جوهان.

"لا تحدّق بي هكذا. أظننت أنك الوحيد الذي يريد أن يعرف كيف يحمي نفسه؟ إن بحثنا معاً سنصل إلى نتيجة أسرع."

لم يكن هناك من داع للجدال معها، فقد كانت وجهة نظرها سليمة. أمسك جوهان كتاباً آخر من القائمة وشرع في القراءة. كان لديهما فترة دقيقتي جرس لإيجاد الحل المناسب لتلك المعضلة. قبل أن يصطدما بمعضلة أخرى أشدّ تعقيداً!

بكثير!

تابعت جوانا القراءة في محاولة منها إلى الوصول إلى الحلّ المناسب، لكن المعضلة تكمن في عدم وجود أي كتاب يُخبر بطريقة للتصدّي للرابطة الخيميائية.

لكنها قرأت في كتاب كان من حظها أنها عثرت عليه، لأنه يصف طبيعة الرابطة الخيميائية بين الطرفين. ومن هنا يحتاج الأمر لبعض التحليل لمعرفة طريقة التحكم بالرابطة الخيميائية أو على الأقل مواجهتها.

حملت جوانا الكتاب ووضعت أمام جوهان. أشارت إلى الصفحة المناسبة وبدأ جوهان يقرأ. اتسعت عيناه لما قرأه، فما هو موجود أمامه يُثبت أن الرابطة الخيميائية قد تكون وسيلة ناجحة للإيقاع بالعدو ولكن في نفس الوقت قد تكون مصيدة يُعدها الخيميائي لنفسه. وهنا يبدأ الحوار.

جوهان. "هذه إذن طبيعة الرابطة. لا يوجد متحكم أساسي بها."

تابعت جوانا "لهذا من أنشأ الرابطة قد يكون هو الوحيد الذي يعرف بوجودها وفي إمكانه أن يستغلها قبل أن يعرف الطرف الآخر بها."

تابعا حوارهما وكأنهما يفكران بعقل واحد لا يتحاوران فيما بينهما.

"تنشأ الرابطة الخيميائية بين الرمزين المثبتين على الطرفين. لفترض أن الطرفين هنا خيميائي

ودمية."

"إذن تُشكّل هذه الرابطة طريق بين طاقتين. يمكن لأحد الطرفين أن يتحكّم في الرابطة ويؤثر على الطرف الآخر."

"لهذا يمكن لأحد الخيميائيين أن يقضي على الآخر ويحافظ على نفسه من الأذى في نفس الوقت."

"إن كانت هناك رابطة خيميائية بين خيميائيين، فالذي سيفوز هو صاحب الصلابة الدهنية الأعلى ومصدر الطاقة الذي لا ينضب."

"هنا يعود الأمر إلى قدرة التحمل. إن افترضنا أن الدمية مربوطة بإنسان، قد تحترق الدمية وتُحلّ الرابطة قبل أن يتمكن الخيميائي من القضاء على ذلك الرجل، إن كانت قدرة تحمل الدمية للطاقة التي تخضع لها ضعيفة."

"لذلك هي مباراة تحمل أو سيطرة. يمكن للخيميائي أن يعرض الدمية لدرجات شديدة من البرد لكي يشعر بها من تم ربط الدمية به، لذلك عليه أن يتحمل البرد إلى أن تفسد الدمية أو تنحلّ الرابطة."

"أو أن يعرض نفسه لمصدر للحرارة على الدوام مما يمكنه من موازنة مقدار الطاقة المرسل إليه فتنعكس الصورة. قد لا تتحمل الدمية مقدار الطاقة الحرارية التي يبثها الطرف الآخر في هذه الحالة. أي أن هذه الرابطة مستمرة إلى أن يفنى أحد الطرفين."

"أو أن يتم مسح الرمز الخيميائي المسؤول عن الترابط."

"إذن الطريقة الوحيدة التي نضمن فيها الخلاص من تأثير الرابطة الخيميائية هو أن نكون نحن الطرف الأقوى والمؤثر، مما يؤدي إلى فناء الطرف الآخر والقضاء عليه قبل أن تنتهي فترة تحملنا."

"لكن هناك شيء خطير في هذا."

"ما هو؟"

قال جوهان هذه العبارة. "مصدر الطاقة الذي يُستخدم في التأثير سيفنى بعد استخدامه، وهنا يكمن سر خطير."

"ما هو؟"

"أن هذه الرابطة تستنزف مصدر الطاقة ولكنها تستنزف المادة أيضاً. مما يعني أن استخدام لهيب شمعة ليتم حرقه عن طريق تعريض دمية مرتبطة معي للهب الشمعة سيزيد من سرعة احتراق الشمعة. لكن الشمعة نفسها لن تتحول إلى شمع ذائب."

"إلى ماذا إذن؟"

رفع جوهان نظره ذاهلة عن الكتاب وقد فاجأته نبرة صوته وهي تؤكد الحقيقة.

"الرماد."

كان هذا صحيحاً. لو حاول أحدهم طعن جوهان عن طريق غرس خنجر في شجرة تحتوي رابطة مع جوهان فسيتحول الخنجر الذي استُخدم للطعن إلى رماد، لذا مصدر الطاقة يجب أن يكون كبيراً، أو على الأقل لا ينضب.

قرراً أن عليها التفكير في هذه المعلومة لوقت أطول في الوقت الحالي، فهما في الطريق إلى معرفة أسرار أكثر عن الخيمياء.

في الناحية التالية كانت ليديا تقضم اظافرها من شدة التفكير والتوتر. لا تزال تعتبر نفسها مسؤولة عن جوليارد وما يحدث معه وتكره أن تراه على هذه الحال. لم يتسنّ لجوهان أن يقابل جوليارد بعد انضمامه إلى أكاديمية بالينفورد للخيميائيين بعد، ممّا أشعل فتيل فكرة في رأسها، أرادت أن تُبذل جوهان عن جوليارد، عسى أن يعود جوليارد إلى حياته الهادئة بعيداً عن آمال مزيفة.

خشيت عليه من أن تهوي به هذه الآمال إلى وادٍ سحيق لا يقدر أحد على انتشاله منه. لهذا

كان عليها أن تواجه جوهان.

هذا الفتى يدّعي معرفته لجوزفين وأنا أعرف أن جوزفين لم تنجب طفلاً. كان بادياً عليه أنه يكذب.

عندما حلّ الليل وجدت ليديا فرصة مناسبة لاقترحام حجرة جوهان ومواجهته بها يجري. قبل أن يخلد جوهان إلى النوم محاطاً بسكون لا يضاهيه سكون، سمع طرقاتاً على الباب. فتح جوهان الباب ليجد ليديا أمامه.

إيلانا التي في السماوات، سامحيني على ما سأفعله!

أذهب وجود ليديا بالقرب من جوهان النوم من عينيه. عرف أنها هنا من أجل جوليارد. لم يعد طفلاً صغيراً فكان عليه أن يتوقّع أن يتحدث معها عاجلاً أم آجلاً.

كانت مخيلة ليديا مليئة باللغة والحكايات والتاريخ، وهذا ما جعلها تستحضر جملاً ومواقف في حالات مشابهة لشخصيات عُرِفَت بالذكاء. لكن ما أفسد عليها تلك القدرة وحجب عنها مخيلتها كان مرآها لجوهان والذي بذّكرها بشكل يثير الأعصاب بجوليارد.

اصطنعت ابتسامتها وقالت. "أيمكنني الدخول؟"

فاجأها جوابه. "وهل يُسمح لك بالتواجد هنا في هذه الساعة؟"

عضّت على شفتها السفلى وخفضت عينيه.

أراد جوهان أن يُنهي اللقاء، فهو ليس في حالة تسمح له بصدمة أخرى.

قال وهو يحاول إغلاق الباب. "إذن اعذريني."

أمسكت الباب بيديها لتمنعه من إغلاقه. كان عليها أن تُعطي سبباً وجيهاً لما تفعله وإلا ستُصبح الأمور وخيمة عندما يعرف بروفيسور جابرييل بما جرى.

انطلقت منها الجملة كالسهم المسموم. "ألا تريد أن تعرف كيف ماتت جوزفين؟"

استوقفته هذه الجملة. استوقفته كلمة واحدة ذات معنى عنده. كانت تلك الكلمة هي ما اعطى لوجود جوهان معنى في هذه الحياة.

جوزفين!

فتح جوهان الباب ونظر لها نظرة حطمتها. لم يكن جوهان على دراية ببنيتها في إبعاده عن جوليارد. صدمتها النظرة التي رأتها في عينيه وجعلتها تستحقر نفسها. رأت نظرة طفل يبحث عن أمه! نظرة احتياج. انكشف الستار الذي يحمي جوهان أمام هذه الكلمة. جوزفين! عرف جوهان أهمية جوزفين منذ البداية لاختيار أبيلارد لها. لكنه تعلّق بها لأنه لم ير أمّاً غيرها، ومن واجبه البحث عنها.

وها هنا يأتيه أحد أكبر الأسرار على قدمين رقيقتين، محمولاً في قلب قُطعت أوصاله منذ زمن، فأباً الجرح أن يلتئم.

فهل سيلتئم الجرح الليلة، أم سيزداد اتساعاً وألماً؟

ففي الخارج انتشرت رائحة المطر المتساقط. كان للمطر وقعه على هذه الأجواء المظلمة. فقط سُحبٌ مَحْمَلَةٌ بكُميات من المطر تجمّعت وبدأت بإلقاء ما في رحمها من ماء عليها تغسل الأرواح المعذّبة تحت السماء.

دخلت ليديا الحجرة وأغلقت جوهان الباب خلفها.

لا مناص. لا بد لها من قول ما تعرفه. كانت هذه من أشدّ الأوقات توتراً في حياتها، فما تقوله يلامس مباشرة محور حياة جوليارد، ومن بعده حياة جوهان. لم تكن تعرف إن كان جوهان على علم بملايسات وفاة جوزفين فاستغلت هذه النقطة، لكن غريزتها الأمومية دلتها على هذا الجريح والذي كانت على وشك أن تفتق جرحه مرة أخرى بداعي إبعاده عن هدفه، أو إبعاده عن جوليارد وحسب. شكّت للحظات بصحة دوافعها ورجاحتها. لكنها بدأت أمراً ولا بد لها من أن تنتهيه.

جلست على كرسيّ قريب منها وجلس جوهان قبالتها بعد أن أزال الغطاء عن مصباح

زجاجي يحتوي كرة حمراء مشعة. كان

شعاعها بالكاد يكفي لإنارة الحجرة.

نظر جوهان لليديا متحفزاً. كان يريد أن يعرف. كل ما قام به إلى الآن هو محاولة أن يعرف ما حصل. كيف ماتت جوزفين.

وجدت نفسها ليديا تقاوم حرجها في النظر إلى عينيه. فنظرت إلى يديها التين اجتماعتا في حرجها.

"بصراحة، جوزفين لم تمت ميتة عادية." عضت على شفيتها السفلى محاولة كبح جماح توترها. أشعرتها لحظة البوح بالحقيقة بأنها هي من أقدمت على الفعل لا من تروييه.

ثم رفعت عينيهما ووجدته يحرق بها بانتباه. "جوزفين ماتت مقتولة."

نهض جوهان على قدميه وعروق عينيه تكاد تتمزق من هول الخبر. ألجمت المفاجأة لسانه لكنّها لم تمنعه من أن يضغط عليها. نسي جوهان كيف يتنفس وهو يستمع لكلماتها التالية. "هذه هي الحقيقة. لقد قُتلت جوزفين."

سألها جوها بنبرة أبت أن تخرج، فخرج من فمه صوت مكتوم. "من قتلها؟"

ابتلعت ريقها في محاولة لترتيب كلماتها التالية. وجدت جوهان يقف أمامها وقد أصبح صوت تنفسه عالياً. "من الذي قتلها؟"

دبّ الرعب في قلبها لنظرته المتحفّزة. لا مجال للكذب. عليها أن تتابع ما بدأته إلى النهاية. "لقد قتلها جوليارد!"

توقف الزمن داخل الحجرة.

لم يُسمع إلا صوت تساقط المطر في الخارج. ستار من الظلام يحيط المكان. كانت المعلومة صادمة لدرجة استغرق معها جوهان بضع لحظات قبل أن يجلّ عقله الجملة. عصفت في ذهنه

الكثير من الأفكار لدى سماعه بهذه الجملة.

تمتم جوهان ببطء وكأنه يكلم نفسه. "لا يمكن. هذا كذب. لم يحصل هذا. هذا ليس حقيقي." قامت ليديا من مكانها وأمسكت وجه جوهان بين راحتيها. "هذه هي الحقيقة. جولبارد هو من قتل جوزفين."

صرخ بها جوهان. "لا. هذا مستحيل!"

ضمته ليديا إليها بكل قوتها. صرخ جوهان بكلام غير مفهوم تحوّل تدريجياً إلى أنين يصحبه بكاء مرير. وقف جوهان يحتضن ليديا، بينما يبكيان بحرقه على فقدان جوزفين. أعاد لها جوهان إحساس تلك الليلة. لم تنس ليديا إحساسها عندما سمعت بالخبر. بل لم تعرف ما تقوله لما سمعت جولبارد يهذي بأنه قتلها.

تمكّن جوهان من أن يتمالك أعصابه وسألها. "كيف قتلها؟ ما الذي حدث؟"

هزت ليديا رأسها. "لا أعرف."

"مستحيل. لا بدّ وأنت تخفين شيئاً عني."

قالت بصدق. "لم أتمكن من معرفة أي شيء. كل ما أعرفه هو أن جولبارد بقي يردد أنه هو الذي قتل جوزفين. عثرنا عليه جالساً على الأرض وهو يحتضن جوزفين. كانت جوزفين تنزف جراً طعنة تلقّتها من سيف."

"ماذا؟"

"أجل. كان جولبارد يجلس ممسكاً بها والسيف بجانبه. كان هذا السيف سيفه."

تراجع جوهان خطوتين وهز رأسه علّه يستوعب ما قيل له.

"إذن أنت تقولين إنكم وجدتم جوزفين ميتة وجولبارد يحتضنها ويبكي. يقول إنه هو من قتلها. لكن لماذا؟ كيف؟"

"جوهان. كل الخيميائيين بارعون في الفنون القتالية. كانت التدريبات على الفنون القتالية إجراءً لا بد منه. وكان جوليارد بارعاً في حمل السيف."

لم يرد جوهان أن يصدق ليديا. بل لم يكن يريد أن يصدق أحداً. أراد أن يتأكد من الأمر من جوليارد. دفع جوهان ليديا جانباً وخرج من الحجرة. خرجت خلفه ليديا لتنبهه أنه لا يُسمح له بالخروج من الحجرة في هذا الوقت أبداً. ثوان وتوقف جوهان عن الركض، فمن كان يسدّ الطريق لم يكن إلا بروفيسور جابرييل!

نظر بروفيسور جابرييل إلى جوهان ومن بعدها إلى ليديا واستوعب ما يجري.

"أعتقد أنه لا يُسمح لك بالخروج من الحجرة في هذا الوقت."

أجابه جوهان. "الأمر مُستعجل. عليّ أن أرى جوليارد."

"وفي ماذا قد تحتاج جوليارد الآن؟"

سأله جوهان بكل صراحة. "هل كنت تعرف أن جوليارد هو من قتل جوزفين؟"

رأى بروفيسور جابرييل نظرة طير جريح في عيني جوهان. ألقى نظرة عتاب على ليديا على ما قامت به. اخفضت ليديا عينيها لشعورها بفداحة ما أقدمت عليه. تنهد بروفيسور جابرييل وقد اتخذ قراره بخصوص التعامل مع هذا الجريح، فلا بد من مداواته ولو بشكل مؤقت.

"أجل أعرف ذلك. تعال معي، فيبدو أن هذه الليلة طويلة جداً."

كان بروفيسور جابرييل محمّلاً فهذه الليلة طويلة جداً على جوهان. كما كانت طويلة على جوليارد. فهذه كانت حكاية ليلة عاش فيها جوليارد عمره. تحوّلت كل حياته إلى تلك الليلة، ليلة مقتل جوزفين. وها قد انضمّ جوهان إلى براثن تلك الليلة.

ضمّته إلى صدرها بكل حنان غادر. ابتلعت في ظلمة حالكة الليل لا ينتهي.

عملية التحويل البشرية

لم يكن جوهان تحت سيطرة أحد بالتحديد. كان في حالة يسمح بها لأي كائن كان بالتحكم

فيه. فقد كان جوهان تحت سيطرة مشاعره. قاداته مشاعره ببطء وبخطوات واثقة خلف بروفيسور جابريل إلى أن وصلاً إلى مكتبه. جلس بروفيسور جابريل إلى مكتبه وأشار إلى جوهان بالجلوس. فضّل جوهان البقاء على قدميه إلى أن يتخلّيا عنه.

"ما الذي قالته لك ليديا؟"

لو كان جوهان تينياً، لنفث النار مع السؤال. "لماذا قتلها؟"

كانت نبرة بروفيسور جابريل هادئة. "هذا ما يدّعيه." أراد أن يتعامل مع جوهان بحكمة فكان يستدعي الكلمات التي عليه أن يقولها بكل هدوء وتركيز.

"هذا ما قالته ليديا."

تنهد بروفيسور جابريل. كان بروفيسور جابريل واثقاً من هشاشة الفتى الواقف أمامه، فكل طاقة الغضب العارم لديه إن لم تتحول لبكاء مرير فستلنّف على قلبه بسمّها وتطرد الروح من جسده قبل أن يتوقف المطر عن المطول.

"اسمعني جيداً. ما سأقوله لك هو ما لا يعرفه جوليارد نفسه."

انعقد حاجبا جوهان.

أجاب بروفيسور جابريل السؤال قبل أن يفكر جوهان بطرحه.

"أجل. جوليارد لا يعرف الحقيقة الكاملة. لقد كان جوليارد في موقف لا يُحسد عليه. من الطبيعي أن يلوم نفسه. عندما رأيته جالساً على الأرض ورأس جوزفين يتوسّد صدره، عرفت حينها ما حدث بعيني. لم يكن الموقف يتحمل البكاء أو البوح. لقد وجدته على هذه الحالة التي لم أر من قبل رجلاً يمر بها. لكن ما سأرويه لك يتجاوز الحقيقة التي يعرفها جوليارد، لأنّي حصلت عليها من استجواب ثلاثة عقول وقلبين."

هنا توقف بروفيسور جابريل وقد خانتته لغته. بحث بروفيسور جابريل عن أفضل التعابير التي قرأها في حياته وجمعها من حصيلة عشرات آلاف الكتب قبل أن يتقدّم برواية الحكاية كالتالي.

"وصلت إلى البيت وقد علا صوت جوليارد بالصراخ. كان جالساً وقد ضمّ جوزفين إلى صدره. لم أعرف إن كانت بركة الدماء التي أحاطت بهم منه أم منها، فقد تحوّل المكان إلى بحيرة من الدماء تتجاوز تصوّرك.

لكن كان هناك شاهد لم يتحمّل ما جرى أيضاً. كان هناك شاهد اختفى بعد الحادثة ولم أتمكن من العثور عليه. كان هذا الشاهد هو ألبرت. لا ألومك فأنت لم تعرف من هو ألبرت ولا ما تعنيه جوزفين بالنسبة إليه.

كان ألبرت رجلاً ذا علم ومعرفة، ولكنه انطوائي. والأكثر من ذلك أنّ جوزفين كانت هي عالمه كلّ. كان يسكن قلبه حبّ لها فاق كل التوقعات. لكن لم يدر أحد بهذا الحب لأن ألبرت كتم كل شيء بقلبه. كان ألبرت فائق العلم والمعرفة لدرجة جعلتني أعتبره مستشاري لسنوات. لكن رجاحة العقل تسقط أمام حب امرأة. وجوزفين لم تكن أي المرأة. لقد كان لها قلب أم جمع حولها المريدين والمحبين. ولم يكن ألبرت بأفضل حال منهم. لكن كان لدى ألبرت القدرة على التعامل معها بحكم منصبه وهذا ما كان راضياً به. كان سعيداً لبقائها بجانبه حيث يمكنه أن يراها حتى لو لم يكن يستطيع أن يقتنيها. أحبها فأبقاها حرّة. ولكن هذه المشاعر الفياضة أدت إلى الأخير إلى انهيار هذا الرجل واتخاذ إجراءات لم أتوقع أن تصدر عنه.

وهنا يأتي دوري. لقد كان ألبرت حاضراً ذلك اليوم فشهد جزءاً من الذي حصل. لام نفسه بعد ذلك لأنه أتى متأخراً.

لكن يبدو أن ذلك سبّب له شعوراً بالذنب بقي معه طول حياته. تمكنت من استجواب ألبرت قبل أن يستيقظ جوليارد. استجوبت ليديا أيضاً وإلى هنا اكتفيت بالقلوب. عرفت منها أن جوزفين كانت على وشك تنفيذ ما يُعرف بعملية التحويل البشرية، وهذه إحدى المحرّمات على الخيميائيين، بغضّ النظر عن مدى معرفتهم أو براعتهم، أو أي اعتبار آخر. فالتحويل البشري ما هي إلا إحدى مكائد الشيطان. حتى أن هذه التجربة وُجدت بكتاب خُطّت نصوصه بالدماء لا بالحرير.

تمكّن أحد الدسّاسين من معرفة أن جوزفين، وهي إحدى ألمع من مارس الخيمياء في عصرها،

ستقوم بمحاولة التحويل البشرية. قد تسألني لماذا لم يتمكنوا من منعها من القيام بعملية التحويل البشرية، لكن الجواب يكمن مع ألبرت. لم يكن ألبرت على علم بما ستُقدم عليه جوزفين، فلو علم أنها كانت تفكر في الموضوع، لاقتلع ذراعها ومنعها عن المضي فيها كانت تُقدم عليه.

حاول جوليارد منع جوزفين عندما اكتشف الأمر. لم يكن هناك الكثير من المعلومات عن عملية التحويل البشرية ولأنه إلى الآن لم يرد ذكر أن هناك من قام بها من البشر. لكن جوزفين كانت أذكى من أي أحد عرفناه، وبدا لنا أنها أشد من عرفناه في حياتنا تهوُّراً. فقد اختارت محباً لها لتقوم فيه بعملية التحويل البشرية دون أن يُفسد عليها أحد الأمر.

عرف الدُساسون المكان فقدم يومها أحد الخيميائيين من مملكة أخرى ليقتحم المكان على جوزفين بعد أن يراقب ما سيحدث. في ذلك اليوم بقي جوليارد يبحث عن جوزفين كالمعتوه ولم يعثر عليها. وصل الخبر إلى ألبرت ففرع لما علم بها هي مقدمة عليه.

وقتها كشف لنا ألبرت عن أكبر سر في حياته، وهو جسده. خلع رداءه وأرانا ما كان يُخفيه. لقد كان جسد ألبرت مشوّهاً بسبب تجربة شهداها وكانت هذه التجربة أقرب ما يكون لعملية التحويل البشري. وقتها عرفنا مما قاله عما حصل معه أننا قد لا نرى جوزفين مرة أخرى.

انطلقنا نبحث عن جوزفين كالمجانين. مضى كل واحد فينا إلى سبيله. كان ألبرت يحتفظ بشعرة من جوزفين كان قد حصل عليها بطريقة ما. تمكّن بعلومه في الخيمياء من العثور عليها. لكنه كان متأخراً. أتى ألبرت إلى المكان ووجد جوزفين ملقاة على الأرض وسط دائرة خيميائية، تحيط بها أجساد الدُساسين والخيميائيين القتلى. كان يتوسط الغرفة على حد قوله كائن محاط بلهب أسود. لكن من وسط اللهب الأسود كان هناك جسد يتحرك. كان هذا الجسد ممسكاً بسيف من ظلام. قتل هذا الكائن من كان على قيد الحياة. لسوء حظ جوزفين أنها عادت لوعيتها. وصل حينها جوليارد ورأى المذبحة وسط بركة الدماء. رأى الكائن الغريب يقترب منها يروم قتلها، هبّ جوليارد لقتاله. كل ما يذكره جوليارد وألبرت عن هذا القتال هو تلك اللحظة التي كُسر بها سيف جوليارد وطار بقوة لينغرس في جسد جوزفين التي كانت مستلقية بلا حول ولا قوة.

فجأة انتفض الكائن وغلفه الظلام قبل أن يختفي من المكان نهائياً. سار جوليارد إلى جوزفين

وسط بركة الدماء غير مصدق لما جرى. نزل على ركبتيه وأمسك بالسيف المكسور يريد انتزاعه. لم يصدق أنه سيتزع سيفه من صدر أخته يوماً ما!

انتزع جوليارد السيف وضّم جوزفين إلى صدره وبدأ بالصراخ. ألم ودموع وحسرة وندم. فقد جوليارد كل معنى للحياة تلك الليلة. لكن ما أثار عجبني هو اختفاء ألبرت بعد تلك المساة. كان عليّ أن أحاول إخراج جوليارد من الحالة التي هو فيها لنعرف ما الذي جرى ومن هو الكائن الذي قتل الجميع، وكيف وصل إليهم تلك الليلة. ما هي حقيقة عملية التحويل البشرية وإلى ماذا تؤدي؟

إجابة كل هذه الأسئلة كانت عند ألبرت وجوزفين. وإلى الآن لا يوجد طريقة للوصول إلى أحدهما. فجوزفين ماتت وألبرت لا أثر له. حتى عندما استخدمت دماؤه للعثور عليه، لم أتمكن من معرفة مكانه. بدا وكأن عيّنة الدماء التي بحوزتنا هي الشيء الوحيد الذي بقي من أثره في هذه الحياة. لقد اختفى ألبرت من الوجود وكأنه لم يُخلق بها.

هنا توقف جوليارد. لم يتمكن من أن يكمل كلامه، فقد نهض وأسرع ليلتقط جوهان قبل أن يسقط على الأرض فاقدًا الوعي.

لم يتحمّل جوهان وطأة ما جرى. حمله بروفيسور جابرييل وألقاه على الأريكة القريبة منه. تفحص نبضه وتنفسه. ارتاح عندما انتظمت أنفاس جوهان مرة أخرى.

لم يكن في حسابان بروفيسور جابرييل أن هناك رجلاً آخر قد أثقله حمله وقد أتى إليه أيضاً. فتح بروفيسور جابرييل الباب ليجد جوليارد في وجهه. كانت علامات الأرق التي لطالما عُرف بها جوليارد بادية عليه بلا شك. أخفى بروفيسور جابرييل شعور المفاجأة فلا مكان لها الآن. عليه أن يمسك بزمام الأمور في هذه الليلة التي تأتي أن تنتهي.

دخل جوليارد ووجد جوهان مستلق على الأريكة. اقترب منه وكلمات بروفيسور جابرييل تلاحقه.

"لا تقلق، إنه بخير إلى الآن."

لفتت جملة بروفيسور جابريل انتباه جوليارد، استدار ناحيته بشعور بالخيانة. عرف بروفيسور جابريل أن عليه أن يكشف ما حصل وإلا سيتسبب ذلك بمشاكل أخرى. يميل معظم الذين يشعرون بالخديعة إلى تكذيب ما يُقال لهم ما لم يشعروا بصدق أن ما يقال هو الحقيقة. خاصة عندما تُحجب الحقيقة عن أسئلتهم.

كشف له بروفيسور جابريل ما حصل مع جوهان وليديا. لم يكن في وسع بروفيسور جابريل إلا أن يُخبر جوهان بما جرى مع جوزفين ليكتشف السبب وراء إرساله، كما يدّعي، برسالة مضمونها أنها تسامحه. استمع جوليارد لكل هذا وهو ينظر لجوهان نظرة المشفق. لم يكن يعرف أن هناك من قد ينافسه في تعلّقه بأخته جوزفين. كيف يمكن لفتى بعمر جوهان أن ينضمّ إليه في تحمل عبء هذه المأساة؟

رَبّت جوليارد على جين جوهان وهو يستمع لبروفيسور جابريل يروي ما جرى. عندما انتهى بروفيسور جابريل من روايته، فتحت ليديا الباب ووجدت جوليارد جالساً بجانب جوهان يرقاه. بدأت أنفاسها تتسارع وشعور لا تعرف كنهه يسيطر عليها مذ رأت جوليارد يعطف على جوهان. تداخلت المشاعر والأفكار معاً فلم تعد تعرف ماذا تقول.

أرادت ليديا الاعتذار من جوليارد، ثم استنكرت ما يفعله بالفتى الذي قلب حياتهم رأساً على عقب عندما فتق جروحاً أبت أن تترق.

تقدمت ليديا من جوليارد تروم تنبيهه عندما التفت إليها جوليارد واضعاً إصبعه على فمه لئلا يسمعها. رأى جوليارد انعقاد حاجبيها واستنكارها لما يجري فقرر التحدث.

"علينا أن ننتظر إلى أن يستيقظ. فما ينتظرنا أعظم مما يدور بخلدنا."

كان بروفيسور جابريل أعلم بما ينتظرهم عند استيقاظ جوهان، فقلبه لا يزال يغلي بمראה ما سمع.

قبل أن تتمكن ليديا من طرح سؤالها، بدأ جوهان يتلوّى من الألم. بدأ يئنّ بقسوة وكأنه يصارع شيئاً ما. كان جوهان يصارع ذكرى مؤلمة رسمها له بروفيسور جابريل بكلماته.

"ها قد بدأنا. لا بد وأنه يعيش الذكرى مرة تلو الأخرى في لا وعيه."

ارتعدت فرائص ليديا للجملة التي نطقها بروفيسور جابريل بكل بساطة.

ما عانا جوليارد طيلة تلك السنين يعيشه جوهان عشرات بل مئات المرات في لا وعيه، حيث يكون في أضعف حالاته! وجدت ليديا نفسها تتمنى أن يخرج منها سالماً.

تمنى بروفيسور جابريل وجوليارد أن يخرج جوهان من هذه التجربة كما دخلها، لا أن يستيقظ جوهان آخر غير الذي يعرفونه.

مضت تلك الليلة على جوهان وهو محاط بثلاثة مراقبين مستعدين للقيام بأي شيء لحمايته. كان عليهم أن يحموا الأثر الأخير لجوزفين على هذه الأرض.

خطرت فكرة على بروفيسور جابريل فاتجه إلى الخزانة التي تحتوي على عدة أمصال ومحاليل وأعشاب كان حريصاً على أن تبقى في مكتبه لعلمه أنه قد يحتاجها يوماً ما. وكان هذا اليوم هو أحدها. التقط بروفيسور جابريل إحدى العلب الزجاجية، فتحها وشمّها. ثم أعاد الكرة مع خمس علب زجاجية إلى أن وصل إلى ما يريد. حمل بروفيسور جابريل علبتين واقترب من جوهان. كان جوليارد ممسكاً بجوهان وهو يصارع الرؤيا التي جسدت له كلمات بروفيسور جابريل. قرّب بروفيسور جابريل فوهة إحدى العلب إلى أنف جوهان ليستنشق الرائحة.

ثوان وبدأت تعابير وجه جوهان تختلف. ابعدها وقرّب أخرى من أنف جوهان. بدأت تعابير وجه جوهان تتراخي قليلاً. كل علبة تحتوي بودة نبتة معينة تمّ تجفيفها وطحنها بعناية. إحداها كانت اللقلاق، والثانية الزرياب. نبتان ذواتا رائحة نفّاذة وتأثير مخدر. هدأت أعصاب جوهان فلم يعد قادراً على التحكم بها وتبهيجهها، وهذا هو المطلوب. لم يتمكن بروفيسور جابريل من إيقاف رؤيا جوهان وعيشه للذاكرة خلال غيبوبته، لكنه يمكنه أن يوقف جسده عن إبداء ردة الفعل التي تطلبها المشاعر.

بعد مضي بعض الوقت اضطرّ بروفيسور جابريل إلى استعمال نبتة الطالوس ذات الرائحة المزعجة لإجبار جوهان على الاستيقاظ بعد أن اطمأن إلى أن جوهان سيقى ساكناً.

بعد عشر نبضات فتح جوهان عينيه. كان أول من شاهده هو جوليارد. لكن عينا جوليارد كانت فيها الإجابة. لم يكن جوليارد القاتل، هذا كان واضحاً لجوهان. لكن جوهان لم يتمكن من أن يمنع نفسه من اتهام جوليارد بتقصيره في الدفاع عنها. اعتدل جوهان في جلسته وبقي ينظر لجوليارد. عرف جوليارد من نظرة جوهان أنه يلومه على الحال التي وصل إليها. لكن ما قاله جوهان بعد ذلك كان غير متوقفاً.

"لماذا لم تنتقم لها؟"

رفع جوليارد عينيه فزِعاً لما يقوله جوهان.

"ما الذي تقول له؟"

أجابه جوهان. "أنت تعرف أن هناك من قتلها. لقد قتل الجميع لسبب ما بعد أن خرج من تلك الدائرة الخيميائية. لقد تسبَّب في موتها. الكائن الذي قتل جوزفين لا يزال على قيد الحياة، لماذا لم تقتله؟"

ارتبك جوليارد. لقد لام نفسه على ما جرى لأخته طيلة هذه السنوات، لذا كان عقله مغيباً عن حقيقة أن هناك من قتل أخته.

"أقصد ذلك الكائن؟"

"أجل. ذلك المخلوق يجب ألا يبقى على قيد الحياة. إنه خطر على الجميع، لا بد وأنه طليق هنا في مكان ما ومن المحتمل أنه يُحطِّط لشيء ما."

لم يخطر على بال أحد أن المخلوق الناتج عن عملية التحويل البشرية قد لا يزال على قيد الحياة، وأنه يخطط لشيء ما. ظنوا أن اختفائه من مكان التجربة الفاشلة يعني اختفائه من عالمهم.

سألت ليديا. "كيف سنعره عليه؟"

قالها جوهان بكل إصرار والدموع تسيل على وجنتيه دون أن يشعر. "ألبرت. السر يكمن مع ألبرت. هو وحده من يمكنه أن يخبرنا عن كل شيء."

ران الصمت على المكان. كان صمماً مثقلاً بالأفكار والمشاعر والقرارات. كان صمماً أثقل من الصخور.

لم يكن بيد بروفيسور جابريل حل آخر سوى ما اقترحه عليه على عجلة.

"اسمعي أيها الفتى. عليك أن تعديني بأنك لن تبحث عن ألبرت قبل أن اسمح لك."

توجّهت الأنظار ناحية بروفيسور جابريل، الذي لم يجد بداً من الاستمرار في طرح فكرته. كان على جوهان أن يستعد لمواجهة ما هو قادم، فكان الوعد هو أن ينتظر شهراً من الزمن، يجمع فيها كل العلم الذي يمكنه أن يحصله عن الفلك والخيمياء والفنون اللازمة للمضي في هذه المهمة مجهولة المصير.

كان قرار جابريل حكيمًا نوعاً ما. فلا يزال هناك الكثير على جوهان أن يتعلمه، أكثر مما يعرفه بمراحل. فالعالم المقبل عليه يتطلب منه معرفة ما لا يتقبل العقل الاعتراف به!

هدأ جوهان واصطحبه جولارد إلى حجرته مرة أخرى. لم يغادر جولارد الحجرة إلا عندما تأكد من أن جوهان قد غط في نوم عميق، فلا يزال مجهداً مما حصل معه.

في اليوم التالي تمّ جمع الطلبة جميعهم في قاعة واحدة لحضور محاضرة يُلقّيها بروفيسور جابريل. كانت هذه المحاضرة عن عملية التحويل البشرية.

ولج بروفيسور جابريل القاعة وهو يحمل معه بعض القوارير والأكياس. وضعها أمامه على المنضدة ثم أخذ نفساً عميقاً ليسترخ من تعب المجهود الذي بذله. لم يكن أحد يعرف ما كان بروفيسور جابريل مُقدماً عليه، لكنه كان درساً لن ينسوه ما بقوا أحياء.

بدأ بروفيسور جابريل بإخراج المحتويات وعرضها على الطلاب.

"انظروا يا أحبائي. ماء، جير، فسفور، أمونيا، كربون، ملح..."

أخذ بروفيسور جابريل يعدّ للطلاب بعض المكونات مع نسب معينة لم يفهمها أحد سوى جوهان. عرف جوهان أن بروفيسور جابريل لن يسكت قبل أن يُرشد الطلاب للمعلومات التي

يريدهم أن يعرفوها عن طريقه لا عن طريق أحد آخر.

"هذه هي مكونات الجسد البشري البالغ." سكت ليرى أثر كلامه على وجوههم. ابتسم ابتسامته المعهودة، لا هي تنبئ بفرحة ولا هي خداعة. ابتسامته محسوبة بالقدر اليسير ليخبر من أمامه أنه على علم بما يجري.

ذهبت ابتسامته فجأة وهو يقول جملته التالية. "يمكنكم أن تصنعوا إنساناً باستخدام هذه المكونات."

انتشرت بلبلة بين الطلاب. كان المعلمون واقفين بينهم للحفاظ على النظام، فما هم موشكون على سماعه يحتاج لأعصاب من حديد.

"هذا ما كان الخيميائيون يعتقدونه لمدة طويلة بعد إجراء الكثير من الأبحاث والدراسات التي راح ضحيتها الكثير من الخيميائيين والجنث. لكن إلى الآن لم يتمكن أحد من معرفة الطريقة الملائمة ولا الرموز الخيميائية الصحيحة المتبعة في هذه التقنية، هذا إن كان الأمر صحيحاً وأن كل ما يستلزم العملية هي المواد التي أمامكم. ما أنا بصدد إخباركم به الآن هو ما نعتبره نحن الخيميائيون محرماً علينا في علم الخيمياء، ألا وهو ممارسة الخيمياء على البشر. إن ممارسة الخيمياء على الأشياء والحيوانات مما يُعتبر مقبولاً في عُرف الخيميائيين، وحتى هنا في أكاديمية بالينفورد. لكن أن يتم تطبيق الخيمياء على البشر فهو من المحرمات. طبعاً يُستثنى من ذلك كل ما يتعلق بالطب البشري والذي على الخيميائي أن يحمل تصريحاً به.

لنعد إلى موضوعنا. إذا قمت برسم دائرة خيميائية ما، تحتوي على رموز خيميائية قوية، يمكنك جذب مقدار كبير من الطاقة من المكان من حولك، لأن التركيب الأساسي في كل ما تراه من حولك هي الطاقة. لكن وضع هذه الطاقة في هذه المواد والقيام بعملية التحويل البشرية هو أمر محرّم لأنه لم ينجح من قبل. هناك العديد الذين حلموا باتقان هذه العملية، ولكنهم ماتوا جرّاء محاولاتهم المضنية. لم يتمكن أحد من العثور على الطريقة الملائمة ولا حتى الرموز الصالحة لهذا الأمر، ولسوف تسمعون العديد من الأساطير عن أناس وصلوا إلى جانب من الحقيقة فيما يتعلق بهذا الأمر. لكن لا يوجد إلى الآن إجابة كافية. لذلك، إياكم والمحاولة. هذه من المحرمات على

الخميساء،" ثم غير من نبرته لتصبح نبرة تهديد، "وستكون عقوبتها الموت."

شاهد بروفيسور جابريل وقع كلامه على وجوههم. كل من في القاعة يعرفون أن بالينفورد تحتوي عينات من دمهم، ولذلك يمكن إيذاؤهم بكل سهولة.

حتى إن حاولوا الهرب، فلن يتمكنوا من النجاة من الرابطة الخيمائية باستخدام دمائهم.

تابع بروفيسور جابريل الشرح بأن وضح لهم جملة مهمة. "إياكم وأن تنسوا أنكم بشر. الخلق ما هي إلا عملية تتعلق بالأسيد، وإن حاولنا التدخل في عمل الأسيد، فلا يوجد نتيجة أخرى سوى الخراب والدمار."

وهذا ما يحشاه الجميع. لا يريدون التدخل في عمل الأسيد وإلا واجهوا ما لا تحمد عقباه.

لم يكن على بروفيسور جابريل أن يطيل في الشرح. أخبرهم بما يجب عليهم معرفته في الفترة الحالية. كان يعرف أن هناك منهم من سيقع على كتاب أو يسمع بحكاية تتعلق بعملية التحويل البشرية، فكان لزاماً عليه أن يتحدث معهم عنها. تابع شرحه وتحدث عن الكوارث التي قد تسببها هذه العملية، كما حذر من تطبيق أي من عمليات الخيمياء على البشر. كان على الجميع أن يلتزم بالتعليمات دون توجيه الأسئلة، فهناك العديد من الكتب التي قد تعطيهم إجابات لأسئلتهم دون أن يثيروا غضب بروفيسور جابريل.

كان الموضوع حساساً لدرجة كبيرة أدت إلى أن يستمع الجميع لشرح بروفيسور جابريل إلى أن انتهى منه.

عاد الجميع إلى حجراتهم وبقي جوهان وحده يفكر بالذي سمعه في حجرته. جوزفين عرفت عن عملية التحويل البشرية. قد كانت باحثة بارعة في عدة مجالات ولا بد أنها عثرت على شيء له علاقة بعملية التحويل البشرية، أو هكذا كانت تظن. نتجت عملية التحويل البشرية عن مخلوق مجهول تسبب بموت كل من كان في المكان. لكن ما أثار تفكير جوهان هو حقيقة أن جوزفين ماتت جرّاء قتال جوليارد مع ذلك المخلوق. لماذا لم يقتل ذلك المخلوق جوزفين في المقام الأول؟

ثم خطر على بال جوهان ذلك الشخص: ألبرت. كل الخيوط تجتمع عند ألبرت، لهذا لا

يوجد حلّ سوى الوصول إليه.

وأول ما يجب عليه معرفته هو مدى عمق علاقة ألبرت بجوزفين. ولا بدّ له من أن يعرف الإجابة.

دراكاشتا

تلتحم العديد من الرغبات مع الحكايات لتصنع منها أساطير تعبّر عن آمال الشعوب. فالشعوب ترفض انتفاء الخير والشر، فقط لأن انتفاء أحدهما يُفقد الآخر قيمته. لكن الأساطير تتمتّع بمشاعر البشر لتمنحها العظمة اللازمة لبثّ الأمر في الأجيال القادمة، حتى لو كان إحساساً لا أكثر.

لا مناص، فكل خيميائي عليه أن يعرف جانباً من هذه الحكايات والأساطير والتي وضع بعضها الخيميائيون ليودّعوها بعضاً من أشدّ أسرارهم جوحاً وأكثرها صدقاً. تلك الحكايات التي يتنافى فيها العلم مع الواقع لكثرة خوارقه. وأي واقع سيجاري أسطورة الخلق وحرب الدماء السوداء والكواسر؟

في اليوم التالي كان الصفّ من نصيب ليديا. أصبحت ليديا المتخصصة الوحيدة في اللغة القديمة بعد وفاة جوزفين. كان من الصعب أن يوجد خيميائي يهتم باللغة إلى درجة إتقانه عشر لغات ميتة وخمس لغات حية. لم يكن هناك من تنطبق عليه هذه المواصفات في العقدين الأخيرين سوى ليديا.

دخلت ليديا إلى القاعة وفي يدها رزمة مما بدى للجميع للوهلة الأولى أردية من الجلد. بعد أن بسطتها على المنضدة أمامها تبين للطلاب وجود كتابات عليها.

لم تمهّلهم الكثير من الوقت قبل أن تكشف أن ما بين يديها هي كتابات بلغة قديمة على جلود الحيوان. كانت النصوص التي أمامهم مكتوبة بالبالينية القديمة والفارسية. وزّعت ليديا الجلود على الطلاب مرفقة بالكثير من التعليقات والتحذيرات والممنوعات. ثم طلبت من الطلاب أن يجتهدوا في قراءتها وتفسير ما تحتويه.

لم يكن من الصعب على جميعهم أن يعرفوا أن ما تحتويه هذه الجلود يتعلّق بالخيمياء، لكن ما كانوا يحاولون قراءته يبدو أشبه بالطلاسم منها إلى المعادلات الخيميائية. اختلطت الرموز

بالكلمات إلى حدّ يصعب التفريق بينها للناظر غير المتمرس في الكيمياء واللغات القديمة.

بعد مُضيّ بعض الوقت رأت ليديا أن طلابها وصلوا إلى فكّ شيفرة النصوص التي بين يديهم. رفعت يدها أمامهم وهي تحمل رزمة من الأوراق.

"بما أنكم انتهيتُم من تفسير ما تحتويه هذه الكتابات، أستطيع أن أعطيكم هذه القائمة. تحتوي هذه القائمة على تفسير لمعاني الكلمات الواردة في النصوص التي قرأتموها وفسّرتها للتوّ. يمكنكم إعادة تفسير النصوص التي بين يديكم اعتماداً على هذه القائمة."

وزّعت القائمة من جديد عليهم، ورأت نظرات الدهشة واليأس تعلوا وجوههم. فمن الواضح أن غالبية الحاضرين لم يتمكنوا من تفسير النصوص التي قرأوها بالشكل الصحيح.

بعد أن انتهى الجميع من ترجمة النصوص وتفسيرها من جديد طلبت منهم ليديا أن يقارنوا التفسيرات القديمة بالجديدة. كانت الصدمة قوية. فها تتحدّث عنه النصوص يختلف تماماً عن الفهم الأوّل لها.

"وهكذا يمكنكم أن تدركوا أهمية اللغة في عالم الخيمياء. بما أن رموز الخيمياء قد تمّ الاتفاق عليها من قبل من وضعوا علم الخيمياء، وهم علماء مجهولو الهويّة إلى وقتنا هذا، إلا أن هناك مشاكل تعترض الخيميائي تتمثّل في اللغة والرموز اللغوية التي قد تحتوي على عدد لا متناه من التفسيرات والمعاني. هذه النصوص التي بين أيديكم تحتوي على عشرات الترجمات التي استنبطها الخيميائيون المختصّون، بعض منها كان تفسيراً بناءً على التجربة وليس فقط ترجمة المعاني. هذا يعني أن العديد من مسلّمات الخيمياء التي تُدرّس لأيّ خيميائي، راح ضحيتها في يوم من الأيام العديد من الباحثين. أي أنّ ثمن ما تقرأون هو دماء أناس حلموا بالمعرفة، لكن التجربة لا ترحم أحداً والعاقبة واحدة."

هذ كان صحيحاً، فطبقاً للتفسيرات التي بين يديهم، بدا وكأنّها عمليات خيميائية بسيطة، لكن بمساعدة قائمة المصطلحات التي زوّدهم بها ليديا اتضح أن الأمر أعقد من هذا. لو أن أحدهم طبّق ما قرأه في المرة الأولى لأودى ذلك بحياته بلا شك. لكن ماذا لو طبّق ما قرأه في التفسير الثاني؟ ستكون العاقبة خطيرة لجهل الخيميائي بالعواقب.

تابعت ليديا شرحها وأوضحت أن اللغة عامل مفصليّ في رحلة الخيميائي، عدى عن كونها رسالة مُشفّرة بين الخيميائيين، فهي تحتاج لمفتاح لفهم محتواها كالقائمة التي وفّرتها لهم ليديا. وهذا ما استغرق الخيميائيين الكثير من الوقت للوصول إليه. فقد اعتمد الخيميائيون على تفسير النصوص بدءاً من معرفتهم باللغة المكتوبة. لكن ذلك كبّدهم خسائر كثيرة. لكن عندما بدأوا باستخدام النصوص لتفسير بعضها، اختلفت الأمور. فقد يكون تفسير كتاب ما، يعتمد على وجود كتاب آخر يسبقه أو حتى قد يكون كُتب بعده لأسباب لا يعلمها إلا الخيميائي الذي كتب الكتاب.

انتقلت بعدها إلى نقطة اتجاه القراءة. فالنص قد يُقرأ من اليمين إلى اليسار أو من الأعلى للأسفل، أو من اليسار إلى اليمين. ليست كل النصوص مكتوبة لثُقرأ من اليمين لليسار. كانت هذه نقطة مفصلية، فقد يكون اتجاه القراءة المطلوب هو المفتاح اللازم لتفسير النص. هنا قرأ الطلاب النصوص في اتجاهات مختلفة، من اليسار إلى اليمين، ثم مرة من الأعلى إلى الأسفل، في ضوء القائمة التي زدوهم بها ليديا. فعثروا على تفسيرات أكثر.

هنا جاء دور المعرفة المسبقة للخيميائي بعلوم الخيمياء ومفاتيحها ليحتكم إليها في اختيار التفسير الملائم للمنطق الذي يتماشى مع طبيعة الخيمياء. فالخيميائي المتمرس يتمكّن من تمييز ما قد يتماشى مع طبيعة الخيمياء، بحكم تعامله معها طوال الوقت، من الذي لا يمتّ للخيمياء بصلة. فبعض النصوص كُتبت بطريقة معينة لتعطي تفسيراً ملائماً إن وقعت تحت يد العدو، لكيلا ينجو من بعد تطبيق ما جاء فيها، فيختفي الكتاب والخيميائي، وأسرار قد تؤدي إلى قيام أو انهيار بلدان.

وقد تكون عملية التحويل الخيميائية إحدى هذه الفخاخ التي وضعها داهية من دواهي الخيميائيين بين طيّات كُتبه ليوهم الخيميائيين بأن هناك شيئاً قد يعيد الخلق مرة أخرى، أو على الأقل قد يعيد الموتى إلى الحياة. بهذا يتبع الخيميائي جشعه والذي يؤدي به إلى التهلكة.

كانت هذه المحاضرة للتوعية من أخطار التفسيرات وكتب الخيمياء المُرّزة، وبالطبع سيتم تدريبهم في المحاضرات المقبلة على هذه العلوم والتوسع بها من أجل اختزال القدر الكافي من

التجربة والتحليل، علماً بأن خيميائي أكاديمية بالينفورد قد يُمنحون الفرصة للتفسير بعد مضيّ خمسة أعوام على ممارستهم للخيمياء.

في المحاضرة التالية دخلت ليديا ومعها أربعة رجال يحملون لوحاً طينياً. على هذا اللوح الطيني انتشرت مجموعة من الرموز والكلمات بلغة لم يميّزها أحد من الموجودين، فقد كانت إحدى اللغات الميتة، بل وأشدّها صعوبة. لأنها لا تشترك مع أي من اللغات المعروفة في شيء. لكن ما لفت الجميع أن الكتابة التي كانت عليه كانت منقوشة!

كتابة مسارية!

هذا في حد ذاته يستدعي الكثير من الأسئلة فيما يتعلّق بعمر هذا اللوح الطيني. نظرت ليديا إلى الجميع وهزّت رأسها.

"هذا صحيح، فأول سؤال يجب الإجابة عليه قد خطر في بالكم بالفعل. كم عمر هذا اللوح الطيني؟ هذا من الأسئلة الصعبة على الجميع. لكن تمكّن الخيميائيون من معرفة أن هذا اللوح الطيني عمره ما لا يقل عن بضعة آلاف من السنين. نظراً إلى نوع الطين والتراب والمواد التي تشكّل منها اللوح الطيني، تمكّنّا من معرفة أنّه أتى من أرض مختلفة عن المكان الذي عُثر عليه. فقد عُثر عليه تحت أنقاض مدينة قديمة صُنعت مبانيها من الحجر الرمادي. لكن اللوح الطيني قد صُنِع من طين أحمر مخلوط بالعديد من المعادن والمواد التي تمّ صهرها وصبّها معاً على الطين لتكسبه هيئة صلبة، بعد أن تمّ كتابة هذا النص عليه."

نادى أحد الطلاب مستفسراً عن ماهية النصّ الذي يحتويه هذا اللوح. فكانت الإجابة صادمة.

أسطورة.

فقد احتوى هذا اللوح الطيني على قصّة الخلق. أجل، قصّة الخلق على شكل أسطورة لا يزال علماء الخيمياء يسعون إلى تفسيرها ومعرفة ما كان يرمي إليه كاتب مجهول من بلد لم يعد لها وجود، على لوح طيني يُعتبر من آثار سحيقة لزمان قديم. فإن الحكاية تتحدث عن زمن يُعتبر

ماضٍ سحيقٍ بالنسبة لمن كتبه. فإن كان عمر اللوح الطيني يُقدر بآلاف السنين، فالحكاية التي يتناولها قد تعود لبدايات البشرية. أي أن هناك نوعاً من الحضارة التي اختفت ونجا منها بعض الآثار لتخبرنا عن أنها وُجدت يوماً ما.

تابعت ليديا شرحها بسرِّد الحكاية التي يحتويها اللوح الطيني وسط دُهورٍ ودهشة الخيميائيين أمامها.

لم يكن البشر أول من تمَّ خلقهم من قِبل الأسيد ليعيشوا على الأرض. فقد تمَّ إيجاد مخلوقات سبقت البشر، لكنها احتوت على عيوب. في كل مرة تحدث طفرة في العرق الذي ملأ الأرض، مما يؤدي هذا إلى فنائهم. في كل مرة. إلى أن ابتكر الاسياد الإنسان.

وجد الإنسان الأول وزوجته قبل فناء جنس الحن، الذين ملأوا الأرض بسرعة انتشارهم وأعمارهم الطويلة. وُجد البشر والحن على سطح الأرض في نفس الوقت، كانت تجربة من الأسياد ليروا ماذا سيفعل البشر على الأرض. تكاثر البشر وانتشروا والتقوا مع الحن، الذين فاقوهم قوة وجبروتاً لكن البشر فاقوهم دهاءً وحنكة.. كانت الأرض مقسّمة إلى نصفين، نصف يعيش عليه البشر، ونصف يعيش عليه الحن. انتهى الأمر بمعرفة الحن بنَيْة الاسياد باستبدال البشر بهم فهاجوا وماجوا. لكن ما أشعل فتيل الحرب هو القمر. فقد انفلق القمر نصفين. نصف مضيء ونصف مظلم. بقي النصف المظلم فوق النصف الذي يقطنه الحن، وأما النصف المُنير فكان يقطن جهة البشر.

كانت هذه الإشارة كافية ليتأكد الحن من نِيَّة الأسياد لاستبدالهم بالبشر. وهنا بدأت الحرب. فقد قرر الحن غزو مناطق البشر وإبادتهم عن بكرة أبيهم واستعادة النصف المضيء من القمر.

استمرَّت الحرب لمئة عام كان الحن فيها متفوقين على البشر. لكن الأسياد كانوا مِثاليين إلى البشر الذين بدورهم أثاروا فضول الأسياد بحنكتهم وعقليتهم الغربية. فقرّر إنكي أن يمنح البشر كلماته. تلك اللغة التي يتحدّثها الاسياد وحدهم. اللغة التي تحتوي الأسماء الحقيقية لكل شيء. استخدم البشر الكلمات واستنبطوا بقية اللغة واستخدموها في قتالهم ضد الحن، مما جعل لهم اليد العليا. ثم شكَّ إنكي في ولاء البشر فخشي من تقدمهم الملحوظ وتطوّرهم فانزع منهم

الكلمات وحطّمتها. لم يتمكّن البشر من استخدام سلاحهم الأقوى والذي يتحكّم في كل شيء، فأصبحوا في مواجهة من تبقى من الحنّ وحدهم. وجد الحنّ فرصة للتقدم وإبادة البشر مرة أخرى بعد أن فقد البشر قواهم.

لكن إيلانا كانت لا تزال تميل إلى البشر فتمكّنت من إقناع بقية الأسياد أن يصنع كل منهم سلاحاً مقدساً منه ويهديه إلى البشريّ الذي يستحقّه. عندما حصل البشر على الأدوات والأسلحة التي أرسلتها لهم الأسياد، تمكّنوا من الانتصار على الحنّ وإبادتهم. كان الناجون من هذه الحرب والتي سُمّيت بحرب الدماء السوداء، ما لا يزيد عن بضع عشرات من البشر، سبعة منهم عُرفوا باسم الكواسر، وهم السبعة الذين استعملوا الأدوات التي أرسلتها الأسياد، والتي عُرفت بعد ذلك باسم دراكاشتا. تفرّق الكواسر بعد ذلك في الأرض بعد أن عاد القمر إلى هيئته الأولى، فقد اتضح أن القمر ينجذب إلى الطاقة الروحية، فانقسم نصفين جرّاء اختلال موازين الطاقة بين عالم الحنّ وعالم البشر، وبما أن كل شيء قد انتهى، فهذا قد عاد القمر إلى وضعيّته الأولى.

تمكّن كلّ من الكواسر من الاستقرار في مكان ما على الأرض وإنشاء مدينة وشعب بمساعدة الدراكاشتا. ومن هنا استمرّت البشرية في التطوّر.

بعد أن انتهت ليديا من قراءة ما يحتويه اللوح الطيني رأت عدم التصديق باد على وجوه الطلاب.

لم يكن جوهان من غير المصدّقين فما قاله له العجوز ألفرد كان يتطابق مع ما كتّب هنا. إذن فالعجوز لم يكن يكذب. لكن من يمكنه أن يصدق كلاماً أقل ما يقال عنه أنه خرافات وأساطير؟ وما الذي يُمكن استنباطه من هذه الحكاية ليتّنع منه الخيميائيون؟

هنا رفع ميلتون يده ليسأل بكل جدية.

"لقد ذكرت الألواح وجود دراكاشتا؟ هل حجر الفلاسفة هو إحدى هذه الدراكاشتا؟"

أثار السؤال استغراب الحاضرين. كانت قدرة ميلتون على ربط هذه المعلومات مع بعض أمراً فريداً من نوعه، لكن لم يكن بعيداً عن الحقيقة.

"لا يوجد إجابة لذلك." كان هذا ما قالته ليديا.

حاولت جوانا إضافة معلومة عن حجر الفلاسفة.

"لكن حجر الفلاسفة معروف لدى الخيميائيين."

أجابتها ليديا. "أجل، معروف لدى الخيميائيين كحللم لا كحقيقة."

هذا صحيح. يُعد وجود حجر الفلاسفة حلماً لبعض الخيميائيين. ليس فقط لأن حجر الفلاسفة قد يُستخدم لتحويل أي نوع من المعادن إلى ذهب، بل لأنه يمكن استخدامه لصنع مادة اكسير الحياة. من هنا بدأت الأسطورة في الظهور متبوعة بحلم خيميائي وجد أنه من الممكن الوصول إلى اكسير الحياة إن تمكّن من الوصول إلى حجر الفلاسفة. هذا كان أحد اهتمامات ميلتون في المقام الأول. فميلتون يسعى للوصول إلى العقار الذي يعالج الإنسان من جميع الأمراض، أو من أكثرها. حتى لو كان هذا العقار يمنح الانسان مناعة ضد الأمراض والأوبئة، فهو لا يزال سلاحاً متيعاً. لطالما رغب الخيميائيون بطريقة تضمن لهم البقاء أصحاء ليحفظوا بأكبر وقت ممكن من أجل اكتشاف أسرار هذا العالم. لكن حجر الفلاسفة يَعد الانسان بالشباب الأبدي.

لم تجد ليديا بدءاً من الإجابة، فقد تقرر أن يحصلوا على الإجابة منهم بدلاً من أن يحصلوا عليها بوسائل ومصادر لا تُحمد عقبائها. أو ضحّت أن حجر الفلاسفة قد يكون إحدى الدراكاشتا لسبب وحيد، وهو أن هذا الحجر لم يُعثر عليه، لكن هناك من تحدّث عنه عبر الأزمان، وإلا فكيف له ألا يوجد؟ لا يمكن للإنسان أن يأتي بمثل هذا الابتكار من فراغ. لكن حقيقة أنه لم يُعثر على حجر الفلاسفة، تدعم نظرية أنه من الدراكاشتا التي أخفاها الكواسر بعد حرب الدماء السوداء.

انتقل الحديث عن ماهية بقية الدراكاشتا والذي، إلى الأسف، لا تزال مجهولة. لقد ورد ذكر العديد من الأدوات ذات القوى الخارقة في الأساطير والحكايات، لكن لا يوجد تأكيد لفظي أو حتى مجرد تلميح على أن أي منها قد تكون إحدى الدراكاشتا. لكن هناك قناعة من أن الدراكاشتا تحتوي على سيف بلا ملامح. أجل. سيف مجهول الملامح، لكنه سيف قاتل، ما إن يلمس أحداً حتى يريده قتيلاً.

هنا طرحت جوانا سؤالها.

"إن كان هناك حديث عن الدراكاشتا وحرب الدماء السوداء وقصة الخلق، فلماذا لا يوجد شيء مؤكد؟ من المستحيل أن يبقى الجميع في حيرة من أمره دون دليل على ما حدث منذ قرون. لا بد وأن هناك مصدراً صحيحاً للمعلومات الكاملة عما جرى."

أجابته ليديا بكل هدوء. "افترضك هذا في محله. فهو من الطبيعي أن البشر سيتوارثون هذه الأساطير والحكايات مما يجعلها تصل إلينا. لكن ما وصلنا نحن هو مجرد مقتطفات من القصة الكاملة."

تابعت جوانا بعد أن شعرت أن البروفيسورة لم تفهم كلامها. "ما أقصده هو أن هناك من قام بتوثيق ما حدث منذ الأزل، فلماذا لم يكتب القصة كاملة؟ لماذا لا نزال نبحث عن إجابات للأسئلة التي تؤرق الخيميائيين حتى بعد آلاف السنين؟ هل لهذه الدرجة الأمر معقد على البشر استيعابه؟"

تابعت ليديا. "فهمت ما تريمين إليه. الجواب هو أجل، فقد تم تدوين كل شيء والوصول إلى الإجابات الشافية، لكن الوصول إلى الذروة يعني البدء في الانهيار. وهنا بيت القصيد."

بعد أن رأَتْ عدم الفهم على وجه الطلاب تابعت البروفيسورة الشرح. لم يكن الكلام الذي تلفّظت به غريباً على جوهان، فقد قرأ الكثير من الفرضيات عن هذا الأمر في كتب جوزفين.

لقد تم الكشف عن العديد من أسرار الخيمياء والكلمات المحطّمة من اللغة الأولى منذ القدم. لكنّ هذه الكتب لم تنجو. لقد دمرتها العديد من الحروب التي قامت بناء على هذه الاكتشافات. لقد مضى الكثير من القرون على هذه الحكايات مما كان وقتاً كافياً لنشوء مدن وانهيارها. فوجود العلم كان شرطاً أساسياً في قيام المدينة وازدهارها، لكن مع انهيار المدينة، تختفي علومها في طي النسيان ويتكتم عليها الزمان. مما يجعل من مهمة المدينة التي ستقوم على أنقاضها بعد مئات السنين، أن تقوم بإحياء هذا العلم من جديد. مع توالي السنين وتكرار التاريخ لنفسه، ضاعت العديد من هذه العلوم. وهنا تكمن المشكلة.

فمع تقدم الأزمان واختلاف اللغات، اختلفت التفسيرات والحكايات، فاختلط العلم

بالسحر واختلط الواقع بالأسطورة، حتى يجد المرء الحكاية في صيغة وعندما يرتحل يسمعها بصيغة أخرى، حتى اختلط عليه الخير من الشر.

لكن الحروب ساعدت على ذلك. في الغزوات والحروب، يتم اتلاف كل شيء، قتل للأطفال والنساء والرجال وإحراق للكتب والمخطوطات. فقد أتت الحروب على البشر والحجر والشجر.

لأحياء العلوم المختلفة وعلى رأسها الخيمياء، كان على الخيميائيين خوض رحلات كثيرة والتعرض للكثير من المخاطر حتى يحصلوا على أي مُدوَّنة قديمة قد تكشف لهم سرّاً من الأسرار القديمة للخيمياء أو الأساطير المتعلقة بالتاريخ البشري.

انتقل الحديث بعدها عن إذا ما كان هناك من يحاول الوصول إلى الدراكاشتا. كان الجواب صامداً بأنه لم يُسمع عن أحد صدّق أسطورة الدراكاشتا إلى القدر الكافي ليدفعه للبحث عنها. لكن من اعتقد بوجود حجر الفلاسفة كنظرية خيميائية بعيداً عن الدراكاشتا فقد سعى للوصول إليه. فأكسير الحياة الذي يمنح الشباب الأبدى خير محفز لجشع الخيميائيين وغير الخيميائيين. فقد تمّ تحريض الخيميائيين من قبل الملوك والأمراء إلى توظيف الخيميائيين إلى البحث عن حجر الفلاسفة أو صنع واحد تحت أي ظرف ومهما كلف الثمن. مما دفع إلى الوصول إلى المخطوطات المتواجدة في بعض المدن عن طريق الدسّاسين.

انتشر الدسّاسون بين المدن كوسيلة لجمع المعلومات من المدن عن أسرار العلوم والخيمياء والكتب القديمة. وهكذا تمكّن الدسّاسون من مهاجمة الخيميائيين تحت جنح الظلام لينتزعوا منهم ما يملكون من كتب نادرة ونفيسة. حتى أن الأمر تطور في بعض الأحيان إلى اختطاف الخيميائي بنفسه إذا عُرف أنه توصّل لشيء ما.

هنا تذكّر جوهان ما حصل لجوزفين. كان هناك من يريد ما وصلت إليه جوزفين. لا بدّ وأن عملية التحويل البشرية قد شغلت الخيميائيين لعقود كثيرة مما أدى لإيذاء العديد من الخيميائيين. ولم تكن جوزفين استثناء لهذه القاعدة.

لهذا رفع جوهان يده ليسأل. "هل هناك مخطوطات أو حتى قصص تتحدث عن عملية التحويل البشرية؟"

كان سؤالاً مهماً.

أجابت عنه البروفيسورة ليديا. "من الواضح أن هذا الموضوع سيتم التطرق إليه كثيراً بفضل فضولكم نحوه. لكن لا. لا أستطيع أن أقول إننا عثرنا على نص قد يكون قال شيئاً عن عملية التحويل البشرية. لكن هناك حكاية قديمة معروفة كقصّة حب قديمة عن رجل عاد إلى الحياة بطريقة لا تخطر على بال أحدهم. قد تكون هذه الحكاية هي من أعطى الحافز للعديد من الكيميائيين ليشنوا الحرب على أي شيء وأي أحد، لينتزعوا معلومات عنه."

سألها جوهان. "ما اسمه؟"

"أطلس."

كان هذا الجواب كافياً. كل ما كان يحتاجه هو حكاية واحدة. وهذه هي الحكاية التي سيتبعها. بعد انتهاء المحاضرة خرج جوهان متوجّهاً إلى المكتبة. شعر جوهان وكأنّه يسير على خطى جوزفين. أراد أن يعرف الحكاية التي قرأتها جوزفين ولم تتحدث عنها في أي من ملاحظاتها أو دراساتها.

لم تكن مهمة جوهان بالأمر السهل. فكل ما كان لديه هو اسم. لكن هذا الاسم لم يكن شائعاً. فلم يسمع من قبل باسم رجل يُدعى أطلس. لكنّه استعان بالمساعدين في المكتبة ليجدوا له كل حكاية، خرافة أو أسطورة عن رجل قد يكون عاد إلى الحياة بعدما مات بطريقة أو بأخرى. حتى لو لم يكن اسمه أطلس.

استغرق البحث النهار بطولة وقطعاً من الليل. تمكّن بعدها جوهان من الوصول إلى حكاية عن رجل له مواصفات مميزة. رجل اختفى منذ زمن طويل ولم يُسمع عنه لفترة طويلة. كان هذا الرجل يُدعى آشور. كان آشور محباً للعلم والسفر. انتقل في كل بقاع العالم وتمكّن من وضع خريطة لم يوضع مثلها من قبل. لهذا انتشر اسمه في العالم بأطلس، والذي اعتبره الناس اسمه، مع أنه كان لقبه لا أكثر.

تمكّن أطلس من اتباع شغفه في الترحال وجمع العلوم، وكان يريد أن يصل إلى أماكن لم تطأها

قدم بشري من قبل. كان يعرف أن هناك من يسكن هذا العالم مع البشر، لكنه لم يحصل على فرصة للقاءهم. تقول الأسطورة أنه وصل إلى أرض ليست بأرض بشرية. ترتفع هذه الأرض عن اليابسة وتخلق في السماء، كانت تطفو على أعمدة كبيرة وقد ملأها الأشجار والشلالات من كل جهة. تقول الأسطورة

أن أشور كان على علم بطريقة مكنته من دخول هذه الأرض ومعرفة ما فيها، لكن الوصف الذي وصل عن هذه الأرض، لا يتعدّ ما قرأه جوهان في هذا الكتاب شبه المهترئ.

انتقل أشور إلى الداخل، ولدهشته لم ير أحداً. لم يكن أمامه سوى حدائق تملأها الطيور التي أخذت أصواتها تصدح في كل مكان. لكن بعد مُضيّ بعض الوقت سقط أشور مغشياً عليه. لم يدرك أشور أنه قد حطّ الخطي في مكان محرّم على البشر، فقد حطّ خطاه في مكان تسكنه الجنّيات. عندما فتح عينيه وجد أشور أنه فاقدٌ لبصره. نظر حوله ولم ير سوى السواد.

لم يكن أشور يدري أنه دخل أرضاً محرّمة على البشر. ولم يكن يتوقع أنه لن يخرج منها حياً! لقد قامت إحدى الجنّيات هناك بسرقة بصره. أصبح أشور أداة تسليّ بها الجنّيات في الوقت الحالي. وكل هذا كان عقاباً له على دخوله هذه الأرض المحرّمة. سلبته البصر لكيلا يرى ما في داخل تلك الأرض. لا يُسمح لأحد برؤية هذا المكان أو التعرف على معالمه، حتى لو كان بشرياً مصيره الموت. كانت هذه قاعدة ضمنيّة معروفة لدى الجنّيات.

في اليوم التالي فقد أشور حاسة السمع. اختفت الأصوات من حوله. لم يعد يرى أو يسمع شيئاً. دبّ الرعب في قلبه أكثر وأكثر. لقد كانت أصوات الجنّيات الضاحكات من حوله تملأ المكان قبل أن ينام ويستيقظ مرة أخرى. اختفت كل الأصوات وعمّ الظلام الرؤيا فلم يعد قادراً على معرفة شيء. في اليوم التالي سلبته الجنّيات حاسة التذوق. مع كل يوم يقلّ إدراك أشور لما حوله. إلى أن جاء اليوم التالي والذي انتزعت فيه جنّية أخرى جلده. لم تنتزع الجنّية حاسة اللمس، بل انتزعت الجلد فقط. في اليوم التالي كانت الأمور أشدّ فظاعة، فقد واتت إحدى الجنّيات فكرة ملائمة لجعل رعبه لا ينتهي. فقد قامت بسرقة ذاكرته.

هنا تحوّل أشور إلى لا شيء. فالمرء بدون ذاكرة يصل إلى الجنون. لا يوجد ذاكرة لتخبره من

هو. اختفت حتى المسلّات من عقله. لم يعد يعرف إن كان بشرياً أم حيواناً أم نباتاً. لم يدرك شيئاً ولم يتذكّر شيئاً. فقط احساس بالألم بقي يرافقه حتى عندما يتنفس. بقي أشور هكذا دمية للجنّيات يلهون به ويستمتعن بصرخاته وتخبّطه كل يوم. إلى أن جاء يوم وقرّرت إحدى الجنّيات أن اللعبة تجاوزت كل الحدود. كانت هذه الجنّة صغيرة في العمر ورقيقة القلب. كانت تقنع نفسها في البداية ألا علاقة لها بما يحدث طالما أن أشور ليس من بني جنسها. لكن شيئاً ما في منظر أشور جعلها تغيّر وجهة نظرها. لم يكن باستطاعتها أن تغضّ الطرف عمّا جرى، لكن ليس باستطاعتها الوقوف في وجه أخواتها الجنّيات، وإلا عاقبتها بما هو أشد من عقوبة أشور.

قررت وقتها الجنّة أن تنضم لإخوتها في اللعبة الفظيعة تلك.

لذ قررت انتزاع قلب أشور في اليوم التالي.

وقتها فاقت الجنّيات ليجدن جسد أشور لا يتحرك. لقد فقد أشور حياته. ضاجت الفتيات عندما اعترفت لهن اختهن بما فعلته بأشور وسرقتها لقلبه. أرادت أن تعرف ماذا سيحدث للإنسان إن اختفت مشاعره.

وها قد حصلت على النتيجة. مات أشور وانتهت لعبة الجنّيات.

عاد كل شيء إلى حاله الطبيعي. تحلّل جسد أشور مع مضيّ الوقت.

بعد أن اطمأنت الجنّة التي انتزعت قلب أشور من أن الجنّيات نسين حكايته وما فعلته به، خرجت من أرض الجنّيات وتابعت طريقها إلى أرض البشر. كانت تحمل على ظهرها قيثارة وكيساً قماشياً يقطّر دماً. انتحت جانباً بأرض بعيدة عن مدن البشر. كانت في غابة تعرفها حق المعرفة. لم يكن هناك أحد حولها مما سهّل مهمتها. انتقلت إلى شجرة تعرفها. أدخلت الجنّة ذراعها في الكيس القماشيّ وأخرجت قلب أشور الذي انتزعته. أولجت الجنّة القلب النازف في جوف الشجرة من شقّ في منتصفها ثم تراجعت. أمسكت الجنّة بقيثارها وبدأت العزف. استمرّت الجنّة في العزف سبع ليال متواصلة. وفي الليلة السابعة اهتزّت الشجرة. امتدّ التشقّق على طول الشجرة لتخرج منها ذراعان تعملان على توسعة الشق. خرج منها أشور مرة أخرى. خرج منها جسد رجل بقلب رجل آخر. أمضت معه الجنّة سبعة أيام تعلمه المشي، وسبعة أشهر

تعلمة الكلام، وسبع سنين تسرد عليه من يكون، وسبعاً أُخرَ تعلّمه عزف القيثارة وُحفظه الأغاني القديمة والحديثة. صنعت له ذاكرة بشكل كامل. بدا لها إنساناً جديداً لا يعلم إلا ما علّمته له، وهذا هو المطلوب.

ثم من بعدها أطلقتته في هذه الحياة، بين بني جنسه. انتقل أشور بين البشر على أنه شاعر يغني ويعزف على قيثارته. في جعبته كل الحكايات ما عدا حكايته هو.

انتهى جوهان من القراءة. وجد أن كاتب هذا الكتاب مجهول الهوية. مخطوط قديم وُجد ليُفسّر شيئاً واحداً وهو مصدر الحكايات الخرافية الأقدم من الانسان نفسه على حدّ قول بعض البشر. لكن للخيميائيين قول آخر.

ففي هذه الحكاية تأكيد على إعادة البشر إلى الحياة بشروط وطرق معينة. في ثنايا هذه الحكاية كما يدّعي الخيميائيون، هناك المكونات التي يحتاجها الخيميائي ليقوم بعملية التحويل البشرية، بل والمراحل التي يجب أن تلحقها بعد الحصول على الجسد الملائم. لكن ما أثار فضول جوهان هو علاقة هذه الحكاية بالدراكاشتا.

يبدو أن ما أخفّته جوزفين أعمق بكثير مما أظهرته، والوحيد الذي كان يُدرك خطورة ما أقدمت عليه بحق كان ألبرت.

الدراكاشتا. من يسعى لها فقد يُصاب بالجنون. وما يبحث عنها إلا من وصل لمرحلة متأخرة من اليأس تجعله يتقبّل أي بصيص أمل يلوح من بعيد. صراع دام من جميع الاتجاهات. فإن اقتنع الخيميائي بحقيقة ما، فسيفتنع بها العامة بسهولة، وسيدخل الموضوع في أطار جشع البشر. مما سينتج عنه صراع بين المدن على الحصول على الدراكاشتا، لاستخدامها كأسلحة مدمّرة ضدّ بعضهم البعض.

خرج بعدها جوهان من الأكاديمية، ليتوجّه إلى بيت جوليارد. كان يعرف أن هناك شيئاً ما في جعبة جوليارد عمّا حصل، ولا بد له من العثور على شيء في غرفة جوزفين قد يقوده إلى دافعها في اتباع هذه الحكاية.

أما عن نفسه فقد كان جوهان يحاول أن يربط كل ما يعرفه ببعضه، لتنشأ له خريطة أعقد من عملية التحويل البشرية.

كان على جوهان أن يمشي في هذا الطريق، كما يمضي الإنسان في حياته نحو الموت، أو ما هو أشدّ وأعظم.

ذات الأوتار الحمراء

في هذه الحياة يوجد العديد من الحقائق التي لا تحتل تفسيراً. لم يعرف جوهان هذه الحقيقة إلا عندما وصل إلى بالينفورد. المفترض من الخيميائي أن يسير على أدلة وبراهين بما يخص الخيمياء والعلوم. لكن كل ما مر به إلى الآن لا علاقة له بأي علم. كيف يستقي الخيميائيون الدلائل والمعرفة من أساطير تضرب بأساسات الواقع عُرض الحائط؟

كل هذا كان يعمل في رأسه وقد امتعض لمعرفته أنه مُجبر على اتباع هذه الدلائل، أو أشباه الدلائل فقط ليصل إلى جوزفين ويعيدها.

وصل جوهان إلى بيت جوليارد ووجده خارجاً من المنزل. تفاجأ الاثنان ببعضهما. هم جوهان أن يسأل جوليارد عما يُخرجه من المنزل، لكن جوليارد سبقه بسؤاله.

"ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

تلثم جوهان وهو ينظر إلى قدميه وكأنه يبحث عن الإجابة على الأرض.

"أتيت على هنا لأعرف أكثر عن جوزفين. لكن ما الذي دفعك للخروج في هذا الوقت؟"

أشرفت الشمس على المغيب، لذا استغرب جوهان خروج جوليارد من بيته.

"لا تشغل بالك، هناك مكان عليّ أن أكون فيه."

قال جوهان وقد خطر الأمر على باله. "سأتي معك."

لم يكن رد جوليارد سريعاً، فقد تأنى في ذلك.

"إن أتيت معي فعليك أن تتوخى الحذر، وإلا سيقع كلانا في خطر."

"أي خطر؟"

"سترى بنفسك."

اصطحب جوليارد جوهان في مهمته، وهو أمر غير مسموح به، لكن جوليارد حطّم أغلب القوانين، كما هو معروف عن البشر، مقتنعاً نفسه أن هناك ما يمكن أن يستفيد منه جوهان.

كانت وجهة جوليارد هي إحدى الفنادق المشهورة بصالاتها الكبيرة والواسعة، والتي يختار عليها القوم ممن يتمتعون بحسٍّ أدبيّ رفيع ويمتلكون من المال ما يكفي ليستهزئوا بالفقراء عن طريق إعطائه لمن لا يحتاجونه. وجد صاحب هذا الفندق أنّه وفرقته أولى بالمال الذي يُهدّر على الصورة العامّة للشخصية المرموقة الذي ينفق نقوده بلا مبالاة، عالماً أن أضعاف ما أنفق سيدخل في اليوم التالي إلى خزينته. خلال الرحلة عرّفه جوليارد طرق التحرك دون لفت الأنظار. كما علمه طريقة يقلل فيها الصوت الناتج عن خطواته. عندما سأله جوهان عن مصدر معرفته لهذه الأساليب، أخبره أن على كل خيميائي قد أمضى فترة في علوم الخيمياء أن يتعلم بعضاً من فنون التلصّص والدفاع عن النفس واستخدام السلاح للدفاع عن نفسه. فقد أصبح الخيميائيون أهدافاً للدسائين التابعين للمدن الأخرى.

هناك العديد من الدسائين المتقّلين من بلد لآخر بغرض جمع المعلومات واصطياد الخيميائيين. تمثّل المعرفة التي يحصل عليها الخيميائي كنزاً ثميناً للبلد التي يتبع لها، فحفظه واستنطاقه أمر لا بد وأن يحدث. وبما أنّه من الصعب على البلد أن تضع حارساً لكل خيميائي، اقتصرَت الحراسة على أهم الخيميائيين في البلد، وكان لزاماً على بقية الخيميائيين أن يتعلّموا فنون القتال، عدى عن إعداد السموم والأمصال.

بعد مضيّ الكثير من الوقت، حلّ الليل مع اقتراب جوهان وجوليارد إلى الفندق المطلوب. تَبّه جوليارد جوهان من أن يقول شيئاً. سَرى جوهان داخل الفندق ما يثير العجب، فكان لزاماً على جوليارد أن يَنْبَته منذ البداية وإلا قام بتصرّف لا يُحمد عقباه.

دخل جوليارد الفندق ومن خلفه جوهان. توجّه جوليارد مباشرة إلى المسرح، حيث شخصيات مرموقة من البلد هناك. جلسا في الناحية اليسرى في الخلف، حيث تمكنا من رؤية الجميع دون أن يلفتا أنظار أحد.

كان هناك مزاد علنيّ في المكان. راقب جوهان وجوليارد اللوحات والتحف والأزياء

المعروضة للبيع. سمع جوهان أرقاماً خيالية لم يسمعها من قبل. انتهى المزاد العلني وبدأ إخلاء المسرح استعداداً للمسرحية التالية.

كانت هناك فرقة مسرحية خاصة بالفندق تقدم المسرحيات التي كتبها مشاهير الأدباء في بالينفورد. وكانت مسرحية الليلة موفقة.

حارس القمر وبرج السلوان.

كان الأداء رائعاً والشخصيات محكمة. بعد أن انتهت المسرحية تم إخلاء المسرح من أجل العازفين. صعد فتى في العشرينات من العمر إلى المسرح حاملاً معه آلة نفخ لم يرها جوهان من قبل. أدى معزوفة ريفيّة غريبة على مسامع الحاضرين، بعدما انتهى من العزف، قوبل بتصفيق فاتر خجل العازف من سماعه.

عندها صعدت إلى المسرح فتاة يعرفها جوهان حق المعرفة. اتسعت عيناه لما رأى الفستان الأحمر والذي امتدّت منه ذراعان بيضاوان تمسكان بكمان عسلي اللون ذو أوتار حمراء.

ران الصمت على المكان وقد تحفّزت العيون. بدا وكأن الجميع كان ينتظر هذه الفتاة ليستمع لعزفها.

بدأت الفتاة بالعزف تحت أنظار الجميع المستمتعة، وفم جوهان الذي اتسع دهشة وقد سقط عليه الإدراك كالصاعقة.

كانت مهمّة جوليارد أن يراقب ما يجري مع هذه العازفة. فالفتاة التي بدأت تعزف على الكمان من المفترض أن تكون مستلقية على سريرها في أكاديمية بالينفورد! فما الذي دفعها إلى المجيء هنا والعزف أمام هذا الحشد من منتفخي البطون وسيدات المجتمع؟!

بقي جوهان يفكر في حقيقة جوانا وهي تعزف أمام أنظاره على كمانٍ أوتارُهُ من هب.

انتهت جوانا من العزف ونزلت عن المسرح. لم يكن هناك من داعٍ لمتابعة الحفلة الليلة. كان على جوهان أن يلحق بجوليارد الذي أخذه من ذراعه خارجاً من المسرح. بعد قليل خرجت جوانا من المسرح متّجهة إلى إحدى حجرات الفندق. همّ جوهان بأن يتبعها لكن جوليارد أوقفه.

تبادل نظرات محتجّة مع جوليارد لكن الأخير هزّ رأسه بحزم.

انتظرا خارج الفندق بعيداً عن الأنظار يراقبان مدخل الفندق. كانت أطول فترة من الزمن يشعر بها جوهان ترحف على جلده ببطء. كان الفضول يأكله وهو ينتظر بفارغ الصبر أن تخرج جوانا. وضع جوليارد يده على كتف جوهان.

"إياك أن تتحدث معها عندما تخرج. نحن هنا كحراسة لا أكثر."

"لماذا؟"

"لماذا نحميها؟ أخبرتك."

"لست اقصد هذا." لماذا تعزف جوانا هنا؟

"هذا ما لا أعرفه."

علت نبرته قليلاً قبل أن ينتبه أنه بدأ يلفت الأنظار. "كيف يحدث هذا؟"

نظر جوليارد من حوله ليتأكد من أن جوانا لم تخرج بعد وهو يجيب جوهان.

"انظر جيداً إليها. من المؤكد أن هناك سبباً وجيهاً جعلها تفعل ذلك."

"ما هذا السبب؟"

"ليس لنا أن نسألها مباشرة. أنا أراقبها منذ أسابيع ولم أر شيئاً غريباً. كل ما أعرفه أن اسمها

هنا هو بيا."

"هل هذا معقول؟ لا يعرف أحد من الأكاديمية ما يجري؟"

"وهل تعتقد أن مجيئها هنا وعزفها على الكمان خطأ؟"

"انظر إليها. لا يوجد في نظرتها ما يدل على أنها مستمتعة بالعزف."

"لا أستطيع أن أجزم بهذا."

قبل أن يتابع جوهان كلامه، اسكنه جوليارد وأشار ناحية الفندق. خرجت جوانا التي كان يعرفها جوهان. بلباسها المعتاد وشعرها الأسود مربوطاً كذيل فرس خلف ظهرها. لم تحمل جوانا الكمان معها. توجهت جوانا ناحية الأكاديمية وتبعها جوليارد وجوهان عن بُعد. وصلت جوانا إلى الأكاديمية بأمان، فتحت لها بروفيسورة ليديا الباب. أبقت الباب مفتوحاً لبعض الوقت تنتظر جوليارد. تقدّم منها جوليارد وجوهان بعد أن تأكّد جوليارد من أن جوانا وصلت إلى حجرتها.

عقدت ليديا حاجبها عندما رأت جوهان مع جوليارد. وضح لها جوليارد أنه هو من اصطحب جوهان في مهمته. ودّعها جوهان وذهب إلى حجرته. بقي جوليارد وليديا يراقبان الوضع لبعض الوقت قبل أن يتوجّها إلى منزلها.

في تلك الليلة تمكّن جوهان من النوم، لكنه لم يتمكن من نحو صورة جوانا من ذهنه. في تلك الليلة راوده حلم. لم يحدث الكثير في هذا الحلم. لكن اختلطت عليه الأمور مما جعل هذا الحلم أغرب من الخيال.

رأى جوهان جوانا تعزف على الكمان. كانت أصابعها تنزف دماً لكنها تابعت العزف. ثم قامت من مكانها وأشارت له بأن يتبعها. أمسكت بذراعه وقادته خلف المسرح. أزاحت الستارة وإذ بها يقفان في حديقة الجنّيات وصوت الضحك يحيط بهما من كل مكان. لم تكن جوانا تضحك. كان هناك ما يشعرها باليأس، وقد انعكس اليأس على جوهان. نظر حوله وفجأة اختفت الأصوات. نظر بجانبه ولم ير جوانا. سمع مجدداً صوت ضحكات من خلفه. استدار ووجد جوانا تقف أمامه بفستانها الذي ارتدته في الفندق. تفاجأ جوهان عندما عثر على يدها تنغرس في صدره وتتنزع قلبه منه. حملت جوانا القلب إلى الأعلى وأخذت تتأمله في ضوء الشمس. لا يزال القلب ينبض ويقطر دماً على وجه جوانا وعزفها. ولا تزال جوانا تضحك.

استفاق جوهان من نومه كالمجنون. نظر حوله ورأى أنه لا يزال في حجرته. ذلك الشعور الذي انتابه عندما رأى جوانا تعزف تنامي في ذهنه وانتشر في ضلوعه. لم يكن مطمئناً لما يجري فصمّم على معرفة المزيد، لكنه لم يجد طريقة ليعرف ما يحدث إلا من جوانا نفسها.

تابع جوهان حضور محاضراته وهو شارد الذهن. لم يشغل باله شيء سوى جوانا. شغلت

جوانا فكره أكثر ما تشغل المعشوقة قلب عشيقها. كان هناك أمر ما في وجه جوانا يحتاج لتفسير، من قبل جوهان على الأقل. لكن انتباهه المفرط ناحية جوانا جعل ميلتون على دراية بما يحدث.

انتحى ميلتون بجوهان من بعدها وسأله عن سرّ مراقبته لجوانا. حاول جوهان أن ينكر لكن ميلتون ضيق عليه الحناق.

"لم ترفع عينيك عنها طول الوقت. لقد كنت تتأملها وكأنها نصّ قديم تريد فك شفرته."
"هذا صحيح." وجد جوهان نفسه مجيباً.

حسب ميلتون أن جوهان قد أخطأ في الرد، أو أنه يتحدث عن شيء آخر. لكن نظرة الجدّة في عيني جوهان أنبأت ميلتون أنّ ما يفكر فيه صحيح.

"ما الذي يجري؟"

"لا أعرف على وجه التأكيد."

تنهّد ميلتون وربّت على كتف جوهان. "عندما تراني كصديق، يمكنك أن تخبرني ما الذي بينك وبينها."

انغrust أصابع جوهان في راحتيه في قبضة شديدة، علّها تنفّس عن توتره. "لا يوجد شيء الآن. هناك ما عليّ أن أعرفه، ولا يوجد غيرها يمكنه أن يجيبني."

"هكذا إذن! تعتقد أنها تخفي سرّاً ما؟"

"أجل. سرّها كبير. ولا أعتقد أن ما تخفيه عاديّ؟"

لم يجد ميلتون بُدّاً من موافقة جوهان على ما يقوله.

"حسن، لنفترض أن هناك سرّاً في حياتها. لماذا ستكشفه لك؟ لن يعود الأمر سرّاً إن هي أخبرته عنه."

"هذا السر يجبرها على القيام بشيء لا تريد أن تقوم به. هناك ما لا يمكنني فهمه."

"ولا حتى أنا أفهم ما تقوله يا صاحبي."

"إذن حتى لا تتفاهم الأمور، أريد منك أن تعدي بألا تفعل شيئاً إلى أن أتمكن من الوصول إلى جواب منها. أعدك وقتها من أني سأتي إليك وأخبرك بالسرّ بنفسي."

لم يكن ميلتون مهتماً بأمر جوهانا كثيراً، لكن كان جوهان أول صديق له في الأكاديمية، لذلك كان لزاماً عليه أن يثق بصديقه. افترقا على الوعد الذي قطعاه لبعضهما؛ ميلتون إلى مختبر الأوصال والأدوية، وجوهان إلى محاضرة الرموز.

تعلم جوهان العديد من الرموز الخيميائية التي يجب عليه أن يحفظها ويحفظ المجموعات الخيميائية التي تنتمي إليها. فكل رمز خيميائي مجموعة من الرموز ينتمي إليها، وتستخدم كل مجموعة في ترتيب معين للقيام بإحدى العمليات الخيميائية. لذا كان على كل خيميائي أن يتعلم الرموز وتصنيفها في مجموعات كالمظومات الثابتة لكيلا يُسيء استخدام الرموز في العمليات الخيميائية، مما قد يؤدي إلى نتائج وخيمة.

في تلك الليلة، خطر لجوهان خاطر. لقد تربى جوهان مع الغجر لفترة من الزمن مكنته من إتقان لغتهم ومهاراتهم ودراسة التمثيل على أيديهم. وها قد حانت الفرصة لكي يستغل ما تعلمه منهم في الوصول إلى مبتغاه. حديثه مع ميلتون كشف له حقيقة أن جوهانا لن تُخبره بشيء إن تحدث معها بطريقة مباشرة. فكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعلها تفتح قلبها له.

في تلك الليلة، دخل جوهان إلى الفندق، حيث جوهانا، والمعروفة هناك باسم بيا، تعزف كل ليلة على الكمان. دخل جوهان إلى استراحة الفرقة التمثيلية. تعرّف جوهان على قائد الفرق التمثيلية وعرض عليه أن يؤدي الدور في المسرحية هذه الليلة. انتفخ وجه القائد واهمرت أوداجه ووقف ليهجم على الفتى الذي أتى ليسخر منهم قبل أن يُعلن جوهان أنه من الغجر. تدبّر قائد الفرقة التمثيلية كلام جوهان. لم يلتق القائد بأحد من الغجر من قبل مما أثار عنده الفضول لرؤية أحدهم أمامه. كان الغجر معروفون بقدراتهم التمثيلية، عدا عن ترحالهم من مكان لآخر.

أثبت جوهان قدرته التمثيلية بأداء مقطع من مسرحية دروب العتمة، وهي إحدى المسرحيات التي دربته عليها ناردين من قبل. وهكذا تمكّن جوهان من الانضمام للفرقة تلك

الليلة فقط. وكانت هذه الليلة كافية في نظره لسبر غور جونا وما تخفيه وراء عزفها.

كان الفضول يأكله ليكشف الستار عن بيا وينظر إلى جونا وهي تكلمه عن مُصابها. كان جوهان على استعداد ليستمع إلى كلامها ويدعمها بكل ما يملك. فقد كانت جونا من أوائل من اعترف به صديقاً منذ دخوله للأكاديمية، ولن يخذل جوهان صديقاً مهماً حصل. هكذا تعلّم من جوزفين وناردين.

بدأت السهرة وصعدت الفرقة المسرحية لتؤدي العرض. كان جوهان يؤدي المسرحية على أمل أن تراه جونا. ليس لأنه أراد أن يبهرها بأدائه، بل لكي يبثّ فيها قدراً من الثقة، عن طريق إظهار أنه يمرّ بمرحلة مشابهة لها. فلا يوجد من هم أكثر تعاطفاً وتفهماً للإنسان سوى شركاؤه في المعاناة.

بعد انتهاء المسرحية توجهت الفرقة إلى الكواليس، وخرج جوهان من الباب الآخر، ليدخل من الباب الرئيسي وينضم للحضور بعد أن بدّل ملابسه.

صعدت جونا إلى المسرح وسط هتافات أبناء الأثرياء الذين لا يعرفون أين يرمون بنقودهم، سوى عند عذراء بيضاء ذات شعر أسود تعزف لهم لحناً يتذكرونه أثناء نومهم وقد أقحموها في أشد الأحلام سذاجة وقرفاً. لم يُعر جوهان أي انتباه للشباب أو حتى العجزة الذين تناولوا جونا بأعينهم على طبق من معزوفة قديمة. كان تركيزه منصبّ على جونا. اقنع نفسه أنهم منجذبون إلى بيا عازفة الكمان وترنيمة أحلامهم الشبقة، وهو الوحيد الذي ينظر إلى جونا، صديقتته التي سيقوم بها يمكنه حمايتها.

بدأت جونا العزف وصمّت الحضور، في ذهن كل واحد منهم سيناريو عن فتاته ومغامراته التي أقل ما يُقال عنها أنها رومانسية ساذجة. تعلّقت نظرات جونا بجوهان. انقسم عقلها نصفين، نصف يعزف مقطوعة الليلة، ونصف يبحث في ملامح وجه جوهان عن شيء مألوف. لم تكن تصدّق أن من يجلس أمامها هو نفسه الفتى الذي أدّى الدور في المسرحية منذ قليل، وهو نفسه جوهان الذي يرتاد أكاديمية بالينفورد معها.

انتهت جونا من عزفها وخرجت من الكواليس. توجّهت إلى حجرتها وتركت جوهان

ينتظرها. كان جوليارد يراقب الإثنين من بعيد. فلم يكن مسموحاً له أن يكشف نفسه لجوانا. غابت جوانا فترة من الوقت ليست بهيئة، خصوصاً على الفتى الذي كان في انتظارها في الأسفل. كانت جوانا تكبر جوهان بثلاثة أعوام، ففي اعتبار جميع من في بالينفورد، لم تكن جوانا قاصراً أو تحت مسؤولية أحد. لكن هناك شيخ شخص ما يحوم حول جوانا وهو ما دفع جوهان ليقوم بكل هذه الالتفاتة لينتزع منها جملة أو اثنتين.

بقي جوليارد يراقب من مسافة آمنة. لم يكن هو نفسه مدركاً لوجود من يراقب الجميع من بعيد، حتى لو أدرك ذلك، لن يكون باستطاعته كشف هويته. فالمرآب كان في مستوى آخر عن الجميع.

نزلت جوانا بعد فترة إلى البهو بلباسها المعتاد وشعرها المربوط كذيل فرس خلفها. كانت نظرتها جامدة. حاولت أن تخفي وقع الكلمات التي انهالت عليها كضربات مطرقة منذ قليل لتُظهر رزانة في التعامل مع الملاحق الذي كان يتجسس عليها. اقترب منها جوهان ووقف أمامها ليستقبلها. ابتسم لها ليخفف عنها وطأة المفاجأة ويبدأ الحوار، لكن جوانا تجاهلته وغادرت الفندق دون حتى أن تنظر خلفها، تاركة جوهان يقف كالأبله أمام بوابة الفندق.

شعر جوهان بشيء يسقط فيه ساحباً عزمته معه. تخلّت حتى عن فكرة الاعتراف به أمام الناس. تخلّت حتى عن اللجوء إليه مع إدراكها أنه كان هناك تلك الليلة من أجلها، من أجل حمايتها ورعايتها. كان جوهان يظن أن الأصدقاء بينهم عهدٌ قويٌّ لا يفكُّ وثاقه أحد، لكن يبدو أن ما تتعرض له جوانا أشد حتى من رابطة الصداقة.

أو أن رابطة الصداقة أضمن عليها من أن تعرضها للخطر الذي تتعرض إليه!

انتظر جوهان بضع ثوان قبل أن يتبع جوانا وقد تركّزت أنظاره عليها. تأكد جوليارد من أن لا أحد يتبعها ثم تبع جوهان ببطء وبحذر ليتأكد من وصولها إلى الأكاديمية بأمان.

بقي جوهان يمشي خلف جوانا وكأنه مسحور، تتصارع في ذهنه العديد من الأسئلة، فقد ذهبت كل خطته وخطاباته التي أعدّها من أجل تلك اللحظة مهبّ الريح.

لم يدرك جوهان أنها اقتربا من ساحة تتوسّطها نافورة حوريات المنبع المقدس. توقفت عندها جوانا والتفتت إلى جوهان. كانت نظرتها أفسى عليه من نظرة جوزفين المؤنّبة عندما يرتكب خطأ. لم تنطق جوانا بحرف واحد. بقيت تنظر له بعتاب وتأنيب قاسي. مضغ لعبه وحاول الاقتراب، لكن قدميه أبنا أن تطيعاه. وجد في نفسه القدرة على القول أخيراً.

"ما الذي فعلته؟" أحسّ بخطئه فور خروج الكلام من شفثيه.

أجابته بكل حزم. "أهذا ما تريد أن تعرفه بحق؟"

أجاب بسرعة. "لا."

"إذن؟"

تشجع جوهان وألقى سؤاله مباشرة. "ما الذي جلبك إلى هذا الفندق؟"

أتاه الجواب بدون تفكير. "هذا ليس من شأنك."

"لاحظتُ أنك تعرجين. لماذا؟"

فاجأها انتباهه إلى العرجة التي حاولت إخفائها. كان لباسها يخفي الكدمة التي حصلت عليها مؤخراً.

هاجمته بقسوة. "أهذه هوياتك؟ تتدخل في حياة الآخرين لتُفسد كل شيء؟"

فاجأه كلامها. لم يكن يعرف أنها تنظر له بهذه الطريقة.

حاول توضيح رأيه، لكن الموقف أربكه. "ليس هذا ما أريد."

"ماذا تريد إذن؟"

"أريد أن أساعدك."

"ستساعدني بالابتعاد عني."

"لماذا؟"

"هذا ليس من شأنك."

"أريد أن أنقذك."

"عليك أن تنقذ نفسك في البداية. هناك الكثير من الأسئلة التي عليك أن تجهيها. وأنا لا أثق

بك."

"أنت صديقتي."

تقدّمت منه جونا. لم تُعدّ تخفي عرجها أمامه. قربت وجهها من وجهه وأطلقت سهامها.
"هذا ليس من شأنك. ومن قال لك إن عزفي في هذا الفندق شرّ لي؟ ما أفعله هو أن أعزف."

قال جوهان ببأس، يحاول الوصول إليها. "هذا ليس صحيحاً. أنت لم تختاري أن تعزفي."

يا لهذا الفتى! متى سيتوقف عن قراءة مشاعر الناس!

"بلى. لقد اخترت أن آتي إلى هنا وأعزف بإرادتي."

"لست مجبرة على أن تأتي."

"وما أدراك؟ أنا في التاسعة عشر من عمري ولست في السادسة عشر. لا أحتاج لمن يحميني

أو يتدخل في حياتي."

"لكننا أصدقاء."

"لا تتدخل فيما لا يعينك."

"من هو؟"

فاجأها سؤاله. "ماذا تقصد؟"

"من هو الذي يجبرك على هذا؟"

عادت إلى عنادها. "ها قد عدت للتدخل في شؤون غيرك. جوهان. ليس لك الحق في أن تتبعني."

لم يجد جوهان نفعاً من استخدام رابطة الصداقة لجعلها تكشف عما يجري معها. عندما لم تجد منه جواباً ورأته ينظر إلى الأرض في إحباط، التفتت وبدأت في السير ناحية الأكاديمية.

قالت دون أن تلتفت. "إياك أن تلحق بي يا جوهان. دعك مني وعش حياتك."

بقي جوهان ينظر لجوانا وهي تمشي تحت ضوء القمر. كانت اشدّ شحوباً وكآبة من ظلّها الذي رافقها تلك الليلة. رفع جوهان عينيه إلى السماء. راقب السماء الصافية من كل شيء إلا القمر. هبّت نسمة باردة دفعته إلى التحرك لإعادة الدفء إلى جسده. أعاد ناظره أمامه فلم يجد جوانا.

ما الذي تخفيته يا بيا؟

لم يعد يهيم إن كانت بيا أم جوانا. فيها ذات الفتاة التي تعاني بصمت. ولن يفيدها صمتها في تخفيف وطأة ما تتعرض إليه. ها قد أضيف لغز آخر لثقل كاهله. لم يكن جوهان على دراية بسبب قيامه بكل هذا، أو ما الذي دفعه إلى الاهتمام، سوى أنه وجد من يحتاج العون، وهذا ما عليه أن يُقدّمه.

تابع جوهان المسير وهو يفكر في أبيلارد، فقد يكون ما تعلّمه منه هو السبب. جملة واحدة تدركها جوهان من أبيلارد. البشر ضعفاء مهما كانوا ويجب علينا مساعدتهم. للحظة نسي جوهان أنه هو أيضاً بشريّ وتجب مساعدته. لم يغب أبيلارد عن تفكيره لحظة واحدة، مع عدم وجود أدلة على وجود أبيلارد، أو حتى على بقاء جوزفين على قيد الحياة..

احتشدت المشاعر واللغات في رأسه، لكنه لم يجد كلمات تصلح للتعبير عن دواخله. تمنّى وقتها لو يعلم شيئاً من الكلمات المحطّمة. ما هو شعور استعماها؟ هل هي معبّرة؟ ما الاختلاف الذي يميّز الكلمات المحطمة عن بقية اللغات؟ يا ترى إن استخدمتها، هل ستزيل عن كاهلي

المشاعر وترميها خارجه وتضمهر فيها النار حتى لا تحرقني؟ هل استخدامي لهذه اللغة سيجعلني أشعر بالرضا لأنها تُعبّر عَمَّا أشعر به؟

تمنى لو أنه وجد أثراً لأي إنسان استخدم اللغة الأولى التي تحطمت، علّه يدرك الفرق بينها وبين الأصوات التي يُطلقونها ويعتبرونها لغة.

تتابعت الأفكار في رأس جوهان إلى أن دخل الأكاديمية. لم يكن يرغب في النوم لذا بقي يسير هائماً بلا مقصد داخل أبنية الأكاديمية. لسبب يجهله هاجم عقله تساؤلٌ عن الأكاديمية. من أسسها؟ لماذا الأكاديمية عبارة عن قُب. ومن قرر معنى كل قبة؟ وإلى ماذا ترمز كل واحدة منها؟ مضى جوهان وقد فقد سيطرته على أفكاره وتساؤلاته التي كانت كثيرة على عقل فتى في السادسة عشر من عمره. أراد أن يسير بلا وجهة محددة، سير العميان. تمنى لو يتوقف عقله عن التفكير ولو لحظة واحدة لينعم براحة البُلهاء. لأول مرة يحسد البُلهاء على جهلهم، فالجهل نعمة في بعض الأحيان.

لم ينتبه جوهان إلى المكان الذي ولجه ولا من أين ولجه ولا متى. توقف جوهان في مكانه عند نافورة تتوسط مكاناً تحفُّه الأعمدة من كل جانب، فاق جوهان من سرحانه على مرأى النافورة الراقدة تحت قبة حجرية محمولة على الأعمدة التي أحاطت المكان. كان صوت الماء من النافورة مريحاً للأعصاب. جلس جوهان على طرف النافورة وأخذ يتأمل القبة. كانت القبة مزينة برموز وكلمات بعدة لغات. ميّز جوهان بعضاً منها. لم يكن في مزاج يسمح له بالقراءة فسرعان ما ترك النقوش وأخفض بصره. عندها انتبه جوهان إلى صوت أنفاس أحدهم. نظر بجانبه وتجمّد الدم في عروقه.

كانت هناك امرأة تجلس بجانبه!

أمعن جوهان النظر بالمرأة التي تجلس بجانبه بكل هدوء، تتأمل السماء وكأن وجودها في هذا المكان في هذه الساعة أمر طبيعي وليس ضرباً من الخيال. رأى جوهان فستانها الأزرق الذي يمتد من كتفها إلى ركبتيها. كانت تؤرجح قدميها العاريتين جيئةً وذهاباً وهي تتفحص القمر بنظراتها. شعرها الفضيّ منسدل على كتفها وقد داعبت خصلاته أنسام الهواء الباردة. لم يبد عليها

الإحساس بالبرد مع أن الهواء كان بارداً. بقي جوهان صامتاً وقد نجحت هذه المرأة في أن توقف عقله عن التفكير. أقنعه لا وعيه بأن النظر لها بركة من الأسياء، ليس بسبب جمالها، بل لأنها تمكنت من إزالة كل الأفكار الجهنمية التي كانت تأكل عقله وكأنه وجبة دسمة.

سمع جوهان صوتها للمرة الأولى. "هل ستبقى تحدد بي هكذا؟"

لم يبدو على جوهان أنه سمع السؤال، فقد كان مأخوذاً بنظرته إليها.

"هيه، أنا أتحدث إليك. هل ستبقى تحدد في طيلة الوقت. لقد بدأت نظراتك تؤلمني."

لم تكن تنظر إليه فلم يبد على جوهان أنها كانت تُحدثه. عادت هي إلى الحديث.

"انظر إلى القمر، فهو الوحيد الذي لا يتأثر بالنظرات. أما أنا فعلى وشك أن أنزف إن أبقيت نظرك عليّ."

وجّه جوهان نظره إلى القمر. وقتها تأكد من أنها كانت تخاطبه.

"الآن يمكننا التحدث."

سأل وعينيه مصوّبة على القمر. "ماذا تريد؟"

"لا شيء. أنت من أتى إليّ."

"لم آت إليك."

"بلى. أنت هنا وهذا دليل على قدومك."

"أين نحن؟"

"ألا تعرف؟"

"لا."

"إذن يُفضل ألا تعرف."

"من أنت؟"

"هذا سؤال خطير. جرّب غيره."

"ما اسمك؟"

"سؤال أخطر. أليس هناك عدد كافٍ من الألغاز في حياتك؟ أتريد أن تضيف لغزاً آخر؟"

"ماذا تقصدين؟"

"كل اسم هو عنوان للغز ما. شيء عليك معرفته. الأسماء قوة بحدّ ذاتها لهذا هي مخفية. لا أظن أنك تريد أن تضيف عنواناً آخر للغز اكتشفته للتوّ."

كان كلامها صحيحاً، أو هذا ما اعتقده جوهان على الأقل. فكل اسم يعرفه تحوّل إلى لغز عليه أن يسرّ غوره ويتخلّص من الغموض الذي يلفّه ليستريح.

"ما الذي عليّ أن أفعله؟"

"لا شيء."

حاد جوهان بنظره عن القمر وعاد إليها. "ماذا تقصدين؟"

لم تحدّ عينيهما عن القمر وهي تكلمه. "أعد النظر إلى القمر."

أعاد أنظاره إلى القمر. "ما الذي عليّ أن أفعله؟"

"عليك أن تترك الأمور كما هي. لا تبحث عن اسم لكيلا تبحث عن تفسير."

"لكن عليّ أن أجِد التفسير."

"لماذا؟"

"لأنني هنا. لا بد من وجود تفسير لكل شيء."

"هناك تفسير لكل شيء، لكن هذا لا يعني أن علينا أن نجده."

"ألهذا لن تُخبريني عن اسمك؟"

تنهدت المرأة ببطء. "أنا لا أملك اسماً."

"هذا إذن لغز آخر."

"ماذا؟"

"هذه طبيعة الأسماء. ففي حالتك سيكون الاسم مفتاح حلّ اللغز."

"هل أنت مستعد؟"

"لماذا؟"

"لتعثر على اسمي."

"أظن أن عليّ التفكير فيه."

"هل ستُسميني؟"

"لم لا؟"

"ستتعب."

"أعرف."

"والحل؟"

"لا أعرف."

"ماذا في جوفك؟"

"ماذا في جوفكِ أنت؟"

"في جوفي زهرة لوتس تتفتح مرتين في هذه الحياة. تفتحت مرة أولى ولم تفتح للمرة الثانية

بعد. وأنت؟"

"في جوفي ساعة رملية. رملها يسير ببطء وألم."

"أرجو ألا تتحطم."

استغرق الأمر بعض الوقت من جوهان ليستوعب ما سمعه منها. لم يكن حديثها بالمفهوم، وكأنها خيميائيان متمرسان يتحدثان بالألغاز. بعد برهة التفت ناحيتها فلم يجدها. سلم جوهان بحتمية الامر ووقف على قدميه. كان يعرف أن سيره بلا هدى سيقوده إلى حجرته، فقام يتبع خطواته وكأنها تعرف الطريق وحدها.

وهذا ما كان.

نام جوهان ليلتها كالطفل، فقد ساعدت تلك المرأة على تصفية ذهنه ولو قليلاً، استعداداً لما سيحدث في الأيام التالية.

طريق تحفه الدماء

كان السرّ الوحيد في الحصول على النوم الهانئ هو انعدام الأحلام. فالأحلام تحتوي إما على الأمل أو المعاناة. ففي النهاية تدفعك هذه الأحلام إلى اتخاذ قرارات مجهولة المصدر والغاية. هناك يكمن اللغز المختفي في ثنايا لا وعي الإنسان. هذا ما حُرّم منه جوهان تلك الليلة، وهو ما سبّب له النوم الهادئ. فاصلٌ بين الحياة والموت يمضي فيه بضع ساعات بعيداً عن متاهة الأرواح التي زجّ نفسه بها.

استيقظ في اليوم التالي واستعاد ذكريات ما حصل معه، وكالعادة، لا يمكنه إلا أن يشعر بالمسؤولية وعلى إثر ذلك قرّر أن يحشر أنفه فيما لا يعنيه.

لكن كانت هناك قوة مباغته تأبى إلا أن تُضيق الخناق على جوهان: بروفيسور جابرييل. جمع بروفيسور جابرييل ميلتون وجوهان في مكتبه وأخبرهما أنه حان الوقت ليتخذا الإجراءات اللازمة للدفاع عن نفسيهما كونهما على الطريق الصحيح ليُصبحا خيميائيين ذا قيمة. أوضح لهما أن عالم الخيميائيين، على الرغم من كونه في الخفاء، إلا أنه اكتسب شهرة وأهمية كبيرة في مجتمع الخيميائيين السريّ عبر الأمم. مما جعل الخيميائيين مُستهذَفين طيلة الوقت. وهذا ادّعى لأن يُرسلهما إلى أحد معارفه من الخيميائيين الذين اعتزلوا العالم والخيمياء معاً واختفى في بيت يقع على جبل لم يسمع عنه جوهان وميلتون من قبل. استاء جوهان مما يحدث لأنه سيمنع عنه متابعة ما يجري مع جوانا والمرأة التي رآها الليلة الماضية.

عندما تذكّرها، استعاد مهمّته الأبدية. مهمّة لن تُظهر له المرأة نفسها حتى ينتهي منها، وعليه أن يكون مصيباً إن أراد أن يراها مرة أخرى. كان عليه أن يعرف اسمها، أو على الأقل أن يسمّيها باسم يليق بها.

لكن على كلّ هذا أن يتأجل وتبقى السيناريوهات المحتملة تُكتب وتُلقى في محرقة النسيان إلى أن يعود جوهان من هذه المهمّة.

في اليوم التالي توجه جوهان وميلتون إلى بيت الجبل. لم يكن من الصعب عليهم إيجاد البيت، فلا يوجد غيره في الجبل. كانت الرسالة واضحة. عليهما أن يتدربا على استعمال السلاح. سيفاً أو رمحاً أو أي ما يكون السلاح الذي يريدانه. المهم أن يتقنا فن الدفاع عن النفس باستخدام أي من الأسلحة في حال تعرّضاً للهجوم من قبل الدّسّاسين في يوم ما.

وصلا إلى البيت الخشبي المقام بجانب جشرة عملاقة. حاولا الاستئذان قبل الدخول إلى البيت لكن بلا جدوى. بدا البيت وكأنه لا أحد يسكنه. فتحا الباب بصعوبة، فعلى الرغم من أن البيت من خشب، إلا أن هذا الخشب ذات وزن ثقيل. انتبها إلى أن البيت مليء بأوراق الشجرة التي بُني تحتها. لكن الأبواب التي كان عليهما أن يفتحها كانت ثقيلة جداً فكان لزاماً عليهما أن يتعاونوا حتى يتمكّنا من فتح الأبواب. وصلا إلى ساحة داخلية في البيت. من الخارج يبدو البيت متوسط الحجم للناظر إليه. لكن عند دخول البيت يكتشف المرء أن البيت ذو مساحة واسعة.

نادى على صاحب البيت الذي رفض بروفيسور جابريل أن يمنحها اسمه قبل أن يغادرا. قال إن عليهما أن يُجيرا صاحب الاسم على اخبارهما باسمه. لفترة طناً أن لا أحد يسكن المنزل وأنهما ضحية لإحدى مكائد بروفيسور جابريل، عندما صرخ ميلتون وسقط على الأرض. التفت جوهان ناحيته ووجد رجلاً يقف بالقرب من ميلتون. كان الرجل طويل القامة يرتدي ملابس فضفاضة لا تكشف من قوامه إلا القليل. وقف الرجل مغمض العينين وقد انسدل شعره الأسود على كتفيه.

بقي جوهان مكانه يراقب الرجل الواقف، مغمض العينين. ران الصمت على المكان. الرجل واقف في مكانه بلا حراك، لم يفتح عينيه حتى. ميلتون وجوهان ينتظران حدوث شيء ما. كانا يظنّان أن شيئاً ما سيحدث، وأنها لن يكونا الفاعلين.

بعد أن تأكّد الرجل من عدد الموجودين في بيته، بدأ بالحديث.

"كيف عرفتما طريق هذا البيت؟"

بادر جوهان إلى الإجابة. "كيف عرفت أننا اثنان؟"

ابتسم الرجل. "هناك الكثير من الدلائل. أصوات خطواتكم، صوتكما وأنتما تناديان عليّ، ونبض قلبيكما. كل شيء هنا ينبئني بأن هناك زائران. والظاهر أن الزائران ليس مرغوباً بهما." مع قوله لهذه الجملة تبدّلت نبرة صوته إلى الجدّية والقسوة. "ما الذي جاء بكما هنا؟"

أخبره ميلتون أنها مبعوثان من قبل بروفيسور جابرييل. ابتسم الرجل لسماعه باسم بروفيسور جابرييل.

"إذن لديّ هنا خيميائيان."

ردّ جوهان. "أجل."

"يبدو أن بروفيسور جابرييل أرسلكم لحفكم."

لم تنل هذه الجملة إعجاب ميلتون، لكن جوهان أصبح معتاداً على سماع هذا الكلام منذ زمن. خطا الرجل متجاوزاً عن ميلتون الذي كان لا يزال مستلقياً وتوجّه ناحية جوهان. لا تزال عينا الرجل مغمضتين، لكنه اقترب من جوهان حتى أصبح على بعد خطوة منه.

أدلى بتعليق واحد. "انظروا من لدينا هناك. رائحة مميزة."

انعقد جبين جوهان لما يسمعه. لكن الرجل لم يدع مجالاً لجوهان للتفكير.

"حسن، مرحباً بكما هنا. ستبقيان معي لمدة أسبوعين، قرار لا رجعة فيه. عليكما أن تستغلاً فترة بقائكما هنا للبقاء على قيد الحياة."

لم يدر جوهان وميلتون السبب الحقيقي وراء قبول الرجل لبقائهما، لكن نجاحهما في المرحلة الأولى كان كفيلاً بأن يتغاضيا عن أسباب هذا القبول.

استدار الرجل ومشى ناحية حجرة. "اتبعاني."

تبعاه إلى الحجرة حيث أعطاهما ثياباً غير ثيابهما. كانت الثياب مصنوعة من نفس القماش الذي يرتديه الرجل. لكن المُلَفَت في الأمر أن هذه الثياب التي ناولها إياهما كانت أثقل بعشر مرات من الثياب العادية. هنا تأكّد جوهان من الفرضيّة الأولى. الأشياء هنا أثقل، مصنوعة خصيصاً لتكون

أثقل من أي مكان آخر. كانت الحركة أصعب عليها بزيها الجديد، لكن التحدي كان ما يزال في بدايته. جلسا أمام الرجل الذي لا يزال يُبقي عينيه مقفلة طيلة الوقت ينتظران تعلياته.

تأملاه طويلاً دون أن يأتيا بحركة واحدة. ثم بعد برهة قرّر ميلتون أن يتحدث.

"ماذا يجب أن نفعل؟"

لم يجب الرجل.

تسائل جوهان إن كان هناك اختبار من نوع ما، لكن الرجل لم يُدل بقواعده بعد. أعاد ميلتون السؤال.

أجابه الرجل. "لا أعتقد أن فقدان الصبر شيمة يتحلّى بها الخيميائيون."

عاجله جوهان. "ولا حتى الصمت غير المبرر."

قال الرجل. "حسن. أظن أنك محق."

أجاب جوهان. "إذن ماذا سنفعل الآن؟"

قال ببساطة. "أن تصمدا في هذا البيت مدة أسبوعين."

قال ميلتون. "نعرف هذا."

"هذا صحيح، أنت تعرف هذا لكنك لا تشعر به."

لم ينتبه أي منهما لقصد الرجل، فترك الأمر دون تفسير.

بادر جوهان. "ماذا عن اسمك؟"

"ماذا تقصد؟"

"أخبرنا ما اسمك؟"

"ألم يخبركما بروفيسور جابرييل عن اسمي؟"

"لا."

لم يُخف الرجل ابتسامته.

سأله ميلتون. "هل أنت كفيف؟"

أجابه بعد أن اصطنع التفكير. "همم، سؤال منطقي. أنا لا أحب أن افتح عيني."

تابع جوهان. "إذن أنت ترى."

"من قال لك إني أرى أو لا أرى."

"يعني أنك ترى لكنك تقرر ألا ترى؟"

"أترغب في رؤية شيء في هذا العالم إذن؟"

بقي ميلتون يتابع هذا الحوار.

"لقد وجدت أعيننا لنرى بها العالم."

"هل اخترنا أن توجد لنا أعين؟"

"لا، لكننا اخترنا أن نرى."

"ويبدو أنني اخترت ألا أرى."

"عليك أن ترى."

"لا تستطيع."

"سأريك هذا العالم."

"ألا تعتقد أن هاتان العينين رأتا ما يكفيهما؟"

"سأريك شيئاً مختلفاً."

"أنت متهور ومندفع. لا تترك أحداً في حاله. تريد أن تعرف كل شيء وتظن أن لك الحق في

التدخّل.

"لماذا تقول هذا؟"

"لأنك تعتقد أنك ستجد الحل. دوماً تعتقد أن الحل عندك، وأنت الوحيد القادر على فعلها."

"وما الخطأ إن كنت واثقاً؟"

"ماذا لو التقت الثقة العمياء بالجهل. عندما تعرف الحقيقة، ستقف عاجزاً أمامها."

"أليست الحقيقة هي ما يجب أن نراه؟"

"وعندما نرى الحقيقة نرفضها. الحقيقة هي أسوأ شيء ممكن، لأنها تناقض ما في مخيلتنا."

"سأجعلك تفتح عينيك ثانية."

"سنرى وقتها من المخطئ."

"ستكون أنت."

"أنت لا تعرف حدودك. لكن هذا جميل. دعني أرى ما يمكنك فعله."

"سترى."

كانت نبرة العناد واضحة في صوت جوهان، مما بدى أن الرجل استخرجها منه وبدأ يتلاعب به بكل سهولة. انتبه ميلتون إلى أن الرجل الجالس أمامهما لا يزال يحافظ على هدوئه، وأن ما رآه يفوق كل خيالات جوهان وميلتون معاً. لكن جهل ميلتون بما يكون الرجل قد رآه يشعل فيه شمع الخوف، والتي قد تتحول إلى نار تلتهمه وتلتهم صديقه عن قريب.

"هيا، ما رأيك أن تفعلها."

"ماذا تقصد؟"

"هنا تدخل ميلتون. يقصد أن تجبره على فتح عينيه."

هنا توجه الرجل إلى ميلتون وقال. "وأنت أيضاً معني بالأمر."

لو لم يكن ميلتون مدرّكاً لحقيقة أن ما هم فيه هو بسبب بروفيسور جابرييل، لمزّق جوهان ارباً على توريطة.

كان كلام الرجل واضحاً. لم يكن هناك من طريقة أخرى لتنفيذه.

هجم جوهان على الرجل، ظاناً منه أنه يباغته. لكن الرجل كان على قدميه في لحظة، وقد تفادى جوهان ووجّه له ركلة إلى أضلعه. لم يكن الأمر مزحة فقد طار جوهان إلى أن اصطدم بالحائط الخشبي الذي ارتدّ ثم رمى جوهان إلى الأرض دون أن يتأثر. لقد بدأ التدريب.

تابع جوهان وميلتون الهجوم على الرجل لمدة قصيرة إلى أن توقفا من فرض الإرهاق والألم. حصل كل منهما على كدمات على جسده الذي أصبح أثقل بكثير بسبب الملابس التي ارتديها. فقررا أنهما اكتميا اليوم وغادرا بعد تحية الرجل الذي تحوّل بفضل محادثة واحدة إلى معلّم. دخل الرجل إلى غرفته وأمسك بقلم وورقة وشرع يكتب. لم تزل عيناه مغمضتين لكنه كان يكتب بخطّ منمّق لدرجة كبيرة. عند انفلاق الفجر أطلق الرجل طائراً أزرق اللون بعد أن حمّله رسالة إلى بروفيسور جابرييل.

استيقظ جوهان وميلتون في اليوم التالي ولما يَزَلِ التعب بادياً عليهما. لم تختفِ الكدمات من على جسديهما. لكنهما استيقظا بشيء من الغباء الذكوري الذي حفّز فيها الرغبة في هزيمة الرجل وإجباره على فتح عينيه.

استغرق الأمر منهما ثلاثة أيام، لا لكي يفتح الرجل عينيه، بل ليعتادا على الضرب. كانت الضربات تؤثر على جسديهما بشدّة، أما بعد ثلاثة أيام اعتادا الحصول على الكدمات، لدرجة أنهما باتا يُحسبان عدد الكدمات التي تعرّضا لها آخر اليوم.

في نهاية الأسبوع نجحا في معرفة معلومة واحدة بعد الحصول على العديد من الكدمات. اسم الرجل.

أخبرهما الرجل باسمه بكل بساطة.

هيوغو.

لم يكن اسم هيوغو شائعاً في بالينفورد، لا سيما وأن الاسم لم يكن باللغة البالينية التي يتحدثها هيوغو بطلاقة. وهنا لم يجد جوهان بُدّاً من سؤاله عن اسمه ذلك. تابع هيوغو كلامه وأخبره أن اسم هيوغو هو اسم قرأه في إحدى الحكايات التي تتعلّق بأحد الدسّاسين الذي كان يكتب رسائل دامية على جدران القصور عندما يُنهى مهمّته فيها. كان توقيعه دائماً باسمه، هيوغو، على الرغم من أن هذا الاسم ليس اسمه الحقيقي، وهذا ما كان يعتقدّه الكثيرون. لكنّ الأبحاث والدراسات التي أجراها الخيميائيون أثبتت أن هيوغو هو اسمه الحقيقي.

لكن لا زال الجدل قائماً.

تطرّق جوهان إلى ملاحظة لا بدّ لأيّ خيميائي من أن يقولها، وهو أن يترك المدعوّ هيوغو رسالة دامية هو أمر خطير في عالم الخيميائيين، أيّ خيميائي يحصل على عينة من هذا الدم، يمكنه العثور على هيوغو دون عناء. هنا أجابه هيوغو بأن الرجل كان يكتب الرسالة مستعيناً بدم الحيوان. كان هذا الدسّاس يذبح حماماً ويستخدم دمه في كتابة الرسالة. والأدهى أنه يترك هذه الرسالة عشيّة مآذبة تحدث في القصر، ليكتشف الجميع أنهم تناولوا لهم الحمار في تلك المآذبة، بينما استخدم هيوغو دم الحمار في كتابة الرسالة.

كان في هذه الحكاية شيء من السخرية اللذيذة، وهو ما دفع هيوغو لتبني هذا الاسم منذ صغره. لم يُعرف لهيوغو اسم غيره، لكن القصة الحقيقية لهيوغو الدسّاس لم تكن أمراً هيناً. فيُقال إن هيوغو الدسّاس مجهول الهوية وقع ضحية نشاطه.

هناك عدة حكايات في التاريخ عن دسّاسين مجهولي الهوية، ويُقال إنه قد تمّت إضافة حكاية دم الحمار إلى هذه الحكايات من أجل ربطها معاً. تقول الأسطورة أن هناك دسّاساً بارعاً خرج من أرض جريشا، وهي أرض اجتمعت عليها ثلاث ممالك عبر العصور، لا يُدرى من أي منها خرج الدسّاس. لم يكن الدسّاس معروف الهوية، ولكن ما ساعد على إخفاء هويته أمران. الأول هو بقاء الدسّاس خارج البلاد إلى فترة طويلة مات خلالها كلّ من لهم صلة به في البلد التي خرج

منها، فلم يعد هناك من يمكنه التعرف عليه في بلده الأم، وانقطعت الأخبار عنه فلم يتمكن أحد من متابعته.

والثاني هو أن هذا الدساس تنقل من مدينة لأخرى وجاب الأرض والبلاد وغير من الشخصيات الكثير. وهذا ما تسبب في فقدانه صوابه. انتقل كدساس في العديد من البلاد لدرجة أنه نسي أن يرجع لشخصيته الأصل. حتى نسي ولائه. انتهت الرابطة بينه وبين أي بلدة لفقدانه شخصيته الحقيقية. لم يعد يعرف أي من تلك الشخصيات هو. وهذا ما ترك سلاحاً بشرياً طليقاً يعثو فساداً في البلاد.

لم يمنع ميلتون نفسه من السؤال. "ومن أين أتى باسم هيوغو إذن إن كان فقد ذاكرته، أو اختلطت عليه الأمور؟"

تابع هيوغو سرد حكاية الدساس مجيباً أنه حصل على هذا الاسم من مواجهته لأحد الدساسين. ففي إحدى البلدان التقى هيوغو بامرأة شعر تجاهاها برابط عجيب. كانا يعيشان معاً لكي يغطي على كونه دساساً أمام العامة. لكن اتضح لاحقاً أنها هي نفسها دساسة أرسلت من بلد آخر لمهمة قريبة من مهمته. وهي اغتيال أمير تلك البلاد. اكتشف الدساس الأمر عندما شاهدها تغتال الأمير في نفس الليلة التي نوى فيها التخلص منه. وقتها تقانلا داخل الحجرة حيث كان الملك ملقى على الأرض وقد برز سيف من صدره وسط بركة من الدماء.

تمكّن الدساس من التغلب عليها. بعد أن أصابها في مقتل تمكّنت من انتزاع قناعه عن وجهه ونطقت تلك الكلمة، هيوغو، قبل أن تتحول إلى جثة هامدة. عرف وقتها هيوغو من انها ميّزته. جئن لما أدرك أنه قتل الإنسانية الوحيدة التي تعرف هويته الحقيقية. من بعدها بدأ يحب البلاد منتقماً من الجميع. أراد أن يضع بصمته الدامية في كل بلدة. إلى أن عُثر على بوابة إحدى القصور صفحات مكتوبة بخط اليد تتحدث عن قصّة هيوغو تُنبئ بنهايتها. أن قصة هيوغو انتهت هنا.

وهكذا أراد الرجل أن يبقى اسم هيوغو موجوداً في الحياة. أراد أن يحمل اسم الرجل الذي تعرّض في رأيه لظلم كبير، فأراد أن يحمل اسم الرجل ويعيش حياة هادئة، علّ قصة هذا الاسم تنتهي. ولكنه لم يدرك أن لهذا الاسم لعنة، ولم يخبر أحداً عنها إلى الآن.

لم يكن جوهان مكتفياً بسماحه اسم هيوغو. أراد أن يصل إلى مبتغاه الأول. أن يجعل هيوغو يفتح عينيه على العالم.

بقي على وجودهما أربعة أيام عندما أعلن هيوغو أن على جوهان وميلتون أن يستخدموا أسلحة حقيقية في مواجهته. تخوّف ميلتون وجوهان من استخدام أسلحة حقيقية ضد هيوغو، لكن الأخير لم يدع مجالاً لهما عندما هاجمها بنفسه باستخدام سيف حقيقي.

اختار جوهان السيف واختار ميلتون الرمح. أمضيا وقتاً طويلاً في مقاتلة هيوغو. حصلوا على بعض الإصابات التي تعمّد هيوغو ألا تكون قاتلة ويسهل معالجتها. كان التدريب قاسياً والألم صديقههم الوفي. لم يتمكن جوهان وقتها من إجبار هيوغو على فتح عينيه.

إلى أن أتى اليوم الأخير. كان على جوهان وميلتون أن يرحلا. لم يعد هنالك من سبب لبقائهما بعد الآن. وفقاً أمام هيوغو في يومها الأخير واستمعاً له وهو يعلن نهاية فترة استضافتهما عنده. رفض جوهان الأمر. "هذا ليس عدلاً".

"عليكما بالمغادرة. لكن أولاً اخلعا رداءيكما، ستغادران بملابسكما التي أنيتما بها."

خلع جوهان الرداء بحنق ليتفاجأ بخفة وزنه. كان ميلتون فرحاً لشعوره وكأن جبلاً تمت إزالته عن كاهله. ارتديا ملابسهما وجلسا أمام هيوغو. شكره على حسن التدريب لكن جوهان رفض المغادرة. عندما سأله ميلتون عن السبب، قال جوهان أنه لم ينجح بعد فيما أتى ليفعل. أراد جوهان أن يُجبر هيوغو على أن يفتح عينيه. لكنه لم يتمكن من جعله يفتحهما إلى الآن.

هنا ابتسم هيوغو له. جلس هيوغو أمامه ورفع وجهه في وجه جوهان. استعد جوهان لما سيراه. فقد كان هيوغو على وشك أن يفتح عينيه. وها قد فعلها. فتح هيوغو عينيه.

انتصب الشعر على جسد ميلتون. انعقد جبين جوهان قبل أن تتسع عيناه ذهولاً. فقد كان ما رآه هي الحقيقة التي تحدّث عنها هيوغو. حقيقة قاسية لا يمكنك أن تفعل شيئاً تجاهها. ارتعب ميلتون وجوهان لما رأياه. اختلف الرجل الذي أمامهما تماماً.

كانت عينا هيوغو رماديتا اللون بخط أحمر كالخلدش بينهما. تضررت عينا هيوغو بشكل رهيب في يوم ما. كان مظهره وكأنه رأى الموت وعاد على قيد الحياة. وجد جوهان نفسه يتساءل عن ماهية الحقيقة التي رآها هيوغو وما إن كانت تستحق فقدان البصر.

انتاب جوهان إحساس بالاستحقار والظلم. لن يتمكن جوهان من جعل هيوغو يرى ما رآه. لكنّه تمنى لو أنّه رأى ما رآه هيوغو. شعر بصغر حجمه وعدم قدرته على فعل أي شيء. كل ما وصلت إليه البشرية تبقى عاجزة عن إفادة هذا الرجل ولو بعد حين.

طلب منه جوهان أن يخبره عن سبب فقدانه لبصره، فقرر هيوغو أن يوضح بما في قلبه. لقد كان هيوغو خيميائياً ليس بمعروف في الأوساط، لعدم رغبته في ذلك، وهو شيء اتفق عليه مع بروفيسور جابريل عند وصوله. تمكّن من معرفة الكثير من الأشياء في تجربة التدريب. ترك هيوغو بلده الأم ووصل إلى بالينفورد طلباً للتجاهل! كان بلده يبحث عن خيميائيين ليطوروا من البلد، لكن هيوغو أبى إلا أن يخرج من البلد. لقد عُرف هيوغو في بلدة جارتا كخيميائي مبتدئ. كانت العيون عليه طيلة الوقت وتطلّعات معلّميّه أثقلت حمله. لم يكن يريد المسؤولية، وهي صفة لا يجب أن توجد في الخيميائي. الرغبة في المعرفة ترتبط بمسؤولية الخيميائي عن الطريق الذي يريد أن يتّبعه.

في إحدى الليالي التي توارى فيها القمر خلف حجاب ترك هيوغو البلدة واتّجه ناحية بالينفورد. كانت أكاديمية بالينفورد تُعتبر منارة علميّة كونها إحدى أقدم الأكاديميات التي تُقدم مختلف العلوم، خاصّة وأنها خرّجت الكثير من العلماء.

تلاقى هيوغو بروفيسور جابريل وقصّ عليه حكايته، على شرط أن يبقى في البلدة دون أن يعرضه للشهرة أو أن يطلب مساعدته في الخيمياء. لم يكن هيوغو يريد أن يقف في صف أحد ضد أحد، فهو من جارتا في المقام الأول.

وافق بروفيسور جابريل على ذلك، شرط أن يبقيا على تواصل طيلة الوقت. تمكّن بروفيسور جابريل من معرفة ما حدث مع هيوغو ومدّه بكل ما يحتاج عن طريق الدسائين. إلى أن أتى يوم أرسل فيه بروفيسور جابريل ما يحتاجه هيوغو مع أحد الدسائين ولم يعد. انتظر بروفيسور

جابريل وصول الدساس لعدة أيام. مضى الوقت دون أي خبر. قرّر بعدها بروفيسور جابريل أن يذهب بنفسه ويستقصي ما حدث. وصل بروفيسور جابريل إلى المنزل ليجد جثث بضع طيور وحيوانات تملأ الأرض. تابع المسير إلى داخل المنزل ووجد جثة الدساس تسبح في بركة من دماء. اخذ بروفيسور جابريل حذره واستلّ خنجره الذي كان أطول من الخنجر العادي ولكن أقصر من السيف. تتبّع بروفيسور جابريل الطريق وهو يشعر بنوع من طاقة غريبة. فقد بروفيسور جابريل حرصه عندما رأى ما جرى.

كان هيوغو مستلق على الأرض وعيناه مغمضتين، تغطي الدماء وجهه. تقدم منه بروفيسور جابريل وتفحصه. كان هيوغو لا يزال على قيد الحياة. ساعده بروفيسور جابريل على النهوض. لم يكن هيوغو يذكر شيئاً مما حدث. فقط ذكريات مبعثرة عالقة في ذهنه عن صوت يجره أن ما فعله خطأ كبير وأن عليه أن يدفع الثمن. كان عليه أن يدفع مقابل ما أقدم عليه. لهذا سلبه ذلك الصوت عينيه.

إلى هنا يتوقف التطفّل. لم يعد هناك من داع للاستمرار، فقد يفتح التاريخ جروحاً أغلقها الزمن، فالتاريخ عدوّ الزمن ويمنعه من أن يُنسى، لهذا يُعتبر التاريخ بكل أشكاله سواء أكان حبراً وورقاً أم صوراً ومشاعر في الذاكرة، هي عدوّ الزمن الأول.

وقف جوهن عاجزاً، يعرف أنّ ما قاله هيوغو صحيح. لكن كان على هيوغو أن يودّعه بهذه الجملة.

"عليك أن تكون حريصاً. لا تندفع وراء مشاعرك. قد نكون أخطأنا ولكن هذه هي نتيجة أخطائنا. لا يمكنك أن تُصلح كل شيء. هذا هو القدر. والآن، عليك أن تتبّه من رغباتك. لا أعتقد أن بروفيسور جابريل أرسلك عندي لكي تتعلم فنون القتال وحدها. لقد رأى ما أنت مُقدم عليه، ولا بد أن هنالك شيئاً مشتركاً بيننا. لكن دعني أسدي إليك النصيحة التي لم يُخبرني أحد عنها من قبل. حذار من الطريق التي تسلكه، فهذه المسارات مخوفة بالدماء."

كانت هذه هي الجملة التي حملها جوهان على عاتقه في طريق عودته من منزل هيوغو. لم يتبته جوهان إلى أنهما وصلا إلى الأكاديمية إلا عندما نبّهه ميلتون. نظر جوهان إلى الأكاديمية وأخذ

يتساءل.

ما الذي يُحبُّه لي الزمن؟

مسارات

كانت جوزفين مخطئة. سارت جوزفين في درب تحفّ المخاطر والدماء وهي تعرف ذلك. دفعت الثمن مقابل ما حصلت عليه. لكن ما الذي حصلت عليه؟ ومع اختفاء ألبرت من الصورة لا يستطيع جوهان معرفة شيء.

عاد إلى الشيء الوحيد الذي تتوقّف عنده الأسئلة؛ المشاعر. عليه أن يساعدها بغضّ النظر عما سيجري. لذلك أكمل الطريق. وإلا لماذا أوصله أيلارد إليها؟ هنا أعاد التفكير مرة أخرى. كان جوهان يُدرك بلا شك أن أيلارد موجود، لكن أين هو؟ لا يوجد له أثر، وكأنه أتى من عالم آخر. هو نفسه أتى من عالم آخر إلى هذا العالم. لكن ما فعله أيلارد لم يكن مفهوماً لدى جوهان، لقد تركه أيلارد بين يدي جوزفين وهو يعرف حقّ المعرفة أين هي. إذن أراد أيلارد من جوهان القيام بشيء حيال ما يجري. يثق جوهان بأيلارد ثقة عمياء، مع معرفته أنّه والده. لم يكن عليه أن يتساءل في نيّة أيلارد معه. كان على ثقة من أن أيلارد قد وضعه في هذا العالم لأنّ هناك ما عليه أن يفعله فيه.

لكن لحظة. أيلارد وضعه في هذا العالم وغادر. لم يخطر على بال جوهان أين يمكن أن يوجد أيلارد، ولا متى سيعود. شيء ما في داخله كان واثقاً من أن أيلارد سيُظهر نفسه له في الوقت الملائم.

لم يتمكن جوهان من متابعة أفكاره عندما باغته صراخ فتاة. رفع عينيه ليجد جوانا مقبلة نحوه. أمسكت بوجهه بين يديها وأخذت تتفحصه. ذكّرت به بناردين للحظات. يبدو أن النساء تشابه في الكثير من النواحي، مما يجعل بينهم رابطة غريبة من السهل التعرف عليها. انتقلت منه إلى ميلتون وأخذت تتفحصه. لم تسألها عن سبب إصابتهما لكن نظرة اللوم وتأنيب الضمير كانت بادية على محيّاهما. تركتهما بعد أن رأت ما رأته من كدمات وغادرت المكان. تبادل جوهان وميلتون نظرات متسائلة وتابعا طريقيهما إلى حجرتيهما. لم يكن جوهان قادراً على الاعتراف لميلتون بما يعرفه عن جوانا. كان يعرف سبب هذه النظرة على وجه جوانا ومع ذلك قرّر ألا يُطلع ميلتون

على الأمر. من الأفضل أن يبقى الأمر سرّاً إلى أن يُجَلّ.

بعد أن ارتاح جوهان من سفره استيقظ على صوت طرق على الباب. كان الطارق بروفيسور جابريل. جلس بروفيسور جابريل قبالة وأخذ يتفحصه بنظره.

"لقد أصبحت قوياً."

قال جوهان بغلّ في صوته. "لم ترسلني هناك لأتدرب."

"لا تكرهني يا فتى فأنت لا تزال لا تعرف شيئاً."

"أرسلتني هناك لأعرف إذن؟"

"هذا ما أردته. كان احتكاكك بهيوغو أمراً لا بد منه بما أنك مقدم على ما في رأسك."

"وتظن أنه سيردعني؟"

"لا. بل سيمنحك معرفة لا يمكنك الحصول عليها إلا بالتجربة. وهذا ما لا نريده في هذه المرحلة."

"ماذا بعد؟"

كان جواب بروفيسور جابريل أن أخرج من جيبه القصاصه الورقية والخريطة التي كان جوهان يحملها طيلة الوقت. ناولهما لجوهان الذي أخذ يتأملهما.

"ستحتاجهما."

اتسعت عينا جوهان. "ماذا؟"

"ستنطلق في غضون ثلاثة أيام. كن مستعداً."

"مع من سأذهب؟"

"مع اثنين من الدسائسين."

لم يردّ جوهان. بقي ينظر إلى الخريطة والقصاصة كأنه ينتظر أن يحدث شيء ما.

"أريدك في مكتبي غداً. هناك شيء عليّ أن أعطيك إياه."

غادر بروفيسور جابرييل دون أن ينتظر جواباً من جوهان.

في اليوم التالي كان جوهان يستعد للمغادرة. أراد أن يجمع أكبر كمّ من المعلومات عن ألبرت، عملية التحويل الكيميائية وأي شيء قد يكون له صلة بمهمته القادمة. أمضى بعض الوقت في مقابلة كل من قد يعرف شيئاً عن ألبرت ومنهم جوليارد وليديا ومعلّموا الأكاديمية. ثم انتقل إلى مكتبة الأكاديمية ليجد ما يستطيع. وجد جوهان في انتظاره عشرة كتب كان بروفيسور جابرييل قد أوصى بتحضيرها لجوهان، مرفقة مع قائمة بأسماء الكتب، حيث عليه أن يتبعها في ترتيب قراءته للكتب العشر. أمضى يومه في القراءة والاطلاع. التهمّ أربعة من الكتب قبل أن ينتبه إلى أن الليل قد حلّ. خرج بعدها من المكتبة وعيناه محمّرتان من فرط التركيز ليجدها أمام المكتبة مرة أخرى. كانت تنتظره وفي عينيها نظرة تتراوح بين الصلابة واللوم والشعور بالذنب. اقترب منها يريد تحيتها فصفعته.

"حذّرتك من أن تقترب مني.. أخبرتك أن تبتعد عن كل ما يخصّني.. لماذا لم تستمع لكلامي؟"

امسك جوهان بكلتا ذراعيها. "اهدأي. الأمر ليس كما تظنين."

لم يكن لديها خيار سوى أن تهدأ، فكان جوهان قادراً على شلّ حركتها بسهولة. صدرت عنها أنّه ألم فترك ذراعيها.

"اهدأي. ليس للأمر علاقة بك."

"ماذا؟" كانت الدموع قد بدأت سيلانها على وجنتيها من فرط الانفعال.

"لا تقلقي. لسبب السبب فيما حصل لي. لقد بُعثت لرجل يدعى هيوغو لتدريبي وهذا ما حصل."

"إذن أنت؟"

"أجل. أنا لم اقترب من السبب الذي دفعك لفعل ما تفعلين. مع أي أود لو أحطم -"

لم يكمل عبارته. أخذته جوانا بين ذراعيها.

"اشكر ماندا على رعايتها!"

"ماندا في سائها لم ترعني بعد."

لم يبد عليها أنها سمعت ما قاله. اعتصرته قليلا قبل أن تتركه.

"عدي أنك لن تحاول الاقتراب من الفندق."

"لا أستطيع."

"هيا."

صمت جوهان لا يدري ما يقول. كان عليه أن يقولها حتى لو لم يعنها. لكنه لم يقلها.

"كلا."

"لماذا أنت عنيد؟"

"لأنك أعند مني. سأعرف ما أريده في الوقت الملائم." حاولت أن تقول شيئا لكنه غير

الموضوع. "سأغادر غداً."

هنا لم تمنع نفسها من السؤال. "إلى أين؟"

"سأعثر على جوزفين."

"هل لا تزال تريد أن تعثر عليها؟"

"أعرف أنك لا تزالين لا تصدقين ما يجري. لكن عندما أعود معها سأثبت لك كل شيء."

"ما تبحث عنه محرّم حتى في الخيمياء. ألا تعتقد أنه قد تمّ التضحية بك لغرض خبيث؟"

"لقد تمّت التضحية بجوزفين ولن أكون أسعد من أن أنضم إليها."

"لكن يمكنك أن تفكر أكثر، لا بد من-"

"لا يوجد حل آخر."

"لكن-"

"لا تكوني عبثاً عليّ."

كان بحاجة إلى السند. كانت تعرف معنى هذا الكلام. كانت تعاني هي أيضاً مثلما كان هو يعاني، فقرر أن يكونا سنداً لبعضهما. عانقته من جديد وعانقها بقوة.

"انتبه إلى نفسك. عُد إليّ."

لم يكن عليها أن تعبر عن احتياجها له، فكل ما فيها يعبر عنه، من قوة عناقها لصوتها الضعيف. لأول مرة يسمع جوهان صوتاً ينم عن ضعف واحتياج. أثارت فيه نبرتها عزيمة لا تنزعز وغضباً لا يهدأ. تجلّت أمام ناظريه صورة غير واضحة المعالم لرجل ألحقَ بجوانا أذاً لا يمكنها التعبير عنه، ناهيك عن احتماله. فما كان لديها سوى الصمت، لكن إلى متى؟

افترقا كل إلى حجرته. بقي جوهان يفكر فيما يجري إلى أن غلب جسده عقله وقرر النوم.

في اليوم التالي تم استدعاء جوهان إلى مكتب بروفيسور جابريل. عندما دخل وجد ميلتون عنده. أنبأه بروفيسور جابريل أن ميلتون سيغادر في مهمة أيضاً. تفاجأ جوهان من طبيعة المهمة التي سيوكها بروفيسور جابريل لميلتون، فميلتون طبيب أكثر من كونه خيميائياً ودسّاساً. أوضح ميلتون أنه سيتوجه إلى إحدى المدن ليتلقى التمرين على يد أحد الخيميائيين المشهورين بقدرتهم على ابتكار الأمصال والعلاج بطرق خيميائية فريدة. سيمضي هناك بضع أشهر ومن ثم يعود لبالينفورد لينقل ما تعلمه هناك.

ها قد ودّع جوهان صديقه غير عالم بما سيحصل لهما. كل منهما في طريقه نحو مجهول لا يعلم عنه الكثير. لكنها تُميّز أن يلتقيا.

عندما غادر ميلتون المكتب، توجه جوهان بالسؤال لبروفيسور جابريل.

"وماذا عن جوانا؟"

فهم بروفيسور جابريل ما يرمي إليه.

"لا تقلق. أنا هنا."

"لكنك لا تهتم لأمرها مثلنا."

"هذا ما تعتقده. لكنها تحت المراقبة منذ وقت طويل."

"ولم تعرفوا من الذي وراء كل هذا؟"

"ليس بعد. هناك فرضيات فقط. لكن لا تقلق. أعدك ألا يحصل لها أي مكروه. جوانا هي

إحدى الخيميائيات."

"لا تخدعني. أنت لم تختبرها لأنها تتقن الخيمياء. هناك سبب آخر."

"أجل. وما في بالك هو السبب. علينا أن نتمكن من الوصول إلى شيء ما. الأمر أخطر من

مجرد دساس له علاقة بجوانا."

"إذن؟"

"سأخبرك عندما تعود، إلى أن يحين الوقت، أعدك ألا يحصل لها أي مكروه."

كان هذا أفضل عرض قد يحصل عليه في الوقت الراهن، فاكتمنى بوعد بروفيسور جابريل.

ذلك المساء كان جوهان كعادته يسير على غير هدى، ظاناً منه أن قدميه ستحمله إلى حجرته بينما يترك عقله للتفكير بها سيجري. كلما ظلّ أن موعد رحيله اقترب، وجدا ما يدفعه للبقاء. لكنه كان مصمماً على الرحيل. تابعت الأفكار في رأسه إلى أن توقفت قدماها أمام النافورة نفسها.

تفاجأ بما يجري وقد أخذ على حين غرة. نظر حوله فلم يجدها. أعاد نظره إلى النافورة فوجدها تجلس على حافته. لعن نفسه ألف مرة عندما تذكر أنه لم يجد لها اسماً بعد. اقترب منها وبادر بالجلوس. كان ينظر للمكان من حوله مستعيداً في ذهنه أي كلمة من أي لغة يعرفها قد تقوده إلى

ابتكار اسم لها. لكن عقله توقّف عن التفكير بأمر من أعصابه التي توجّهت إلى القلق والتوتر.

مالت ناحيته وقالت بهدوء. "أخبر قلبك أنني لا ألتهم القلوب."

لم يفهم جملتها بادئ الأمر، لقد باغتته بتصرّيحها. نظر إليها وهي تنظر للقمر.

تابعت كلامها دون أن تنظر إليه. "لماذا؟"

"ماذا؟"

"لماذا لم تُخبره؟"

"من؟" كان جوهان في حيرة من أمره.

"قلبك. لم لا تُخبره أنني لا ألتهم القلوب؟"

"لا أعرف."

"هذا قلبك. عليك أن تعرف. ألا تتبادل الحديث معه؟"

"ليس دائماً."

"كاذب. أنت تتبادل الحديث معه. وإلا فأنتما على وفاق دائماً. وهذا ما لا يحصل."

لا مناص من الاعتراف. "يرفض أن يستمع لي."

"لماذا؟"

"لأنه يعرف الحقيقة."

"وأنت تنكرها؟"

"ممكن."

"ما الذي يجعل قلبك يضربك بهذه الشدة الآن؟"

"عرف أنني لم أختار اسماً لك بعد."

"لكنّه اختار."

"كيف عرفتِ؟"

"لن أخبرك كيف عرفت، لكن سأخبرك كيف لم تعرف أنت."

"كيف؟"

"أنت لم تتحدث معه. لذلك لم يخبرك عن اسمي."

"وما هو؟"

"أنا من عليه أن يسألك."

"كيف سأعرف؟"

"لنسأل قلبك إذن."

حوّل جوهان نظره عنها واتّجه نحو القمر. تذكّر أول مرة رآها فيه وأوّل شعورٍ شعر به عندما حطّت قدمه هنا. أعاد نظره ناحيتها ونطقها.

"سنثيا"

عند سماعها لاسمها توجّهت نظرتها إليه.

"هل هذا هو اسمي؟"

"هذا ما قاله قلبي."

"هذا جيد. أتعرف ما هو المهم في القلب؟"

"ما هو؟"

"أنّه دائماً صادق، بغضّ النظر عن نيتك الحقيقية، هو دائماً يقول الصدق. تهاينّ الحارة. لقد تحدثت مع قلبك."

"ما معنى كل هذا؟ هل سنثيا هو اسمك الحقيقي؟"

اصطنعت التدبّر لثوان معدودة.

"أتظن ذلك؟"

"هذا ما ظننت."

"جيد. هذا هو المطلوب. لديك موهبة في التسمية."

"وهل لإطلاق الأسماء موهبة؟"

"الموهبة هي في أن تعرفها. الأسماء موجودة منذ الأزل. وحده الأحمق من يظن أنه أتى بها."

"إذن؟"

"كل ما علينا هو أن نعرف هذه الأسماء ونكتشفها."

"لماذا؟"

"للأسماء قوة عجيبة. يقال إنها الأثر الوحيد الباقي من اللغة المحطّمة."

تفاجأ جوهان لما ذكرت سنثيا الكلمات المحطّمة. "هل تعرفينها؟"

"أجل. إنها اللغة الوحيدة التي تعبّر عما يجري معنا. يكفيننا معرفة الاسم في اللغة المحطّمة

لندرك كنهه. وعندما نُدرك كنهه نتمكن من التحكم فيه، مما يؤدي إلى تدميره أو تحريره."

"إذن هل هو صحيح ما رُوي عن حكاية الخلق واللغة المحطّمة؟"

"تقصد الكواسر؟"

"أجل."

"هذا ما عليك أن تعرفه. أنا لست مهتمّة."

"سنثيا."

"لا تُكمل."

تفاجأ بنبرتها. انتظرها أن تُكمل.

تابعت كلامها غير منتظرة جواباً منه.

"لديك رفيق جيد."

انعقد حاجباه وقد استحوز الأمر على تركيزه. تابعت هي بكل هدوء.

"إنه الألم."

"أتقصدين الأمل؟"

"لا، فالأمل صديق خائن، يغدر بك عندما تحتاجه، إنه ما يقودك إلى الهاوية. إنها الألم شيء آخر. فهو الصديق الذي نكره، لكنه الصديق الذي يحمينا من أن نودي بأنفسنا على التهلكة."

"لماذا نتألم إذن؟"

"هذا بسيط. أنت تتألم لأنك تعيش. الألم هو الحد الفاصل بين العبقرية والجنون."

"كيف؟"

"تحيل أنك لا تشعر بالألم. ما الذي سيحدث؟"

مرّت في ذهن جوهان العديد من الأفكار. لوهلة شعر بخطورة الأمر.

تابعت سنيا. "لو أنك لا تتألم، لن يمنعك أي شيء عن التجربة، لأنه وبساطة، لا يوجد ما يخيفك، لأنه لا يوجد ما يؤلمك. ستفقد الكثير من الاحاسيس مع فقدانك للألم. شعورك بالخوف مني على الألم، سواء أكاد داخلياً أم خارجياً. لو اختفى الألم، لن يوقفك شيء عن التجربة، مما يؤدي إلى وفاتك. الجميع يخافون الألم وهذا ما يناسب البشر. لقد كان الألم نعمة من شهرمان. كانت تعرف أن تطور البشر لا حدود له، وأنه يجب أن يوضع حاجز لهذا الانسان الطائش، فأضافت الألم إلى مكونات هذا الكائن. لهذا عليك أن تشكر ماندا على دمائها وشهرمان على

لعنتها."

"ماذا لو لم يَخَفِ الإنسان من الألم؟"

"تأكد وقتها أن هناك تغيراً جذرياً. أنا لست أتحدث هنا عن الألم العاديّ الذي تشعر به الآن من كدماتك. أتحدّث عن ألم لا حلّ له. هناك خوف باطنيّ من ذلك الألم. ألم مجهول السبب، ألم يُقَطَّع بأنياه دواخلك. هناك ألم جسديّ يمكنك الإمساك به. لكن هناك ألم الروح، لا يمكنك إمساكه أو علاجه. الألم أقسى من الموت، لذلك لم يُمنح الإنسان الخلود."

"لماذا؟"

"لكيلا يصل إلى مرحلة الألم الأبديّ."

"ماذا لو وصل إليها؟"

"سيكون الموت أهون عليه ألف مرة. لا يمكن لأحد أن يوقف هذا الألم، ولن تتوقف صرخات هذا الانسان. إما أن يتوقف الزمن أو يفنى هذا الانسان. لا حلّ آخر."

"إذن أوجد الأسياد الانسان ووضعوا له صفات تحدّ منه."

"أجل. هناك حدّ معين يتوقف عنده عناد البشر. الانسان خليط من كل شيء. أقيح ما في هذا الكون وأفضله يعيشان داخل هذا الكائن العجيب."

"ألهذا اختفت أيضاً الكلمات المحطّمة؟"

"الكلمات المحطّمة لم تختفي."

فاجأه هذا الكلام. "ماذا تقصدين؟"

"الكلمات المحطّمة هي كلمات محطّمة. إنها هنا في مكان ما في هذا العالم، لكنها محطّمة. لم يقل أحد من قبل أنها لم تعد موجودة."

"ألم تسلبها الاسياد؟"

"لا. لقد حطّموها فقط. لكن الكلمات لا تزال متناثرة. يمكنك العثور عليها إن أردت."

كان كلامها أخطر مما يبدو. "هل هناك من يعرف ذلك؟"

"لا يوجد داع لأن يعرف أحد بذلك. هم يحلمون بذلك منذ زمن. لا تزال ذكرى الكلمات المحطّمة تنتقل من جيل لآخر عبر الذاكرة من الكواسر إلى الانسان القادم، إنها هناك في اللاوعي، لذلك يحاول الانسان من تلقاء نفسه أن يبتكر لغة هي أقرب للكلمات المحطّمة، لكن هيهات."

"أعتقدين أن هناك من حصل عليها؟"

"لا، لكن هناك من اقترّب منها."

"من هو؟"

"لا أحد يعلم. لكنه متنقّل. فقد عقله منذ وقت طويل. ها هو يسير بين العوالم والأزمنة، ينشد الأشعار ويهيم كالمجنون عاشق القمر."

اكتمى جوهان بما سمعه. كان ما قالته عن هذا الرجل حقيقياً. لم يعد جوهان بحاجة إلى شيء يدفعه للتصديق. وجود سثيا بحدّ ذاته دليل على صدق كلامها.

"من يعرف أنك هنا؟"

ابتسمت سثيا. "أريد أن تُبقيني لنفسك؟"

تجنب النظر إلى عينيها وقد انعقد لسانه.

تابعت سثيا. "لا تقلق. لا أحد يراني غيرك. لا يعرف أحد بوجودي في هذا المكان. هكذا يمكنك أن تطمئنّ عليّ."

كانت تعرف دواخله. كانت تعرف ما يشعر به.

"أنا أعرف لماذا أنت هنا."

هنا صمت جوهان في ترقّب. "لماذا أنا هنا؟"

"أنت هنا لأنك أضعت الطريق. أنت لا تدري بأيّ أرض غايتك، لهذا أنت هنا."

"وما هذا المكان؟"

"هنا اللا مكان."

"ماذا تقصدين؟"

"هنا كل شيء ولا شيء. كل الحقائق اكذوبة وكل الأكاذيب حقائق."

"وماذا عليّ أن افعل؟"

"أخبرني بكذبك قبل صدقك. ودعني أرى مكرّك. ستجد ضالتك بعد أن تصدق نفسك."

"وهل سأكذبك؟"

"هذا أكبر من أن أعترف لك به."

أخبرها جوهان بما هو مقدم عليه. أخبرها عن جوزفين وجوليارد. أخبرها عن ألبرت وأثّه هو الوحيد الذي يعرف هذا السر. حتى أنه أخرج لها الخريطة والقصاصة التي يحملها معه أينما حلّ وارتحل.

أمسكت سنثيا بالخريطة، مع حرصها على تجنّب لمس قصاصة الورق. أوضحت له أن هذه الخريطة مصنوعة من شعر أنثويّ لا تعرف كنهه، لكن هذه الخريطة القديمة هي الوحيدة التي يمكنها أن تدلّه على مكان ضالته.

كان سؤال جوهان. "لماذا؟"

"ميروبيس."

"من؟"

"يمكنك أن تقرأ عن ميروبيس لاحقاً. لكنه هو من صنع هذه الخريطة. أو هذا ما يُقال. سُمّيت هذه الخريطة على اسمه. قد يكون هو من صنعها أو أنه هو أول من عثر عليها. لكن لا

أحد يعرف أصلها على وجه التحديد."

"وكيف استفيد منها؟"

"ضع قطرة من دماء الشخص الذي تريد أن تعثر عليه، أو دم أحد أقاربه، وستقوم ميرويس بالباقي."

هنا قامت سِثيا من مكانها. شاهدها وهي تمشي الهوينا. أغمض عيني ثم فتحتها. اختفت كالعادة.

عاد جوهان إلى حجرتة وخلد إلى النوم. عليه أن يُقنع بروفيسور جابرييل أن يمنحه دم ألبرت بطريقة أو بأخرى.

لم يكن أمام جوهان إلا التجربة. على جابرييل أن يرى بنفسه قدرة ميرويس. وهذا ما كان. في اليوم التالي كان جوهان في مكتب بروفيسور جابرييل. لقد أَلَف هذا المكتب أكثر من أي طالب آخر. هو الوحيد الذي دخل هذا المكتب منذ شهور. عادةً لا يستقبل بروفيسور جابرييل طلاباً في مكتبه، لكنّه يذهب لرؤيتهم بنفسه حيث يكونون.

"هناك تجربة يجب أن أؤديها معك." بدأ جوهان مخطّطه بهذه الطريقة. أراد أن يُقحم بروفيسور جابرييل في التجربة ليرى النتيجة بنفسه.

"ماذا تريد؟"

"ألديك دسّاس ماهر في الأكاديمية؟"

"طول الوقت." كانت نظرات بروفيسور جابرييل حيادية، لم يرد أن يمنح جوهان احساساً بالراحة أو حتى بالرضى بأنّه جذب اهتمام بروفيسور جابرييل. كانت نقطة ضعف الخيميائيين هي التجربة. لم يكن لأي خيميائي أن يرفض إجراء تجربة جديدة.

"إذن ادعوا أحدهم هنا. سنجرّب الخريطة معاً."

حضر أحد الدسّاسين برفقة جوليارد. كان جوليارد على علم بوجود خطب بجوهان، فهو

على وشك أن يغادر قريباً.

أعطى جوهان الخريطة لبروفيسور جابريل وطلب بأن يأخذ عينة من دم الدساس قبل أن يَخْتَبِى. أوضح جوهان أنهم سيعشرون عليه باستخدام هذه الخريطة. تعجب بروفيسور جابريل لكنه لم يُظهر ذلك. أمر الدساس بتنفيذ ما طُلب منه واختفى بعدها الدساس في دهاليز الأكاديمية. أمسك بروفيسور جابريل الخريطة وفتحها، ثم أمسك جوهان بعينة الدم وسكبها على الخريطة. اتسعت عينا بروفيسور جابريل وجوليارد، فما فعله جوهان بحد ذاته يُفسد الخريطة التي جلبها وبذلك يضيعون فرصة عظيمة في كشف أسرارها.

ثم حدث التغير. بدأ الخبر من على الخريطة بالتحرك بعد أن اندمجت عينة الدم معه. ثم تشكلت على صورة الأكاديمية وظهرت بقعة حمراء في مكان ما. أشار لها جوهان وأخبرهم أن هذه النقطة الحمراء هي الدساس. تبع بروفيسور جابريل وجوليارد الخريطة إلى أن عثروا على الدساس. عادوا إلى حجرتهم واستدعى بروفيسور جابريل بروفيسور موريسون. أخبره بروفيسور جابريل أن يُحضر جرعة دماء ألبرت حالاً. أحضرها بروفيسور موريسون وقد تاق لمعرفة ما سيحصل ليجد بروفيسور جابريل يعطيها لجوهان وقد دسها جوهان في ثيابه. توجه بروفيسور موريسون بنظرة استفسار لا تخلو من اتهام بعثية ما يحدث. طمأنه بروفيسور جابريل بابتسامة منه وتوجه إلى جوهان بالكلام.

"عليك أن تمضي من هنا غداً صباحاً. لن يسأل عنك أحد وستختفي حكايتك. لن يعيدها أحد غيرك إلى الحياة. سأهتم بالأمر بنفسي. عليك أن تعود قبل أن يعود ميلتون إلى هنا. هل هذا مفهوم؟"

"مفهوم، لكن ماذا لو أخذ مني الأمر وقتاً طويلاً؟"

"إن مات الدساسون المرافقون لك، منحتك ثلاثة أيام لترسل إليّ بجوابك عبر طائر الذي يحمل الرسائل إلى ناردين، وإن لم يصلني خبر منك، قتلتك بنفسي."

كان بروفيسور جابريل يذكر جوهان أن حياته معلّقة بين أصابعه، لكي يضمن ولائه ويحفظ خط الرجوع.

"كما تريد." لن يتراجع جوهان في اللحظة الأخيرة. ليس بعد كل ما جرى.

هكذا مضى جوهان يودّع من علّموه في الأكاديمية، وأمضى تلك الليلة مع جوليارد ليقوم باسترجاع ما يعرفه عن جوزفين وما تعنيه له. لم يبدُ على جوليارد أنه منزّع لعدم ذهابه مع جوهان. لا بد وأن لبروفيسور جابرييل يدًا في ذلك.

في اليوم التالي غادر جوهان مدينة بالينفورد. نظر تجاهها ورأى القُبب تقف شامخة لا تراعي أحداً. أخفت هذه القُبب تحتها ما قد يرفع حضارات أو يدمرها، وبقيت واقفة شامخة لا تعباً بمن يأتي ومن يرحل.

استدار جوهان وهو يعرف تمام المعرفة أنه مراقب من الدسّاسين. أخرج جوهان الخريطة ووضعها على الأرض أمامه. أخرج عينة دم ألبرت وسكب الدم على الخريطة. لم تتغير معالم الخريطة. بقيت خريطة تكشف أماكن لا يعرفها أحد. استمع جوهان لنبضات قلبه برهة من الزمن قبل أن تظهر نقطة دم حمراء في مكان ما، بعيد عن بالينفورد. ابتسم جوهان وقد عثر على المكان الذي استعصى على البشرية لعقود. لم يسأل نفسه كيف وصل ألبرت لذلك المكان وما يفعله فيه. كل ما كان في ذهنه هو أنّ عليه أن يجد ألبرت، فهو الخيط المؤدي لجوزفين وما يحدث معها. هكذا مضى جوهان نحو وجهة لا يعرف عنها شيئاً، وجهة ليست موجودة لا في الكتب ولا حتى الحكايات التي يعرفها البشر. توجّه جوهان إلى أحد أكثر ما يخيف البشر، نحو المجهول. لكنه كان المسار الوحيد أمامه، وعليه أن يمضي فيه إلى آخر الطريق.

من أجل جوزفين وحدها.

مسرح الدمى

كانت هذه وسيلته المفضلة للسيطرة. لا بد لكل أمر من أن يحتوي على الجانب المنير والمظلم. كانت حرفة ذلك النجار هي صناعة الدمى الخشبية، والتي يستخدمها الاستعراضيون في مسرح دمى خاص بهم ليحكوا حكايات تخص الأطفال، لكن الوجه المظلم من الحكاية لا يحتوي على حكايات خرافية. بل يحتوي على الخيمياء.

وهنا يأتي دوره هو.

كانت الدمى الخشبية أدواته المفضلة للسيطرة على طلاب الأكاديمية، فأصبح لديه العديد منها. كان على استعداد لاستخدامها لفترة طويلة من الزمن. وها قد حانت الفرصة التي كان ينتظرها. فتح بروفيسور جابريل غرفة سرية تقبع خلف مكتبه. كان باب الغرفة متوارياً خلف لوحة أهداها له أحد أصدقائه. كانت الغرفة مظلمة لولا الشموع المعلقة على جدران الغرفة. نظر إلى السقف ليرى الدمى الخشبية متدلية من رقابها وكأنهم مذنبون مشنوقون. التقط بروفيسور جابريل ثلاث دمى خشبية ووضعها فوق منضدة قرب الموقد. كانت النار مشتعلة وتنتظره. وسط الشموع والمدفئة جلس بروفيسور جابريل يعمل على دُمَاه الخشبية. كانت دمى مصنوعة بإتقان لا مثيل له. لكنها كانت حادة الخواف لا تصلح لتكون في مسرح دمى. لكنها كانت مناسبة لبدأ بروفيسور جابريل برسم بعض الرموز الخيميائية عليها، قبل أن يستعمل جرعة حبر ليرسم إحدى الرموز الخيميائية ويسكب الباقي على جسد الدمية.

فعل الشيء نفسه مع دمتين آخرين ثم رتب الدمى معاً في شكل مثلث تتبادل الدمى فيه النظرات. عندها جلس يتأمل الدمى لبعض الوقت قبل أن يتنهد. نهض من بعدها ليعود إلى مكتبه. عندما كان على وشك أن يوصد الباب خلفه، التفت إلى حيث كانت الدمى جالسة، ونظرة حسرة في عينيه، وكأنه يتمنى من داخله ألا يلجا إلى استخدام أحدها يوماً ما. ليس بعد.

الوراق ونحات القوارب

كتب جوهان رسالة إلى ناردين يودّعها فيه ويخبرها عن مسيرته وما ينويه. كانت ناردين تذوب كل يوم من نار الانتظار، تعيش كل يوم يمضي وكأنها تبتلع جمرة. حطّ الطائر على كتفها وألقى بالرسالة وغادر. هذه المرة لم يرد الطائر أن يحمل جوابها إلى جوهان. لم يكن هناك من رد على ما أرسله جوهان، فما أرسله كان قرابة نعي يرسله الابن لأمه.

غادر بعدها جوهان ناحية المرفأ. كان من المفترض أن يتوجّه إلى ويستفانيا. تقع ويستفانيا على جزيرة منفصلة عن العالم ببحر واسع، لهذا كان على جوهان أن يعبر على متن سفينة متّجهة إلى ويستفانيا. كانت السفينة ممتلئة بالتجار، لذا كان من السهل ملاحظة فتى يقطع كل هذه المسافة لوحده. عدا عن أن هذا الفتى ليس من التجار، وهذا يطرح أسئلة عن سبب سفره كل هذه المسافة.

حرص جوهان على ألاّ يختلط بالمسافرين، لكن الداسسين كانوا يراقبونه طيلة الوقت، مما سبب له احساساً بعدم الراحة. استغرقت الرحلة عبر البحر عشرة أيام، حصلت خلالها بعض المواقف السخيفة، ومنها المضحكة. لكن لم يتوقع جوهان أن كونه خيميائياً كان على وشك أن يُكشف للعامة، وهذا ليس في صالحه.

فقد تعرّف جوهان على رجل وزوجته وقد كان الرجل يعاني من مرض عضال فقرّر الذهاب إلى ويستفانيا ليتلقى علاجه الذي يحتوي على عشبة لا توجد إلا في تلك الأرض، بسبب مناخها وتوافر الحرارة المناسبة لنموها كونها تنمو بالقرب من البركان الواقع في شرق ويستفانيا. عرف جوهان الأعراض التي انتابت الرجل وقرّر أن يساعده. ضغط جوهان على بعض المناطق الحيوية القريبة من العمود الفقري، مما خفّف حدة الألم على الرجل وزاد من حيويته بالقدر الكافي ليصل إلى ويستفانيا.

شكر الرجل جوهان على ما قام به. انتشر الكلام بين التجار فأصبح جوهان مركز أنظارهم. لم يجد جوهان طريقة أخرى لتجنب الأمر إلا عندما اقترب منه أحد الداسسين وهمس له بأن

يتصنّع أنه أخطأ خلال العلاج ويترك الباقي للدساس. مثل جوهان أنه يعالج الرجل وقام الدساس بالصرّاخ والتلوّي. التّم عليهم الجمع ليفرقوا بين الدساس المتخفي كأحد التجار، وجوهان الذي أخذ على بغتة بتصرف الدساس. انطفأت بعدها جذوة الحماس وانصرفوا على ما هم فيه من مشاغل وتجارة، تاركين جوهان في حاله.

بعد مضيّ اليوم العاشر، وصلت السفينة ميناء ويستفانيا. نزل جوهان من على متن السفينة وتنفس الصعداء. اقترب منه الرجل الذي قام جوهان بمساعدته واعطاه ورقة مكتوب عليها اسمه وعنوانه، أخبره أنه إن احتاجه جوهان في أمر ما فعليه ألا يتردد في قصده. حيّاه جوهان وافترقا كلٌّ إلى وجهته.

أخرج جوهان الخريطة وتفحصها. أصبحت نقطة الدم أقرب، لكنها تبقى بعيدة عنه. يقع المكان في الناحية الشماليّة من ويستفانيا، والتي تظهر فقط على خريطة جوهان. كان يعرف أن هذه المنطقة تابعة لويستفانيا، لذلك كان لازماً عليه أن يمكث بعض الوقت ليُجري أبحاثه فيها يتعلّق بهذه المدينة. نزل في إحدى النُزل في البلدة واستقر في غرفته. كان الجوّ قد قارب على الشتاء في ويستفانيا، فجوّها مختلف عن بقية المدن والبلدان من حولها. قرابة منتصف الليل بدأت السماء تمطر بغزارة. نزل جوهان إلى بهو الاستقبال ليستفهم عن موعد توقف المطر، فعرف أن المطر سيستغرق سبعة أيام متواصلات. كانت هذه موجة عُرفت بالزمهرير، وهي برد قارس يتبعه هطول كميات غزيرة من المطر لسبعة أيام لباليها. امتعض جوهان لهذا الخبر وقد ألّفى نفسه في النُزل بلا حول ولا قوة أمام جبروت الطقس.

استغل جوهان هذه الفترة في التّفصّي عن أخبار ويستفانيا وحكاياتها من صاحب النُزل الذي كان الطباخ الذي يُعد الطعام والشراب للنزلاء. استمع إلى الكثير من الحكايات والأساطير التي تتعلق بويستفانيا، لكن أحداً لم يحدّثه عن الجزء الشمالي من ويستفانيا وكأنه غير موجود. كان جوهان على يقين من وجود ألبرت هناك، لكن ما الذي دفع ألبرت ليقطع كل هذه المسافة إن كان يبحث عن حلّ لما جرى مع جوزفين؟ هل هو أيضاً عرف أن جوزفين لم تمت أيضاً؟

بعد مضيّ الأيام السبعة غادر جوهان النُزل وقد انتبه أن نقوده قد شارفت على الانتهاء. لم

يكن يعرف أنه سيقضي كل هذا الوقت في النزل. قرر أن يحصل على عمل ينفعه خلال بقاءه في ويستفانيا إلى أن يحصل على المعلومات التي أَرادها عن الجزء الشمالي من البلد. بحث عن عمل لكنه لم يتمكن من العثور على العمل المناسب. إلى أن وصل إلى أحد المتاجر التي تباع الكتب. دخل جوهان إلى المتجر ووجد أنه خال من الزبائن. اقتربت منه امرأة عجوز كانت تعني بهذا المتجر وسألته إن كان يريد أن يشتري كتاباً ما. سألها إن كان هناك عمل من أجله فاعتذرت منه كونها غير قادرة على توظيف أحد في الوقت الحالي.

همّ جوهان بالخروج لكنها نادته مرة أخرى وأخبرته أن هناك طلباً على مترجمين للمكتبة الملكية. فرح جوهان لهذا الخبر وقرر المُضي في سبيله. استفهم من الناس أنه يمكنه الحصول على الوظيفة إن خضع لاختبار في إحدى القاعات في مدرسة ويستفانيا للترجمة. توجه جوهان إلى مدرسة الترجمة التي كانت عبارة عن ثلاثة مبانٍ أحادية الطابق متصلة مع بعضها عبر ممرات. قبل طلب جوهان بالخضوع لاختبار الترجمة بالاستهجان من الجميع. لكنهم سمحوا له بالتقدم للاختبار عندما نقدَهُم آخر ما تبقى معه من نقود.

خضع جوهان للاختبار الذي استمر حتى الجرس السادس. قام بترجمة الأوراق من الفارسية إلى الوستريّة. اشتركت الوستريّة في كثير من الأشياء مع اللغة الباليانية، مما جعل مهمة جوهان في تعلم هذه اللغة أسهل عندما كان في الأكاديمية. كان على الخيميائي أن يتعلم اللغات الحية، في حال احتاجها. وها قد وقعت الحاجة منها.

انتهى جوهان من الترجمة وسلّم الأوراق وانتظر النتيجة. لحسن حظه أنه تم قبوله وسط اندهاش الجميع من تمكّن فتى في مثل سنّه من عدة لغات. خضع جوهان بعدها لمقابلة على يد ثلاثة معلمين من المدرسة قبل أن يقرروا أنه مناسب لترجمة ونسخ الملاحم الشعرية، فنقلوه إلى مكتبة القصر الملكي لهذا الغرض. أصبح جوهان أحد ورّاقِي مكتبة القصر الملكي وحصل على غرفة لينام فيها.

بدأ جوهان عمله كورّاق ليجمع أكبر قدر من المعلومات. أراد أن يعرف المنطقة التي ولجها ألبرت منذ سنوات ولم يعد منها إلى الآن. تعرّف على زملائه في العمل من ورّاقين أفنوا حياتهم في

هذه المهنة. عرف أن منهم من تعلّم اللغة على يد معلمي أكاديمية بالينفورد.

قضى جوهان أربعة عشر يوماً في العمل كورّاق في المكتبة الملكية عرف خلالها العديد من الحكايات. لم يجد العديد عن الشمال لعدم معرفته للكلمات المفتاحية التي يجب أن يتبعها في بحثه. إلى أن استرعى انتباهه جملة قالها له أحد مشرفيه من الوراقين والذي تجاوز الستين من العمر.

"إياك وأن تتجاوز حدودك أو أن تتلاعب بالنصوص التي تترجمها، وإلا أرسلوك إلى الشمال."

كانت لهذه الجملة وقعها. ماذا يعني أن يرسلوه إلى الشمال؟ وما الذي يحدث لمن يتم إرساله على الشمال؟ سأل بعضاً من مشرفيه فوجد حكاية مختلفة في جعبة كل منهم، كلها تقود إلى نتيجة واحدة. أن من تخطو قدمه أرض الشمال لا يعود سليماً، هذا إن عاد في المقام الأول. فمنهم من قد يُصاب بالجنون ومنهم من يختفي خبره وحتى يختفي من ذاكرة الناس. إلى أن أتى أحد ملوك ويستفانيا وحرّم التوجه إلى الشمال بل حتى الحديث عنها. وتناقل بين الشعب تعبير إرسال أحد إلى الشمال في إشارة إلى التخلص منه كعقوبة على ذنب اقترفه. من هنا عرف جوهان ما كان يحتاج أن يبحث عنه.

أَمْضَى بقية الوقت الذي لا يعمل فيه وهو يقرأ في الكتب عن الشمال، عسى أن يجد كتاباً يكون أحدهم قد ألفه عن الشمال ولو كان كتاباً لا يحوي سوى الجنون.

لكن ذهب كل محاولاته أدراج الرياح. لم يتمكن من معرفة أي شيء عن الشمال. إلى أن اقترب منه أحد الدسّاسين في يوم ما وأخبره عن المعلومات التي جمعها. بعد أن تمّ تحريم الاقتراب من الشمال، أصبحت عمليات الاستكشاف تحصل بطريقة غير شرعية. علم الملك بذلك لكنه لم يلاحق من يقوم بتلك الزيارات الغير مشروعة، عالماً بأن لا أحد منهم سيعود على قيد الحياة. وهذا ما كان. لكن لقيامه بهذا سبب آخر. فقد كان يتمنى الملك أن ينجح أحد في استكشاف الشمال من أجل العثور على شيء قد يكون ذا نفع لويسفانيا.

لكن ما لفت نظر الدسّاس أن هناك رجلاً كان يُرسل الرجال إلى الشمال عن طريق قوارب يصنعها لهم. كانت هذه القوارب غريبة الشكل، وكأنها صُنعت لتأخذ الرجال هناك دون عودة. حيث يركب الرجل القارب ويلتفّ حول ويستفانيا إلى أن يتجه من شرقها

إلى شمالها ويولجها من طريق آخر، لأن الملك أمر ببناء سور يفصل مدينة ويستفانيا عن الجزء الشمالي لمنع الجميع من الوصول.

عندها قرّر جوهان أن يتوجّه إلى الرجل ويحاول إقناعه، وكانت الخطوة الأولى هي أن يعرف أين ذهب ذلك الرجل.

عمل جوهان بمساعدة الدسائين على تتبّع مكان وجود صانع القوارب ذلك. وجد بعد ذلك من بعض العبارات المتناقلة بين الناس أنه يُدعى إسحاق، نحات القوارب. تمكن الدسائون من العثور على مكان تواجد إسحاق، نحات القوارب وسعوا إلى الوصول إليه.

في يوم إجازته تقدّم جوهان بطلب مغادرة حجرته للقيام برحلة عبر ويستفانيا. خرج بعدها متبوعاً بالدسائين. انتقل إلى الجهة الجنوبية إلى حيث يُعتقد أن إسحاق يمضي وقته بعد أن توقف عن نحت القوارب. استغرب جوهان من لفظ نحات لأن من يصنع القوارب لا يكون نحاتاً في المقام الأول!

عثر جوهان مع الدسائين على بيت خشبي في منطقة مشجرة بعيدة عن مساكن الناس في ويستفانيا. اقترب من المنزل وطرق على الباب. ثوان وخرج له رجل طاعن في السن، أسمر البشرة شاب شعر رأسه، لكنه كان ممشوق القامة وكأنه في العشرين من العمر. حاول أحد الدسائين أن يمهّد للموضوع لكن جوهان واجهه بكل صراحة وأخبره عن نيته في زيارة الشمال. وقبل بالرفض بعد أن اعترف إسحاق باعتزاله مهنة نحت القوارب.

وقتها أخرج له جوهان الخريطة وأراه ما بثّ الأمل في إسحاق من جديد. تهلّلت أسارير إسحاق عندما رأى الخريطة وما تحتويها، فالخريطة تُظهر الجزء الشمالي من ويستفانيا كما لا تُظهره أي خريطة أخرى. إذن هناك من ذهب وعاد من ذلك المكان صحيح البدن والعقل. عرف إسحاق أن الفتى الواقف أمامه يُدرك حقيقة المكان المتوجّه إليه، فقرر إسحاق أن موعد نبوءته قد جاء. لم يكن جوهان على علم بنبوءة إسحاق لكنه سأله عن حقيقة نحته للقوارب. أخذه إسحاق للجهة الخلفية من البيت وعرض عليه قوالب الشجر التي يعمل عليها. إسحاق لا يقطع الشجر ثم يجمع الأخشاب معاً. إنه ينحت شكل القارب وهيئته كلها من قطعة خشب واحدة متماسكة.

تعجب جوهان مما قاله وعرف وقتها أن هناك سرّاً وراءه.

سأله جوهان بكل جدية. "أخبرني ما سرّك؟"

"لا أستطيع أن أخبرك."

"لماذا؟"

"لن تصدقني. سترى انني أدعي الجنون وأني عجوز خرف."

"لست كالبقية. فأنا لدي حصيلتي من الحكايات التي تؤدي إلى الجنون."

استغرب إسحاق من كلام جوهان فراوده الفضول. "من أنت؟"

ابتسم جوهان بسمه المنتصر. "أنا خيميائي."

اتسعت عينا إسحاق عن آخرهما لدى سماعه أنه يقف في حضرة خيميائي.

بادر جوهان. "لا أعتقد أنه عليّ أن أثبت لك أنني خيميائي."

رد عليه إسحاق. "وأنا لا أظن أنه عليّ أن أعطيك كلمتي بأن سرّك لن يخرج من بين شفّتي،

وأني سأخذه معي إلى القبر."

وهنا بدأ إسحاق بسرّ حكايته. كان إسحاق نفسه خيميائياً، لكن من النوع الذي يستخدم الخيمياء في صناعة أدوات يمكن للخيميائيين والعامّة استخدامها. حتى أتى اليوم الذي تمكن فيه إسحاق من معرفة كلمة معيّنة جعلت من ابتكاراته شيئاً لا يُصدّق. رفض إسحاق أن يُخبر جوهان بهذه الكلمة لأنها ستعصى على أذنيه ساعها. عندما بدأ إسحاق بترديد هذه الكلمة عند صناعته لشيء ما، كانت النتيجة مبهرّة وتحسّن أداء الرموز الخيميائية المرسومة عليها بشدة.

إلى أن جاء اليوم الذي بدأ فيه في نحت القوارب. كان يعرف أن ما يقوم به هو أقرب للسحر، وغرّته معرفته بما بين يديه إلى القيام بما قام به من نحت القوارب وهو يردد هذه الكلمة. وقتها ظهرت نتيجة رائعة. قوارب تسير وحدها آخذة المسافرين على متنها إلى وجهته، وكانت هذه الوجهة في الغالب هي شمال ويستفانيا. لكن اللعنة ظهرت بعد فترة. في كل مرة يرسل فيها أحداً في

قارب، لا يعود. يحمل القارب من على متنه إلى حتفهم. انتبه إسحاق إلى خطورة ما يقوم به وأنه يرسل رحلات إلى الموت بنفسه. لهذا توقف عن نحت القوارب بعد أن تأكد من أن اللعنة حقيقية.

سأله جوهان عندها. "هل الكلمة التي عرفتها وتمكنت منها هي من اللغة المحطمة؟"

اقترب منه العجوز منحنيًا ليقترّب وجهه من وجه جوهان.

همس له وقد كست عينيه لمحة جنون. "هذا ما أعتقد."

"وما تأثيرها على الخيمياء؟"

"سؤال ذكي. العمليات الخيميائية تخضع لقوانين الطاقة. أضف بضع كلمات من اللغة المحطمة إلى العملية الخيميائية وسترى السحر بعينه."

لم يتمكن جوهان من أن يُخفي دهشته لهذه الجملة، فقد ايقظت في داخله العديد من الأفكار والحوادث القديمة في سلسلة من الذكريات العبثية التي وجدت مفتاحها. ترتبت الأمور في ذهن جوهان.

أصرّ جوهان على أن يحصل على قارب منه. أخبره إسحاق أن قاربه سيتهي في الغد، وكل ما عليه هو أن يبيت في استضافته دون أن يراقب عمله أو أن يسأله أي شيء إلى أن يتهي.

أمضى جوهان ليلته يتدبر الجملة التي قالها إسحاق. ثم خلد إلى النوم بعد أن عاهد نفسه على الوصول إلى قلب الحكاية من أجل جوزفين.

في اليوم التالي استيقظ جوهان وجه الفجر. شعر بأن شيئاً ما قد حدث. أيقظ الدسائين الذين كانوا معه وخرجوا يبحثون عن إسحاق. وجدوا قارباً خشبياً كبيراً مرتكراً على ألواح خشبية لدفعه إلى الماء. نادوا على إسحاق فلم يلقوا أي رد. صعد جوهان على متن السفينة ووجد ضالته. وجد إسحاق مستلق في وضعية الجنين داخل القارب الكبير الحجم وقد انتهى كل شيء. حبس جوهان دموعه وهو يقترب من الرجل. تحسس بشرته وأدرك برودتها القارصة!

لم يكن إسحاق محقاً، ها هو يأخذ سرّي معه إلى القبر.

قام جوهان والدساسون بدفن جثة إسحاق في منزله وكتبوا رسالة إلى من قد يجد البيت أن
إسحاق وافته المنية مع وصف لمكان القبر. عادوا إلى القارب ودفعوه إلى الماء ثم صعدوا على متنه.
ما أن شعر القارب بوجودهم على متنه حتى بدأ بالتحرك.
ها قد بدأ القارب في التوجّه إلى الشمال مصطحباً جوهان إلى أرض بها ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر.

العجب العجاب

لا يوجد تفسير لكل ما يحدث في هذا العالم. ولن يبحث جوهان عن تفسير لما حدث معه. لقد حدث وانتهى الأمر.

مضى القارب وعلى متنه الدساسون وجوهان إلى وجهتهم، إلى الشمال. لم ير جوهان أو أي من الدساسين أي يابسة حولهم. كانوا على وشك الولوج في الضباب الذي راح ييمن على المكان. دخل القارب وسط الضباب وترك الثلاثة أنفسهم مُساقين لإرادة القارب، يقذفهم حيث يشاء. دامت رحلتهم نصف نهار بأكمله إلى أن انقشع الضباب ورأوا أن القارب يتوجّه ناحية شاطئ صغير. اقترب القارب من الصخور يروم التحطّم. انتبه جوهان والدساسون على ما يجري فتجهزوا للقفز على الصخور.

اصطدم القارب بالصخور تزامناً مع قفزهم عنه واعتلائهم الصخرة. تسلّقوا الصخرة ووقفوا يتأملون المشهد أمامهم. كانت الأرض أمامهم مرتفعة كالهضبة، أراض مشجرة من كل ناحية. يُمكنهم سماع صوت المياه المتدفقة كالشلالات من كل مكان. نظر جوهان إلى الخريطة التي بحوزته ورأى أنه اقترب أكثر من نقطة الدم، وأن نقطة الدم أخذت بالانتساع.

مضى جوهان والدساسون من خلفه يسبرون غور الأحراش المليئة بالأشجار والخالية من الحياة! لم يروا أي صنف من الحيوانات في طريقهم. انتبهوا إلى أن الأرض تعلوا وتعلوا مع اقترابهم من مركز الهضبة. تابعوا سيرهم بروية إلى أن وصلوا إلى بقعة خالية من الأشجار. وقتها انطلق سهم من بعيد يقصد قدم أحد الدساسين. تحببه الدساس بسرعة وقد دبّ الرعب في قلبه. نظروا حولهم فلم يعثروا على أحد. انطلق سهم آخر من مكان آخر. انتبه له جوهان فقفز تجاه الدساس الآخر يُبعده عن الطريق. اخرج الدساسان أسلحتهما. أحدهما يحمل سيفاً والآخر خنجران معقوفان. رمى الدساس أحد خناجره لجوهان عندما عرف أن جوهان لم يجلب أي سلاح. لام جوهان نفسه كونه شكّل عبثاً عليها.

ثم اتى سهم آخر. ابتعد جوهان عن السهم وقام أحد الدساسين بقطعه. كان اتجاه السهم آتياً

من مكان آخر. انطلقت تجاههم مجموعة من السهام وأخذوا يتجنبونها. اضطروا إلى الدخول بين الأشجار لكيلا يكونوا أهدافاً سهلة المئال. سمع جوهان ضحكة مجلجلة في الأرجاء. استفزته الضحكة الأثوية التي لا تحتوي قدراً من الرحمة. ازدادت الضحكات فتيقن جوهان مما كان يجري. لقد وقعوا فريسة للعبة قذرة لبعض الراميات. لقد أصبحوا أهدافاً في لعبة يتسلل بها. لمح جوهان الداساسين والتقت أعينهم. أشار لهم باتباعه فتبعوه. كانت مهمتها الأولى حمايته لكنهما ألفيا نفسيهما يتبعان أوامره. كان جوهان مدفوعاً بجديّة الحدث. شعر بكرهه يحركه تجاه من يريدون منعه عن مبتغاه. صمّم على عدم الموت. كان يعرف أنه سينجو، لكن بعد أن يدفع الثمن.

ركض جوهان ومن خلفه الداساسان تجاه ما عقد العزم عليه أنه مصدر السهام. ارتبكت الراميات إلى اقتراب الفريسة فازددن حماساً. استل جوهان خنجره وتوجّه إلى أول فتاة رآها. كانت فتاة ناصعة البياض ترتدي رداء أبيض اللون كشف عن كتفها وربلة ساقها، لتتمكن من الحركة فيه بسهولة. لاحظ أن الأسهم نفذت منها فقرّر أن يحصل عليها. مضى جوهان في طريقه ومن حوله الداساسان يزودان عنه الأسهم. لاحظت الفتاة اقتراب جوهان منها فأسّرت بالهرب. رآها وهي تقفز من شجرة لشجرة وهو يتبعها. كانت حركتها أكثر خفة من حركة البشر. أدرك ذلك لكن ما يجري منعه من تدبر تلك الحقيقة. كان الجميع مأخوذون بالدفاع عن أنفسهم مما تسبب في وقوعهم في حبال المكيدة التي أعدت لهم.

فجأة ظهر من حولهم ثلاثة فتيات من نفس نوع الفتاة الأولى، والتي لم تكن بشرية، بسيفوف حادة النصال تلمع تحت ضوء الشمس. وجّهت كل واحدة منهم ضربة بالسيف إلى الداساسين وجوهان.

تفادى جوهان الضربة وابتعد عن طريقها بأعجوبة. لكن قبل أن يوجّه لها أي ضربة، ابتعدت للخلف بقفزات رشيقة وعلى وجهها ابتسامة خبيثة وكأن ما يجري ما هو إلى لعبة مسلية لا أكثر.

توقف الجميع بعدها عندما سمع صوت صراخ أحد الداساسين. نظروا خلفهم فجدوا أحد الداساسين وقد قُطعت ساقه وسقط على الأرض، ومن فوقه إحدى الفتيات التي أمسكت بسيفها بكلتا يديها موجهة النصل نحو قلبه. نظر جوهان حوله بحثاً عن الداساس الآخر فوجد الآخر

ينزف وقد اخترق النصل صدره. تعالت ضحكات الفتيات على انتصارهم على الداسسين. عندما أعاد جوهان نظره إلى الفتاة التي تروم قتله، انتبه إلى نصلها الذي عكس أشعة الشمس على وجهها فبانت ضحكتها الشرسة والمتعشة للدماء. أراد جوهان صدها بخنجره، لكنه أدرك فشله في ذلك، فقرّر أن يوجّه لها إصابة مقابل إصابته.

استغرق الأمر ثلاث نبضات قلب ليجد جوهان نصل خنجره وقد اخترق رقبته. اختفت نظرة التعطش والجنون من عينيه واستبدلتها بنظرة واسعة تنم عن عدم التصديق. سقطت الفتاة ميتة أمامه التفت لينظر للفتيات وقد تسارع تنافسه ولم يعد قادراً على الحركة. لكن النظرة في عينيه دبّت الرعب في قلوبهن، هذا إن كان ما يحملنه بين اضلعهن قلوب. نطق جوهان بكلمة أيقظت إحساساً رهيباً في دواخلهن. هربت الفتيات من أمامه واختفين تاركين ما فعلنه للصمت المميت. لم ينتبه جوهان إلى الحالة التي كان فيها. كان وجهه يزداد شحوباً مع كل خطوة يخطوها والدم يسيل من ذراعه التي بُترت للتو! لم يشعر جوهان بانفصال ذراعه. مضى يسير بلا هدى إلى أن وصل إلى شجرة كبيرة الحجم. سقط مغشياً عليه بالقرب منها.

لسوء حظه أيقظت دماؤه، التي أخذت تندفق من ذراعه المبتورة، تلك الشجرة فبدأت فروعها بالتحرك. شعر جوهان بشيء قاس وبارد يخترق ذراعه وصولاً إلى قلبه. كان هذا أحد فروع الشجرة التي استلقى أسفل منها. بدأت الشجرة بامتصاص دماؤه قطرة بقطرة في تعطش شعره جوهان. علم أن كل شيء قد انتهى. لم يكن حتى لديه الطاقة الكافية ليحفّز دماغه على الشعور بالغضب تجاه انتهاء رحلته هنا. لم يتمكن من كشف ما حصل لجوزفين أو حتى الوصول إلى أيلارد. أعطاه إحساس البرودة الذي اكتسحه بالموت. اعتراه شعور بالسليم عزائه الوحيد أنه حاول القيام بشيء في هذا العالم الكبير. تصلّبت أجزاء جسده تدريجياً. فتح جوهان عينيه تدريجياً ليرى كل من أيلارد وجوزفين يقفون فوقه وينظرون إليه. تمّتى لو يلتقي بها ليعيش في كنفها ويتمتع برعايتها. كان يعرف أنه يتجه الآن لجوزفين، وكان يتوق لها. أغمض عينيه وسلّم نفسه للبرودة والصمت المعلنة عن نهاية مسيرته في هذه الحياة. تمكنت الشجرة من امتصاص دماؤه.

ثم سقط نصل على جذع الشجرة قسمها نصفين قبل أن يختفي. امتدت يد كبيرة الحجم لتمزق الفرع من داخل جوهان. رفعت يد أنثى من مكانه وحملتة إليها. كانت أنثى فاق جمالها كل أنثى بشرية. أكبر حجماً وقدرًا ومعرفةً وسحرًا. انسدل شعرها الأسود على رداثها القرمزي. ضمت جوهان إلى صدرها بحنان أمّ لم تلده لكنها لفظته من قلبها بكل حب. ألقت الأنثى نهدا لجوهان وأخذت ترضعه. لم تكن ترضعه الحليب. تدفق الدم من نهدا إلى جسده. بدأت تملؤه بدمائها رويداً رويداً، وأخذت تبث في الحياة. ذهب البرودة عن جسده بينما استعاد رونقه وذهب عنه الشحوب. عندما انتهت من إرضاعه الدماء ألقت نهدا الآخر وأرضعته من حليبها. بدأت يده المبتورة في النمو من جديد بادئةً بالعظم الذي أخذ في النمو، لتكسوه الألياف والأنسجة والأربطة، ومن ثم اللحم والجلد. بقيت ترضعه لكيلا يبقى أثر لأذية في جسده إلا وزال. حتى عناء ومشقة ما حصل معه اختفى وكأنه لم يكن. بعد أن انتهت من إرضاعه حملته بين يديها بكل هدوء كطفل رضيع وسارت به إلى حيث أتت. اتجهت به إلى الأعلى، حيث الشلالات العظام والحدائق الغناء. بقي جوهان في سبات لا يعلم متى سينفذ من برائه. لكنها كانت تهدده بكل عطف ورفق، وابتسامة رحيمة على شفيتها.

مضت أيام وجوهان لا يزال في سبات. لم يكن هذا السبات كأى سبات آخر، فقد كان عقله لا يزال يعمل. اختلطت الذكريات بعضها ببعض وأخذت تتصارع في ذهنه. جوزفين، ناردن، الدساسان، بروفيسور جابرييل، جوليارد، دماء، قتال، تجارب، أحلام اختلطت ببعضها. ممرات منيرة يعبرها ليجد نفسه في أماكن لم يرها من قبل. لطالما سمع صوت أيلارد يتأدى من بعيد. أخذ جوهان يتقلب ويعاني من أحلامه ورؤاه. في كل مرة يتقلب بشدة تقترب منه الأنثى وتحمله بين يديها كالرضيع وتهدهده إلى أن يزول عنه ما أصابه. كان جوهان في رحلة العودة إلى الواقع، لكن ما يجري في أحلامه أشد وطأة من الواقع وأشدّ جموحاً.

في تلك الأثناء، آلاف الأميال من ويستفانيا، في مدينة تُدعى بالينفورد، كان بروفيسور جابرييل واقفاً مع جوليارد يتحدثان عن الإجراءات التي اتخذها بروفيسور جابرييل في الحد من خطورة جوهان عندما شعر بروفيسور جابرييل بشيء خطير. ترنح بروفيسور جابرييل وكاد يسقط على الأرض لولا أن أسرع جوليارد بإسناده. اعتذر بروفيسور جابرييل من جوليارد

وطلب منه أن يساعده على الذهاب إلى مكتبه. أوصله جوليارد إلى مكتبه واطمأن عليه ثم غادر. بعد أن اطمأن بروفيسور جابريل ألا أحد بجوار مكتبه فتح الباب السري المؤدي إلى غرفة الدمى. اقترب من المضدة ورأى الدمى التي أعدها مسبقاً. اقترب من الدمى وتفحصها. إحدى الدمى مقطوعة الرأس والأخرى هناك قطع في صدرها. أدرك جوليارد ما حصل للذاساسين الذين ذهبوا مع جوهان، لكن الدمية الثالثة هي ما حيرته. لقد تغير لون الخشب الذي صُنعت منه الدمية إلى اللون الأسود ووهنت كثيراً، لم يعد بروفيسور جابريل واثقاً من أن الرابطة الخيميائية لا تزال تعمل. قرر وقتها بروفيسور جابريل أن يُمهّل جوهان ثلاثة أيام ليرسل إليه بخبر عما جرى.

بقي بروفيسور جابريل واقفاً ينظر للدمية التي أمامه وهو يفكر فيما قد يكون قد حصل لجوهان، وأين يمكن أن يكون. ثم أخرج بقية دماء جوهان وحاول أن يعرف موقعه من خلال إحدى التجارب الخيميائية التي اعتاد ممارستها وهو مغمض العينين.

لا نتيجة. لم يتمكن بروفيسور جابريل من تحديد مكان جوهان. نفس الذي حصل لألبرت وقتها.

مضت بضعة أيام منذ تلك الحادثة. فتح جوهان عينيه ببطء ثم اغلقها كطفل رضيع يفتح عينيه للمرة الأولى. لقد كانت ولادة جديدة. ما حصل معه لم يترك له مجالاً للشك. نظر جوهان حوله ووجد الأنثى تتقدمه بهدوء. لم توجه له أي حديث، جلست أمامه ونظرت إليه. تسارعت الذكريات في عقل جوهان وتراحت الصور. فتح فمه يريد الكلام فلم يتمكن من تشكيل كلمات. وجد نفسه يُخرج أصوات كالتي يُجرّجها الأطفال. أثار هذا الأمر رعبه. أمسك حنجرته بيده ليتأكد من أنها موجودة. ابتسمت الأنثى وأخذت يده بين يديها.

قالت برقة وابتسامة حنون. "لا تقلق. أنت لا تزال بحاجة لتتعلم الكلام."

لم يكن لدى جوهان أي خيار سوى الانصياع لها. أمسكت الأنثى بجوهان وضمته إليها لتخفف عنه من روعه. أبحّ حضنها فيه الكثير من المشاعر. تذكر جوزفين وناردين وجوانا وميلتون وجوليارد. افتقد ألبيلارد من جديد. انفجرت المشاعر وأخذ بالبكاء. هنا بدأت الحكاية.

كانت العلامة الأولى هي صرخته في الحياة. الحياة التي وُلد بها من جديد.
استمر جوهان في ضيافة الأنثى متفجرة الأنوثة والحنان أسبوعاً كاملاً. أخذت تعلمه فيه الكثير من الكلمات. لسبب لا يعرفه كان يُدرك أن اللغة التي تتحدث بها هذه الأنثى تختلف عن اللغة التي يعرفها، لكن ما هي؟ بعد مضيّ أسبوع على بقائه معها تمكّن جوهان من الكلام.

لاحظت الأنثى. "أرى أنك تعلمت النطق سريعاً."

سأل جوهان. "ما الذي حدث؟"

"لا تزال مَلَكاتك تستيقظ. أيقظت فيك ملكة الكلام."

سأل بكل عفوية. لم يكن يشعر أن الجسد جسده، فأراد أن يعرف المزيد. "وماذا أيضاً؟"
"بقيت مَلَكَة الجسد. بُنيَتك أصبحت جيدة ولكن شهوتك مقفل عليها بإحكام. لن أساعد في فتحها لك كما يُشاع في الحكايات عني."

كان يريد أن يعرف الكثير ويقول الكثير. "من أنت؟"

ضحكت الأنثى بدلال. "هذا مستحيل. لن تتمكن من نطق اسمي."

"لماذا ساعدتني إذن؟"

ارتفع حاجباها عندما أدركت أنه لا يزال يذكر ما حصل معه.

"لقد ساعدتك لعدة أسباب. أولها أنك تمكّنت من النجاة من الجنيات. والثاني هو أنك تمكنت من نطق كلمة بلغة أربعتهم. عدا عن أنك تحمل في جعبتك ما ليس مسموحاً لبشري أن يحمله. وأنت لا تنتمي لهذا الزمان. هذا من العجيب على أهل هذا الزمان ومن المثير للفضول بالنسبة لي."

"هل تعرفين قصتي؟"

"لا، لكنني أعرف الكثير عنك. أعرف عنك أنت لا عن قصتك، فقصتك سترويها لي بنفسك."
كانت نبرة صوتها حنوناً لدرجة اسقطت كل حرص منه. بدأ جوهان يسرد لها كل ما مرّ به.

كيف ربه أيلارد وكيف أفاق من نومه ليجد نفسه في بيت جوزفين، وصولاً إلى خروجه من بلدها وسقوطه في هذا العالم وما مرّ معه بين العجز وما لقيه في بالينفورد إلى أن وصل إلى هنا.

استقبلت الأنثى كل هذا بهدوء وهي تنظر لعينيها نظرة المتابعة الشغوفة بحكاية طفلها الصغير الذي لا يهتم أحد في الكون بوجوده إلا هي. بعد أن انتهى من سردها أخذته الأنثى من جديد بين ذراعيها وطبّبت عليه.

"لا تقلق. سأساعدك. أعرف أنك تحمل الخريطة. وقد دلتك تلك الخريطة على هذا المكان. في الوضع الطبيعي لا يُجدر بك أن تكون هنا، لكن بما أنك تحمل دماي وحليبي لن يتعرض لك أحد من هذه الأرض بعد الآن. ستبقى هنا بضعة أيام لأتأكد من أنك أصبحت قادراً على الحركة بسهولة ويُسر. لن تغادر قبل أن تحصل على معطف لا زلت احبكه لك. عندما أنتهي من حياكة المعطف، يمكنك وقتها الرحيل."

أغمض جوهان عينيها ولم تتركه الأنثى إلى أن خلد إلى النوم. ثم تركته على السرير ومضت إلى حجرتها. في الخارج كانت الحوريات يرقصن ويغنين حول نافورة مياه تنبت من الأرض وتصدع إلى السماء، دون أن يسقط الماء من جديد. بدأت الأنثى بانتزاع خصلة من شعرها وربطتها بعود خشبي وأخذت تكمل حياكة معطف من شعرها الأسود من أجل جوهان. ابتسمت الأنثى وقد تذكرت ما كان جوهان يرويه.

"يا لك من مجنون يا أيلارد!" كانت هذه الجملة هي كل ما نطقت به.

مضت ثلاثة أيام. لم يكن لدى بروفيسور جابرييل من خيار آخر. لقد أخفى بروفيسور جابرييل الموضوع عن جولارد، لكنه تمكن من التحكم فيه عن طريق عملية خيميائية معقدة، تجعل جولارد غير مدرك للحقائق والوقائع وربطها بالزمن. كانت تقوم بعملية الخيميائية على فكرة مسح ذكريات اليوم السابق ليعود ويعيشها للمرة الأولى. ففي كل يوم يقابل جولارد فيه بروفيسور جابرييل يخبره الأخير أن جوهان خرج لمهمة للتو وسيعود بعد ثلاثة أيام.

لكن بعد مضيّ ثلاثة أيام على وفاة الداساسين المرافقين لجوهان، كان على بروفيسور جابرييل أن يتحرك. اقترب من الدمية التي أنشأ بها رابطة خيميائية مع جوهان باستخدام دمه ووجدها

على حالها السابق. أمسك بالدمية ورمها في النار بعد أن تردد كثيراً في فعل هذا.

كان قتل جوهان أهون عليه من أن يلحق بألبرت. لقد أخطأ بروفيسور جابرييل عندما أرسل ألبرت دون أن يتأكد من قدرته على التحكم فيه. لم تُفدِه دماء ألبرت بشيء حتى في معرفة مكانه. واختفاء المرء من هذا العالم لا يعني بالضرورة فناؤه، وهذا ما كان يحلم به بروفيسور جابرييل. كان جوهان هو الفرصة الوحيدة المتاحة لبروفيسور جابرييل ليتأكد من صحة نظريته هذه. كان يعلم أن العمليات الكيميائية المحرّمة احتوت على شيء تجاوز علوم الخيمياء المتقدمة، وأن هناك أبواب لم تُفتح بعد لكنها تستلزم المجنون الذي يقوم بفتحها، وقد حصل بروفيسور جابرييل على هذا المجنون في جوهان. لكن الآن عليه أن يتخلص منه.

لكن ما جرى حيّره. لقد انطفأ اللهب ولم تتأثر الدمية! أمسك بروفيسور جابرييل الدمية بين يديه ووجدها باردة! لم تحترق أو تتأثر أو حتى ترتفع حرارتها. هذا يعني أن جوهان لا يزال على قيد الحياة. هذا يعني أيضاً أنه ازداد قوة!

تناول بروفيسور جابرييل الدمية ووضعها على المضدة وأسرع مغادراً ليُحرر جوليارد من عملياته الكيميائية ويُخبره بما يجري.

هناك بصيص أمل، ولا ضير من التمسك به.

نصف ميّت

بقي جوهان في ذلك المكان الذي لا يعرف كنهه. لم يكن مسموحاً له بأن يسأل عن ذلك المكان أو أين يقع. كل ما عليه هو أن يقضي فترة نقاهته فيه ويستعيد عافيته ليتابع مسيرته. كانت الأثني تحيك له معطفه من شعرها بكل حب وإتقان. لم يعرف جوهان إلى الآن من تكون هذه الأثني، لكنه كان على ثقة من أنها ليست بشرية. لاحظ جوهان أن جسده يزداد قوة ومتانة مع مضي الوقت. أصبح تلويحه بالسيف أسرع وقفزاته أكثر رشاقة.

كان يراقبها من فترة لأخرى وهي تحيك المعطف. كانت تعمل بهدوء وبسمة على ثغرها. خطر على بال جوهان بعد فترة من مراقبتها صورة بروفيسور جابرييل وهو يحمل قارورة من دمائه. ازدادت نبضات قلبه سرعة وهو يفكر فيما قد يكون قد حصل بعد وفاة الدساسين. انتهت له الأثني وتحذث دون أن ترفع عينها عن المعطف الذي تصنعه.

"لن يحصل لك شيء."

انتفض لدى سماعه عبارتها. لم يربط بعد فحوى العبارة بأفكاره.

"لا تخف شيئاً، لن يحصل لك أي مكروه وأنت هنا."

"لماذا؟"

"ألا تعرف؟ لقد قامت الشجرة بسحب دمائك منك. أي أن ما قد يقوم به بروفيسور

جابرييل لن يؤذيكَ."

"كيف تعرفين بروفيسور جابرييل؟"

"هذا ما ليس لك به علم. ولن أخبرك عنه."

قال وهو ينظر إلى المعطف الذي تحيكه. "إذن أنت تعرفين الكثير."

ابتسمت بلطف. "أعرف كل ما تريد أنت أن تعرفه."

"وماذا أريد أن أعرف؟"

"مكان ألبرت."

"أخبرتكَ بهذا."

"ليس هذا ما قصدته. أنا أعرف مكان ألبرت."

"اتسعت عيناه لما قالته. "إذن—"

"أجل، أنا أبقىك هنا لتتجهز للقاء ألبرت، فالمكان الذي ستذهب إليه يرفض البشر."

"وماذا عليّ أن أفعل؟"

"عندما أنتهي من المعطف سأخبرك."

"كما تشائين. لكني لا اصدق أنك تعرفين مكان ألبرت. قد تكونين تخادعينني لأبقى هنا

أطول فترة ممكنة."

"من الطبيعي أن تفكر بهذا الشكل، فقد زرع الشك في تشكيلكم منذ البداية."

"إذن؟"

"يبدو أن أبيларد لم يتمكن من نزع هذه الصفة منك."

ران صمت على المكان. تأمل جوهان بنظراته الأثني دون أن يقول شيئاً. حاول أن يُصدق أنها

نطقت اسمه. ذلك الاسم الذي بقي محبوساً في صدره كل هذه الأعوام وكأنه الوحيد القادر على

نطقه. لم يشعر جوهان من قبل أن أحداً قد يُصدق بوجود أبيларد.

"ما الذي قلتيه؟"

رفعت عينيها عن المعطف الذي كانت تحيكه ونظرت إليه. "قلت لك أن أبيларد لم يتمكن

من نزع هذه الخصلة فيك. أنت بشري ولا يمكن لأحد أن ينزع منك هذه الخصلة. هناك صفات

في بني البشر لا تختلف مهما تغير الزمان، والشك هي إحداها. لا يطمئن البشر لأحد حتى من

بني جنسهم."

"هل أبيلارد حي؟"

"أجل."

"أين هو؟"

"سيأتيك في الوقت المناسب."

لم ينتبه جوهان إلى الدموع التي أخذت تسيل من عينيه ببطء. "متى؟"

"هو وحده يعرف متى."

"هذا يعني أنه يراقبني؟"

"يُفضّل أن تعرف هذا منه عندما تلتقيان."

كان هناك الكثير والكثير الذي أراد أن يقوله لأبيلارد. أخبار كثيرة تحتاج لأن تُروى وأُسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات. لكن الأنثى غيرت الموضوع إلى مسيرة جوهان.

"عليك أن تتجهز لذهابك، يجب أن تراجع مهاراتك في القتال لتستعيد ما تعلمته من هيوغو."

"كيف؟"

"تخيل. أغلق عينيك وتخيل ما جرى معك. عليك أن تتخيل كل حركة بأدق تفاصيلها ومن

ثم تقوم بالتدرب بعد أن تنتهي من التخيل."

في الأيام التالية قام جوهان بتأمل طويل المدى تخيل فيه كل ما قام به. شعر وكأن عضلاته لا تزال تذكر تلك الحركات. بدا وكأن الكدمات عادت لتُغطي جسده من جديد مع الألم الذي بات صديقاً وقتها. بعد أن انتهى من التدريب، انتهت الأنثى من حياكة المعطف.

كان معطفاً أسود اللون من شعرها. وصل طول المعطف إلى ركبتيه. كان جوهان يرتدي قميصاً وبنطالاً قد حصل عليهما من الجنيات اللواتي كنّ يخدمن الأنثى. كان جوهان على علم بأن

الأُنثى التي حاكت له المعطف ليست من الجنيات. لكنه لم يجزؤ على طرح السؤال مرة أخرى. برز من المعطف قلنسوة تغطّي رأسه مع قطعة تمتدّ لتغطي فمه وأنفه. ارتدي جوهان المعطف ووقف أمام الأُنثى.

ذهبت الأُنثى لإحدى الغرف وأحضرت معها سيفاً بغمده. كان السيف من الفولاذ وغمده من النحاس.

ناولته السيف وأشارت إليه بأن يستخدمه في الخدمة التي ستطلبها منه، وأن عليه أن يغرس هذا السيف في الشجرة بعد أن ينتهي لأنه لن يخرج به وهو مغطى بالدماء. داخل حدود القصر الذي هو فيه تقبع الجنيات المطيعات والخدامات لهذا المكان وسيدته. لكن خارج هذا القصر، في الغابة تقبع الجنيات اللواتي خرجن عن طاعتها. لن تتمكن الأُنثى من القيام بأي شيء لأنها ممنوعة عن سفك الدماء، لكن جوهان لا يسري عليه هذا القانون! فهم مغزاها وكان مرجحاً به. فقد كان يريد التخلص ممن قتل رفاقه الدساسين، وها قد عثر على سبب إضافي مع رخصة محدّدة.

أخبرته الأُنثى أن يتبع خريطته ويسير في ممرّ معين في الغابة ليصل إلى الروضة المطلوبة. حذرته من أن ينزع المعطف وإلا سيُقطّع إرباً قبل أن يخطو خطوة واحدة. ودّعها جوهان وخرج من القصر. نظر خلفه فرأى القبة البيضاء العظيمة التي تحيط بالقصر. لكن ما لفت انتباهه هو أن القصر كان يطفو في السماء مع نزول درجات منه تربطه بالأرض. تابع جوهان مضيه في الغابة وقد شعر بوجود الجنيات.

أصبح عدد الجنيات أكثر هذه المرة. يبدو أنهم اجتمعن عليه ليتقمّن منه. بالطبع كان هذا أفضل له. لم يكن بحاجة للبحث عنهن. سيأتيه كلّهن في نفس الوقت ويجتمعن عليه، وبهذا تكون ضربته واحدة وقاضية.

هاجمته باستخدام الأسهم لكنه كان من السهل عليه تفاديها وقطعها. كانت حركته أسهل وأقوى من ذي قبل. ركض جوهان باتجاه الجنيات ورآهن يتقدمن نحوه بكل أنواع الأسلحة بأيديهن. استلّ نصله وأخذ يقطعهن. أخذت الرقاب تتطاير والدماء تتشّثر. كانت ملحمة بكل ما للكلمة من معنى. تحركت اغصان الشجر وبدأت في التهام الأطراف المقطعة والاجساد الميتة.

انتشر الرعب بين الجنيات عندما أدركن الخطأ الذي ارتكبنه في السعي خلف جوهان.

قتلهنّ كلهن. قامت بعضهن بالهرب فلاحقهن وغرس نصله في صدورهن واحدة تلو الأخرى، متجاهلاً توسّلات الرحمة التي أطلقنها. انتهى من مهمته مع سحبه لنصل سيفه من صدر آخر واحدة منهن. توجه بعدها إلى الشجرة التي امتصّت الدماء والأطراف وغرس السيف فيها. امتصّت الشجرة السيف وابتلعتة بالكامل بعد أن ابتعد جوهان. نظر جوهان للغمد وقرر أن يبقيه معه. كان يريد أن يحتفظ بذكرى من تلك الأنثى.

ابتعد جوهان في الاتجاه الذي دلّته عليه الأنثى عندما شعر بالأرض تهتز. التفت ليرى السلام التي تربط القبة بالأرض قد تدمرت وزاد ارتفاع القصر وقبته العظيمة. لكن ما رآه بعدها هو ما انخلع قلبه له. رأى من بعيد الأنثى تقف بجسدها الممشوق بين السماء والأرض. رآها وهي تستدير وتسير ببطء إلى أن اختفت بين السحب. شعر بها بقلبه وصدقها جوارحه. لم يكن ليخطر على قلبه ولو في أشد أحلامه جوحاً أن يرى ما رآه. عندها فقط عرف أن ما يبحث عنه حقيقي. ها هو الدليل الذي سيقود الجميع إلى الجنون إلا من شاهده.

مضى جوهان في طريقه غير عالم بأن جولبارد وبروفيسور جابرييل كانا يقفان أماما النار بعد أن ألقيتا الدمية الخشبية فيها. لم يتردد جولبارد في طلب الأمر من بروفيسور جابرييل. إن خرج جوهان عن طوعهما ولم يأت بخبر بعد مقتل الدساسين فلا يوجد من خيار سوى التخلّص منه. كان جولبارد على استعداد للتضحية بحلمه في سبيل الحفاظ على أمن وسلامة بالينفورد، خصوصاً بعد أن وصلهم خبر من مملكة ويستفانيا عما جرى مع الفتى الذي دخل إلى مملكتهم ليعمل وراقاً في القصر الملكي واختفى بعد وقت قليل من عمله. تمكّن خيميائيو ويستفانيا من التواصل معهم وإخطارهم بأنهم سيقتلون جوهان بعد أن يستجوبوه في حال عثروهم عليه لأنّه لا بدّ وأنه عرف ما لم يجب عليه أن يعرفه من طبيعة عمله في بلدهم. لقد تأكّدوا منذ البداية من عمله المتفاني كورّاق لكن ما قام به من اختفاء مفاجئ ادعى لأن يحصلوا عليه ويقتلوه كيلا يُسرّب أي من أسرار ويستفانيا إلى بالينفورد.

بدأت النار في التهام الدمية قبل أن تنطفئ. الدمية أبت أن تحترق، تبخرت الدماء التي

استُخدمت في الرابطة الخيمائية. تحوّلت النار إلى رماد تاركة الدمية على ما هي عليه. اقترب جوليارد من الرماد والتقط الدمية الخشبية. اختفت الرموز التي تربط بين جوهان والدمية. تبادل جوليارد نظرة مع بروفيسور جابريل بينما تدور في رأسه الكثير من الأسئلة.

نظر بروفيسور جابريل إلى جوليارد بعدم تصديق. توجه بروفيسور جابريل إلى مكتبه وجلس على كرسيه وأخذ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله. زنت ثلاث أجراس وهو لا يزال يفكر. بقي جوليارد في الأكاديمية يقصّ على ليديا ما جرى. في الفجر التالي استدعى بروفيسور جابريل كلّ من ليديا وجوليارد إلى مكتبه. أنبأه أن ليديا ستتابع أمر جوهانا وأن على جوليارد أن يغادر إلى ويستفانيا للتفاوض معهم على حلّ لقضية جوهان. كان عنده شعور أن جوهان سيظهر في ويستفانيا في أي وقت وأن عليهم أن يصلوا إلى اتفاق معهم قبل أن يظهر ويثير المتاعب. كانت العلاقات بين بالينفورد وويستفانيا جيدة طيلة الأعوام السابقة، لكن إن اكتشفوا أن من دخل أراضيهم هو خيميائي من أكاديمية بالينفورد، فلن يكون هناك مجال للنقاش بينهم.

كان على جوليارد وجوهان التفكير في حل ملائم اعتماداً على هوية جوهان عند دخوله على ويستفانيا وعمله كورّاق. بدأ الحلّ في ابتكار تاريخ لجوهان على أرض بالينفورد يُفيد بصلته بعائلة فلاميل والتي أخذت على عاتقها تولّي مسؤولية الورّاقين في المدينة، نسبة إلى جدهم نيكولاس فلاميل. بعد أن تجهّز جوليارد بكل ما يحتاجه وأخذه رسالة ملكية من ملك بالينفورد، انطلق في رحلته إلى ويستفانيا بصحبة فرد من عائلة فلاميل.

كان نيكولاس فلاميل أبرع من عُرف في اللغة والكتابة. لقد ابتكر أيضاً إحدى طرق الترميز في الخيمياء. بقي رَحّالاً من بلدة لأخرى وهو يعلم ويتعلم اللغات والكتابة. يُقال إن العديد من أنظمة الكتابة الحالية أُسّست بفضلله هو وعدّة باحثين من كل لغة. لذلك حضور مارك فلاميل مع جوليارد سيكون نقطة حاسمة في نقاشهم مع ملك ويستفانيا. كان عليها أن يُخفيا حقيقة أن جوهان هو خيميائي ويُظهرها بدل ذلك أنه في الأساس ورّاق من عائلة فلاميل. تكبّد بروفيسور جابريل عناء كبيراً في طلب هذه الخدمة من مارك فلاميل، إلى أن رضي هذا الأخير بالذهاب مع جوليارد لاستعادة جوهان.

كانت خطتها تقوم على أساس قلب الطاولة على ويستفانيا واتهامها بإخفاء جوهان ومطالبتها بإظهاره. لقد اختفى جوهان من أرض ويستفانيا بدون سبب وتريد عائلة فلاميل أن تعرف أين ذهب أحد أفراد عائلتها الذي أرسلته للتدرّب في أرض أجنبية.

بعد مضيّ بضعة أيام كان جوليارد ومارك على أرض ويستفانيا، مسبقاً برسالة أرسلها بروفيسور جابريل من القصر الملكي عن طريق الحمام الزاجل. قدّم جوليارد ومارك رسالتها إلى ملك ويستفانيا وشرّح له أن جوهان هو أحد أفراد عائلة فلاميل. لاحظ مارك أن عينا الملك قد اتقدت عندما سمع باسم فلاميل.

قال الملك الذي تجاوز من العمر سبعين عاماً. "أعرف هذه العائلة جيداً. لطالما تمنينا أن نحصل على عائلة مثل عائلة فلاميل في ويستفانيا."

أجابه مارك. "وقد حصلتم على فرد من هذه العائلة، فانظر جلالتك إلى ما فعلتم به."

أراد جوليارد أن يتحدث لكنّه فضّل أن يسمع رد الملك.

"لا ضير عليه طالما أنه في أرض ويستفانيا، لكن أؤكد لك أنني بدأت في التحريات والبحث عنه لإيجاده. فجوهان فلاميل اختفى من أرضنا بلا سبب وأؤكد لك أن ليس لأهل ويستفانيا علاقة بالأمر."

"أثق بكلامك ولا غبار عليه. لكنني مضطّر للبقاء هنا والبحث عن جوهان بنفسني أنا وزميلي جوليارد."

"لك ذلك. على أن تبقى هنا في القصر في إحدى حجراته. يجب أن تبقى عيون رجالي عليكما، فأنتم الآن أخطر على ويستفانيا من جوهان نفسه."

كان كلام الملك في محلّه. فجوليارد كان معروفاً كأحد فرسان بالينفورد، ناهيك عن احتمالية أن يكون خيميائياً، مما أربع خيميائي ويستفانيا. يمكن لجوليارد أن يضرّ بوستفانيا أو أن يسرق أي من علمها. لكن جوليارد لم يكن يهتم لكل هذا. دعهم يراقبون، مهمته كانت تتلخّص في انتظار جوهان واصطحابه إلى بالينفورد فور العثور عليه. أما مارك فلاميل فكان يريد أن يُنهي

هذه المهزلة ويعود لأرضه، بالينفورد، قبل أن يبدأ هذا الملك في عروضه له ليستميله إلى البقاء في ويستفانيا.

وهكذا بقي جولبارد ومارك في ويستفانيا، يخرجان في النهار لاستكشاف ويستفانيا، ويعودان في المساء إلى القصر ليناما في حجرتهما.

لكنهما كانا واثقان بشكل أو بآخر، بناء على ما سمعاه من زملاء جوهان، أنه قد رحل بنفسه من أرض ويستفانيا، قاصداً المكان الذي يعتقد أنه يحتوي ألبرت. ودّ جولبارد لويلحق بجوهان ليساعده في العثور على ألبرت، لكنه اكتفى بدوره لألى يثير الشبهات ويُفسد ما أتيا من أجله.

في الناحية التالية من أرض ويستفانيا، في المنطقة المحظورة على البشر، كان جوهان يتقدم بخطى ثابتة، مع أن قلبه لم يتوقف عن ترديد مقطوعة الخوف. أحس برهبة المكان الذي يتجه إليه مع أنه لم ير شيئاً. كان جوهان في طريقه إلى روضة هي أقرب للعجب منها للواقع. واصل جوهان مسيرته إلى أن وصل إلى بوابة كبيرة. كانت البوابة من خشب منقوش عليها رموز خيميائية وكتابات بلغة غير مفهومة. كانت البوابة مثبتة في وسط جدار امتد شرقاً وغرباً على امتداد البصر. قبل أن يقترب جوهان أكثر من البوابة اتاه صوت عميق.

"لقد حملتك قدماك إلى هنا إذن."

بقي جوهان ثابتاً في مكانه. كان يريد أن يتأكد من الصوت الذي أخذ يحدثه. أتاها الصوت مرة أخرى.

"لقد انتظرت هذا اللقاء زمناً لا يمكنك تخيله."

تأكد جوهان من أن الصوت قادم من خلف البوابة.

انشقت البوابة من المنتصف ما يكفي ليخرج من ثناياها صاحب الصوت. اقترب صاحب الصوت من جوهان ووقف أمامه. أثار منظره في جوهان الرهبة، كما أظهر منظر جوهان في نفس الرجل رهبة. كان الرجل أبيض الشعر كثيفه، أقصر طولاً من جوهان تقريباً، يبدو عليه أنه عاش ردهاً من الزمن إلى أن توقف عن إحصاء الأعوام التي مرّت عليه.

سأله العجوز. "من أنت؟"

"أدعى جوهان."

"بها أنك هنا، لا بد وأن نبوءتي تتحقق. لا بد وأنها أرسلتك إليّ بعد كل هذا العمر."

لم يفهم جوهان ما كان يقوله هذا العجوز.

"هل تعرف من أرسلني؟"

"أجل. لذلك أخبرك أن نبوءتي قد شارفت على الانتهاء مع قدومك لهذا المكان."

"من أنت؟"

"أنا حارس هذا المكان. لم أتخيل أن من سيأتي إلى هنا هو فتى في عمرك."

"ما هي نبوءتك؟"

"على رأس كل مئة عام سيأتيك. سيكون هو المطلوب وقتها. سيجيب عن اسئلتك ثلاثة

فقط، أحدهم يحمل دماء الأسياد، سيُخلّص من سيقه وينهي معاناتك."

"ما هي دماء الأسياد؟"

"الدماء التي تسري في جسدك. ألم تعرف بعد أن من أرضعتك هي إيلانا!"

صُعق جوهان للخبر. ارتجف جسده ذهولاً عندما استرجع كل ما مرّ به. مرّت صورتها وهي

تعبّر بين السحب عندما سمع اسمها. الدماء التي تجري في عروقه ما هي إلا دماء أرضعته إياها

إيلانا!

سأله جوهان. "وهل تعرف عن ماذا أبحث؟"

"لا. كل ما أعرفه أن ما تبحث عنه هو هنا، لكن ما غايتك منه، هو ما أنت تعرفه. والآن. عليّ

أن أسألك سؤالاً واحداً، ومن بعدها..." هنا أخرج الرجل سيفاً من ورائه. "إما أن تعيش وتدخل

إلى الأرض التي تقبع خلفي، وإما أقتلك هنا والآن. نبوءتي تخبرني أنك إما أن تُجيب سؤالِي وإما

أن اقتلك. لا خيار آخر."

عاد الإصرار والتحدّي يلمع في عيني جوهان.

"وما يؤكد لك أن إجابتي هي ما تبحث عنه؟"

قال الرجل وهو ينتقل إلى وضعية الهجوم، ممسكاً بسيفه بين يديه وموجهاً طرفه المدهب ناحية جوهان. "هذا ليس من شأنك. ارجو أن تحيب على سؤالي."

لم يتزحزح جوهان من مكانه. اشتدّت صلابة نظرتة وهو يوجهها نحو العجوز. "هاته."

"لماذا أتيت إلى هنا؟"

كان سؤالاً صعباً على الرغم من بساطته. سؤال يلخص فيه حياة جوهان إلى هذه النقطة. لكن كان على جوهان أن يُدلي بإجابته. أجبر السؤال جوهان على إعادة التفكير فيما جرى معه. أراد أن يعرف المغزى من وجوده في هذه الحياة، وفي هذا المكان بالتحديد، لأنه وإن لم يعرف الإجابة، لا نفع منه على قيد الحياة.

اتّخذ وضعية القتال وهو يتحدث. نطق بكل كلمة وهو يشعر بوزنها في الهواء من حوله. "أتيت إلى هنا لأعيد الأمور إلى نصابها الصحيح."

اتّسعت عينا العجوز وكأنهما ستخرجان من محجريهما. لم يكن يُصدق ما يحدث أمام عينييه. لم يكن يُصدق أنه رآه أخيراً. بدأت الدموع تسقط من عينييه وهو ينهار. أفلت سيفه وانهار على ركبتيه أمام جوهان وهو يبكي بحرقة.

"سيدي... أخيراً قد عثرت عليك... كنت أنتظر منذ زمن."

اقترب منه جوهان ووضع يده على كتف الرجل.

"لا تقلق. لقد أنجزت مهمتك. والآن عليك أن تُخبرني بما أريد معرفته."

قام العجوز من مكانه مستنداً على سيفه، مسع دموعه بكمّه وهو يقول.

"ما الذي تريد أن تعرفه يا سيدي؟"

"نظر جوهان إلى البوابة. "ما هذا المكان؟"

"هذا المكان هو أرض الماس. في الداخل كل شيء من الماس الخالص ذو اللون اللازوردي. إنها إحدى الأراضي المحرمة على البشر."

"لماذا؟"

"لأنها تحمل لعنة لا يمكن للبشر أن يتخلصوا منها بمحض إرادتهم. مكان سيتنازع عليه ملوك الأرض لو عرفوا بوجوده."

"وأنت هنا لتحمي هذا المكان؟"

"أنا هنا لأمنع هذا المكان من أن يُعرف. من تمكن من الوصول إلى هنا قتلته بنفسه، لهذا التراب الذي تحت قدميك أبيض اللون. فقد تحللت عظامهم هنا."

"يعني هذا أنك هنا منذ زمن بعيد."

"لم أعد أحصي السنين يا سيدي."

"ما اللعنة التي حلت بالمكان؟"

"سيدي، هذا المكان يحتوي على طاقة كبيرة بسبب وجود أحد الدراكاشتا بها."

كاد جوهان أن يقاطعه ويسأل عن الدراكاشتا بالداخل ولكن الرجل لم ينته من الشرح بعد.

"في هذا المكان تتحرّر الروح وبصير الإنسان في حالة ما بين الموت والحياة، بمعنى آخر يكون نصف ميت. تلتقي فيه الروح بعد أن تتحرّر بروح من يُحب، شريطة أن يكون هناك رابطة حبّ تجمع بينهما في الحياة."

"وما المرعب في هذا الأمر؟"

"المرعب يا سيدي أن هناك من قد يُصاب بالجنون جرّاء ما يجري. إن هو عاد وأدرك أن ما

يقوم به ما هو إلا حلم. أما النصف الآخر هو أن يموت الجسد فلا تعود الروح إلى صاحبها وبذلك تصبح الروح معلقة في ملكوت لا هي ميتة فترتاح ولا هي على قيد الحياة فتستقر.

"إذن علي أن أعر على الدراكاشتا وأنهى هذه المأساة؟"

"الأمر إليك يا سيدي. لكن هذا ما أرجوه منك."

"إذن أنت تحرس الدراكاشتا هنا؟"

"أجل."

"قلت إنني ثالث من أتى إلى هنا وأجاب عن سؤالك. من هم الاثنان الآخران وماذا حصل

لهما؟"

"أحدهما أتى وغادر ونظرة خبيثة في عينيه، والآخر لا يزال هناك في الداخل. أحدهم لم أعرف على جنسه والآخر نصف جنّي ونصف إنسان."

"هل اسمه ألبرت؟"

باغتته معرفه جوهان بما يقول. "أجل يا سيدي. اسمه ألبرت."

"إذن هو ما أبحث عنه. قدني إليه."

"سمعاً وطاعة يا سيدي."

تبع جوهان العجوز والذي قاده إلى ما خلف البوابة. انتشرت صخور من كل الأشكال والأنواع منها الواقعة ومنها المستلقية، كلها تلمع باللون اللازوردي. بقي جوهان يسير خلف العجوز إلى أن وصل إلى إحدى الصخرات التي كانت كبيرة الحجم ولونها منطفئ. اقترب منها العجوز ووقف أمامها. عندما اقترب جوهان رأى الرجل يشير إلى داخل الصخرة. بقي جوهان ينظر للصخرة التي أمامه دون أن يُبدي أي ردة فعل. هذا هو. الرجل الذي كان يبحث عنه. الرجل الذي نصفه من جنّي ونصفه من إنسان.

داخل الصخرة كان ألبرت راکعاً، جسده محبوس داخل الصخرة اللازوردية، وروحه هائمة

في ملكوت لا يعلمه أحد! دار جوهان حول الصخرة بضع دورات قبل أن يسأل العجوز.

"منذ متى وهو هنا؟"

"منذ سنوات يا سيدي."

"كيف يمكنني التواصل معه؟"

"كل ما عليك هو أن تلمسه، لكن بذلك ستنضم إليه."

"لا تقلق. سأعيده إلى ما كان عليه."

لم يكن يدري جوهان من أين أتته تلك الثقة، لكنه مضى فيها هو مقدم عليه. تراجع جوهان من مكانه وأمسك بغمدة السيف النحاسي. ركض تجاه الصخرة ووجه لها ضربة قوية بالطرف المدبب للغمدة. سمع العجوز ثلاث نبضات لقلبه قبل أن يسمع صوت الصخرة وهي آخذة بالتشقق شيئاً فشيئاً فاتحة الطريق لجوهان. دخل جوهان من بين الشق إلى أن وصل لألبرت. وضع جوهان يده على كتف ألبرت وأغلق عينيه. أعادت الصخرة إغلاق نفسها على كل من ألبرت وجوهان، وقد احتضنتهما من جديد. جلس العجوز ينتظر بكل هدوء إلى أن يعود له جوهان بخبر يقين.

سأعود إليك

كان القصر مظلماً. يغشى من ينظر للقصر إحساس بالفتامة، فيشعر بالإكواب الذي يؤدي إلى الخضوع. في تلك المدينة، أسفل القصر، يوجد قبو للتعذيب. تعذيب يسمعه جميع من في القصر، حتى الحاكم. كان الحاكم ذو القناع الذهبي يجلس على عرشه، يستمع بشغف لأصوات الصراخ والتعذيب وهو في حالة من الصمت اللذيذ. كان يستمتع بتوسلاتهم ومناجاتهم.

لقد كانت هذه مملكته التي صنعها وحبس فيها شعبها. كل شيء كان تحت إمرته. لكنه لم يكن يعرف أن مملكته الحصينة، نينورتا، قد تم اختراقها بالفعل، وأن مدينته الفاضلة تلك على وشك الانهيار.

أسفل منه في إحدى الزنازين، كانت تقبع جوزفين. كَبَلها الحرس إلى الجدار قبل أن يعذبوها. يتركونها عندما تفقد وعيها من شدة التعذيب. كانت تتدلى من يديها المكبلتين بالأصفاد. لم يكن طائرهما معها هذه المرة. كان الطائر يهيم في كل مكان، باحثاً عنّ نبيجها ممّا هي فيه.

وصلت سيطرة الحاكم على نينورتا درجة فرض فيها تعاليم وديناً يُدرّس لهم. شجّع هذا الكتاب على التحكّم بهم كونه يحتوي الرموز والطلاسم التي تعمل تلقائياً لمجرد لمس هذا الكتاب. حيث تختلط الطاقة التي يحتويها الكتاب مع الطاقة الروحية لمن يمسك به وتبدأ عملية الاستحواذ. هكذا تمكّن الملك من السيطرة على غالب الشعب، بعد أن سنّ قوانين تحوّم كل من لا يقتني نسخة منه توزّع بينهم مجاناً. كان الكتاب بمثابة تعويذة قام بها الملك بعد ما جرى من زعزعة إيمان السكّان بعدما قام به ابن جوزفين، والذي بقي مخفياً إلى هذا الوقت. وضع الملك جائزة مُرضية إلى من يُمسك بجوهان، لكن لا أحد كان قادراً على الإمساك به. كان الملك واعياً لخطورة وجود أحد مثل جوهان بين صفوف شعبه لكن ما أثار حيرته هو أن وجود هذا الفتى يعني أن هناك خللاً ما فيها قام به. يا ترى هل كان خللاً في العمليات الخيميائية التي ابتكرها أم في الرموز نفسها، أو أن قوتها تضعف مع الزمن، فهذا ما لم يعرفه بعد. كان يعرف أن السر في هذا الفتى، ابن جوزفين، فكان مصمماً على العثور عليه وإبادته من الوجود.

لم يكن الملك على دراية بأن أول من اخترق دفاعات تعويذته كان ألبرت وليس جوهان!

لم يكن ألبرت على علم بصلة جوزفين بهذا الفتى الذي وجده معها. كان يظن أنه أحد ضحايا هذا الذي يزعم أنه الملك عندما رآه للمرة الأولى. لكن عندما شاهد بعينه ما قام به جوهان في الفترة التي بقي فيها مع جوزفين، تيقّن أن الحل قد يكون بين يديه. كان جوهان ورقة رابحة ليلعب بها. خصوصاً وإن كان لديه قلب ينبض وسط نينورتا.

كان ألبرت يسير هائماً في المملكة يجمع المعلومات، والتي حصل على الكثير منها، عن نينورتا وكيفية انهيارها إلى أن يعود جوهان مرة أخرى وفي يده الحل. بقي ألبرت محبوساً هنا لا يغادر نينورتا لأجل جوزفين.

والآن شعر به. اغرورقت عيناً ألبرت بالدموع عندما شعر بجوهان. لم يُعر حقيقة أنه شعر به

أي تفكير. المهم أنه شعر بوجوده. ها قد أتى المخلص في نظره.

لنعد في الزمن إلى ما قبل شعور ألبرت بحضور جوهان. اقترب جوهان من جثة ألبرت وأمسك به. دارت الأرض بجوهان وأغلق عينيه وهو يشعر بخفة لا مثيل لها في جسده. فتح عينيه بعدها ليجد انه انفصل عن جسده وأخذ يخلق. نظر حوله فوجد خيطاً من نور متصل به. تبع جوهان الخيط وحلّق عالياً. انطلق في السماء وهو يتأمل الأرض من تحته. أخذه خيط النور إلى ما فوق بالينفورد. رأى جوهان ما لم يتوقع أن يراه. رأى جوهان الطلاسم والتعويذة التي تمكّن ذلك الرجل ذو القناع الذهبي من رسمها حول بالينفورد.

مضى جوهان إلى الأعلى ووجد لها وسط الغيوم، محجوبة عن الناس. وجد جوهان كرة من طاقة غريبة عليه تشبه في تكوينها القمر بلون فضّي. كان واثقاً من أن ما ينظر إليه ليس قمراً لكنه تسائل عن ماهية هذه الكتلة من الطاقة التي تطفو أمامه بكل هدوء وقد قارع حجمها حجم بالينفورد نفسها.

قبل أن يُمعن في التفكير قام الخيط بسحب جوهان إلى داخل ذلك القمر الفضّي. عمّ النور المكان ثم وجد جوهان نفسه يقف في حضرة العجوز. ميّز العجوز جوهان لكن جوهان لم يميّز العجوز للوهلة الأولى. نظر للعجوز وقد انعقد حاجباه، قبل أن تتسعا ويتذكر شكله. كان نفسه العجوز الذي أرسله خارج هذا العالم من قبل.

"مرحباً بك في نينورتا. ألم تعرفني؟ هذا أنا، ألبرت."

ألجمت المفاجأة لسان جوهان، فلم يتوقع أن يكون ألبرت هو نفسه الرجل العجوز!

تمالك جوهان أعصابه وسأله. "هل تشرح لي ما يحدث هنا؟"

تحدّث ألبرت بنبرة جادة. "لدي الكثير لأخبرك به، لذلك عليك أن تمضي معي. سأخبرك كل شيء في منزلي المتواضع."

"هل جوزفين هنا؟"

"لا تنطق اسمها أبداً. هناك ما عليّ أن أخبرك به قبل أن نقوم باتخاذ أي إجراء. هيا معي وأبق

قلنسوتك عليك، فلا يمكن لأحدهم أن يميّزك بهذا الشكل."

مضى جوهان معه إلى منزله. كانت تدور في رأسه الكثير من الأسئلة، عن القمر الفضي، الذي اتضح له بعدها أنها مملكة نينورتا، وعن جوزفين وعن ألبرت نفسه. اقسم لنفسه أنه لن يغادر إلا عندما يجد إجابات شافية لكل ما يريده.

كان جوهان على وشك أن يستمع لحكاية أقدم بكثير مما يمكن أن يخطر على بال بشر. كان على استعدادا لسماع الحكاية. عندما وصلا إلى المنزل، تأكد ألبرت من عدم وجود ملاحقين خلفهم، فلم يلاحظ أحد وجود جوهان بعد. يبدو أن معطف إيلانا كان له تأثير قوي. جلسا في المنزل وأخذ ألبرت نفساً عميقاً.

"أنت تراني هكذا لأنه العمر الذي مضى على روحي. أنا أستنزف مع كل يوم تقضيه روحي بعيدة عن جسدي."

"أفهم ذلك."

"لذلك عليك أن تعود بأسرع ما يمكنك."

"ليس قبل أن أنتهي مما يجب أن افعله."

هز ألبرت رأسه علامة الفهم. كان على ألبرت أن يخبر جوهان بكل ما يعرفه، تماماً كما علّمه إياه والده، فكانت البداية منذ القدم، منذ انتهاء الحرب السوداء.

انتهت الحرب بانتصار البشر، هذه هي الحكاية التي يعرفها البشر آنذاك عن الكواسر والدراكاشنا. لقد قام الكواسر بإخفاء الدراكاشنا وتم تعيين حرس على كل واحدة منهم بالقرب من الممالك التي تم انشاؤها لاحقاً. لكن الحكاية لم تتوقف هنا، فقد تم انتزاع اللغة التي استخدمها البشر كسلاح لهم من قبل الأسياد وتحطيمها، فأصبحت الكلمات المحطّمة عديمة النفع ويعجز اللسان عن قولها. عدا عن أن البشر هم الوحيدون القادرون على استخدام هذه الكلمات وتسخير قوتها، والتي كانت قوة سحرية عظيمة. لم يعرف البشر أن هناك أعراقاً أخرى نجت من الحرب السوداء، لكن كان هناك حاجز يمنع اختلاط هذه الأعراق عن بعضها البعض ومنها عن البشر.

فشكلت حضارات في هذا العالم لا تعرف بعضها أو تلتقي ببعضها. لم يسمع البشر بهذه الأعراق لاختفائها من عالمهم ولعدم قدرتهم على الاختلاط بها، لكن باقي الحضارات كانت تعرف عن بعضها البعض وإن لم تختلط بعد ذلك.

لكن المشكلة كانت في أن البشر فضوليون ويستخدمون عقولهم في استكشاف ما ليس لهم فيه. فكان الخطر من ناحيتهم هو قدرتهم على اكتشاف الدراكاشتا ومعرفة قوتها الحقيقية. فكان هناك أمر من الأسياد لاختيار مبعوثين معينين يتمتعون بصفات معينة ليثبوا معلومات معينة في عالم البشر. كانت هذه المعلومات عبارة عن تعاليم وحكايات وأساطير. رويداً رويداً كان البشر على وشك أن يكتشفوا السحر لولا أن تم إرسال بعض الرُّسل بهذا العلم الجديد عليهم والذي يحد من قدراتهم ومعرفتهم مهما تطورت: الخيمياء.

أصبحت الخيمياء هي العلم الذي يبهري بني البشر ويحدّهم عن معرفة أشياء أخرى كالسحر والقدرات السحرية التي يتمتع بها أفراد الأعراق الأخرى. لكن كما اتضح فيما بعد أن السيطرة التامة على الأعراق كلها ليس بالأمر الهين. فقد حاول بعض الأفراد التواصل مع عالم البشر، ونجحوا في ذلك بطريقة أو بأخرى، لكن لم ينتج عن هذا التفاعل أي خير. أصبحت مهمة المبعوثين هي السيطرة على الوضع في عالم البشر وتنشع من يحاول التواصل معهم واختراق هذه الحدود والقضاء عليه. نشأت من بعدها مجموعة من سبعة محاربين عُرفوا باسم الهلال الأسود، وكان هدفهم هو دخول عالم البشر واستخدامهم للوصول إلى الكلمات المحطمة وجمع الدراكاشتا ليستخدموها في أهدافهم الدينية. وهكذا استمر التناوب على عالم البشر لإغلاق الطريق على الهلال الأسود. لكن ما يجري بين البشر يثير فضول الأعراق الأخرى، وهنا تكمن مشكلة أخرى. فقد قرر بعض المبعوثين البقاء في عالم البشر، تاركين عرقهم خلفهم. وكان أول من قام بهذا هو يونان.

كان يونان هو أحد المبعوثين من عالم الجان إلى عالم البشر، كان لغويّاً فذاً فكانت مهمته تتمحور حول الأساطير واللغة والرموز. كانت مهمته تتلخص في البحث عن الكتب المحرمة التي تم دسّها في عالم البشر والتخلّص منها، لأنها تقود البشر إلى الجنون إن هم تعاملوا معها، مما ينتج عنه نتائج كارثية تسمح لمن دسّها بالاتصال بعالم البشر.

لكن يونان التقى من هو أعلم منه بأمور اللغة والأساطير وأكثر مقدرة لغوية عليه، لوليتا. امتلكت لوليتا قلبه وطوّقت أشرّ عته براحتها. أخلصت له بكل حب دون أن تعلم عنه شيئاً. أحبها يونان وبقي معها. استمر في حياته معها حتى بعد أن أنهى مهمته، مما أثار حفيظة بني جنسه. أرسل يونان معلومة مفادها أنه قد تم التخلص منه وأنه لم يعد على قيد الحياة. وهكذا أخفى وجوده عن عالمه ليبقى مرافقاً للوليتا البشرية. كل هذا قام به بعد أن عرف منها أنها تحمل مولوده الجديد.

وقد كان مولوده الجديد هذا هو ألبرت. عاش ألبرت في كنف يونان ولوليتا دون أن يدري بأي شيء عن حقيقته. توفيت لوليتا عندما بلغ ألبرت أربعين عاماً. حينها صارحه والده بحقيقة أنه أول مولود نصفه جني ونصفه الآخر بشري. ومن بعد ذلك علّمه كل شيء عن حرب الدماء السوداء والبشر وقدرتهم. ثم غادر يونان عالم البشر بعد أن اطمأن أن ابنه على استعداد لحمل مهمته على عاتقه، شريطة ألا يعود لعالم الجان من جديد، وهكذا بقي ألبرت في عالم البشر والتقى بجوزفين.

تابع ألبرت كلامه لجوهان. "وقتها بقيتُ رَحَلاً من بلدة لأخرى ومن مدينة لأخرى لأشعر العلوم التي وصّاني والدي بنشرها، مع الحرص على تدمير أي وثيقة ومحو آثار أي تجربة قد تؤدّي إلى وصول البشر إلى ما لا يجب عليهم أن يعرفوه. هذا إلى أن وقعتُ أنا نفسي في حبّ جوزفين. هنا كانت خطيئتي أنا. لم أتمكن من منعها من القيام بها قامت به. عرفت أن هناك خطباً ما منذ لحظة عثوري عليها. ميزت أن الكائن الذي نتج عن عملية التحويل ما هو إلا أحد كائنات عالم آخر. عرفت وقتها أن هناك مخططاً يتم التلاعب فيه على البشر، ومنها تأكدت من أنّ هناك من يحاول الوصول إلى البشر وتسخيرهم في الوصول إلى هدفه. وعرفت أيضاً أن جوزفين لم تمت بعد، وإنما هنالك تعويذة ما قد سحبتها إلى مكان آخر. جوزفين ميتة في عالم البشر ولكنها حية هنا. ولهذا كان عليّ أن أعثر عليها وأعيدها. لكن يبدو أن من يسمّي نفسه الحاكم، ذا القناع الذهبي، هو أشد مني قوة ومعرفة، لذلك لا أزال أحاول أن أجِد طريقة لفكّ تعويذته تلك وتحرير الجميع من هنا." لم يردّ جوهان بشيء. كان عليه أن يرتّب أفكاره ويربط بينها ليشكل نسيجاً يجمع بين ما قاله له ألبرت للتو، وما عرفه طيلة حياته، وما تعلمه من أبيلارد. هذ يعني أن الخيميائي ما هي إلا علوم

بشرية لتُعطى تفسيراً لما يحدث في العالم للبشر، زارعين في الفكر أن كلّ ما لا يجد له العلم تفسيراً ما هو إلا محض سراب لا يجب على الانسان أن يُتعب نفسه في البحث عنه. وهكذا لن يصل البشر إلى اكتشاف الكلمات المحطمة ولا إلى استعمالها من جديد، أو إلى الوصول الى الطاقة السحرية المتواجدة في باقي الأعراق التي تعيش منفصلة عن البشر.

لكن هناك من يحاول استغلال جهل وضعف البشر ليصل إلى ما يريد، ومن ثم تحقيق مآرب لا يمكن للبشر أن يتخيّلوها. البشر ليسوا العرق الوحيد على هذه الأرض، لكنه ليس العرق الغير مكتمل أيضاً. لا يوجد عرق مكتمل وكل من هذه الأعراق مفصول عن البقية لتجنب النزاعات التي حصلت بين الحن والبشر آنذاك. كان من الواضح لدى جوهان أن الجميع خاف من قوة البشر فسلبوهم إياها، لكن على البشر أن يعودوا إلى سابق عهدهم وإلا سيحدث ما لا يُحمد عقباه. عرف أن البشر فعلوا في أنفسهم ما لم يفعله أي عرق فيهم، لكن ذلك لم يكن ذريعة لأي من مطامع الأعراق الأخرى فيها عند البشر. لذلك ازداد عزيمة على الإطاحة بالهلال الأسود. عندما يتمكن بشريّ من التخلص من الخطر المحدق بهم، عندها سيرتدع أبناء الأعراق الأخرى من محاولة استغلال البشر. لكن ما عرفه الآن قد لا يكون مناسباً ليعرفه الخيميائيون عندما يعود. تذكر بروفيسور جابرييل وحكمته الواسعة، وعرف أن بروفيسور جابرييل هو خير من يعينه على اتخاذ القرار السليم.

سأل جوهان بعدها. "وأيّ جوزفين الآن؟"

"لقد اخذها الحرس الملكي لنينورتا. علينا أن نبحث عنها في السجن. لكني لا أستطيع اختراق صفوفه."

"دع الأمر لي. هل أنت متأكد من أنها هناك؟"

"أجل، تمكنت من معرفة أنها في زنزانة وحدها هناك."

"سأخرجها من هناك. كل ما عليك فعله هو أن تجد طريقة لإخراجها من هنا."

"الطريقة واضحة، عليك أن تُبطل أثر التعويذة التي قام بها."

"لكن كيف نفّذ التعويذة؟"

"لا أدري، لكن لدي معلومة قد تكون مفيدة لك."

"ما هي؟"

"كل من حُبست أرواحهم هنا هم من بالينفورد!"

سكت جوهان وأطرق يفكر بما قاله ألبرت. ثم لمعت أمام عينيه صورة لبالينفورد وهو يحلّق فوقها.

هتف جوهان بنبرة تشي عدم التصديق. "مستحيل، بحق دماء ماندا التي في عروقنا!"

استنفرت حواس ألبرت. "ماذا هناك؟"

"لقد عرفت كيف قام بها. هذه المملكة تقع فوق بالينفورد. لقد قام بوضع رموز خيميائية حول بالينفورد. لقد أحاط المملكة بتعويذة واحدة كبيرة ليجمع منها أرواح من ماتوا قبل أن تفارق الأرواح أجسادهم نهائياً!"

تفكّر ألبرت بهذه النتيجة.

"هذا صحيح. عليك أن تدمر نينورتا وتطلق سراح من فيها. هذه هي الطريقة الوحيدة لذلك."

"عليّ أن أخرج جوزفين من السجن أولاً. لن أتحمّل أن تتعذب روحها أكثر من ذلك."

نهض جوهان وخرج من منزل ألبرت بعد أن ودّعه. وعده بأن يجلب له جوزفين ليخفيها عن الأظفار ريثما يجد حلاً لهذه المعضلة. خرج جوهان باتجاه السجن تحت جُنجح الظلام. تمكن من التسلل إلى السجن بفضل عباة التي أخفت حضوره وسط الظلام عن شعور الحراس وأعينهم. كان يسمع صوت تعذيب السجناء في الطابق تحت الأرض. شحنته تلك الصرخات بالغضب العارم لمجرد تفكيره أن جوزفين قد تكون قد تعرضت لتعذيب مماثل. تمالك أعصابه واستمر في رحلة البحث عن جوزفين. بحث عنها بين زنازين التعذيب فلم يجدها. بحث في كامل السجن

فلم يجدها. كان خياره الوحيد هو الخروج من السجن والتوجّه إلى القصر.

تسلّل جوهان إلى القصر عن طريق تسلق جدرانها. تشبّث أصابعه بأطراف الطوب الأحمر الذي بُني به القصر. مع أن الأمر كله لا يتعدى عالم الأرواح والطاقات إلا أن كل شيء بدا حقيقياً لجوهان. بدت له جوزفين على قيد الحياة أكثر من أي شيء آخر.

ولج إلى القصر الكبير. كان القصر مصمماً ليحتوي على طُرُقات كثيرة ودهاليز تُربك من يدخلها. انقسم القصر قسمين، قسماً كباقى القصور فيه حجرات وقاعات، وقسم في الأسفل وهو عبارة عن زنازين يوضع فيها المساجين الذين يريد الملك أن يبقوا بقربه. توجّه جوهان إلى القسم العلوي وباغت إحدى الخدم. هدده بالقتل إن لم يُنصع له. حاول الخادم الصراخ لكن جوهان ضربه على رقبتة فأفقده الوعي.

ربط جوهان ذراعيه خلفه وربط قطعة قماش من ثياب الخادم على فمه. بعد أن استيقظ الخادم هدّده جوهان ثانية أنه إذا حاول المقاومة فسيفتله ويستحوذ على خادم غيره، فانصاع له الخادم وقاده بين طرقات المئاهة إلى حيث طلب منه. أخبره جوهان أن يقوده إلى زنزانه فيها امرأة تحمل ندبة على وجنتها ممتدة إلى ترقوتها. ميزها الخادم وقاده إليها. بعد أن وصل به إلى الزنزانه، ألقى جوهان نظرة داخلها ووجدتها فيها. كانت موثوقة بجنائزير وقيود إلى الحائط.

سدّد جوهان ضربة إلى الخادم فأفقده وعيه. ثم جرّه واختبأ في الظلمات بعيداً عن أعين الحرس المتجولين. عندما اقترب أحد الحرس المتجولين من مخبئ جوهان، باغته جوهان بضربة على رأسه أفقدته وعيه. نبش بين جيوبه فوجد سلسلة مفاتيح، جرّبها الواحدة تلو الأخرى وصبره يكاد ينفذ إلى أن فتح أحدها القفل. بقيت جوزفين على هيئتها دون أن تستيقظ. اقترب منها جوهان وفك قيودها باستعمال إحدى المفاتيح التي في السلسلة. سقطت جوزفين على الأرض من الإعياء فالتقطها جوهان. أمسك برأسها وناداه. حاولت جوزفين التحرك لكن التعذيب الذي تعرّضت له حال بينها وبين استعادة وعيها بالكامل. كانت جوزفين تفتح عينيها قليلاً وتعاود إغلاقها مرة بعد مرة. ترى جوهان ولا تصدق أنها تراه. سمعها تهلوس وتناجي نفسها. حاول جوهان إخبارها أنه لا يزال معها لكن بلا فائدة.

حملها جوهان على ظهره وغادر المكان. مشى جوهان في الطرقات وسار عكس الاتجاه الذي قاده فيه الخادم، إلى أن وصل إلى المخرج. مع كل خطوة يخطوها كان يشعر بدفع جسد جوزفين وهي على ظهره. ازداد حقدّه لما شعر ما بها من وهن. كيف يجرؤ ذلك الملك المدّعي على المساس بوالدته؟ مشى جوهان ببطء وبمنظرة ممّية في عينيه، تسلّق السور وقفز وجوزفين على ظهره. مضى سائراً تحت ضوء القمر مبتعداً عن القصر وقد أقسم ليحيله إلى رماد منشور لا يبقى أثراً له ولو بعد حين.

وصل جوهان إلى بيت ألبرت وجه الفجر. وضع جوزفين في عهده. بدأ ألبرت في الاعتناء بجوزفين إلى أن تستعيد وعيها. في آخر اليوم، قبل غروب الشمس بقليل، استعادت جوزفين وعيها. لم تصدق ما رآته أمام عينيها. كان ابنها أمامها. حاولت النهوض لكن الآلام هاجمتها بشدة. جرى جوهان ناحيتها واحتضنها.

قال جوهان بكل الدفء في صوته. "لقد عدت."

"لقد كبرت يا ولدي."

فاضت كل مشاعره التي حبسها. تذكر ما كان مضطراً لمقارعة ليثبت للجميع أنها لا تزال على قيد الحياة، وأنه باستطاعته إنقاذها. وها هو بين ذراعيها.

"هل أوصلت الأمانة؟"

لم يبد أن جوزفين تعلم ما يحصل معها. لا تعلم أنها في عالم صنعه من يدّعي الملك. لكنها لم تنسى أخيها.

"لا تقلقي. أخبرته. المهم أن تتحسني."

"لقد تحسنت عندما رأيتك."

كانت حقيقية. مشاعر حقيقية لا يمكن لأحد أن يستخرجها منه سوى جوزفين. ضمها وبكى. كانت هذه هي فرصته الوحيدة ليبكي، فانتهازها. بقيت جوزفين تمسح على رأسه وتربت على ظهره. تركته يخرج كل ما فيه. بعد أن هدأ كان عليها أن ترسله.

"هيا، لا يمكنك أن تبقى هنا."

كانت هذه هي الحقيقة. لا يمكن لجوهان أن يبقى بجوارها أكثر من ذلك. هذه المرة عليه أن يتعد عنها بملء إرادته إن أراد أن ينقذها مما هي فيه. أمسك بيديها بين يديه وأخبرها.

"أقسم لك بأني سأعود. أعدك بذلك."

ابتسمت له مطمئنة إياه. "أعرف ذلك. أنا أثق بك."

مسحت دموعه بيديها وأشارت له بالرحيل. "هيا. عليك أن تعود."

ضمّهما بقوة. كان حضنها هو آخر شيء أراد أن يشعر به قبل أن يفارقها. أحس بدفء حضنها يفارقه وقد استحال كل شيء إلى ضوء منير، قبل أن يفتح عينيه ويجد نفسه مستلق على الأرض وقد لفظته الصخرة بعيداً عن جسد ألبرت.

اقترب منه الحارس ونظر إليه. كان جوهان مستيقظاً لا يزال ينظر إلى السماء حيث كانت جوزفين. يفكر فيما جرى معه. امتلأت عيناه اصراً على المضي في طريقه وهو يرى أنه قاب قوسين أو أدنى من هدفه. ثم نهض من على الأرض وتوجّه للحارس بالسؤال.

"أين هي الدراكاشتا التي كنت تحرسها؟"

قاطع الأرواح

أحسّت ويتفانيا كلها في ذلك اليوم بما حدث. هزة أرضية وكأن جزء من ويستفانيا انخلع عنها. وقع من يمتطي حصانه عنه، وأسقطت النساء دلاء الماء من أيديهن. افترش الأرض كل من في المدينة، ونزلت دمعة من عين ملك ويستفانيا. شعر جوليارد ومارك فلاميل بما جرى. لم يطمئن قلب جوليارد بل تقافرت في رأسه العديد من الأسئلة، أولها كان: ما الذي فعلته يا جوهان؟

قبل حدوث هذه الهزة، في الناحية الأخرى، في المنطقة التي لا يجب على أحد من البشر أن يطأها، كان جوهان يتبع العجوز الذي كان في انتظاره لمدة من الزمن وها هو الآن يقوده للمكان الذي كان يجرسه طيلة حياته. دخل إلى بيت مهيب تعلوه قبة خشبية. فتح العجوز البوابة الخشبية التي انتشرت عليها الرموز الخيمائية عندما أكملها باستخدام قطعة من الفحم كان يحتفظ بها. انفتح الباب وولج مع جوهان إلى البيت. لم يكن في البيت الكثير من الأشياء. كان عبارة عن قاعة واحدة تعلوها القبة الخشبية المهيبة. في وسط القاعة كان هناك لوح خشبي وقف منتصباً ينتظر من يقرأ الكتابة المنقوشة عليه. تقدم جوهان من اللوح الخشبي ليرى أمامه صندوقاً مستطيلاً من الخشب وعليه ثلاثة أقفال من نحاس. بدأ جوهان يقرأ ما كُتب على اللوح.

"أنا هنا محبوس، فإن حررتني فعليك أن تتحمل إحدى الأمران، إما السيطرة عليّ وتصبح سيدي، وإما الخضوع لي لأصبح سيدك، وفي كلا الحالتين نهايتك ستكون مؤسفة."

لم يكمل جوهان القراءة. تبادل نظرات مع العجوز الذي أخذ يهزّ رأسه.

"أنا اعتذر، لا يمكنني أن أساعدك."

عاد جوهان إلى قراءة النص المنقوش على اللوحة.

"عليك أن توقّع عهداً معي. عليك أن تنادينني."

أهذا كل شيء؟ أعليّ أن أنادي السيف؟

كانت هذه أولى الاختبارات الحقيقية لجوهان في اللغة. كان يعرف أن اسم هذه الدراكاشتا سيكون باللغة القديمة، سيكون اسماً محطماً بلا شك. لكن على جوهان أن يعرف هذا الاسم ويناديه به وإلا ستتوقف مسيرته هنا.

وهنا بدأ التفكير. لا بد وأن إيلانا قد أرسلته إلى هذا المكان وهي تعرف أنه سيتمكن من معرفة الاسم، هذا إن لم يكن يعرفه منذ البداية.

لحظة. لقد علمتني إيلانا لغة ما. لا بد وأنها علمتني شيئاً عن اللغة المحطمة بطريقة مشفرة. لا بد وأنها دسّت بعضاً منها في المنظومة اللغوية التي علمتني إياها. لكن هذا يحتاج إلى الكثير من التفكير.

كان هذا صحيحاً، فكان على جوهان أن يجمع النقاط المهمة في حياته ويعرف علاقتها بالدراكاشتا الذي أمامه. كان عليه أن يعرف الاسم الحقيقي لكل مرحلة حلّ بها باستخدام اللغة التي علمتها إياه إيلانا، ومن ثم استخدام أول حرف من كل كلمة ليكتشف أولى الكلمات المحطمة. لا بد وأن النطق بهذا الاسم يحتاج إلى كم هائل من الطاقة، وعلى جسده أن يتحملها ليصبح سيد الدراكاشتا عندما ينطق باسمها لتفتح اقفال الصندوق.

أمسك جوهان بغمدة السيف بيديه الاثنتين وأخذ يفكر بجديّة بلغت شدتها لو قاطعه أحد وقتها لقطع رأسه. بقي يفكر لوقت لم يُدرِك كنهه.

نشأة... حلم... موت... وداع... رسالة... إيلانا... خيمياء... أرواح... تعويذة...

ن-ح-م-و-ر-ا-خ-ا-ت-

هذه هي الكلمة المحطمة التي عليه أن يعيد تجميعها وينطقها. جرب عدّة طرق في النطق مستعينا بطرق النطق وقواعدها في الباليينية وفي اللغة التي تعلّمها من إيلانا والتي سبّأها اللغة الإيليئية.

عثر عليها. أشرقت الكلمات في وجهه. نطقها جوهان بسرعة خوفاً من أن يفقدها. نطقها بصوت عالٍ هزّ معه أركان المكان.

"خاتم حوران."

اهتز المكان، دأباً الرعب في أوصال العجوز وجوهان ثم عاد إلى الهدوء. انتقلت أنظار العجوز وجوهان إلى الصندوق الخشبي الذي احتوى الدراكاشتا. وسط الصمت المميت الذي توغل في المكان، سُمع بوضوح صوت ثلاث دقات انفتح على إثرها أقفال ثلاثة. انفتح بعدها الصندوق كاشفاً عما فيه. اقترب جوهان من الصندوق ورأى ما فيه. احتوى الصندوق الخشبي على سيف. أمسك جوهان بمقبض السيف وأخرجه من الصندوق. رفعه عالياً وأخذ يتأمل. لم يصدق عينيه من هول الحقيقة الماثلة أمامه. لقد كان جوهان يمسك بين يديه أحد الدراكاشتا التي استخدمها أحد الكواسر المسمى بحوران.

كان جوهان يمسك بيده سيفاً نصله من خشب!!!

لم يُمهله السيف فرصة لتأمله أكثر من هذا. شعر جوهان بهزة رجّت كيانه. شعر بأن السيف يمتصّ جزءاً من روحه. تمالك جوهان نفسه وصارع تلك القوة التي أخذت تسحبه وتكاد تُفقدّه الوعي.

لا لن أسمح لك. ستخضع لي.

وهذا ما جرى. هذأ السيف الخشبي عندما وجد مقاومة مجدية من جوهان. قرر السيف أن جوهان هو سيده التالي وأن عليه الخضوع إليه. وهكذا حصل جوهان على أحد الدراكاشتا التي استخدمها الكواسر في حرب الدماء السوداء.

نظر جوهان ناحية العجوز وأوماً له يطمئنه أن كل شيء بخير. أطلق العجوز تنهيدة ارتياح وقد انتهت مهمته.

"لا يزال لديك مهمة واحدة."

رفع العجوز عينيه لجوهان. أخفض جوهان السيف ووضع في الغمد النحاسي. نظر إلى العجوز الذي كان ينتظر أوامره. ابتسم له جوهان وقال.

"أعدني إلى أرض ويستفانيا ثم ارحل إلى بني جنسك. لا بد وأنك تشاق إلى وطنك."

هز العجوز رأسه. "سمعاً وطاعة."

اصطحب العجوز جوهان إلى القارب الذي كان يمتلكه. أوصله إلى حدود ويستفانيا وودّعه هناك. عاد العجوز يبحر بقاربه ليعود إلى وطنه الأم، ليُمضي حياته فيها بكل هدوء وسلام بعد أن أنجز مهمته الأخيرة.

عرف جوهان أن عليه أن يختبئ إلى أن يَجْزَّ الليل. وقتها يمكنه التنقل في أرض ويستفانيا براحته. اختار نُزلاً قريباً منه ونزل فيه عندما تأكد من أن النُزل غير معروف لدى أهل ويستفانيا. سمع جوهان من حديث المقيمين في الفندق أخباراً عن الفتى الذي عمل كورّاق ومن ثم اختفى. لقد انتشرت شائعات عنه وعن اتهامه بالينفوردي وعن السبب الذي قد يكون قد دفعه للتسلّل إلى أرض ويستفانيا. انتبه إلى تفصيلة أن بالينفوردي أرسلت من يتفاوض مع ويستفانيا بشأنه. عرف وقتها أن بروفيسور جابريل قد أرسل أحداً ليساعده في الخروج من ويستفانيا دون أن يثير اضطراباً في العلاقة بين بالينفوردي ويستفانيا. اتخذ قراره وقتها ولم يكن هناك من داعٍ للانتظار. قبل بزوغ الفجر، ترك جوهان رسالة اعتذار وغادر النُزل.

بحث في المدينة عن أي خبر عن المبعوثين من بالينفوردي. عند الجرس الثالث كان يعرف أن جولبارد قد أتى مع وراق من عائلة فلاميل ليستعيده. توجه وقتها للقصر الملكي ليجد جولبارد ويُنهى الخلاف.

تسلّل جوهان إلى القصر بمساعدة عباءته التي تُخفي حضوره واللياقة التي اكتسبها من دماء إيلانا.

سمع جولبارد طرقات على باب حجرته ففتح الباب ليجد فتى يرتدي عباءة سوداء لم ير مثلاً من قبل. دفعه الفتى ودخل إلى الحجرة دون استئذان، أزال الفتى القلنسوة عن رأسه والتفت إلى جولبارد.

"هيا، أغلق الباب وإلا انكشف أمرنا."

تهللت أسارير جولبارد. أسرع بإغلاق الباب واقتبل على جوهان يحتضنه.

"لا تعرف كم أنا فرح برؤيتك."

"عليك أن تساعدني في العودة إلى بالينفورد، فقد عرفت كيف يمكنني أن أساعد جوزفين."

صُدم جوليارد. "يعني أنك عرفت أين هي؟"

"أجل. لا وقت لدينا للشرح، علينا أن نجد وسيلة مناسبة لإخراجنا من هنا."

"عليّ أن أخبر مارك بعودتك. عنده الحلّ الملائم."

ذهبا إلى حجرة مارك فلاميل. قدم جوهان نفسه إليه.

"أنا جوهان."

نظر له مارك فلاميل نظرة حادة. كان فلاميل يتفحص جوهان بدقة قبل أن تفترق شفتاه في تعبير بالذهول حبس أنفاسه. اقترب مارك فلاميل من جوهان، أمسك بمعطفه وتفحص الخامة بدقة.

"كيف حصلت عليه؟"

انعقد حاجبا جوليارد لهذا السؤال. "لماذا تسأل؟ إنه مجرد معطف."

هز مارك عينيه دون تصديق، وهو لا يزال ينظر لجوهان.

"لا، هذا ليس بمعطف عاديّ، فهذا المعطف مصنوع من شعر أنثى!"

انعقد حاجبا جوليارد. "شعر أنثى؟"

سأله جوهان. "كيف عرفت هذا؟"

"وكيف لي ألا أعرف، لا أستحق أن أكون سليل نيكولاس فلاميل إن لم أميز هذا المعطف الذي حيرَ المؤرخين. فقد ارتدى هذا المعطف ثلاث شخصيات عبر التاريخ، وقد تم وصف المعطف بنفس الطريقة في كل مرة، وكلّها تطابق هذا المعطف الذي ترتديه."

تدخل جوليارد. "لنترك هذا الأمر لوقت لاحق. ما الذي يمكننا أن نفعله الآن لإخراج

جوهان؟"

تحدث مارك فلاميل بهدوء وروية وكأنه قضى كل فترة بقائهم في ويستفانيا يفكر في هذا الحل.
"سنخبرهم أننا عثرنا عليه."

سأل جوليارد. "وماذا عن استجوابه؟"

"لن يكون هنالك استجواب."

تبادل جوهان وجوليارد نظرة حيرة.

تابع نيكولاس كلامه. "لن يكون هناك داع لاستجواب فتى ميت."

في ذلك اليوم انتشر نبأ العثور على جوهان مقتولاً في إحدى المكاتب في ويستفانيا. وجدوا جثته بين رفوف الكتب. هُرع به إلى القصر الملكي، حيث تأكدوا من وفاته ومن ثم سمحوا لمارك وجوليارد برؤيته. أظهرت تأثراً كبيراً لوفاة جوهان وتلقياً عرض الملك بأن يُبقوا الأمر سراً مقابل أن يرسل معهم هدية اعتذار ورسالة يعبر فيها ملك ويستفانيا عن أسفه وندمه لما جرى لجوهان.

حمل جوليارد جوهان على ظهره وغادر مع مارك أرض ويستفانيا. في السفينة، في حجرة جوليارد، كان مارك يجلس بجانب جوهان. أمسك مارك بضم جوهان وفتح، سقاه ترياقاً للسم الذي سقاه إياه قبل أن يعثروا عليه في ويستفانيا. كانت مهمة السم هي إيقاف نبض جوهان ليوم كامل مع إدخاله في حالة سبات عميق لآلئ يستهلك جسده إلا أقل قدر ممكن من الطاقة.

انتظروا بضع دقائق وإذ جوهان يتنفّض ويشهق بقوة. استيقظ جوهان وأخذ يعبّ الهواء عبّاً ليماً به رئتيه الذين شعر بأنهما أشدّ من رثنا حوت.

"ها قد نجونا." قال مارك.

ردّ عليه جوهان بنفس متقطع. "ها... قد... نجوت... أنت... لكن... أنا... ليس... بعد."

تابع جوهان شهيقه وزفيره المسموع بوضوح من شدّته. لأول مرة يشعر جوهان بأن الهواء له طعم!

نال جوهان قسطاً من الراحة قبل أن يتناول طعامه ويعود إلى النوم الهانئ. كان جوليارد يتشوّق ليسمع من جوهان ما جرى معه، لكن مارك أقنعه بأن يترك الفتى ليرتاح. غادرا الحجرة واتّجها إلى ظهر السفينة ليستنشقا بعض الهواء النقي.

بقي سيف جوهان بجانبه. لقد كان موضوعاً في غمد من نحاس لهذا لم ينتبه جوليارد ومارك إلى أنه سيف من خشب. وهذا أزال عن كاهل جوهان عبئاً روية ما حصل معه، لأنه وبكل بساطة، لن يُصدقه أحد.

عندما استيقظ من النوم روى جوهان على مسامع مارك وجوليارد أن هناك طريقة لاستعادة جوزفين وأنه هناك من قام بمكيدة اشتملت بالينفورد بأكملها كأساس لها. لم يتمكن من شرح فكرته بالكامل قبل أن يحصل على الدليل، لأنّ ما سيقوله ضربٌ من الجنون، فقد تذكر أن الخيميائيين لا يمكنهم بعد تقبّل فكرة السحر وما وصل إليه جوهان خلال مغامراته، ناهيك عن قصة التقائه بإيلانا!

وصل جوهان وجوليارد ومارك إلى بالينفورد بعد عناء لم يطل كثيراً. غادر جوهان إلى الأكاديمية بينما توجه مارك وجوليارد إلى القصر الملكي ليقمدا له رسالة ملك ويستفانيا وهديته التي يعتذر بها عما حصل لجوهان فلاميل، أحد وراقي بالينفورد. انتهت الحكاية بقبول الملك الرسالة والهدية ونسيان من يكون جوهان هذا، فهو لم يسمع به من قبل.

في أكاديمية بالينفورد، تقدم جوهان من بروفيصور جابرييل الذي كان يجلس كل ليلة أمام بوابة الأكاديمية الخلفية في انتظاره. كان المساء قد حل، ولم يمض وقت إلا واقترب جوهان من البوابة. وقف بروفيصور جابرييل ينظر للفتى مخفي الملامح الذي أتى من بعيد. رفع جوهان قلنسوته عن وجهه وأظهر نفسه لبروفيسور جابرييل. جرى إليه بروفيصور جابرييل لكن جوهان لم يُظهر أي حماس لمقابلته. استقبل حماس بروفيصور جابرييل بجملة واحدة.

"أريد أن أعود إلى حجرتي، فأنا متعب بشدة."

عرف أن الفتى الذي غادر الأكاديمية، ليس هو نفسه من عاد إليها. وهذا ما كان يريده بروفيصور جابرييل. التغير الذي طرأ على جوهان وهذه الهالة التي تحيط به كانت كافية ليتأكد

بروفيسور جابريل من أن هناك أموراً تفوق ما وصل إليه علم الخيمياء في هذا العالم، وسيكون أكثر من سعيد لمعرفته بها.

في تلك الأثناء لم يتوجّه جوهان إلى حجّرتة. لم يتوجّه إلى مكان محدّد بعد. ساقته قدماه داخل الأكاديمية وعقله لا يزال يفكر بما جرى. لا يمكن لأحد أن يصدقه حتى لو كان بروفيسور جابريل، الذي قادته خبرته وعبقريّته إلى الحدّ الفاصل بين الحكمة والجنون. لم يكن يعرف من سيصدقه. كان يريد أن يعرف ولو شيئاً ضئيلاً عمّا إن كان ما يجري معه حقيقة أم هو مجرد أوهام رآها في حلم سرمدّي لا حيلة له في الاستيقاظ منه. وفجأة انتبه إلى ضوء القمر الساطع من بعيد. رفع نظره عن قدميه ورآها هناك. لقد عرف منذ وقعت أنظاره عليها أنها هي ولا أحد غيرها.

هي الوحيدة التي يمكنها أن تصدقني.

لم يكن جوهان مخطئاً فلا بد وأن لدى سنثيا الكثير من الحكايات التي لا تُصدّق، لذا ها هو جوهان فرحٌ بعثوره على من تشبهه.

"سنثيا!"

التفتت إليه هذه المرّة. ابتسمت إليه. "أهذا أنت؟ لوهلة ظننت أنك مت."

"يبدو أن هذا ما اعتقده الجميع."

"لكنني كنت واثقة أنك ستبعث من رمادك." كانت سنثيا تقول أكثر الأشياء عبثية بأبسط الطرق.

قال جوهان بنبرة ساخرة. "على الأقل هناك من آمن بي."

ابتسمت سنثيا. "أها الأحمق. هناك الكثير من آمن بك. لولا إيمانهم بك لما وصلت إلى هنا. أنت فقط تُغمض عينيك عنهم."

"أو أنني لا أجد أحداً منهم أمامي سواك."

"هذا جيد. يمكنك أن تتحدث إلي."

لم ينطق جوهان بشيء.

تابعت سنثيا. "لا عليك، فأنت أتيت إلى هنا لتتحدث."

أخبرها جوهان بكل شيء. لم يبد على سنثيا أي شعور بالمفاجأة أو الدهول، لكنها كانت تتابع كلامه بكل اهتمام وكأنها تمتص كل كلمة يقولها من أنفاسه مباشرة. بعد أن انتهى من حديثه بدأت سنثيا بالحديث.

"هذا السيف الذي تحمله. إياك وأن تلمس نصله."

"لماذا؟"

"لأنه سيف يقطع الروح لا الجسد."

الجمت الصدمة لسانه. لهذا كان السيف الخشبي أحد الدراكاشتا.

"هذا صحيح. هذا السيف هو أحد الدراكاشتا التي استخدمها الكواسر في حرب الدماء السوداء. لكن الآن يمكنك أن تستخدمه أنت. لمسة واحدة من نصل هذا السيف كافية لقطع روحك إلى نصفين، وما نفع الجسد إن ماتت الروح؟!"

"يعني أن كل ما عليّ فعله هو أن ألمس العدو بنصل السيف لينتهي كل شيء."

"أجل. سيموت كل من يلمسه نصل هذا لسيف. قتلٌ رحيم دون سفكٍ للدماء. لا يوجد حتى شعور بالألم."

أضافت هذه المعلومة إحساساً آخر لجوهان. عرف جوهان أهمية السلاح الذي يمسك به، وخطورته في آن واحد.

"بالنسبة لذلك الكائن الذي قام بإعداد التعويذة لتُغلف كامل بالينفورود، هناك طريقة يمكنك من خلالها معرفة كل شيء."

"كيف؟"

"لقد قام ذلك الرجل برسم الرموز حول بالينفوردا باستخدام الدماء. شعرت بكل شيء وقتها. لم يتمكن من احتجازه داخل تعويذته لأنني كنت صافية ومختلفة عن غيري. كنت موجودة أيضاً من قبل أن يقوم هو بتعويذته."
 "إذن؟"

"هناك أرواح تصرخ. أرواح عارية تصرخ داخل تلك الرموز. يمكنك أن تتحدث معها وهي ستتكلّم بإخبارك بكل شيء. إنها تبحث عنّ محرّرها، وها أنت هنا. لن يوفروا أي طاقة للإخبارك."

لم يكن جوهان يصدق أذنيه. كل ما أراد أن يعرفه كان في جعبة سنثيا. كان جوهان مأخوذاً بما يسمعه فلم يخطر لذهنه من أين حصلت سنثيا على هذه المعلومات، وكيف حصلت عليها. بل لم يُرد لذهنه أن يتساءل عن ماهيّة سنثيا في المقام الأول.

ودّعته سنثيا بكل رفق ومحبة، وخرج جوهان من عندها يركض إلى حجرته. كان يعرف أن عليه أن يستريح قدر الإمكان، فما هو مقبل عليه يحتاج إلى طاقة كبيرة، وصلابة ذهنية.

ذاكرة الدم

لم يتمكن بروفيسور جابرييل من أن يمنح جوهان متعة الراحة لوقت أطول من ذلك. ما أن دق الجرس الخامس، حتى اقترب بروفيسور جابرييل من حجرة جوهان ومعه جوليارد وليديا. طرق الباب ففتح لهم جوهان. لحسن حظه كان جوهان مستيقظاً.

جلس ثلاثتهم مقابل جوهان وأخذ بروفيسور جابرييل يسأله.

"هل ستخبرنا ما جرى معك؟"

"لا أعتقد ذلك." قالها جوهان ببساطة انعقد معها لسان جوليارد وليديا. لكن بروفيسور جابرييل تابع بكل برودة أعصابه.

"لكنك مدين لي بشرح."

"أعرف. سأشرح لك ما قد تفهمه، لكن ما يخصني فلن أخبرك عنه."

تفاجأ البروفيسور بالإجابة، فلم تكن ما يبحث عنه. "ماذا تقصد؟"

"أقصد أنه عليك أن تعرف ما يخص بالينفورد، لكنني لن أخبرك عن كيفية معرفتي لكل ذلك."

"لماذا؟"

"لأنك حاولت قتلي."

هنا ارتبك كل من جوليارد وليديا. تبادلوا نظرات قلقة من سير الحوار.

"كان بيننا اتفاق."

"والآن انتهى هذا الاتفاق. جوهان بالنسبة إليك ميت. يمكنك أن تعتبرني شخصاً آخر وتعقد معي اتفاقاً جديداً."

"من أنت؟"

"خيميائي."

"من أين؟"

"لا أعرف. ولن يهم من أين أنا. ولأني في الوقت الحالي إلى بالينفورد لأن جوزفين منها. وهذا كل شيء."

"ما الذي جرى؟"

"بكل بساطة، ما قامت به جوزفين وغيرها ممن قاموا بعملية التحويل البشرية ما كان إلا خطأ ارتكبه. لكن هذا الخطأ كان مدبراً، فهناك من دسّ هذه المعلومات في كتب الخيمياء ودفع الخيميائيين لتنفيذها ليحصل هو على مراده."

"وما هو مراده؟"

"تقصد مرادهم. هل سمعت بالهلال الأسود؟"

صمت بروفيسور جابريل لبعض الوقت وتبادل نظرات مع جوليارد وليديا. كانت ليديا هي من أجابت.

"الهلال الأسود هم أصل الشر. هذا ما نعرفه. إنهم يبحثون عن الدراكاشتا."

"هذا جيد." عرف جوهان أنهم لا يعرفون ماهية الهلال الأسود بعد. "هناك شيء قام به أحد أفراد الهلال الأسود، حسب تقديري."

تابع بروفيسور جابريل. "ماذا تعتقد؟"

"جوزفين. لقد عرفت أين هي."

هنا لم يتمالك جوليارد نفسه. "أين هي؟"

أشار له جوهان للأعلى. "إنها محبوسة في الأعلى، فوق بالينفورد."

"ما الذي تهذي به؟"

"هناك من أحاط بالينفورد بدائرة خيميائية."

كانت هذه المعلومة صادمة لهم. بالينفورد والتي عُرِفَتْ بقوتها وسعة حيلة أهلها يتم اختراقها هكذا بكل سهولة! ما الذي يجري؟

ثم أتى سؤال جوليارد ببساطة. "لماذا؟"

"لأنه أراد القيام بشيء ما سأعرفه اليوم. عليّ أن أصل للرموز المرسومة على حدود بالينفورد، سأحصل على الإجابة اليوم."

"كيف؟"

لم يكن جوهان يريد أن يكشف وجود سنثيا في الأكاديمية، فقد يكون هو الوحيد الذي يعرف بوجودها وإن عرف غيره بها فهذا يعني أنه سيخسر ثقتها، وسنثيا مهمة جداً عنده.

"سأصل اليوم إلى الرموز وأكشف ما كان ينويه من قام بهذا المخطط."

سأله بروفيسور جابرييل. "هل يمكنك قراءة الرموز؟"

أجابه جوهان. "أجل، هناك لغة تعلّمتها تمكّني من معرفة ما يريد من يرسم الدائرة الخيميائية من هذه الرموز."

سأل البروفيسور. "هل انتبهت إلى نظام بالينفورد المعماري؟"

أوماً جوهان. "أجل. المدينة المدوّرة."

قال البروفيسور لإثبات موقفه. "هذا يعني لك أنها محمية."

"الرموز التي أُحيطت بها بالينفورد تحميها من الأذية الماديّة، وما يحاول عضو الهلال الأسود ليس له علاقة بالأذية الماديّة. هذا ما أظنه."

تابع البروفيسور. "لهذا لم تتفعّل دائرة الحماية."

كان يبدو على بروفييسور جابرييل أنه يفهم بالضبط ما يعنيه جوهان، ما زاد ثقة جوهان به. تابع بروفييسور جابرييل. "سأساعدك في هذا. يمكننا دراسة الدائرة التي وضعها الهلال الأسود حول بالينفورد ونعرف مغزاه منها."

"هذا ما أتوقعه منك. سنرسم الرموز وأماكن توزيعها مرة أخرى. ثم نعيد رسمها على خريطة بالينفورد. وقتها سنلقي نظرة على الدائرة الخيمائية بشكل كامل." "وهذا ما سنفعله."

وهكذا انتشر الجميع في رحلة إلى أطراف بالينفورد. يدرسون المنطقة الحدودية بحثاً عن أي رسمة أو رمز على الأرض. كانت الرموز ضخمة ومرسومة بالدماء، لهذا استغرق منهم ثلاثة أيام كاملة في البحث عنها. عندما توصلوا إلى الرموز المطلوبة، اجتمعوا في مكتب بروفييسور جابرييل الذي أزال كل ما كان على منضدته ووضع خريطة لبالينفورد عليها. بدأوا بنقل الرموز على الخريطة بعد أن تأكدوا من موضعها الصحيح. بعد أن انتهوا منها شرع كل من جوهان وبروفييسور جابرييل وليديا في دراسة الدائرة الخيمائية التي ظهرت أمامهم. كانت دائرة خيمائية غير مفهومة في بادئ الأمر. لكن تمكن جوهان من وصل بعض الرموز الخيمائية ببعضها لتتقاطع تلك الخيوط في منطقة في المنتصف، ألا وهي القصر الملكي.

"هناك فرد من الهلال الأسود في القصر الملكي." قالها جوهان بثقة زعزعت ثقة من حوله. تبادل جميعهم نظرات فرعة. اتضح لهم أنهم لا يعرفون شيئاً عن الهلال الأسود بعد. قال جوليارد. "علينا أن نجده بسرعة."

قاطعه جوهان بحدة. "لا. ستُفسد كل شيء إن بحثت عنه. دعه وشأنه."

لم يفهم جوليارد ما كان جوهان يرمي إليه. كان مدفوعاً برغبته في العثور على من تسبب بمقتل أخته. لكن تدخل بروفييسور جابرييل أنقذ الموقف.

"تعتقد أنه يمكن أن ينسحب إن شعر بأننا اكتشفنا أمره وبذلك نفقد فرصتنا في المقاومة؟"

بدأ جوهان الشرح. "هناك طرفان لهذه المعادلة، الأول هو هروبه والعودة إلى الهلال الأسود وبذلك لن نعرف عنهم شيئاً، والثاني هو سعيه خلفنا للتخلص منا كوننا عرفنا ما لا يجب أن نعرفه."

سألت ليديا. "هل تعتقد أنه بهذه القوة؟"

أجابها جوهان. "ألم تري الرموز بنفسك؟ كم من الأرواح أزهقت ليستخدم دماؤها في هذه العملية. هناك دماء بشرية وحيوانية في هذه الدائرة. لقد قتل من الماشية والبشر على حد سواء ليرسم دائرة خيميائية حول بالينفورد. وهناك دائرة من دماء ملكية في القصر."

كان كلامه صحيحاً. الخصم الذي عليهم أن يواجهوه أخطر واشدّ مما يتخيلون. يكفي أنه اخترق بالينفورد وعمل ما عمل لمدة عقود دون أن يعرف عنه أحد!

لم يخبرهم جوهان أن الهلال الأسود لم يكونوا من البشر من الأساس. لم يكن يتخيل ما سيكون وقع هذه المعلومة عليهم، لذا قرر أن يتخلص من هذا التهديد الذي يحيط ببالينفورد ومن ثم يتفرّغ لمعرفة المزيد عن الهلال الأسود.

اتفقوا على إرسال جوهان إلى القصر الملكي لكي يجد الدائرة الخيميائية ويجلبها لهم. كان جوهان يعرف أنه لن يجلب لهم الدائرة الخيميائية، فما في باله أخطر من ذلك.

في اليوم التالي كان جوهان داخل القصر الملكي، كأحد الورّاقين تحت اسم فلاديمير فلاميل. تقمص شخصية ورّاق من عائلة فلاميل العريقة لئلا يشك أحد في شخصيته أو موهبته في اللغة. وهكذا أمضى جوهان ثلاثة أيام في القصر الملكي يستكشفه بصفته ورّاقاً. ساعده مارك فلاميل في مهمته عندما وصله نبأ دخول جوهان إلى القصر الملكي بتوصية من بروفيسور جابرييل. تمكن مارك من مساعدة جوهان في إنشاء علاقات مع الخدم في القصر ليدلّوه على المكان ومداخله ومخارجه، وهذا ما كان يريده.

في اليوم الثالث شعر جوهان أن هناك من يراقبه. لم يكن شعوراً أكثر من كونه أمراً يقيناً، فمن كانت تتبعه لم تتبه إلى أن رائحة عطرها كشفتها. ظنّ جوهان في البداية أن الفتاة التي تلاحقه هي

إحدى الخادومات. بقي يسير في طريق طويل إلى إحدى الحجرات، وبقيت الفتاة تتبعه وهي تخفى وجودها عنه، في ظلها أن جوهان لم ينتبه إليها. دخل جوهان إلى الحجرة وأبقى الباب مفتوحاً. اقتربت الفتاة بكل سذاجة لتلقي نظرة داخل الغرفة. شهقت وكادت أن تصرخ عندما وجدت جوهان أمامها وقد أمسك بها ووضع يده على فمها ليكتم صرختها. دفعها إلى الداخل وأغلق الباب.

"كلمة واحدة وسأنحر عنقك. إياك أن تصرخي. من أنت؟"

أزال جوهان يده عن فمها فأخذت نفساً طويلاً قبل أن ترد.

"هذا أنا فاليريا."

"من فاليريا؟"

"هل يمكنك أن تتركني؟ أنت ترتكب خطأ شنيعاً بفعلك هذا."

أفلتها جوهان. ابتعدت عنه واستدارت ناحيته. كان شعرها البنيّ مربوط على شكل ذيل فرس. عيناها عسلتان ويعلوا وجنتيها بعض النمش. لم يميزها جوهان فليس لديه اهتمام بمن في القصر، كان مهتماً بالوصول إلى مكان الدائرة الخيمائية.

حدّث فيه فاليريا عن قرب، في نظرتها استغراب وقد ارتفع حاجباها في دهشة.

"هاي، أنت جوهان أليس كذلك؟"

اضطرب جوهان من الداخل لكنه لم يظهر ذلك.

"من جوهان؟"

"الفتى الذي نجح في الأكاديمية ومن ثم أعلنوا وفاته منذ بضعة أيام."

"كيف تعرفين هذا الفتى. أنا فلاديمير فلاميل."

"هل هذا هو اسمك الجديد؟"

"ألا تزالين مقتنعة أنني جوهان؟"

"أجل."

بدى لجوهان أن فاليريا أذكى مما يتوقع. "من أنت؟"

"أخبرتكَ، أنا فاليريا. لكن كيف عرفت أنني أتبعك؟"

"رائحتك."

لم يبدُ عليها أنها فهمت ما قاله. "عفواً؟"

"رائحة عطرك كانت واضحة. شممتها وميزتك. بقيت تسيرين خلفي طيلة الوقت. لماذا

تتبعيني؟"

"أنت مسلّ."

"ماذا؟"

"أنا أجول هنا في القصر لأتسلّى وأحصل على أسرار القصر. هناك أسرار لا يمكن أن تعرفها

ما لم تختلط بالعاملين هنا."

اعترت جوهان رغبة بضرها.

"ألهذا لحقت بي؟"

"أجل، لقد بان لي أنك تبحث عن شيء ما. قد أعرف ما تبحث عنه؟"

"من تكونين؟"

"لا أحد يعرف من أكون. لكنني ابنة أحد الأمراء."

"ابنة أمير! ما الذي دفع ابنة أمير للتجوال في القصر وهي تعيش في مكان آخر؟"

"أخبرتكَ، عليّ أن أعرف أسرار هذا المكان. أنا هنا لهذا الغرض. جمعت الكثير من الأسرار،

يمكننا أن نتبادل أسرارنا معاً."

"أنا جوهان."

"هذا ما أعرفه."

"إذن ما رأيك بأن تبحثي معي عن السرّ الذي أبحث عنه؟ وقتها سأضيف إليك أسراراً أخطر مما تعرفين."

"هل أستطيع أن اثق بك؟"

"أنا من عليه أن يطرح هذا السؤال."

"إذن أنت متشوّق لاكتشاف هذا السرّ مهما تكن العواقب."

"قد يكون كلامك صحيحاً."

"إذن أنا موافقة. لكن بشرط واحد."

"ما هو؟"

"ألا نؤذي أحداً. أنا أبقى الأسرار في جعبتي، لكني لا أستخدمها لإيذاء أحد."

"إذن لنعقد اتفاقاً، سأخبرك ما أبحث عنه وتقوديني أنت إليه، هناك سأشرح لك كل شيء، موافقة؟"

مال رأسها إلى اليسار في حركة لعب وقالت ببسمة صافية. "موافقة."

عرف جوهان أن فاليريا لم تكتفِ لشيء. لم تكن تعقد معه صفقة، فقد قررت أن تساعد منذ البداية. فقد وجدت فاليريا في جوهان سحراً قوياً من نوع خاص، شعرت وكأنها تعرفه حتى من قبل أن تولد!

أخبرها جوهان أنه يبحث عن غرفة تقع في منتصف القصر. غرفة مخفية عن الجميع ولا يدخلها أحد. أخبرها أن هذه الغرفة تحتوي سرّاً هو الأخطر في بالينفورد. سألتها فاليريا عما يعتقد

أنها سيجدانه في تلك الغرفة، فوعدها جوهان أنها سترى كل شيء عندما يجدها.

لم يدر جوهان أن فاليريا كانت إحدى دارسات التاريخ البشري. كان لديها من العلم والمعرفة الكثير، مع أنها تكبره بها لا يزيد عن عامين. شعر جوهان بذكاء فاليريا ولكن في نفس الوقت عدم قدرتها على السيطرة على مشاعرها. لم يعرف أحد في ذلك اليوم أن فاليريا في القصر الملكي، فهي تغادر دون علم أحد. لم تُرق فكرة أنها من العائلة المالكة، أو أنها ابنة أمير لفاليريا. كانت فاليريا روحاً حرة. كانت تغادر المنزل وتجوب في أنحاء بالينفوردي لتري المزيد في هذه الحياة.

في إحدى المرات دخلت إلى أكاديمية بالينفوردي باسم مستعار، لكن بروفيسور جابرييل تمكن من اقتناصها والتعامل معها. عرف أنّ لها شغفاً بالقراءة والتعلم، لكنه قرر أن من المبكر عليها الانضمام إلى الأكاديمية، خصوصاً وأنها تتخفى بعيداً عن هويتها كابنة أمير. لكنه كان مدرّكاً لاستحالة السيطرة عليها وأن عليه أن يهادنها. بدأ جابرييل يعطيها بعض الكتب في اللغة والتاريخ، شريطة ألا تأتي إلى الأكاديمية إلّا عندما تبلغ العشرين من العمر. لذا لم يحن موعد التحاقها بالأكاديمية بعد.

وهكذا التقى جوهان بفاليريا والتي أخذته بين دهاليز القصر إلى أن وصلت به إلى الغرفة التي كان يريدّها.

دخل جوهان الغرفة المظلمة ليرى دائرة في المنتصف تومض بضوء أحمر. دبّت الغرفة الرعب في أوصال فاليريا فالتصقت بجوهان. ربّت جوهان على كتفها ليطمئنّها. لم تتخيل فاليريا أبداً أن تعثر على شيء كهذا في القصر، فكان هناك إحساس بالبرود في هذه الغرفة. برودة الموت. لم تعرف فاليريا معنى الموت من قبل، لكن جوهان اقترب منه إلى الحد الذي كان قادراً على تمييزه ولو بعد حين. فبالنسبة لجوهان، الموت له وجود مادي، له شعور ورائحة وبرودة. والأهم من ذلك، له صمت رهيب.

لكن ما أثار فزع فاليريا كان رائحة الدماء. لم تجرّ فاليريا على الاقتراب مع جوهان إلى الدائرة الدامية أمامهما. كان جوهان على علم بأن ما يشاهدانه هو دائرة خيميائية حضّرها أحد أفراد الهلال الأسود. بدأ العرق يغزو وجه فاليريا وهي تستوعب ببطء ما تحتويه الغرفة. التفّت لها

جوهان وضّمّها إليه.

"اهدأي. أنا هنا. ضربات قلبك قوية، حتى أنا سمعتها." كان صوت جوهان هادئ ورصين. مسح جوهان على شعرها وهدأ من روعها.

سألت ولا يزال الخوف يعتريها. "ما هذا المكان؟"

"هذا الشيء هو من يسبب الخطر لمن في القصر. عليّ أن أتخلص من هذه التعويذة بأسرع وقت ممكن. فهلاًّ ساعدتني؟"

نظرت له فاليريا وقلبها لا يزال يرتجف. "كيف؟"

قال جوهان يملته ليشب لها أنها ستقوم بدور مهم. "عليك أن تعتني بي عندما أنتهي."

لم تدرك فاليريا ما كان يقصده جوهان، لكنها اقسمت في قرارة نفسها أنها لن تتخلى عنه.

لم تكن فاليريا تعرف ما هو مقدم عليه، لكنها عرفت أن ما سيفعله أمر مصيري، ولن تتوانى عن مساعدته.

شعرت به هناك، في صدرها، وبين ثنايا ضلوعها، شعرت بشيء ينمو تجاه جوهان. لم ينتبها هذا الشعور من قبل، وكأن هناك قلباً آخر أخذ ينمو بجانب قلبها، فأخذ القلبان ينبضان معاً.

اقترب جوهان من الدائرة الخيمائية ووقف في وسطها. سمع جوهان أصواتاً تصرخ. لقد كانت أرواحاً تصرخ وتناجيه. أرواح عارية من كل شيء إلا إحساسها بالألم والمعاناة. كان على جوهان أن يدخل إلى قلب المأساة لينهيها. تذكر جوهان ما قالته له ستثيا. انحنى على الدائرة الخيمائية ووضع راحته عليها. شعر بلزوجة الدماء وحرارتها. أغمض عينيه وبدأ كل شيء.

شاهدت فاليريا الدائرة الخيمائية تتوهج حول جوهان بينما أخذ جسده يتصلب على وضعيته تلك. راکعاً على ركبتيه، يتفحص بيده الدماء التي أحاطت به.

لحظات وانقبض صدرها وتسارعت نبضات قلبها مع أولى الصرخات التي أطلقها جوهان.

لقد غاب جوهان في عالم لا تعرف عنه فاليريا شيئاً. لكن جوهان نفسه لم يكن يعرف أن هذا

العالم موجود. في تلك اللحظة كان جوهان متصلاً مع الأرواح المحبوسة في الدائرة الخيمائية، كونها رُسمت باستخدام دماء بشرية.

أظلم العالم من حول جوهان قبل أن يفتح عينيه ويرى مشهداً قد يبدو عادياً لمن يراه للوهلة الأولى. اثنان يتبادلان كلمات حب وعشق. ثم تتوالى المشاهد. لقاءات، حب، وعود، وزواج. استقرار في بيت واحد، عيش هانئ. إلى أن انتقل إلى مشاهد أخرى. سلسلة من المشاهد المطابقة لبعضها تتكرر كل فترة وأخرى وكأن التاريخ يكرر نفسه. امرأة تلتقي برجل، تحبه وتتزوج، ليتتهي بهما الأمر في بيت واحد. رأى جوهان ذكريات محبوسة في دماء هؤلاء النساء.

قد يبدو الأمر من البداية عادياً وحميمياً لكل من يرى هذه المشاهد، لكن عين جوهان اقتنصت حقيقة ما يجري. اختلفت النساء والرجل واحد! فقد تزوج هذا الرجل في الرؤيا التي يراها جوهان كل النساء التي حُبست أرواحهم في هذه التعويذة. رجل تزوج عشر نساء، ليتتهي بهن المطاف مقتولات في ليلة واحدة. ليلة واحدة كانت كافية لتتعالى صرخاتهن الواحدة تلو الأخرى. طاف عليهن ليقتلهن ويتزجق قلوبهن من ضلوعهن واحدة تلو الأخرى. ازدادت صرخات النساء ومعها صرخات جوهان. لم يتمكن جوهان من استيعاب الوحشية التي تصرف بها ذلك الرجل.

ثم جمع الرجل قلوب النساء بما تحمله تلك القلوب من دماء وقام باستخدام الدماء في صنع دائرته الخيمائية المناسبة لإلقاء التعويذة. بعد أن انتهى من الرسم قام الرجل بدفن النساء العشر حول بالينفورد. كل يوم يخرج ليدفن إحداهن تحت جناح الظلام في مكان مدرّوس. بدا وكأن الرجل يستمتع بما يفعله وكأنه يقدم قرباناً للأسياد ليمنحوه الحياة الأبدية. كانت عيناه تشع في الظلام من شدة الشر. انتقل معه المشهد الى وقوف الرجل في منتصف الغرفة وبدء التعويذة. بدأت الدماء تغلي وتفاعلت التعويذة مع دائرة الدماء الخيمائية، وبدأت اللعنة.

شاهد جوهان آلاف حالات الوفاة البائسة التي مرّت على بالينفورد منذ تفعيل هذه التعويذة إلى هذا اليوم. لم يتمالك نفسه جوهان عندما عاش من جديد تجربة فقدان جوزفين. كان يقف أمام جوزفين. رآها وهي تحاول تنفيذ عملية التحويل البشرية. رأى البوابة التي فُتحت ورأى الشيء الذي خرج منها. رأى جوهان القتال. جرى جوهان بكل قوّته ليلحق جوزفين قبل أن يندرس

النصل في جسدها، لكنه بالطبع لم يتمكّن. وجد نفسه يمسك بالنصل وهو مزروع بين ضلوعها. رآها وهي تلفظ آخر أنفاسها بين ذراعي جوليارد. لم يتمالك جوهان أعصابه وشرع في صراخ هستيري. كانت الذكريات المحبوسة في هذه التعويذة أخطر وأشد من أن يتحمّلها جوهان.

في الخارج كانت فاليريا تبكي. للمرة الأولى في حياتها تُعجب بأحدهم، لتجده يعاني أمامها بلا حول ولا قوة. ولا يمكنها أن تمّد له يد العون. لم يكن لفاليريا أن تخالف أوامر جوهان، مع أنها ودّت لو انتزعت من بين دائرة الدماء وأودعته صدرها لتغلق عليه. لكنها كانت مجبرة وهي تغلي وتبكي بحرقه على أن ترى جوهان يعاني ويصرخ دون أن تتحرك قيد أنملة تجاهه. شعرت بعجز جعلها تكره الحياة على ظلّمها لها ووضعها في هذا الموقف. كان امتحاناً لها أشد من أي شيء، وكان لزاماً عليها أن تصمد حتى النهاية.

شعرت الأرواح أن جوهان رأى ما يكفيه فقررن أن يوقفن سيل الذكريات. انتقل بعدها جوهان إلى مساحة بيضاء انتشرت فيها نار سوداء تغطي الأرض. لم يدرك جوهان لم لم يشعر بحرارة النار ولا لم لم تبدأ النار بالتهامه؟ ثم وببطء بدأت تخرج من النار حوله أشكال بيضاء. أخذت الأشكال تتحوّل تدريجياً ليجد جوهان نفسه يقف وسط دائرة من عشر نساء. نظر جوهان لوجوههن.

بدأت إحداهن الحديث.

"والآن أنت تعلم ما جرى. أرجوك أن تنقذنا."

"سأفعل." كان هذا ما تمكّن من قوله. لقد كان يشعر بصداق رهيب تعذّرت معه الرؤيا بوضوح. بعد أن هدأ قليلاً استقام في وقفته وقد صفا ذهنه. كانت هناك نار تستعر في عروقه لما رآه.

"ما الذي حدث؟ كيف تمكّن من ذلك؟"

ردت امرأة أخرى. "لقد ضحى بنا واستخدم نساءه في هذا، قدم دماثنا للتعويذة لكي تعمل. تقوم التعويذة بسحب أرواح كل من يموت ظلماً. إن مات أحد ظلماً أو كان هناك مأساة تتعلق

بموته، تُفَعِّل التعويذة وتقوم بسحب تلك الروح البائسة إليها وتحبسها.

"لماذا؟"

"ليحصل على هذه الروح. كان يعرف صاحب التعويذة أن هناك طاقة هائلة في الأرواح هي ما مكنته من البقاء كل هذا الوقت. أراد أن يتغذى على الأرواح البشرية من أجل الحصول على الخلود. وهذا هو غرض واحد من عدة."

كان جوهان يعرف أن أرواح البشر تحتوي على الكثير من الأسرار. وهذا ما أثار رعبه، فقد كان أحد أفراد الهلال الأسود يسلب أرواح الناس ليستخدمها ليصل إلى الخلود، ناهيك عن التجارب التي يمكنه أن يقوم بها على الأرواح التي سلبها. لكن تلك الأرواح كانت تصرخ. كان الألم هو عنوان هذه التعويذة. ألم لا يُداوى كالم الجسد، بل أشد وطأة ومأساوية.

سأل جوهان وقد انطفأ بريق عينيه. حلَّ محلّه الحقد والغلّ والغضب. لكنه لم يكن يعرف أن الجواب كان آتياً ليحطّمه بنفسه.

قالت النساء معاً في وقت واحد. "عليك أن تقتلنا."

أدرك جوهان ما كان يعنيه كل هذا. نظر بجانبه فرأى خاتم حوران. عرف وقتها ما كانت ترمي إليه إيلانا. ما كان لكل هذا أن يوجد منذ البداية. على جوهان أن يعيد الأمور إلى سابق عهدها. ارتكب عضو الهلال الأسود جريمة لا تُغتفر وهي المساس بأرواح البشر. على جوهان أن ينهي كل هذا العذاب ولو أخذ على عاتقه قتلهم كلهم. وهنا تذكر جوزفين. جوزفين التي ربّته، جوزفين التي تمكّنت من مراعاته وحبه وكأته من صلبها، جوزفين التي وثق بها أبيلارد وأودع جوهان لديها. عليه أن يقتلها. عليه أن يغرس نصله فيها ليتمكن من تحريرها، كان عليه أن يُطلق سراحها لتتعم بالراحة، وينهي مهمته التي أرسله فيها أبيلارد.

ويا لها من مأساة. اختفت النساء العشر. سقط جوهان مغشياً عليه من شدة البكاء وقد انطفأت الدائرة الخيمائية. لم تعد فاليريا تحتمل ما يجري فأسرعت إليه تحتضنه. كانت تعرف أنه ليس عليها أن توقظه. جرّته بكل قوتها خارج الدائرة الخيمائية وعانقته بقوة. أخذت تمسح

دموعه بيديها وسط الغرفة المظلمة- متناسية دموعها التي جرت كالنهر من منبع عينيها.

اللقاء الأخير

كان بروفيسور جابريل يتحرّك في تلك الفترة. لم يتمكّن من إسناد الأمر لجوهان بالكامل. كان يدرك أن هناك دوراً عليه أن يلعبه. عليه أولاً أن يعرف أين يقبع عضو الهلال الأسود هذا وما الذي يخطّط له. دائرة خيميائية تحيط بالينفورد كلّها لأمر ما، كان بروفيسور جابريل يعرف ما تؤدي له هذه الدائرة الخيميائية، وهو أمر أخطر من مجرد عملية خيميائية بسيطة. في هذه الأثناء أرسل أوليفر ليستطلع مكاناً ما. اصطحب جوليارد معه في عملية في الخفاء. دخل بروفيسور جابريل القصر الملكي دون معرفة أحد بهويته. انتحل هوية أخرى كطبيب مع مساعده. كان يريد أن يرى الوجه. جميع وجوه من في القصر. نظرة واحدة تكفي بروفيسور جابريل ليعرف من يكون هذا الفرد الذي تسبب بكل هذا الضرر.

وعندما كان جوهان مستلقياً بين ذراعي فاليريا، كان بروفيسور جابريل يقترب خطوة أخرى نحو مخرج الهلال الأسود. كان يعرف منذ القدم أن بالينفورد ستكون هدفاً لكل من لديه مطامع حول أساطير الخيمياء، فهي الأصل الذي انبثقت منه علوم الخيمياء بين المدن.

استيقظ جوهان. كانت هذه أولى علامات الاستبشار لفاليريا، وأولى علامات اليأس لجوهان. تيقنت فاليريا من أنه لا يزال على قيد الحياة. لكن لجوهان كانت الدليل الذي لم يرد أن يعثر عليه. تمتّى للحظة بكل يأس أن يكون كل ما رآه ما هو إلا مجرد حلم لا أكثر. لكن هذا الحلم كان رؤيا وكانت هذه الرؤيا ذكريات دامية محبوسة في أرواح بريئة. شعر بالكره الشديد لعضو الهلال الأسود ذلك. اقسم أنه سيقنتله بعد انتهائه من مهمته تلك.

لكنه لم يكن يعرف أن بروفيسور جابريل كان قاب قوسين أو أدنى منه. كان الاثنان يتحركان وكأنهما يخططان معاً. لم يكن هدف بروفيسور جابريل أن يمسك به على الملأ، بل كان يريد التخلص من كل شيء هدد، بعيداً عن أعين الناس. كانت مهمته سرية تتلخّص في إخفاء آثار كل ما يحصل عن العامة. لو عرف أحدهم بما يجري، فهذا معناه أن الجانب المظلم للأكاديمية سيظهر. سيضطر للكشف عن الخيمياء وسينكشف وجود الخيميائيين للعلن، وهذا لن يكون في

صالح أحد. ستعرض بالينفورد للويلات جرّاء ذلك. فلن تكون الخيمياء وقتها حكراً على أحد، وستُلام بالينفورد جرّاء ما اقترفته من قبل المدن الأخرى. هذا ما سيضع بالينفورد في موقف لا تُحمد عقباه أمام المدن الأخرى وسيضعف قوتها أمامهم. وهذا ما لا يريده بروفيسور جابريل ولو اضطر إلى قتل عضو الهلال الأسود ذلك قبل أن يستجوبه.

رَبَّتْ فاليريا على رأس جوهان.

"رحمة ماندا تنزّل عليك."

"هل تعتقدين أنني بخير؟"

صحيح أن فاليريا رأت شحوب وجه جوهان. صحيح أنها رأت الأثر الذي خلفته تلك التجربة عليه، لكن بالنسبة إليها أن ينجو جوهان من كل هذا هو معجزة في حد ذاته.

"أجل. المهم أنك على قيد الحياة."

أجل، هذا ما يهم. لا يهم ما الذي مررنا به، المهم أننا لا زلنا على قيد الحياة، وهذا ما يثبت لنا أننا لا نزال أقوياء. هذا هو ما يهون على البشر. أن صعابهم سوف تتحول إلى شريط من الذكريات ليُخرجوه عندما يمر بهم الزمن ليحيلهم عجائز. لكن ماذا لو لم تتحوّل هذه الآلام إلى ذكريات؟ ماذا لو بقيت تحفر في قلوبنا بكل ما فيها من مشاعر صارخة. مشاعر تصرخ بصمت حارق كل يوم.

عرف جوهان وقتها شعور جوليارد. لقد ظنّ جوليارد أنه قتل أخته جوزفين ولم يكن هناك من قوة يمكنها إقناعه عكس ذلك. هكذا عاش. لم ينفع الزمن في تخفيف وطأة ما جرى. هنا تكمن المشكلة. يمكن للقلب مصارعة الزمن في معركة يدرك معها أنه الخاسر ولو فاز حقاً. ففوزه لا يؤدي إلا إلى مأساة أكبر مما قد يواجهه لو أن الزمن انتصر عليه. في كلا الحالتين كان على جوهان أن يتدخل، لكنه سيحمل عنه ذلك الوزر. قد يكون جوهان أقدر على تحمل هذا الألم من جوليارد، وقد لا يكون. لكن من المؤكد أن جوهان سيحمل هذا الألم، وإن كان ألم جوزفين، فسيحمله بابتسامة. لا بل سيُصادقه. سيصبح الألم رفيقاً محبباً لجوهان، لكيلا ينسى جوزفين ما

دام على قيد الحياة.

نظر جوها لفاليريا واعتدل في جلسته. لم ترد فاليريا أن تتركه.

"فاليريا. لقد وعدتك أنك ستعرفين السر، لكن إلى هنا ينتهي دورك. عليك أن تغادري هذا المكان وتعودي إلى منزلك بأقصى سرعة، أتعدينني؟"

كانت عيناها محمرّتان من أثر البكاء. كسى عينيها أثر لعدم التصديق. اكتفت بهزة من رأسها. تنهّد جوها.

"أرجوك أن تعديني."

قالتها بإصرار. "لا."

"لماذا؟"

"لأنني لست فتاة مدللة. أنا أعرف حقيقة ما جرى معك وأعرف الهول الذي رأيته. لن أتركك."

"فاليريا. من المفترض ألا أعني لك شيئاً. لهذا أريد منك أن تتركيني."

"سأساعدك."

"لست بحاجة لمساعدتك أكثر من ذلك. لا أريد أن أعرضك للخطر."

"أنا دائماً في خطر."

"لا أريد أن أضيف خطراً آخر لقائمتك. هيا. عليّ أن أوقف ذلك الحفير عند حدّه."

"سأجده."

انتفض جوها. "لا، إياك. لا أستطيع أن أحمل ذنبك أنت أيضاً."

أمسكت بيديه بقوة. "لا تقلق. لست سهلة. أعرف حيل الداسين. أستطيع أن أتبعه وأجده.

سأساعدك في الوصول إليه. يمكنني أن أعرف أين وكره."

تنهّد جوهان. أخبرها جوهان بما يجب أن تعرفه فاليريا بما يتعلق بالسر، بما أنه وعدها. وأخبرها بأنه عليه أن يطلق سراح تلك الأرواح التي حصل عليها عضو الهلال الأسود. هنا وجد منها إصراراً كبيراً على المضيّ قدماً.

"سأساعدك."

لم يكن لدى جوهان من خيار إلا أن يحصل على مساعدتها. أسندته فاليريا ليقف على قدميه. تناول سيفه وخرج من الحجرة. كان يريد أن يجد الطريقة الملائمة للوصول إلى القمر الفضّي الذي صنّعته التعويذة من أرواح من ماتوا ظليماً. فقرّر الصعود إلى السطح. ساعدته فاليريا في الوصول إلى القبة، تبادل معها النظرات وفهمت هي ما يريد قوله دون الحاجة لأن ينطق. لقد تعب جوهان من الكلام ولم يعد هنالك من داع له، لذا كان شاكراً لها أنها فهمته دون أن ينطق. أومأت له بينما تعلق وجهها نظرة إصرار.

اطمئن، لن أموت. سأكون عوناً لك.

شاهدها جوهان وهي تبتعد عنه إلى أن اختفت عن ناظره.

أرجو ألا تموت!

سحب جوهان سيفه ونظر للأعلى. كان يعرف أن عليه أن يصل لهم وينقذهم فرداً فرداً. سمع جوهان من بعيد صوت الأجراس. كانت دقّة الجرس الرابعة. رأى السحب كالجبال تمرّ من فوقه. أنزل نظره وأخذ يتأمل بالينفورد التي أخذت تتحرك تحت صوت الأجراس. سمعت الأجراس من بعيد وكأنها ترنّمة تحثّه على المضيّ قدماً.

لفت نظر جوهان شيئاً أتى يخلّق من بعيد. أمعن النظر بينما أخذ ذلك الشيء يخلّق باتجاهه. لحظات ورأى جوهان طائر العنديل يقرب منه!

إنه طائر العنديل ذلك. ليس العنديل الذي يرسل به رسائل لناردين، بل العنديل الذي رآه مع جوزفين!

ما الذي يجري؟ ما الذي أتى به إلى هنا؟

تساقط ريش العندليب مع اقترابه من جوهان. تغير لونه ونما له ريش ابيض اللون. لم يعد عندليباً بل شيئاً آخر. تغيرت معاملة وازداد حجمه. لقد كان الطائر تحت أثر تعويذة أخفته بشكل عندليب، لكنه لم يكن عندليباً منذ البداية. لقد قرأ جوهان عن البوم من قبل، لكنه لم يره مرة واحدة إلى الآن. وها قد جاءه. أتاه البوم الذي لا يأتي إلا لمن يحتاجه، ويعرف هذا البوم ما عليه أن يفعل.

مع اقتراب البوم من جوهان أخذ جسده في النمو. كان جسد البوم يكبر شيئاً فشيئاً. نظر البوم في عين جوهان، فعرف جوهان ما عليه أن يفعل. مدّ جوهان ذراعه للبوم. اقترب منه البوم وأمسك بذراعه وطار به عالياً في السماء!

لقد كان هذا البوم الطائر الأسطوري للخيميائيين، عدا عن كونه يجلب البشارات الطبية، فقد كان طائراً مميزاً في حد ذاته. تقول الأسطورة أن هذا الطائر لا يعيش في عالم البشر، فلم يره أحد من قبل. سُمعت عنه حكايات وأساطير كثيرة، لكن بلا دليل فعلي على وجوده. يُقال إنه كان مبعوثاً إلى عالم البشر من عوالم أخرى. لذلك لم يكن له ظهور في عالم البشر من قبل إلا ثلاث مرات. أحدها كان مع العجري الأول. وأحدها كان مع أحد الكواسر، فقد كان البوم رمزاً لأحد المدن التي شيدها أحد الكواسر بعد حرب الدماء السوداء. وصلت شهرة هذا البوم حداً كبيراً لدرجة أنه أصبح ذا أهمية كبيرة تفوق أهمية الأسلحة. وحتى ليقال إنه أحد الدراكاشتا التي استخدمها أحد الكواسر في الحرب.

ما استخلصه جوهان أن وراء هذا البوم حكاية، ولا بد أن هناك من أرسله له. فترك جوهان نفسه للبوم يحمله حيث يشاء، فقد كان البوم يعرف وجهته التي لن يُخطئها أبداً.

اخترق البوم الغيوم مع جوهان ليرتفع به أمام القمر الفضي الذي حبس آلاف الأرواح من بالينفورد. اقترب البوم من القمر وهو يحمل جوهان. صنع جوهان شقاً في ذلك القمر ووجهه مع البوم. التأم الشق بعد أن حبسهما في داخله.

أفلت البوم جوهان على أرض نينورتا وحطّ على كتفه. قرر جوهان فوراً أن عليه التخلص من الملك ذي القناع الذهبي بأسرع وقت، فتوجّه من فوره إلى القصر الملكي وعلى كتفه البوم،

يبث فيه ثقته بالنصر.

كان جوهان على ثقة من قدرته على اتخاذ القرار الصحيح بسبب هذا اليوم. فقد كان هذا اليوم الحارس الأبدي للحكمة التي يبحث عنها الخيميائيون. واختياره لجوهان أكد للأخير أنه على حق. مضى جوهان إلى القصر ودخله من البوابة الرئيسية وقد استل سيفه من غمده.

"أرجو أن تعينني على ما أنا مقدم عليه، يا خاتم حوران."

شعر بالخاتم طوع إرادته، فزادت ثقته في نفسه. كان جوهان مشحوناً بحقده على من تسبب بهذا كله، لهذا أراد أن يشق طريقه إليه. وبسرعة وقوة أسرع جوهان ناحية الحرس وأرداهما ميتين قبل حتى أن يُدركا ما كان يحدث. شعر جوهان بإحساس غريب لقتله الحارسين، مع أنه لم يكن قتلاً بالمعنى الحرفي، فقد كانوا أمواتاً في الأساس. لم يكونوا سوى أرواح وها قد خلصهم مما هم فيه. بقيت هذه الفكرة تحوم في رأسه لتمنعه من الجنون، فهو لم يكن يقتل احداً بل يخلصهم من معاناتهم. أخذ جوهان يجوب في طرقات القصر الملكي، يقتل من يظهر بوجهه. حرس، خدم، جوار، نساء، رجال، أطفال. أخذ جوهان يقتلهم واحداً تلو الآخر بسيفه الخشبي. قطع السيف الخشبي الروح بيسر وتحولت الأرواح إلى رماد واختفت. أخذت الأرواح تختفي وتتناقص في القصر. بحث جوهان في القصر عن الملك ذي التاج الذهبي ولم يعثر على حجرته. نظر حوله ليرى أي الطرق تؤدي إلى حجرة الملك. هنا طار اليوم وحلّق باتجاه معين. عرف جوهان أن اليوم يقوده إلى حيث يوجد الملك. أسرع جوهان في أثره لئلا يفقده. وصل اليوم إلى الحجرة التي من المفترض أن يكون الملك مختبئ خلفها. ابتعد اليوم تاركاً المجال لجوهان لأن يفتح الباب ويدخل إلى الحجرة.

"كنت في انتظارك."

كان هذا صوت الملك ذو التاج الذهبي وقد جلس على عرشه وفي يده كأس من شراب أحمر اللون.

عقد جوهان حاجبيه لما يراه. لم يتخلّى جوهان عن حذره أمام الملك، فقد يكون الملك قد حَصّر له مكيدة ما. اقترب منه جوهان ببطء، متحفزاً لقتله.

"هذا ما كان يتوقعه منك؛ أن تحاول التخلص من التعويذة. لكنه لا يعرف أنك تحمل هذا السيف."

"من أنت؟"

"أنا أحد القاطنين هنا. جعلني ذلك الرجل في حالة نصف ميت لأبقى هنا وأخدمه، بعد أن أباد عائلتي عن بكرة أبيها." هنا نزع الملك قناعه. كان له شعر أشيب يغطي كتفيه. وجهه شاحب وعينيّه مبيضة من أثر الحزن. لقد بكى هذا الملك إلى أن فقد بصره!

تابع الملك كلامه. "كل ذنبهم أنهم عثروا عليه. اكتشفوا وجوده فأتى عليهم قبل حتى أن يُنهبوا ما بدأوه. كانوا يغنون. كتبوا أغنية واحدة عن الهلال الأسود لينتهي بهم الحال على هذه الشاكلة. ها هم ميتون ودمائهم اختلطت مع هذه التعويذة. وها أنا هنا أقف حارساً على الأرواح التي يستخدمها."

ما الذي يحدث بحق الأسياد! لقد أتى جوهان محملاً بحقد دفين تجاه عضو الهلال الأسود وقد أمل في العثور عليه ليقترله بيديه. وها هو أمام روح عاجزة تطلب منه القضاء عليها لإنهاء مأساتها!

"كيف يبدو؟"

قال الملك مخدراً. "إن أخبرتك، فعليك أن تسرع بقتلي. لا أريد لروحي أن تحترق وتختفي. أريد منك أن تقتلني بسرعة وألا تتهاون في ذلك. امنحني ميتة سريعة، فأنا لا ذنب لي فيما يجري." صرخ به جوهان. "أخبرني كيف يبدو."

ارتعش الملك وبدأ يقول والخوف يتملكه. "يبدو وكأنه الموت يقف على قدمين. بشرته بيضاء، أشد بياضاً من مجرد بشرة شاحبه. عينيّاه سوداويتان بالكامل. يرتدي معطفاً أزرق اللون وقد رُسم عليه هلال أسود. يُعرف بصاحب اللهب الأزرق. كل واحد فيهم يُعرف بلون لهب خاص فيه. يتسم بهدوء ولكنه ليس سعيداً. لم تعرف مشاعر كالبهجة والفرح إلى قلبه سبيلاً. يقتل بكل متعة وفرح. إذا غرس نصله فيك تنبعث منه نار زرقاء تحرقك من الداخل للخارج

قطعة، قطعة. تبدأ النار بالتهام دمك لتسري معه عبر جسدك وتحرقك باستمتاع، وكأن ناره لها روح من تلقاء نفسها."

هنا جحظت عينا الملك وبدأ يمسك صدره ويكي دماً. ثم تقوس جسده للخلف وظهر سيف قد اخترق ظهره وبان من بين ضلوعه. عرف جوهان أن النار ستأكل الملك فهرع إليه ليغرس نصله فيه. شعر جوهان بتقاطع النصلين. شعر جوهان بوجود عضو الهلال الأسود وشعر ذلك الأخير بجوهان. عرف كل منهما خطورة الآخر. اشتعلت النار الزرقاء في روح الملك لكن سيف جوهان كان قد أنهى مهمته في قتله فتحولت الروح إلى رماد واندثرت بلا ألم، تاركة جوهان وحده في حجرة الملك.

تمالك جوهان نفسه ومضى خارج الغرفة بعد أن تأكد من أنه حفظ وصف ذلك الرجل من عصابة الهلال الأسود. ازداد مقتته للمكان الذي هو فيه مع ازدياد مقتته للهلال الأسود. اندفع جوهان خارج الحجرة وأخذ يقتل كل من يراه أمامه.

خرج جوهان إلى الطريق واخذ يقتل الناس، لم يكن لديه وقت للتفكير. كان عليه أن ينقذهم كلهم. استمر في القتل وقد علت الأصوات والصرخات من حوله. لم يكونوا مدركين لحقيقة أنهم ليسوا على قيد الحياة. لكنهم لم يفهموا حقيقة تحولهم إلى رماد واندثارهم لمجرد لمس سيف جوهان لهم.

بقي جوهان يقتل الأرواح المحبوسة في الوقت الذي عثرت فيه فاليريا على وكر عضو عصابة الدماء السوداء. بعثت الغرفة فيها إحساساً بالظلام. لم تكن تريد أن تقترب، فقد شعرت بأوصالها ترتعد وبرودة المكان. برودة يسببها الموت والدموية. هذا الوكر يعود لرجل فقد كل ما به من خصال بشرية. كانت على وشك أن تمسك بمقبض الباب عندما نزلت عليها ضربة على رأسها أفقدتها وعيها. سقطت فاليريا أرضاً دون أن تدري ما يحدث. انحنى عليها رجل وحملها بين ذراعيه. اقترب العجوز من الباب ونظر إليه قبل أن يعيد نظره إلى الرجل الذي كان يحمل فاليريا وقال.

"عليك أن تأخذها من هنا الآن. أودعها إحدى غرف القصر وأبقى أحدهن معها. ثم عد إليّ

بسرعة."

"ما الذي سيحدث لها بعد ذلك؟"

"لا تقلق. ستبقى على قيد الحياة. من الجيد أننا وصلنا في الوقت المناسب، لو عرفت أكثر من ذلك لاضطرت لقتلها."

أوماً الرجل وغادر المكان حاملاً فاليريا بين ذراعيه. استدار العجوز وقد أزال اللثام عن وجهه ليظهر من تحته بروفيسور جابريل وقد أخذ ينظر إلى البوابة ويفحصها. فلا بد وأن عضو الهلال الأسود قد حمى حجرته من الاختراق. عاد جوليارد بعد فترة ليجد بروفيسور جابريل ينقش بحجر بعض الرموز على الباب. راقب جوليارد ما كان يفعله بروفيسور جابريل إلى أن انتهى. ابتعد بروفيسور جابريل عن الباب وانتظر إلى أن استدار القفل من تلقاء نفسه وانفتح الباب المؤدي لوكر عضو الهلال الأسود.

كان الوكر يحتوي على الكثير من الأمصال والأحجار النادرة. لقد كان مختبراً من نوع آخر. لقد كان الكنز الذي يبحث عنه بروفيسور جابريل منذ فترة. الكنز الذي سيثري معرفة أي خيميائي يحصل عليه. تبادل بروفيسور جابريل نظرات مع جوليارد وقد فهم الأخير ما كان يعنيه بروفيسور جابريل.

خرجوا من الغرفة وأغلقوها. أعاد بروفيسور جابريل إغلاقها بإحكام باستخدام دائرة خيميائية تتفاعل مع أي حضور لحم بشري يقترب من الحجرة. ثم تركاها وخرجوا لبيحثا عن عضو الهلال الأسود، والذي بدوره عرف بوجودهم وهو الآن يستعد للهرب. لم يكن الوقت المناسب ليوواجه أحداً وهو لا يعرف من يواجه. لم يكن يتوقع أن يوجد شخص مثل جوهان في بالينفورد، وهو ما لم يحسب له حساباً في خطته. شرع عضو العصابة المتخفي في الخروج من القصر عندما انتبه إلى جوليارد وبروفيسور جابريل في طريقهما إليه. غيّر وجهته وغادر مسرعاً. تمكّن من الهرب ومغادرة القصر قبل أن يلحقا به.

سمع جوليارد وبروفيسور جابريل أصواتاً في الخارج. خرجا ليستطلعا ما يجري، فوجدا افراد قد جمدوا في أماكنهم، مأخوذون بما يجري.

كان هناك إحساس رهيب يحيط بالينفورد. ركض بروفيسور جابرييل وجوليارد تجاه الناس وأخذوا يفحصونهم. تعلق وجوه الناس نظرة وجوم، ثم تتحول لعاطفة جياشة ويبدأون بالبكاء. لم يفهم جوليارد وروفيسور جابرييل ما يجري. ثم أشار جوليارد إلى بروفيسور جابرييل أن ينظر للسما، فإذا بالسما تمطر.

شعر بروفيسور جابرييل بالخوف. لم يكن يعرف ما يجري، وقد كان ما يجري إحدى الأمور النادرة التي لم يجد لها تفسيراً، وهو حدث ستسطره كتب التاريخ إلى الأبد كعلامة فارقة في تاريخ بالينفورد الأسطوري.

فقد كانت السماء تمطر رماداً!

أخذت كل قطعة من الرماد تلمس فرداً في بالينفورد، ليقف ذاهلاً لوهلة قبل أن يشرع في البكاء.

بضع دقائق من قلب جوليارد وروفيسور جابرييل كانت كافية ليفهم ما يجري، فقد وقعا أيضاً تحت تأثير ما يحدث.

وكان ما يحدث هو من فعل جوهان، أو الأثر الجلي لما قام به جوهان. فقد كان جوهان المسبب لمطر الرماد الآخذ في التساقط ذلك. أخذ جوهان يقتل ويقطع الجميع. أخذت ضرباته تنتشر يمنية ويسرة، قاطعة عدداً لا يحصى من الأرواح، محولة إياهم إلى رماد أخذ في التساقط من السماء إلى بالينفورد.

استمر جوهان في هذا طول الوقت. استغرق منه الأمر قدراً كبيراً من القوة. قتلهم جميعاً. بدأ الجمع يركضون نحوه ليسارعوا إلى موتهم. كان جوهان هو تجسيد الموت بالنسبة إليهم.

كان جوهان يقترب من ذلك البيت. ألبرت وجوزفين معاً في البيت. اقتربت النهاية. كان ألبرت يعاني جوزفين بحرارة. كانت جوزفين غارقة في حنانه الذي حُرمت منه طوال حياتها. أفلتها من يده ونظر لعينيها.

"لا بد لهذا أن يحدث."

أجابته بكل ثقة. "سأراك لاحقاً".

"سأبحث عنك".

نظرت جوزفين إلى الخارج. رأت جوهان وهو ينهي معاناة أهل نينورتا. رأت طفلها وهو يصارع مرغماً لينهي هذه المهزلة. هذه المأساة التي امتدت لعقود من الزمن. رأت أنه من الأفضل لها أن تمضي. عليها أن تخفف عن فلذة كبدها ما يعانیه.

"انتظري. عليّ أن أخرج أولاً. امنحيني تلك الفرصة. لن أحتمل أن أراك تموتين مرة أخرى." رأت اليأس في عينيه. كان يرجوها بما تبقى له من أمل. أو مات له وقد حبست دموعها في عينيه.

خرج ألبرت وسار ناحية جوهان. بدأ عدد الأرواح في نينورتا ينخفض بشكل كبير. تبقى العشرات أمامه. جمد جوهان في مكانه عندما رأى ألبرت. أن يقتل جوهان من لا يعرفهم ليخلصهم مما هم فيه أهون عليه من أن يوجّه طعنة لمن يعرفه ويشعر بألمه.

توجّه ألبرت نحوه بابتسامة على وجهه. "هيا، تقدم." فتح ألبرت ذراعيه له.

نظر له جوهان وهو يلهث من فرط التعب. "لكنك لم تمت."

"لا جدوى من النقاش. لقد مات جسدي وانتهى الأمر."

"أهذا ما تريد؟"

أوماً له ألبرت وعينه محتقنة بالدموع. خطا جوهان نحوه ووضع نصل السيف على رأس ألبرت. تلاشى ألبرت ببطء وهو يقول. "لا تردد يا جوهان، هذا هو الحل الوحيد."

تلاشى ألبرت لتظهر من خلفه جوزفين. تفاجأ جوهان لمراها. عاد الطفل ذا الثلاث سنوات الذي لا يعرف أحداً في العالم سوى أبيلارد وجوزفين. اقتربت منه وابتسامة تعلو محياها. أسقط جوهان سيفه وجرى إليها. عانقته بقوة. لم يتمالك نفسه. يكاد يصاب بالجنون. كان لا بد له من القيام بذلك، لكن جسده لا يطاوعه. هنا كان على جوزفين أن تتصرف.

"لا تزال صغيري."

تابع جوهان بكائه بصمت.

"هيا، لا تخف. الذنب ليس بذنبك. أنا متُ وانتهى الأمر."

لا يزال يبكي.

"هيا، ألن تودّعني؟"

رفع جوهان عينيه إليها. "أردت أن أعيدك."

"جوهان، عزيزي. لقد أخبرني ألبرت بكل شيء. لا يمكن لأحد أن يعود من الموت. هذا

محال."

"لكن--"

وضعت اصبعها على فمه لتسكته.

"لا تحاول. عليك أن تمضي في الحياة بدوني."

"لا أريد."

مسحت دموعه بيدها. "ستحملني في قلبك، اليس كذلك؟"

تمسك بها أكثر.

"هيا، عدني."

تمالك نفسه وشحذ قوته. "أعدك."

تركته وابتعدت عنه. شعر جوهان بخواء حقيق. انزعجت منه جوزفين بقسوة وحدها الحياة

تقدر عليها. فتحت ذراعها له. كان يعرف ما تريد. استجمع شجاعته والتقط سيفه من جديد.

أمسك السيف بكلتا يديه. كانت يدها ترتجف. لم تكن خطواته ثابتة.

"هيا، لا تخف. لا أزال أحبك."

استمرت دموعه تبلبل سيفه الذي أخذ يرتجف مع ارتجاف يديه. توقف في مكانه. نادته جوزفين بكل حنانها.

"جوهان، أنقذني." ركض جوهان ناحيتها بكل قوته واستعدت جوزفين لتلقيه. نظر إلى صدرها حيث انغرس سيفه فيها. عانقته وطبعت قبلة على جبينه. نظر في عينيها غير مصدق لما فعله.

"أحسنّت صنعاً. أنقذتني في الوقت المناسب. لا تعرف كم أنا سعيدة."

ثم بدأت في التلاشي إلى رماد وسقطت مع الباقيين.

صرخ جوهان. صرح بقوة اهتزت معها أركان نينورتا. صرخ وقد سُمع صراخه في بالينفورد وكأنه وحش هادر. شرع جوهان يقتل ويحرق بقية أهل نينورتا المحبوسين فيها بتعويذة حصرها أكثر من كرهه جوهان في الحياة. الهلال الأسود. أقسم في نفسه أنه لن يموت قبل أن ينتقم.

في الأسفل جمد بروفيسور جابريل في مكانه. رآها. ابنته. لوتس. كانت ابنته لوتس التي ماتت عن عمر عشرين عاماً تقف أمامه. لم يتمالك نفسه ونزلت دموعه.

بادرته لوتس. "يبدو أنك كبرت كثيراً يا أبي."

"كيف يحدث هذا؟" لم ير أحد من قبل بروفيسور جابريل بهذا الضعف.

"هذا بفضل جوهان. لقد حررنا. هذه فرصتي لأراك مرة أخرى. أراك عجوزاً الآن. ماذا عن أمي؟"

قال بطمئنتها. "إنها بخير."

"من الجيد أنني وجدتك، لو رأيتني أمي لما تماكنت نفسها."

"هل أنت بخير؟"

"أخبرتك، لقد حررنا جوهان. والآن أنا بخير. لا يمكنني البقاء طويلاً. أتيت لأخبرك أنني أحبك. لا تقلق فأنا سعيدة بما أنا عليه."

بدأت لوتس في التلاشي.

تلثم بروفيسور جابريل في الكلام من فرط لهفته. "ا-انتظري."

"أوصل محبتي لأمي. وداعاً."

ركض بروفيسور جابريل ناحيتها ليحتضنها ولم يجد سوى الهواء. تلاشت لوتس من أمامه وغادرت الحياة للأبد.

أما جوليارد فسقط على ركبته. اقتربت منه جوزفين ببسمتها المعتادة. جثت على ركبتيها أمامه ونظرت في عينيه.

"ألا تزال تحبني؟"

لم يتمكن من الإجابة.

"أنا لا أزال أحبك. لا تقلق، فالذنب ليس بذنبك. هذا جزء ما اقترفت يداي."

سارع يدافع عنها أمام نفسها. "لم تفعلي شيئاً."

"لا بل أنت من لم تفعل شيئاً. هيا عليك أن تمضي بحياتك. هل تزوجت ليدياً؟"

"ليس بعد."

"إذن عليك بها. لا تقلق فأنا فرحة بكما. لا تبكيها وإلا غضبتُ عليك."

"سامحيني."

"قلت لك أسامحك. الذنب ليس ذنبك. أنت أنبل من عرفت في حياتي يا جوليارد. الآن عدني

أنك ستعيش حياتك كما يجب. هيا."

"أعدك."

"الآن يمكنني المغادرة."

طعنه كلامها كنصل بارد. "إلى أين؟"

"لا يمكنني البقاء هنا. ثق بأني أحبك. لا تزال أنبل من عرفت. الوداع."

حاول الإمساك بها لكنها تلاشت. صرخ هو الآخر بكل قوته قبل أن تحيطه ليديا بذراعيها من خلفه. لقد حصلت ليديا على حصّتها من الألم فلم تحتمل أن تفقده هو الآخر.

من حولهم تناثرت عبارات وسط الدموع. كل من له فقيده رآه. استمرّ مطر الرماد في التساقط واستمرّت اللقاءات الأخيرة. فرصة واحدة. كل كلمة تُقال تحمل معاني تسع الأرض وما عليها. حتى ببساطتها.

"لقد كبرت كثيراً." "هل تزوجت؟"

"انظر إلى شعرك!"

"اشتقت لك." "أحبك"

"افتقدك."

"لا تنسني."

"لا أزال هنا."

"أصبح عندك أبناء!" "لقد أصبحت خيمياً!"

"سأحني، لقد كنت شقياً!"

"لا تتركني!" "أنا بخير."

"الوداع!"

تبادل كل من له فقيده عبارات مع من فقده. وانتهى بهم الحال بالمغادرة. اللقاء الأول والآخر. وهكذا، بقي المطر الرمادي يتساقط إلى أن حلّ الليل.

انتهى جوهان من مهمته ودّمّر نينورتا عندما غرس السيف بأرضها وشقها إلى نصفين.

سحب السيف طاقة نينورتا كاملة وأبطل التعويذة. خارت قوى جوهان. ظهر البوم من بعيد وحمل جوهان وطار به. خرج البوم من نينورتا حاملاً جوهان عبر سماء بالينفورد المظلمة بعيداً. بعيداً عن الألم، بعيداً عن بالينفورد، إلى وجهة هو وحده يعلمها.

ما رأته سنثيا

جَنَّ الليل على بالينفوردي مصطحباً معه صمناً يَنْبئ بالجنون، فتساقطت معه قطرات من المطر البارد لتغسل عنهم معاناة ما جرى. لم يكن هذا يوماً عادياً في حياة بالينفوردي. كان يوماً لم ولن يتكرر في التاريخ. تاريخ غير محكيّ. تاريخ قرّر أهل بالينفوردي الاحتفاظ به في الصدور وعدم روايته لأحد، من شدة عبثيته.

عاد الجميع إلى منازلهم. عاد بروفيسور جابريل إلى زوجته وأوصل الرسالة التي حملها من لوتس. وجد أنها كانت نائمة، وقد أنتها لوتس في الحلم. سألتها إن كان حلم بها هو أيضاً، فقرر أن يدع الأمور كما هي وألا يخبرها الحقيقة.

اصطحبت ليديا جولياردي إلى منزله دون أن تنبس ببنت شفه. أودعته سريره وهي تربت عليه وتمسّد شعره. لم تفارقه لحظة واحدة وقد أصبح كل دنياها. هناك لحظة في حياة كل منا يدرك فيها أهمّ ما في الحياة، وما هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنه العيش بدونه، وتجربة ذلك اليوم أكّدت لليديا ما يعنيه لها جولياردي. تلك الليلة، كانت الليلة الوحيدة التي نام فيها جولياردي. لقد نام بحق، تحت جناح جوزفين. لقد زارته مرة أخرى. بكى بصمت. غسل بكاءه ما بقي في قلبه من ذنب.

استمرّ المطر الذي كان مُرحّباً به من قبل الجميع ليغسل بالينفوردي من جديد. في الليل غادر جولياردي بيته إلى القصر الملكي. وجد بعض الخدم فيه مغشيّ عليهم. عرف أن ما جرى معهم جرّاء تلك الواقعة التي لم يحتملوا وطأتها عليهم. مضى بروفيسور جابريل في طريقه عازماً على التخلص مما عثر عليه. وجد بروفيسور جابريل الحجرة التي تحتوي على الدائرة الخيمائية. أحضر بعضاً من الماء وسكبه على الدائرة الخيمائية التي كُتبت بالدماء. لم يهأله بال قبل أن أتى عليها كلها ولم يُبق لها أثر.

جال في القصر ووصل إلى حجرة فاليريا. تأكد من أنها لا تزال نائمة قبل أن يخرج ليطمئن على الملك. وجده فاقداً الوعي ولكنه لا يزال حياً. ثم عاد بروفيسور جابريل إلى الأكاديمية مشياً على الاقدام. سار بروفيسور جابريل نحو الأكاديمية في الطرقات الفارغة. بدا وكأنه حارس

الليل الذي عليه أن يحمي هذه المدينة. تذكر جابريل وهو في طريقه إلى الأكاديمية الوعد الذي قطعه لمعلمه دانيال. كان هذا هو الوعد الذي تسبب في بقاء بروفيسور جابريل في بالينفورد، كخط أمان لها، وهذا ما سيفعله. لم يكن وجود بروفيسور جابريل في بالينفورد محض صدفة. فقد استبقاه دانيال فيها بعد أن وعده أن يعلمه كل ما وصل إليه من معارف، والتي كانت كثيرة بحق. شعر بروفيسور جابريل أنه حان الوقت للسداد بدينة لمعلمه دانيال. أخذ على نفسه عهداً بالآلات يرتاح أو يذوق طعم النوم، إلى أن يستيقظ أهل بالينفورد في اليوم التالي وتعود الحياة لطبيعتها. عاد بروفيسور جابريل إلى أكاديمية بالينفورد ومشى فيها يتفحصها. الجميع نام على صوت المطر. فقدوا القدرة على المتابعة فارتاحوا في ثنایا النوم إلى أن يستعيدوا القدرة على الحياة من جديد. لكن البروفيسور أبى. كان عليه أن يبقى يقظاً حتى يلتقي جوهان. أمل أن يكون جوهان قد التقى بعضو عصابة الهلال الأسود. أراد بروفيسور جابريل أي معلومة قد يكون حصل عليها جوهان من أجل الوصول إلى العصابة ومواجهتها.

بقي بروفيسور جابريل ينتظر ويتنظر، إلى أن حلّ الفجر. ولم يأت جوهان بعد.

في تلك الليلة، حمل البوم جوهان بعيداً عن بالينفورد. كان هذا الطائر يحمل في ثنایاه من الحكمة السوداء الشيء الكثير. لم يكن الطريق إلى الحكمة مخفوفاً بشيء سوى الظلام، وكأنك تتخلى عن الكثير في سبيل الوصول إليه. والقرار الذي اتخذه البوم كان قراراً حكيماً، على الأقل في نظر جوهان. لقد خارت قوى جوهان وكان بالكاد يستطيع أن يتحرك. هبط به البوم في طريق يشقّ غابة إلى نصفين بالقرب من نار اشعلها أحدهم للتخيم. اقترب منهم جوهان بكل ما لديه من قوة ضئيلة حملت جسده لا أكثر. كاد جوهان أن يفقد وعيه. سمع الرجال صوت شيء يقترب منهم فوقفوا متحفظين. ابتعدت النساء وتجمعن ينظرن في ترقّب لهذا الغريب الذي أخذ يقترب. ومن خلف إحدى الشجرات ظهر جسد فتى مغطى بعباءة سوداء وقلنسوة. حاول هذا الفتى الاقتراب ولكنه سقط قبل أن يصل إليهم من فرط الإعياء. اقترب منه أحد الرجال ليتفحصه وشهق عندما ميّز من يكون هذا الفتى. ترك الفتى في مكانه وركض ناحية خيمة النساء.

خرج من بينهن وهو يجر خلفه ناردين! اقتربت ناردين من الفتى بحذر تخلت عنه في اللحظة التي ميّزت فيها جوهان، فلذة كبدها. انقضت عليه تحضنه وتفتحه. لقد كان ذابلاً. فتح

جوهان عينيه وهو في حضن ناردین، نظر لوجهها الذي بالكاد ميزه ونطق بصوت لم يسمعه أحد سوى ناردین.

"أريد حلياً."

وفقد جوهان وعيه بين يديها بعد أن اطمأن أنه في أيدٍ آمنة. ومن أأمن من ناردین عليه الآن؟ حمله جون وباتريك إلى داخل خيمة ناردین وسقيه بعض الماء. تركوه مع ناردین التي رفضت أن يعتني أحده غيرهما. تأملته وهو مستلق في حضنها. لقد كبر. أصبح رجلاً يُعتمد عليه. دارت في بالها العديد من الأسئلة حول ما جرى معه حتى أخذت تعاتب نفسها على ما تفكر فيه في الوقت الذي تكون فيه سلامة جوهان أهم ما يُفترض أن يشغل بالها.

استيقظ جوهان عند انبلاج الفجر. وجد نفسه في حضن ناردین وقد نامت بجانبه. بقي مستلقياً بين ذراعيها لا يأتي بأي حركة. لقد كان يفكر ويسترجع ما حصل معه.

هل رضيت عني جوزفين؟ هل انتهى كل شيء الآن؟ يا ترى هل ارتاحت؟ وما الذي سأقوله لجوليارد عندما أعود؟ هل سأخبره أنني فشلت، أم فقط أخبره الحقيقة؟ لا أعرف إن سيُسمح لي بالعودة حاملاً هذا الكم من الهراء غير العلمي؟ أم أن الخيمياء أبعد مما نعرفه نحن؟ هل البشر فعلاً قادرين على استخدام لغة الكلمات المحطمة إلى الآن أم أن هناك شيئاً آخر؟ هل أنسى كل هذا وأتابع رحلتي مع ناردین أم ماذا؟

بقيت الخواطر تتقاذفه يمنة ويسرة مع علمه يقيناً بما عليه أن يفعله. كان عليه أن يعود إلى بالينفورد ليتحقق بنفسه مما يفعله. عرف أن هناك من ينتظره. بروفيسور جابريل وجوليارد وجوانا. والأهم من هذا كله، كان عليه أن يراها. هناك الكثير مما عليه أن يتحدث معها عنه، لذلك وجب عليه أن يعود إليها.

وبالحديث عنها، فقد كانت شاهدة على ما يجري. في تلك الليلة ومع اختراق جوهان لتعويذة عضو عصابة الهلال الأسود، كانت سثيا تقف على قمة أعلى قبة في أكاديمية بالينفورد، كانت تراقب بصمت. كانت سثيا تراقب كل ما يجري بهدوء غير مسبوق. كانت تعرف أن شيئاً كهذا سيحصل، وكان لا بد لها من أن ترى كل شيء.

بكت لما سمعت الأرواح تتعذب، بكت لها عندما خلّصها جوهان مما هي فيه. رأت مطر الرماذ يتساقط على بالينفور. رأت كل من في المدينة يتحدث ويخاطب من فقده. رأت كل شيء. رأت معه شيئاً آخر. كان هذا الشيء عهدتها، سرّها الذي لا بد لها بالبح به.

بقيت سنثيا ترأقب بالينفور وتحتفظ في ذاكرتها بكل ما جرى. بعد أن انتهت من المراقبة، رأت المطر يتساقط ليغسل بالينفور. بدأت سنثيا في الغناء. اغمضت عينيها وحملت قطرات المطر أغنيته التي انتشرت مع المطر. كان غناؤها يهدئ القلوب ويداعب المشاعر. هدأ على أثرها أهل بالينفور وقد انتشرت السكينة من بينهم. لم يسمع أحد غناها الذي اختلط بقطرات المطر. لكن تأثيره وصلهم جميعاً. وهكذا حمت سنثيا بالينفور من الجنون. فقد كان النعاس الوافي ضد التفكير، لهذا لم يفكر أهل بالينفور بما جرى معهم وخلدوا إلى النوم الذي استقبلهم بكل ترحاب. سنثيا والنوم والليل وبروفيسور جابريل حرسوا بالينفور إلى حين عودة جوهان.

عندما بان الخيط الأبيض من الفجر، اختفت سنثيا، معلنة أن دورها قد انتهى وأنها ستعود إلى مكانها الطبيعي. وقتها استيقظ جوهان وأتته خواطره. عندما شقت أشعة الشمس طريقها بين الغيوم استيقظت ناردين. تأكدت من أن جوهان لا يزال بين ذراعيها. وجدته ينتظرها أن تستيقظ. ذلك اليوم لم يسأل أحد جوهان عما حصل معه. تعاملوا معه كفرد منهم وكأنه كان في رحلة وقد انضم إليهم من جديد. أراح هذا التصرف جوهان من عناء تذكّر ما مرّ به أو سرده على مسامع أحدهم، فهذا آخر ما قد يفعله في الوقت الحالي. أصرت ناردين على أن يبقى جوهان بينهم إلى أن يسترد عافيته.

لم يخبر جوهان ناردين بشيء. أرادها هكذا، لا تعرف شيئاً. لم يرد أن ير أي تعبير على وجهها غير ما عهده منها. كانت لطيفة وحانية كأم. استرجعا الذكريات التي أمضوها سوياً. أرته ناردين الرسائل التي بعثها لها وعاتبته عن انقطاعه عن مراسلتها لفترة طويلة. وعدها بأنه سيعود لمراسلتها مرة أخرى.

في الليلة الثالثة عرف جوهان أن عليه الرحيل، فقد جائه اليوم. كان اليوم في انتظاره على غصن شجرة قريبة ينتظر من جوهان أن يقرر الرحيل. كان اليوم في انتظار قرار جوهان التالي،

لا أن يجبره على شيء، لكن جوهان عرف ما عليه أن يفعله. ودّع جوهان ناردين وبقية الغجر ورحل مع اليوم.

أمضى بروفيسور جابريل الليالي الثلاث دون نوم. كان في انتظار جوهان. لكن فجأة هاجمه نعاس أشدّ من قدرة تحمّله ليرديه نائماً على منضدته ورأسه مستند على يديه. استيقظ عصر ذلك اليوم ليجد الحياة وقد عادت إلى بالينفورد كما كانت. فقد قرّر جميع من في المدينة أن يحتفظوا بما عاشوه كذكرى أليمة أو سعيدة، لا فرق، المهم أنها ذكرى خاصة بكل واحد منهم، شاكرين الأسياد أياً من كان منهم من اعطاهم تلك الفرصة ولو ليوم واحد.

غسل بروفيسور جابريل وجهه وتوجّه إلى حجرة جوهان، ليجد هذا الأخير جالساً في حجرته ينتظر حضوره. لم يتفاجأ جولبارد عندما وجد جوهان في انتظاره، بل كان ممتناً لوجوده. بادره جوهان قائلاً: "يبدو أننا نجونا."

جلس بروفيسور جابريل مقابله. "يبدو ذلك. لقد أتلّفت الدائرة الخيميائية. لن يتمكن عضو الهلال الأسود من أن يعيد الكرة. لكننا لم نتوصل إليه."

"أعرف ذلك. لم تكونوا لتتمكنوا منه إن وصلتم إليه."

هز بروفيسور جابريل رأسه وكأنه اعترف بالحقيقة.

"لكننا لا نعرف شيئاً عنه بعد."

"بلى، أنا عرفت عنه."

اتسعت عينا بروفيسور جابريل من المفاجأة.

"أخبرني إذن؟"

"بشرة شاحبة شديدة البياض مع عينين سود كالفحم. يبدو وكأن الموت يرافقه أينما حلّ. علامته هي النار الزرقاء. معطفه ازرق اللون مع هلال أسود على طول معطفه."

"نار زرقاء. هذا يذكرني بأحد الأساطير عن مخلوقات غريبة."

همّ جوهان أن يخبره أنها ليست مخلوقات غريبة إلا في أساطيرهم، لكنه قرّر أنه من الأفضل ألا يقول شيئاً عن الأمر.

"سندرسهم لاحقاً."

"هذا يعني أنك ستبقى هنا؟"

"أظن أن عليّ ما يجب أن أفعله هنا."

"أخبرني أولاً. ما الذي جرى؟"

"لقد حبست التعويذة أرواح من ماتوا ظلاً. هكذا تعمل التعويذة. يحوم المكان إحساس بالقهر والغضب وشعور بالظلم كاف لإيقاد التعويذة وتفعيلها. تمتص التعويذة الروح وتضمّنها إلى مجموعة من الأرواح التي احتفظ بها عضو الهلال الأسود بهذه الطريقة."

"وماذا كان الحلّ؟"

"اضطرت لدخول التعويذة وتحريرهم منها. أصبتهم باستخدام سيف خاص. قتلتهم هناك لأحرّره من التعويذة."

"لهذا سقطوا هنا."

استرعى انتباه جوهان ما قاله بروفيسور جابرييل. "عفواً؟"

"الأرواح التي حررتها، لقد تساقطت على بالينفورد. كل من كان له فقيده رأى فقيده وتحدّث معه قبل أن يستحيل رماداً ويندثر. أي أنك هنا منحت كل فرد في بالينفورد الفرصة للقاء أخير مع أناس فقدتهم. هكذا تمكنا من تبادل عبارات أخيرة معهم. قالوا الكلام الذي ندموا على إخفائه طول حياتهم. لهذا اشكرك."

"لا أعتقد أن هناك غيرك من يعرف أفي وراء ذلك."

"لهذا أشكرك. لن يعترف أحد بك أو أن لديك يدأ فيها حصل. لذلك لن يشكرك أحد منهم. من واجبي أن اشكرك، فقد جعلتني ألتقي بابنتي."

"قد أكون هكذا سدّدت الدين. لقد وثقت بي وتركتني أمضي في سبيلي وها قد رددت لك الدين."

"لا. لقد قمت بها هو أكبر من ذلك. أنا وثقت بك إلى حدّ ما، لكنني حاولت قتلك."

"استخدمتَ دمائي ولم تُفلح."

"أجل."

"لا مشكلة. فالآن تجري في عروقي دماء أخرى."

"أي أنك حرّ طليق."

"أجل. لكن أخبرني. هل التقى جوليارد بجوزفين؟"

"عليك أن تسأله بنفسك."

"وهذا ما سأفعله."

همّ جوهان بالوقوف لكن ما قاله بروفيسور جابرييل استوقفه.

"جوهان. أنا أشكرك بصدق على ما قمت به من أجل بالينفورد، على الرغم من أنها ليست وطنك. إياك أن تُخبر قصتك لأحد، أعرف أن في هذا ظلمٌ لك، لكن ما حصل معك يفوق الخيال، هذا على حدّ فهم الشعب. دع كل منهم يحتفظ بهذا السر في قلبه دون معرفة السبب. دعهم في جهلهم. ستكون أميراً متسيّاً غير مذكور في كتب التاريخ كأحد الخيميائيين العظام، لكن أرجو ألا يكون هدفك هو هذا."

تدبّر جوهان كلامه. "ليس هدفي أن يعرفني أحد أو أن يردّ ذكري في تاريخ بالينفورد أو في أغاني الشعراء البطولية. أتيت لأفعل ما أرسلني أيلارد لفعله، والذي يراودني إحساس بأنه لم ينته بعد. لدي شعور بأن هناك من يحتاجني هنا. ما دام أيلارد لم يأت لاصطحابي، فهذا يعني أن مهمتي لم تنتهِ."

عرف بروفيسور جابرييل أن ما يقوله جوهان هو الحقيقة. وعرف أيضاً أنه سيرحل يوماً ما،

تاركاً بالينفورد في سلام.

غادر جوهان الأكاديمية متوجهاً إلى بيت جوليارد. طرق الباب وانتظر لوهلة إلى أن فُتح الباب. كان يظن أنه سيرى جوليارد لكنه تفاجأ بوجود ليديا أمام ناظره. صُغقت ليديا لمرآة. تراجعت خطوتين وافسحت المجال لجوهان بالدخول. أزال جوهان القلنسوة من على رأسه، تاركاً سيفه معلقاً على ظهره.

خرج جوليارد من غرفته ليستطلع الزائر عندما لم يسمع صوت ليديا. وجد جوهان ينظر إليه وقد تغير. شيء في جوهان نما عشر سنوات في الفترة التي غابها. غلبت على جوليارد مشاعر كثيرة، وأولها ارتباط جوهان بجوزفين. عرف أن جوهان أنهى مهمته. لقد كان جوهان صادقاً معه منذ البداية.

اقرب جوليارد من جوهان وعانقه.

"أشكرك."

"علام؟"

"على إنقاذك جوزفين."

"لقد أخلفت وعدي. لم أعدها."

أفلت جوليارد جوهان من ذراعيه. نظر في عينيه مباشرة. "اسمعني يا جوهان. لقد مررت بأهوال تكفيك، لا يمكنك أن تنتقد نفسك بعدما جرى معك. ما فعلته كان أكثر من كاف، لقد خلّصت جوزفين من برائن ذلك الحقير الذي سلبها حريتها، ولو كان باستطاعتك أن تعيدها للحياة لما توانيت عن ذلك. هذا وحده يكفي. لا تسير الأمور دائماً كما نريد. هناك حد لما نستطيع أن نفعله."

لم يجبه جوهان.

"أشكرك على ما فعلته، فقد ألتحت لي فرصة مقابلة أختي مرة أخرى. لقد أخبرتني بكل ما

تريده. لقد كنتَ محققاً. جوزفين كانت هناك. كانت تنتظرك أنت لا أنا. لقد حررتَ جوزفين وهي بدورها حررتني أنا ايضاً."

"لكنها رحلت."

ابتسم له جوليارد بآلم يختلط بحكمة. وهو ما صدم جوهان.

"هذه هي الحياة. لقد رحلت وهي مطمئنة. لقد وعدتها ولا أريد أن أخلف وعدي معها مجدداً. وأنت من منحتني الفرصة لأقطع لها هذا الوعد. دعنا نمضي في حياتنا كما يجب. هذا ما تريده جوزفين. كانت هذه هي أميتها الأخيرة."

أميتها الأخيرة كانت أن يعيشا كما يجب. لكن جوهان كان يعرف أن الأمور لم تتوقف هنا. كان هذا نهاية حكاية جوليارد معه، لكن هناك خيوط أخرى على جوهان أن يجمعها وينتهي منها إلى أن يأتيه أبيلارد. هذا ما كان واثقاً من حدوثه، على الرغم من أنه لم يدر لا الزمان ولا المكان الذي سيلتقي فيه بأبيلارد، لكنه كان واثقاً من قدومه، وما عليه إلا أن يقوم بدوره لكي يلقي أبيلارد وهو مستعد لما هو آتٍ.

عانقت ليديا جوهان من الخلف. شكرته على الفرصة الثمينة التي أعطاها إياها لتقابل أخيها الصغير الذي مات عن عمر يناهز السبع سنوات. كان جوهان ممتناً لهم. شعر بأنه فشل في مسعاه وخيب آمالهم. لم يكن يعرف أن ما فعله كان أعظم هدية حصلوا عليها في حياتهم. أثار هذا في قلبه سكينه لم يشعر بمثلها من قبل.

شكرهم جوهان على ما قالاه وغادر المكان. توجه عائداً إلى أكاديمية بالينفورد. هناك حيث تقبع الكثير من الأسرار.

لقد قوبل جوهان بالحب والامتنان، وهو الأمر الوحيد الذي أثبت له أن ما قام به هو الصواب. بقيت هذه الأفكار في قلبه تخفف عنه وطأة ما حصل معه. لقد اقترفت يده الكثير من المستحيلات في عالم البشر، لا في عالمه هو، وهو كان مستعداً للتضحية بنفسه لذلك. كان يعرف أنه لن يرى جوزفين بعد اليوم، لكنه كان راضياً. كان يعرف أنها راضية عنه، مما خفف عنه ألم

الفراق. لقد عاشت في قلبه وستبقى هناك إلى الأبد، إلى أن يترمد الجسد.

تابع سيره في الأكاديمية إلى أن وصلها. عرف لوحده أنه هناك من ضوء القمر. رفع عينيه ونظر إلى القمر. كان القمر أجمل من ذي قبل. لم يتساءل جوهان من قبل عن قرب هذا القمر من بالينفورد، لكنه لم يُمنح الوقت الكافي لذلك. أشاح بنظره عن القمر ليجد سِنثيا ترأب القمر بابتسامة على وجهها. بقي جوهان يتأملها وهي تنظر للقمر. الطريقة التي تنظر فيها سِنثيا للقمر تشبه الطريقة التي ينظر فيها جوهان لجوزفين.

من أنت بالضبط؟ هل انت ابنة القمر؟ عشيقته؟ أمه؟ من يكون هذا القمر لك حتى تنظري إليه كل ليلة هكذا؟ أهذا ما تفعلينه كل ليلة؟ هل تعيشين لتتأمل القمر أم أن القمر يعتاش على نظراتك له؟ من الذي يخرج ليلاً من أجل الآخر؟ أم هل أنكما تتفنان؟

لم تمهله سِنثيا فرصة أخرى. التفتت إليه وقالت.

"أوقفها هنا."

ارتبك جوهان. "ماذا تقصدين؟"

"سلسلة افكارك. عليك أن توقفها."

"لماذا؟"

"لأنها ستقودك إلى ما لا تُحمد عقباه. لقد فعلت الكثير، ولا يزال هناك الكثير لتفعله. لذلك لا تُضف لقائمتك المزيد."

"ما الذي بقي عليّ أن أفعله؟"

عادت سِنثيا تنظر للقمر وبدأت تتحدث. بدا لجوهان أن الكلمات تخرج من تلقاء نفسها عن طريق سِنثيا بلا حول منها ولا قوة.

"ستتجه الدماء شمالاً. ثلاث نبوءات ستنتهي مع دورة القمر المكتملة. سينهار التقويم وتحلّ محلّه اللعنة الزمنية. وقتها سيخرج المنتظر. سيختلط الزمان والمكان في المخطوطات قبل أن تعود

الأمر لنصاها. يلج المنتظر ثلاث ظلمات ليخرج منها منتصراً. لا يمكن لأحدهما النجاة طالما الآخر على قيد الحياة. سيلتئم شتات الدماء المشرّدة ويُعاد كتابة التاريخ من جديد."

إلى هنا توقفت سنثيا. بقيت تحدّق في القمر. كانت سنثيا تبكي. وكان جوهان يبكي. لم يعرف لماذا، لكن الدموع تساقطت من عينيه. شعر بأنه يعرف هذه النبوءة. شعر بأنه قرأها في يوم ما. وعرف أيضاً أنه لن يعرف تفسيرها أبداً، بل سيعيشه.

"لماذا الشمال؟"

"التفتت إليه سنثيا. "لأن الشمال سيناديك، ولا يمكنك أن ترفض."

"هل سأجد ما أبحث عنه هناك؟"

"ستجد أرواحاً مفقودة. عليك أن تعيدها سيرتها الأولى."

"وماذا لي؟"

"لك الألم رفيقاً إلى أن تعود. عليك أن تعود يوماً ما."

بدا على جوهان أنه كبير سنين طويلة. "وماذا الآن؟"

"الآن عليّ أن أخبرك ما رأيت، فقد يدلك هذا على ما ستفعله في الأيام القادمة."

"وما الذي رأيته؟"

"رأيت كل شيء. رأيت عضو الهلال الأسود يضع التعويذة. رأيته تعمل. رأيت كل شيء."

لقد عادت الأمور إلى نصابها، لذلك نزل مطر الرماد ذلك."

"ما الذي حصل ذلك اليوم؟"

قامت سنثيا من مكانها وتوجهت إلى جوهان. اقتربت منه للقدر الكافي لتضع جبهتها على جبهته. أغلق عينيه وانتظر. لم يشعر بشيء. إحساس بالبرود انتاب جبينه حيث وضعت هي جبينها، لكن لا شيء آخر. هنا أغلقت سنثيا عينيهما وشرعت الرؤيا. تشاركت سنثيا مع جوهان

ما شاهدته. الآن ينظر جوهان من عيني سِثيا وكأنه داخل جسدها. رأى مطر الرماد يتساقط على بالينفور. رأى أفراداً يتحدثون مع من فقدوهم وهم يبكون. شعر بها لم يشعر به أحد منهم. أنه هو السبب في كل هذا. رأى كل شيء إلى أن استرعي انتباهه ما رأيته سِثيا. رأى جوهان الرجل الفارّ من بالينفور وقد ابتعد بعد أن افْتُضح أمره. رأى رجلاً يحوم الموت حوله ولا أرواح اقتربت منه. لكن ما رآه جوهان بعدها هو ما أرادت سِثيا منه أن يراه.

لقد رأى جوانا. تذكر جوهان جوانا وما جرى لها. عضّ شفتيه من الغيظ لما تذكر عجزه عن مساعدتها ومعرفة مُصاها. لكنه نسي كل ما هو فيه عندما أدرك ما كان يراه. كانت تحيط بجوانا ثلاث دُمى خشبية تحيط بهنّ هالة خضراء. كانت الدمى متصلة بجوانا بخيط من لُهب أخضر. عرف وقتها أن هناك تعويذة تحيط بجوانا، لكن ما أثار حيرته أيضاً هو أمر آخر. جوانا كانت في بالينفور وقت تساقط مطر الرماد، لكن لم يكن هناك من يقف بالقرب منها.

لم يسقط أي من مطر الرماد بالقرب من جوانا!

ومع ذلك كانت جوانا شاردة البال وكأنها في ملكوت خاصّ بها.

كانت هذه هي الحقيقة الصادمة التي تحتاج إلى تفسير. جوانا ابنة بالينفور وإحدى الخيميائيات اللواتي يتدرّبن في أكاديمية بالينفور. لكن لا يوجد لها أموات في بالينفور!

ألم يكن لها علاقة بأي روح من آلاف الأرواح التي سقطت رماداً من حولها؟

تذكّر جوهان أن بروفيسور جابرييل قد وضع جوانا تحت رقابة جوليراد، وأن هناك أسراراً تتعلّق بجوانا تحتاج إلى كشف، لكنه لم يكن يعرف أنّ الأمر وصل إلى هذا الحد!

إن الذي يحصل مع جوانا هو أخطر مما عرفه عنها، إن كان يعرف عنها شيئاً. هنا عرف جوهان أن هناك مأساة تنتظره لينهها. أظلمت الدنيا من حوله ليفتح عينيه وقد وجد نفسه حيث كان وسِثيا تنظر إلى القمر. نظر جوهان إلى القمر وقد أدرك شيئاً.

عرف أن طريقه لا يزال طويلاً، وأن المآسي التي عليه أن ينهيها لا يزلن يقفن أمامه في مسرح الحياة، يُجرّجن أُلستهن ويضحكن عليه في مهزلة هي الأولى في التاريخ. عرف جوهان أن المآسي

أخذت تضحك عليه وقد ارتدين أقنعة من معاناة وألم.

شعر بالمهزلة الكبرى تضحك في وجهه وكأنها تمكنت من خداعه. عرف بوجود أكبر وأخطر ينتظره. كان يشعر بكل هذا وأكثر. شعر بالألم يقف بجانبه وكأنه استحال درعاً له في مواجهة ما يحصل، فالألم صديق وفي لن يتخلّى عنه. تنامى هذا الإحساس في صدره عندما تذكر اليوم. لقد كان اليوم هناك، في الأعلى، مجوم حول القمر. الحكمة السوداء. هكذا إذن. لم يكن هناك مفر من مواجهة ما هو آت.

أخذ جوهان على نفسه عهداً أنه سيتنزع تلك الضحكات الخبيثة من وجوهان يوماً ما، وأن هذا اليوم ليس ببعيد.

لقاء لا بدّ منه

ها قد عدت إليّ. لقاءك بي حتمي بعد ما قرأته. أعرف أنك في أوج غضبك فالحكاية لم تنته بعد. أتقول كيف انتهت المخطوطة التي بين يديك ولم تنته الحكاية بعد؟ هذا واضح. عليك أن تسعى خلفها.

سحقاً لكم أيها الشعراء. دائماً ما تبحثون في القصص المحرّمة لتكتبوا قصائدكم عنها، تعتقدون أنكم أحستتم صنعاً مع أنكم فتحتم أبواباً طواها النسيان. هذه هي لعتكم، في كل واحد منكم شاعر ولهذا الشاعر القدر الكافي من الجنون والفخر ليصل إليّ، عدا عن قدرتك الخالصة لتصديق ما لا يُصدّق، حتى لو كان ما وقع تحت يدك يهدم ما تحمله بين ضلوعك من مسلمات! هل يُشعرك هذا بنشوة النصر عندما تحمل بين يديك ما يهز أركان العالم المعروف لدى البشر؟ إذن ما عليك سوى أن تبحث عن المخطوط الثاني.

هيا أيها الشاعر المسكين، الباحث في ثنايا الأساطير عن حقيقة لم يكن يُجدر بك أن تعرفها، ابحث عني، وستجديني في ثنايا المخطوطة التالية، أنتظرك في مدينة الملاعين.

إلى اللقاء في المجلد الثاني من ثلاثية أغنية الكلمات المحطّمة؛ مدينة الملاعين.